اللغة
بين القوميّة والعالميّة

تأليف

الدكتور إبراهيم أنيس



دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حين خطر لى منذ بضع سنوات أن أكتب فى موضوع دور اللغة على المستوى القومى والمستوى العالمى ، راعنى ذلك الخاطر ، وهالنى أمره ، وكدت أنصرف عنـــه .

فقد تبين لى وعورة الطريق إلى مثل هذا البحث ، وما قد يكتنفه من الحساسية لدى بعض الشعوب ، مع ما أخذت به نفسى من الحيدة والموضوعية فى كل ما أكتب . إذ يتطلب الموضوع دراسات فى السياسة الدولية وقوانينها ومعاهداتها واتفاقياتها ، وأخرى فى النظم الاجتماعية وتطوراتها . ويتطلب كذلك جولات فى تاريخ الأمم قديمه وحديثه . وغير ذلك من دراسات ليست من صميم تخصصى الذى يقتصر على اللغة وأصواتها وموسيقاها وصيغها وتراكيبها ودلالات ألفاظها .

ومع كل ما تقدم استخرت الله . وشرعت فى البحث ووجدتنى منذ البدء غارقاً فى خضم عشرات من المراجع الأجنبية . فلا أدرى بأيها آخذ ، وأيها أترك ، وكلها تعرض عرضاً سريعاً فى بعض فصولها لدور اللغة فى المجتمع الإنسانى .

ولعل من أهم ما حفزنى إلى تناول هذا الموضوع الذى تتصارع حوله الآراء ، أنى وجدت اللغويين العرب يقنعون ببحث اللغة من حيث كنهها وخصائصها وتطوراتها . بحثاً جذرياً متعمقاً لا يدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المسائل اللغوية إلا عرضوا لها بالتفصيل والإسهاب . ثم تبقى تلك الجهود مقصورة أو محصورة فى مجال ضيق من الدارسين المتخصصين فى اللغات بالكليات والمعاهد .

وتركوا دور اللغة فى الشعوب والأمم لأصحاب الدراسات الأخرى ، السياسية منها والاجتماعية ، بل الجغرافية أيضاً ، من أولئك الذين لمسوا الموضوع لمسا خفيفاً فى ثنايا كتبهم وبحوثهم ، اعتقاداً منهم فى غالب الظن أن اللغة ، بوصفها ظاهرة اجتماعية ، أمر مألوف معروف يجرى على كل لسان ، وليس له كل ذلك الأثر الذى نعتقد أنه يُعزى إلى اللغة وحدها .

فى حين أن اللغويين الغربيين قد أسهموا فى هذا المجال بجهود موفورة مشكورة ، وإن لم يكن لها صدى عملى كبير بين ساسة العالم حتى الآن . فأولئك الذين نادوا منذ نصف قرن بما أسموه حق تقرير المصير قد ضلوا الطريق فى الاهتداء إلى الأساس الحقيقى فى هذا الحق ، وتجاهلوه عن عمد حيناً ، وعن جهل بمدى أثره حيناً آخر . وتلمسوا فى تقرير مصائر الأمم أموراً طارئة أو وليدة المصادفة البحتة ، كالحدود الجغرافية مثلا تلك التى لم تعد فى العصر الحديث ذات بال فى التخطيط للشعوب .

وغفل هؤلاء الساسة ، أو كادوا ، عن مدى الأثر العميق للغة فى عقول الناس ونفوسهم ، وعن مدى استمساك الشعوب بلغاتهم ، واستعدادهم للتضحية فى سبيلها بالأنفس والأرواح . وكانت لذلك تلك المشاكل التى لا تنتهى بين شعوب الأرض ، والتى عرضنا لطرف منها فى هذا الكتاب تحت عنوان (فتش عن اللغة) .

باء ، إذن ، التخطيط للشعوب بالفشل الذريع فى إثر الحروب وبمقتضى تلك المعاهدات الدولية ، لأن النوايا لم تكن صادقة مخلصة لدى أولئك الذين قاموا به ، وعملوا له . فقد غلبت عليهم الأثرة ، وجنحوا إلى طموح دنيوى يتمثل فى توسيع مجال النفوذ الاستعمارى أو الاقتصادى على حساب بعض الشعوب الضعيفة المهيضة الجانب . فكانت بذلك تلك المآسى الدامية التى يشهدها العالم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وأما أثر اللغة فى النهوض بشعب ما ، فأمره أعظم وأخطر ، وإن لم يفطن إلى هذا بعض زعماء الشعوب وقادتها ، أو ربما فطنوا إليه فى حالات ، ثم

لم يولوه ما يستحق من عناية وتقدير ، لأن العمل له يتطلب جيلا أو جيلين ولا يؤتى ثماره خلال سنى حياتهم ، مهما امتد أجل سلطانهم وحكمهم . ولذلك يركزون عادة كل جهودهم على النفع العاجل ليجنى الشعب ثماره خلال فترة تاريخية وجيزة ، كمشروع عمرانى ، أو خطة تتحقق بعد خمس سنوات ، ونحو ذلك .

والإصلاح اللغوى هو أحد تلك الأهداف الآجلة التى لا يتوقع لها النجاح إلا مع التخطيط لأجيال قادمة ، ومع المتابعة والمثابرة ، وبذل الجهود مهما شقت . أو استفحل أمرها على أبناء هذه اللغة .

وليست تتم الوحدة السياسية ، وتستقيم النظم الاجتماعية فى شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة اللغوية التى تصبح للشعب بمثابة رباط سحرى يجذب أفراده بعضهم إلى بعض ، ويوثق الصلة بينهم ، فيفكرون فى عقل واحد ، ويشتركون فى مشاعر وأحاسيس موحدة ، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً ، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرخاء .

ولا تكون تلك الوحدة اللغوية إلا فى لغة مشتركة للشعب ، تنتظم الناس كافة ، ويتطلع كل منهم إلى إتقانها والسيطرة عليها ، نطقاً وأداء ، كما هو الشأن فى بعض الشعوب الحديثة الناهضة التى لكل منها لغة مشتركة تسود بها جنباً إلى جنب مع ما قد يكون لها من لهجات ، ولكنها تسمو على تلك اللهجات ، فلا تشوبها صبغة منها ، بل هى التى إذا تكلم بها المرء لا يكاد السامع يستشف من كلامه شيئاً عن بيئته المحلية .

وتقنع بعض الشعوب بأن تكون لغتها المشتركة فى صورة مكتوبة فحسب ، أو قد يهمل فى بعضها الآخر أمر الكلام لتتنازعه فى بيئاتها لهجات متباينة ، فلا يكون لدى الشعب ما يلم شتات أبنائه ، ويوحد بين صفوفهم . ولا يرجى للشعب مع مثل هذه الحال نهضة أو ازدهار .

فالعمل على نشأة اللغة المشتركة للشعب ، وتنميتها ، ونشرها فى كل الأوساط والبيئات خير ضمان لكل قومية ، وتماسكها وقوتها .

وقد أصبحنا بعد معاناة للغة سنين طويلة ، فى معظم صورها ، وكل ظواهرها نؤمن إيماناً قوياً بأنها أس الأساس فى كل قومية ، وأن ما عداها مما قد يسميه بعض الدارسين بمقومات للقومية ليس فى الحقيقة إلا أموراً عارضة تختلف باختلاف الشعوب فى كثير من الحالات . وينسب لها هؤلاء الدارسون أكثر من واقعها ؛ مع حسن النية من جانب بعضهم ، أو التزييف والتضليل من جانب البعض الآخر .

وإذا كانت القومية فى دلالتها المجردة هى تلك الرابطة الوثيقة التى تقوم بين جماعة من الناس ، وتجذب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم ، وتشعرهم بكيانهم وتميزهم عن غيرهم ، وتحفزهم إلى التعاون والتآزر على ما فيه خيرهم جميعاً ، فإن مثل هذه الحال قد تحققت فيما بدأت به الإنسانية مما يسمى بنظام الأسرة ، ثم تحققت فى النظام القبلى ، ثم تحققت فى القرية أو المدينة ، وأخيراً تحققت فى الدولة الحديثة ، وسميت حينئذ بالقومية .

وتتمثل هذه الرابطة مع كل الأنظمة السابقة فى اللغة أو الكلام الذى هو وسيلة التفاهم بين الناس ، يعبر عن رغباتهم وعواطفهم وخلجات نفوسهم وما يدور بخلدهم .

فاللغة هى القومية ، أو القومية هى اللغة ، بدأت فى المجتمع الإنسانى دائرة صغيرة فى صورة الأسرة ، ثم اتسعت فشملت القبيلة ، ثم زاد اتساعها فضمت القرية أو المدينة . . . وهكذا حتى تكون منها فى العصر الحديث ما يسمى باللغة المشتركة فى شعب من الشعوب . فاتساع رقعة اللغة عملية حتمية يؤكدها لنا ما نشهده الآن من سعة انتشار بعض اللغات حتى لتكاد تطبق بمعظم أنحاء العالم .

وليس ينقض من صحة هذا الرأى أو ينفيه ، تلك الأمثلة التاريخية التى فيها اندثرت بعض اللغات ، أو تفتتت إلى لهجات انعزل بعضها عن بعض ثم أصبحت لغات مستقلة ، بفعل ما يعرف بلعنة بابل .

فلم يعد في العصر الحديث مجال لانعزال الشعوب أو انطوائها على نفسها ولا لانعزال بيئات الشعب الواحد بعضها عن بعض . ذلك لأن أوضح ما يتسم به العصر الحديث شدة الاتصال وسرعته ، والحاجة الملحة إليه . وتزداد هذه الحاجة إلحاحاً كلما مرت السنون ، بل كلما مرت الأيام . أى أن المستقبل لتوحد اللهجات فى لغة مشتركة ، ولن يشهد العالم ثانية تفتت لغة مشتركة إلى لهجات محلية متباينة .

فمع نهضة الشعب ، وأخذه بأسباب المدنية الحديثة ، ودون تدخل من قوى استعمارية ، نتصور حتمية النشأة للغة المشتركة التى توحد بين أبناء هذا الشعب فى الأفكار والعواطف ، وتشعرهم بكيانهم المتميز .

غير أن هذه النتيجة الحتمية قد تستغرق أجيالا قبل تحققها ، ولذلك كان من واجب الزعماء والقادة العمل على الإسراع بها ، والتخطيط الدقيق للوصول إليها فى زمن أقل ، وتلك هى أجل خدمة يمكن أن يقدموها لشعوبهم .

ونتصور كذلك مع دعم اللغات المشتركة فى العالم ازدياداً فى سعة انتشار بعضها فوق ما لها الآن ، واندثار معظم اللهجات المحلية واللغات المغمورة الضئيلة الشأن .

فإذا شاء القدر أن يقتنع الإنسان بفكرة الحكومة العالمية التى تسوس الناس جميعاً ، فلن يكون ذلك إلا امتداداً لنظام الدولة ليصبح نظام العالم ، كما امتد النظام القبلى من قبل فأصبح نظام الدولة الحديثة .

وحينئذ يتحقق للبشرية ذلك الحلم السعيد بأن تصبح للإنسان لغة عالمية ، أو قومية إنسانية للناس كافة وفى جميع بقاع الأرض .

أما بعد : فقد أدليت بدلوى فى الدلاء ، وأسهمت بنصيب فى موضوع دور اللغة فى القومية والعالمية ، راجياً أن أكون قد بصّرت بخطورته وعظم شأنه .

وبالله التوفيق .

إبراهيم أنيس

الفصل الأول

اللغة

اللغة مع وضوح أمرها وجريانها على كل لسان ، وجد الدارسون فى تعريفها تعريفاً دقيقاً بعض المشقة والعنت ، وانقسموا بهذا الصدد إلى فرق وطوائف ؛ ولعل خير تعريف للغة كما نألفها الآن ، ذلك الذى ارتضاه وقبله معظم الدارسين ، وهو أن يقال : (إن اللغة نظام عرفى لرموز صوتية يستغلها الناس فى الاتصال بعضهم ببعض) .

ويتضمن هذا التعريف مع إيجازه أموراً أربعة يتناولها الدارس فى إفاضة وإسهاب ، ولكنا نؤثر هنا أن نتعرض لها فى رفق ، وأن نشير إلى مضمونها فى إيجاز .

أولا — النظام :

للغة نظام تخضع له ، وقواعد مقررة ؛ فليست فوضى ، وليست تتألف من أشياء لا رابط بينها . فلها نظام معين فى توزيع أصواتها ، ونماذج محددة فى بناء كلماتها وجملها . ولولا هذا النظام لما تحقق لها هدف ، ولما استحقت أن تكون مجالا لدراسة . وقد اتضح هذا النظام اللغوى حتى فى أكثر اللغات بدائية وفى البيئات التى لم يتح لها أى نصيب من الحضارة . وظهر هذا جلياً لبعض الرواد المغامرين من اللغويين الذين قضوا شطراً من حياتهم فى بعض جهات أفريقيا ، وحاولوا تقعيد القواعد لكلام الناس هناك ، فأذهلتهم تلك الدقة العجيبة فى نظام كلامهم ، والتماثل بين أفرادهم فى كيفية إصدار الأصوات وتكوين العبارات ، برغم أنهم لا يكادون يشعرون أو يدركون خصائص كلامهم ، وإنما يصدر كل هذا منهم فى شكل آلى دون عمد أو قصد أو تأنق ، وبرغم أن لغتهم لم تعرف التدوين أو الكتابة فى أية صورة من صورها .

ومع أن لكل لغة نظامها الخاص ، تبين للدارسين أن هناك وجوه شبه بين نظم اللغات فى العالم ، مصدرها الفطرة الإنسانية . فيحدثنا « چسبرسن » فى خاتمة كتابه « موقف الجنس البشرى ، والشعب ، والفرد من اللغة »[١] حديثاً ممتعاً نلخصه هنا بقدر ما يتسع المجال .

لما ظهر للمحدثين من اللغويين أن هناك عناصر مشتركة بين لغات البشر حاولوا تعليل هذه الظاهرة ، فمنهم من كان يؤمن بوحدة النشأة الإنسانية ، وأن الناس جميعاً أبناء آدم وحواء ، ولا غرابة لهذا أن يكونوا قد بدءوا الحياة فوق الأرض ولهم لغة واحدة ، وأن وجوه الشبه التى نلحظها الآن بين اللغات ليست إلا انحداراً عن تلك الوحدة اللغوية فى النشأة الأولى للإنسان . وأشهر أصحاب هذا الرأى فى العصر الحديث العالم الإيطالى « ترومبتى Trombetti » .

وليس من الضرورى فى تعليل تلك العناصر المشتركة بين لغات البشر أن نقحم أنفسنا فى مسائل شائكة تتصل بأصل الإنسان وأصل اللغات البشرية ؛ فنتساءل هل نشأت الأجناس البشرية المختلفة نشأة مستقلة لكل جنس منها ، أو كانت موحدة النشأة فوق الأرض ؟ وهل كانت لغات البشر فى البدء لغة واحدة أو عدة لغات ؟ فقد يعرضنا هذا إلى أمور عقائدية تعبدية . أو التصدى لنصوص وردت فى الكتب المقدسة .

ولا داعى إلى أن نسلك مسلك بعض علماء الحضارات الإنسانية — من المحدثين حين يقرر بعضهم أن الحضارات البشرية كما نألفها الآن نشأت نشأة موحدة فى بيئة أصلية ، ثم تشعبت أو انتشرت فى بيئات متعددة . وكان بهذا حضارات متباينة . ولكن هذه الحضارات المتباينة قد استعار بعضها من بعض ، وقلد بعضها بعضاً . فإذا وجد هؤلاء العلماء فى حضارة وسط أمريكا صورة الفيل ، وهو حيوان لا تعرفه هذه البيئة ، وليس هناك ما يدل على أنه كان موجوداً بها ، قالوا إن صورة الفيل فى حضارة وسط أمريكا ليست إلا مظهراً من مظاهر تقليد الحضارة الآسيوية . فوجوه الشبه بين الحضارات المختلفة

---

(١) Mankind, nation, and Individual from a linguistic Point of view.

فى العصر الحديث فى رأيهم ، وليدة اقتراض الحضارات بعضها من بعض وتقليد بعضها لبعض . ويرى فريق آخر من العلماء أن وجوه الشبه التى نلحظها الآن بين الحضارات المختلفة إنما ترجع إلى الطبيعة البشرية . وتأثر بهذا الرأى الأخير بعض اللغويين فى تعليل العناصر المشتركة بين لغات البشر فى العصر الحديث . وأشهر هؤلاء اللغويين العالم الألمانى « شوشارت Schauchart » إذ يقرر أن الاشتراك بين اللغات يرجع إلى مصدرين : أولهما وأوضحهما أن هناك فصائل لغوية ، تنتمى أفراد كل فصيلة من هذه الفصائل إلى أصل لغوى موحد ؛ افترضوه وحاولوا إعادة تكوين بعض عناصره . فالفصيلة الهندية — الأوربية أصل قديم هو الذى أطلقوا عليه اللغة الهندية — الأوربية الأم . تلك اللغة الموحدة التى كانت سائدة منذ نحو خمسة آلاف سنة . ومن هذه اللغة الأم تفرعت كل اللغات الهندية — الأوربية . القديم منها والحديث ؛ ولا غرابة إذن أن نلحظ وجوه شبه بين هذه الفروع . وكذلك الشأن مع اللغات السامية التى يفترض لها الباحثون أصلاً لغويًّا واحداً يطلقون عليه اللغة السامية الأم .

ولكن وجوه الشبه بين اللغات لا تقتصر على ما بين أفراد الفصيلة الواحدة . فهناك المصدر الثانى الذى ولد تشابها محدوداً بين لغات البشر جميعاً . ويمكن أن نعزوه إلى الفطرة الإنسانية . ولا جرم إذن أن نشهد ذلك الشبه العجيب بين الناس فى العالم . فى طرق إصدار الأصوات اللغوية . والاعتماد على ما يسمى بجهاز النطق لدى كل منهم . ذلك الجهاز الذى استغله الإنسان فى تكييف الأصوات وجعلها على صور مختلفة . فهو يستغل الشفتين فى أصوات . واللسان مع فراغات الفم فى أصوات أخرى . ثم الحلق ودوره فى أصوات بعض اللغات ؛ والحنجرة وما تقوم به فى كل عمليات التصويت . بل حتى القصبة الهوائية ؛ والرئتين . ومع أننا نلحظ فى دراستنا للأصوات أن منها ما يصدر عن طريق هواء الشهيق نجد فى الكثرة الغالبة من الأصوات الإنسانية ، أنها تصدر مع هواء الزفير الصاعد من الرئتين ماراً بأجزاء هذا الجهاز النطقى حتى خارج الفم . ولكن تلك الأصوات التى تصاحب هواء الشهيق نادرة جداً ، ولا نكاد نراها

إلا فى لغة مغمورة بدائية كلغة « الهوتنتوت » فى جنوب أفريقيا . أى أن الإنسان فى العالم يتخذ طريقاً موحـــداً من الناحية الفسيولوجية فى إصدار أصوات اللغة . ولا عبرة باختلاف حجم الشفاة ، أو أشكال الأنوف ، أو غير ذلك من النواحى التشريحية التى قد يقع الخلاف فيها بين الشعوب . فقد برهنت التجارب الحديثة أن الإنسان من حيث اللغة وليد بيئته وحدها ، بحيث إذا ربى الطفل المصرى مثلا منذ ولادته فى بيئة صينية ، أو بين زنوج أفريقيا نشأ من حيث اللغة كأى فرد فى هذه البيئة .

فإذا شئنا أن نسوق أمثلة محددة لتلك العناصر المشتركة بين لغات البشر وجدنا أن منها ما يتصل بالأصوات ، ومنها ما يتصل بالكلمات ، ومنها ما يتصل بالأجرومية أو النحو . فمن ملاحظات اللغويين فى العصر الحديث ، تلك التى تكاد تطّرد فى كل اللغات :

١ — أن الحرف بين حركتين أى « صوتى لين » يميل إلى الجهر . فالتاء فى فعل مثل « عتب » قد يجعلها الناطق « دالا » . أيّاً كانت لغته .

٢ — وأن الكاف إذا وليها صوت لين أمامى أى حركة كالكسرة أو الفتحة المرققة مالت إلى أن تصبح « تْش » ثم « شينا » [١] .

٣ — وأن النبر فى أحد المقاطع قد يترتب عليه سقوط الحركة فى المقطع غير المنبور من نفس الكلمة ، أو ضعف هذه الحركة . فنبر المقطع الأخير من الفعل « شرب » فى نطق أهل المغرب هو الذى أسقط فتحة الشين ، وجعلهم ينطقون بها ساكنة أى « شْرب » .

٤ — كثيراً ما يؤثر النبر فى جهر الصوت المهموس . كتلك اللهجة التى تروى فى كلمة « صقر » حين ينطق بها « زقر » . ومثل « of » من « off » .

٥ — اشتراك الكلمات « ماما » ، « بابا » ، « دادا » فى معظم اللغات ، وكذلك صلة بعض الأصوات بالدلالة مثل الكسرة « i » التى تعبر فى الكثير من

(١) انظر قانون الأصوات الحنكية ص ١٢٢ من كتاب اللهجات العربية .

الحالات عن صغر الحجم وضيق الوقت ونحو ذلك .

٦ — الميل العام إلى تكرار الكلمات أو مقاطع منها ، وهو ما يعرف فى الدراسات العربية بالإتباع والمزاوجة .

٧ — فكرة الكمّ فى كل اللغات من مفرد ومثنى وجمع ، وفكرة التذكير والتأنيث ، والحى والجماد ، والماضى والحاضر والمستقبل ، والمتكلم والغائب والمخاطب ، وغير ذلك من وجوه شبه فى نحو اللغة وأجروميتها . فالكلمة فى الكثرة الغالبة من لغـــات البشر تختلف صورتها وسلوكها تبعاً لكل هذا . ولا سبيل إلى تفسير مثل هذه الظاهرة إلا بالرجوع إلى الفطرة الإنسانية . تلك الظاهرة التى جعلت لغوياً نابها مثل « ديلكروا » يقرر أن اللغات جميعاً فى كل العالم كبساط واحد فوقه نقوش مختلفة .

ولكننا لا نستطيع برغم كل ماتقدم أن نقول إن مثل هذه الملاحظات يؤلف قانوناً ثابتاً كقانون الجاذبية مثلا . ذلك لأن اللغة منذ نشأتها سلوك إنسانى فى مجتمع إنسانى ، أى أن للإنسان دخلا فى تطوراتها وتغيراتها . ومثل قوانينها مثل كل القوانين الاجتماعية التى لا تعرف الاطراد التام ، ولهذا تختلف عن القوانين الطبيعية .

ثانياً — عرفية اللغة :

فى حديثنا هنا عن عرفية اللغة لن نحاول أن نقتحم مجاهل النشأة الأولى للغة الإنسانية ، فقد انصرف الآن معظم اللغويين عن مثل هذا البحث ، وأصبحوا يرونه أشبه بالبحث فيما وراء الطبيعة ، كذلك لن نعرض إلى ذلك الصراع الفكرى الذى كان بين فلاسفة اليونان ومفكرى العرب حول اصطلاحية اللغة أو توقيفيتها ، فقد عالجنا كل هذا فى تفصيل وإسهاب فى مواضع أخرى من دراستنا[١] .

---

(١) انظر الفصل الأول من كتاب دلالة الألفاظ للمؤلف ، والفصل الثانى من كتاب أسرار اللغة للمؤلف كذلك .

فليس يتسع المجال هنا إلا إلى تذكير يسير بما يجمع عليه اللغويون الآن من أن اللغة يحكمها العرف الاجتماعى لا المنطق العقلى ، هكذا تبدو لنا على كل حال فى العصور الحديثة . ذلك لأننا حين نتساءل عن السر فى ذلك النظام الخاص الذى تخضع له كل لغة لا نكاد نظفر بإجابة مقنعة إلا حين نقول إن الأمر كله مرجعه إلى العرف والاصطلاح . فمثلا لماذا اختصت دلالة الكلمة فى كل لغة بمجموعة معينة من الأصوات فى ترتيب خاص ؟ بل لماذا اختصت الدلالة الواحدة وفى اللغة الواحدة فى معظم الحالات بمجموعة خاصة من هذه الأصوات ؟ فى العربية مثلا لماذا سميت الشجرة بالشجرة ، والوردة بالوردة ، والماء بالماء ونحو ذلك ؟ لا نريد أن نتساق هنا مع أولئك الاشتقاقيين الذين يحلو لهم أن يلتمسوا أسباباً لمثل هذا ، كالذى كان من ابن دريد فى كتابه الاشتقاق ، حين يزعم أن « قضاعة » من انقضع الرجل أى بُعد عن أهله . وأن إبليس من « ألس » بمعنى تحيّر ، وغير ذلك مما نراه فى كتبهم . فقد أصبح الآن من الأمور المقررة التى لا تحتمل جدلاً أو مناقشة أنه ليس هناك صلة ذاتية أو طبيعية بين الكلمة ومدلولها فى أى لغة من اللغات .

كذلك حين نتساءل لماذا تتخذ كل لغة نظاماً خاصاً فى ترتيب الكلمات من الجملة ، بل لماذا فى اللغة الواحدة تتغير دلالة الجملة بتغير الترتيب بين الكلمات ؟ ولماذا يسلك الفعل مع الاسم المؤنث سلوكاً يختلف عن سلوكه مع المذكر ، ومع المفرد غير سلوكه مع الجمع أو المثنى ؟ ولماذا عاملت بعض اللغات أسماء معينة على أنها مما يسمى بالمحايد أى ليست مذكرة ولا مؤنثة ؟ فى حين أن لغات أخرى نظرت إليها على أنها مذكرة أو مؤنثة . بل إن الدلالة المحسوسة الواحدة قد تعامل كلمتها فى لغة معاملة المؤنث ، وفى أخرى معاملة المذكر ، فالشمس فى اللغة العربية تعامل معاملة المؤنث ، وفى الفرنسية تعامل معاملة المذكر . ولماذا اختصت اللغة الأزمنة المختلفة من ماض وحاضر ومستقبل بصيغ وأساليب خاصة تختلف عن اللغات الأخرى ؟ لماذا ، لماذا ، ونظل

تتساءل لماذا دون أن تجد جواباً منطقيًّا عقليًّا، ثم تقنع فى آخر الأمر بالقول: إن كل ذلك مرجعه إلى العرف والاصطلاح، ولا مشاحة فى الاصطلاح.

ومع أننا أشرنا آنفاً إلى أن هناك عناصر مشتركة بين كل اللغات لعلها ترجع إلى الفطرة الإنسانية، فالذى لا شك فيه أن مسائل اللغة كما تشهدها الآن لا يمكن أن تعزى إلا إلى العرف الاجتماعى، وليس من الضرورى هنا أن نفترض شيئاً كالذى افترضه «روسو» فى نظرية العقد الاجتماعى، أو أن نحاول ما حاوله «دى سوسير» من النظر إلى اللغة على أنها أمر مجرد ينتظم كل أفراد البيئة اللغوية، وحين فرق بين اللغة والكلام[1] فجعل الكلام العمل الفردى الواقعى الذى يقوم به المرء حين يشاء التعبير عما يجول فى ذهنه.

ومع أن اللغة ككل سلوك اجتماعى يحكمها العرف، يجب أن نفرق بين عرف وعرف؛ فهناك عرف متأصل الجذور مر عليه زمن طويل قد يحسب بالقرون، وآخر حديث نسبيًّا لا يكاد يجاوز عشرات من السنين. فليس العرف فى الأفراح والمآتم، أو فى المأكل والملبس والمشرب، أو فى الأعياد والمناسبات الاجتماعية كالعرف فى اللغة، من حيث تأصل الجذور وحرص الشعوب عليه. فالعرف اللغوى قد يكتسب مع الزمن ما يشبه القداسة. لا سيما بعد أن نزلت باللغة الإنسانية الكتبُ المقدسة، وكتبت بها روائع الأدب فى العالم. ويعمد كل شعب إلى الحفاظ على عادات لغته بكل الوسائل فيتخير من تاريخه فترة يعدّها المرحلة الذهبية من تاريخ هذه اللغة، ويتخذ مما ساد فيها من أساليب وتعابير نماذج يحرص على تقليدها وتثبيت قواعدها، فيعقد لهذا المجامع اللغوية، ويصنف المعاجم والكتب. ويعمل على تدريسها أو تلقينها فى معاهد العلم، وكل ذلك لعله يبطئُ بذلك التغير المحتوم فى تاريخ كل لغة.

ومن اليسير على المرء أن يدرك فكرة العرفية فى كثير من المظاهر الاجتماعية، فهو حين يخالط قوماً غير قومه ويجد لهم تقاليد وعادات تخالف تقاليد قومه

(١) De Sussure : Cours de linguistique générale, Paris 1916.

وعاداتهم فى الطعام والشراب واللباس يدرك فى سهولة ويسر أن الأمر مرجعه إلى العرف بين هؤلاء وهؤلاء ، وكذلك الشأن مع الأفراح والمآتم والأعياد والمناسبات . ولكنه مع اللغة لا يكاد يتصور أن السلوك اللغوى مسألة عرف أيضاً إلا بعد دراسة فى علم اللغة ، وتجارب لا تتوفر إلا لطائفة من الذين يعنون بهذه الدراسة ، لذلك كانت عرفية اللغة موضع ذلك الجدل الكبير بين القدماء من المفكرين . وليس بعجيب لهذا أن نجد بعض القدماء من علماء العربية يربطون بين اللغة والوراثة والجنس ، ولا يتصورون أن غير العربى جنساً يمكن أن يتقن العربية ، أو يسيطر عليها .

فالمرء قبل أن تتاح له فرصة لدراسة اللغة يتصور أنه ورث لغته عن أبويه كما ورث عنهما بعض الملامح والصفات البيولوجية . فالعربى مثلا يتكلم العربية لأنه ولد لأبوين عربيين ، والإنجليزى يتكلم الإنجليزية لأنه ولد لأبوين إنجليزيين وهكذا. فليس يدرك المرء العادى أن تعلم أى لغة ، بل وإتقانها، عملية مكتسبة لا أثر للوراثة أو الجنس فيها . فإذا ربى طفل مصرى من أبوين مصريين فى بيئة صينية مثلا نشأ من حيث اللغة كأبناء الصين .

ومرجع هذا التصور أو الوهم بين جمهور الناس هو أن عرفية اللغة تتطلب فى إدراكها والاقتناع بحقيقتها تفكيراً وبحثاً لا يتأتى عادة إلا للدارسين المتخصصين .

ومن هنا جاء تفوق العرف اللغوى على كل عرف آخر . فكثيراً ما تغير الشعوب من بعض عاداتها الاجتماعية خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً ، وقد يكون هذا التغيير عن عمد أو قصد ، ولكن من النادر أو قل من المستحيل أن يقع مثل هذا فى لغتهم . فالتطورات اللغوية بطيئة وتدريجية وتلحق اللغة دون عمد أو قصد ، وتبقى اللغة معها محافظة على جوهرها وأصولها ماشاء الله لها البقاء .

وقد حدثتنا التجارب التاريخية عن كثير من تلك الأحداث التى أسفرت عن تغيير فى عادة تتصل بنوع الطعام والشراب لدى شعب من الشعوب إثر اتصاله بشعب آخر واختلاطه به . كما حدثتنا عن تلك الآثار المدمرة التى كانت

نتيجة الحروب والغزو ، وترتب عليها أن فقد الشعب المغزو فى أكثر الحالات كل أو جلّ عاداته الاجتماعية ، دون صراع طويل أو مرير ، إلا حين يكون مع اللغة ، تلك التى تأصلت جذورها ، وأصبح فناؤها يعنى فناء الشعب المغزو واندثاره باندثار لغته . فقد نقرأ فى تاريخ الشعوب عن تلك الحالات النادرة التى اندثرت فيها لغة من اللغات بعد صراع مرير مع لغة أخرى خلال عدد من القرون تخرج اللغة الغازية بعدها مثخنة بالجراح ، أو متأثرة ببعض صفات اللغة المغزوة ، فإذا أسلمت اللغة المغزوة قيادها ، واستسلمت فى نهاية الأمر لقدرها المحتوم ، قيل حينئذ إن أصحابها هم الذين انقرضوا أو اندثروا ، فلا تقوم لهم قائمة بعدها ، بل يفنون فى غيرهم ، ويفقدون كيانهم المتميز ، برغم أنهم قد يحتفظون بعد هذا بصفات بيولوجية أو تشريحية معينة .

وقد تظل اللغة المغزوة وبعد قرون من القهر والسيطرة قابعة كامنة فى أذهان أصحابها ، لا تكاد تنطلق بها الألسنة إلا فى مجالات محدودة . ودون أن يكون لها نصيب يذكر من الحياة العامة . فكأنما قد توارت أو انزوت أو كمنت تتربص حتى تلك اللحظة التى فيها تبعث من مرقدها ، وتعود سيرتها الأولى . ومن هنا كانت أهمية اللغة فى الحفاظ على كيان شعبها وتماسكه وعدم السماح له بالفناء فى غيره من الشعوب .

ثالثاً — الأصوات :

أوضح مظاهر اللغة أو مقوماتها الأصوات ، تلك التى تنظم فتتألف منها الكلمات ، ثم الجمل والعبارات . وقد أصبحت الآن أصوات اللغة محل دراسات مستفيضة وتجارب معملية كثيرة ، تؤلف فيها الكتب الضخمة ، ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض موجز .

وقد اتخذ الإنسان هذه الأصوات منذ آلاف من السنين بمثابة وسط تنتقل خلاله الأفكار والأحاسيس وكل ما يجول فى الذهن . وهى وإن كانت فى

أساسها ككل أصوات الطبيعة أى موجات تنتقل خلال الهواء عادة ، وتتلقفها الآذان ، غير أن الأصوات فى النطق الإنسانى ذات موجات مركبة أو معقدة ، منها الرئيسى ومنها الفرعى .

وليست هذه الأصوات التى تؤلف منها الكلمات والجمل إلا رموزاً أحلها الإنسان بموهبته الخلاقة محل الخواطر والأفكار . ذلك لأن الرمزية هى العمل الأساسى فى الفكر الإنسانى ، فتستطيع عقولنا أن تحول كل تجاربنا فى الحياة إلى رموز . وليس بين هذه التجارب ما لا يمكن للعقل أن يحوله إلى رموز ، وتلك هى إحدى الصفات التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان . وإذا أمكن للأنواع الراقية من الحيوان أن تدرك مدلول العلامات والإشارات ، فإن الرمزية إحدى خصائص الإنسان وحده ، وهى التى سمت بالإنسان فوق عالم الحيوان . بل إن قدرة الإنسان على استعمال الرمز هى التى جعلت منه سيداً لعالم الطبيعة . وشتان بين الرمز والعلامة ، فالرمز علامة تحل محل شىء آخر ، أى أنه عوض عن علامة أخرى مرادفة له . ولعل أهم ما يميز الرمز عن العلامة أنه غير مقيد بزمن ، فى حين أن العلامة قد تشير إلى الماضى أو الحاضر أو المستقبل من الأحداث. فالأرض المبللة علامة على أن السماء أمطرت ، وقوس قزح علامة على أنها تمطر الآن فى مكان قريب . وكدكنة السماء فى الصباح علامة على احتمال سقوط المطر فى أثناء اليوم . هذا إلى أن العلامة تفيد معلومات فى صورة مباشرة ، فالعلامة الحمراء فى إشارات المرور تفيد أنه على السائق الوقوف . فمثل هذه العلامات قد يدركها الحيوان الذكى بعد تدريب قليل ، ولكن لا سبيل إلى الرمزية فى عالم الحيوان .

ومع أن هذه الأصوات ليست فى حقيقة أمرها إلا رموزاً للأفكار والخواطر ، قد اكتسبت مع الزمن ما يشبه القدسية ، وأصبحت فى بعض مجالات الأدب هدفاً يقصد لذاته ، ويستمتع به المرء سواء نطق بها أو استمع إليها . ولعل فيما نسميه بموسيقى الشعر خير شاهد على هذا .

وقد ارتبط الإنسان بهذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً على مر العصور ، حتى

أصبح الآن غير قادر على التفكير أو التعبير عن خواطره إلا عن طريقها، مما جعل كثيراً من الفلاسفة يقررون أنه لا سبيل إلى التفكير بغير هذه الأصوات ممثلة فى كلمات وجمل . فإذا قيل لنا إن الإنسان حيوان ناطق فمعناه أنه قادر على التفكير لأنه قادر على النطق .

وبرغم أن الأصوات ، ممثلة فى الكلمات، رموز للأشياء والأفكار، فليس هناك صلة مباشرة أو طبيعية بين الكلمة وما تعبر عنه إلا عن طريق الصورة الذهنية . ومع أن لكل كلمة دلالة ذهنية معينة ففى اللغات عدد من الكلمات تقتصر وظيفتها على الربط فى الجمل والعبارات ، كالحروف والأدوات التى لا تفيد معنى فى ذاتها . وفى اللغات أيضاً بعض الكلمات التى تعبر عن الدهشة أو المرح أو التألم ، ولكنها فى حقيقة أمرها تعدّ مجرد أصوات عاطفية ليست ذات دلالات محددة .

ولكنا نلحظ أنه فى الكثرة الغالبة من كلمات كل لغة تعبّر كل كلمة عن شيء معين ، وأنه لا صلة طبيعية أو مباشرة بين اللفظ ومدلوله . ولا ينقض هذه الحقيقة أو ينفيها ما نراه فى اللغات من عدد قليل من الكلمات التى تعدّ دلالاتها بمثابة صدى لأصواتها ، كأسماء الأصوات العربية ، مثل الصهيل للفرس والزفير للنار والخرير للماء ونحو هذا . فهذا النوع من الكلمات قليل العدد ، ويختلف باختلاف اللغات فى كثير من الأحيان . هذا إلى أن كثيراً من هذه الكلمات قد تطورت أصواتها أو تغيرت . ولم تعد الصلة بين هذه الأصوات وما تعبر عنه واضحة أو ملحوظة .

ولأصوات اللغة جهاز فى جسم الإنسان نطلق عليه من قبيل التجوز جهاز النطق . وحين نحاول تصوره يتجه الذهن فوراً إلى تلك المنطقة التى تمتد من الحنجرة إلى الشفتين ، ولا نكاد نتصور أن كل الجزء العلوى من الجسم يقوم بدور ما فى عملية الكلام . فالحفزة الأولى للكلام تنبعث من الحجاب الحاجز حين تنقبض عضلاته فتمتلىء الرئتان بالهواء ، ثم تنبسط هذه العضلات

فيندفع الهواء إلى الخارج ، من الرئتين وشعابها إلى القصبة الهوائية ثم إلى الفم ، ثم إلى خارج الفم .

وتشترك عضلات التجويف الصدرى إلى حدّ ما فى حركة دفع الهواء إلى الخارج . وفى أثناء التنفس تتم عملية الزفير عادة أسرع من عملية الشهيق، وإن كان الفرق بينهما فى الأحوال العادية ضئيلا جداً لا يكاد يجاوز الخمس. أما فى أثناء الكلام فنلاحظ أن عملية الشهيق هى الأسرع ، فقد تصبح النسبة بين سرعة الزفير والشهيق فى أثناء الكلام ١ : ١٠ ؛ بل قد تصبح فى بعض حالات الانفعال ١ : ٣٠ ، أى أن المتكلم فى مثل هذه الحالات يحاول أن يقول الكثير فى زمن قليل ، ولا يكاد يلتقط أنفاسه .

وبين أعضاء النطق أربعة أعضاء قابلة للحركة هى : الوتران الصوتيان ، والحنك الرخو ، واللسان ، والشفتان ، فالوتران الصوتيان يشبهان حبلين أو شفتين بينهما قد تتسع المسافة فلا يهتزان أو لا يتذبذبان؛ أما حين يقترب أحدهما من الآخر ويندفع الهواء من بينهما فى قوة وعنف فنلحظ أنهما يتذبذبان ذبذبات منتظمة . وتسمى الأصوات التى تصدر مع عدم ذبذبة الوترين الصوتيين بالأصوات المهموسة ، فى حين أن التى تصحبها تلك الذبذبات تسمى بالمجهورة .

وجميع أصوات اللين أو ما يمكن تسميته بالحركات طويلها وقصيرها أصوات مجهورة ، أما الأصوات الساكنة أو ما يسمى عادة بالحروف فبعضها مجهور والبعض الآخر مهموس . فحين ننطق بما يسمى بألف المدّ مثلا نلحظ اهتزازات الوترين الصوتيين ، وكذلك الشأن حين ننطق بحرف كالزاى . أما حين ننطق بالسين فلا نشعر بتلك الذبذبات الوترية[١] .

وحركة الحنك الرخو هى التى تحدد ما إذا كان الصوت فموياً أو أنفياً ، فإذا نظر الناطق إلى المرآة فى أثناء نطقه بألف المد مثلا ، لاحظ أن الحنك الرخو يصعد ومعه اللهاة فيسد مجرى الأنف، فيتسرب هواء النفس كله من الفم .

---

(١) انظر « كتاب الأصوات اللغوية » للمؤلف .

وهذا هو ما يحدث مع كل الأصوات الفموية . ولذلك تقسّم الأصوات اللغوية إلى فموية وهي التي يتسرب معها الهواء كله من الفم وحده ، وأنفية وهي التي يتسرب معها الهواء من الأنف كالنون والميم .

وقد يصاب الحنك الرخو بالتهاب فلا يؤدى وظيفته بدقة ، وتشعر حينئذ أن بعض الأصوات التي مجراها أصلا الفم وحده قد تسرب معها بعض الهواء من الأنف أيضاً . وهنا يمكن أن يسمى الصوت أنفميًّا ، أي مجراه من الفم والأنف معاً . وليس من المحتم أن تكون هذه الظاهرة وليدة الالتهاب في الحنك الرخو ، فقد تكون فى بعض الشعوب بمثابة عادة نطقية ، كاليهود مثلا ، والفرنسيين فى بعض أصواتهم ، وبعض الأمريكيين فى حالات معينة من النطق .

أما اللسان فربما يكون أوضح أعضاء النطق وأهمها ، وهو فى الوقت نفسه أكثرها مرونة فى حركاته . فلا غرابة أن تسمى اللغة فى كثير من الشعوب باللسان ، بل هو الاستعمال القرآنى الوحيد فى معنى اللغة . ويستطيع الناطق أن يحرك لسانه فى كل الاتجاهات ، وذلك لما يتميز به اللسان من مرونة وليونة .

وحين قسم علماء اللغة الأصوات إلى أصوات لين وأصوات ساكنة أو كما تسمى أحيانا لدى بعض الدارسين بالأصوات الصائتة والأصوات الصامتة إنما نظروا إلى خاصية الأولى فوجــدوا أن هواء النفَس فى أثناء النطق بها لا يصادف فى طريقه حوائل أو موانع ، أو بعبارة أخرى لا يقابل انغلاقاً كليًّا ولا انغلاقاً جزئيًّا كما يحدث مع الأخرى . أى أن الأصوات الساكنة قد يحدث معها الانفجارية بسبب الانغــلاق الكلى ، وقد يحدث معها الاحتكاكية بسبب الانغلاق الجزئى . فحين نقارن النطق بالسين والزى مثلا ، مع النطق بالتاء والدال ، نلحظ أن ظاهرة الاحتكاكية وهى التى سماها القدماء من علماء العربية بالرخاوة تكون مع السين والزى ، فى حين أن ظاهرة الانفجارية وهى التى تسمى عند علماء العربية بالشدة تكون مع التاء والدال .

وحركة الشفتين تولّد لنا ما يسمى بالأصوات الأسنانية الشفوية مثل الفاء التى هى صوت يصدر عادة عن طريق التقاء الشفة السفلى بالأسنان العليا ،

كما تولد لنا الأصوات الشفوية المحضة كالباء والميم . وتقوم الشفتان مع هذا بدور ملحوظ فى أثناء النطق بأصوات اللين المختلفة ، فهما معها إما منفرجتان، أو مستويتان ، أو مستديرتان .

وعدد الأصوات التى يمكن تكونها بوساطة أعضاء النطق لا حصر له من الناحية النظرية ؛ غير أن الأذن الإنسانية لا تستطيع أن تميز إلا القليل منها ؟

ولاختبار الصوت الساكن أو ما يسمى عادة بالحرف ، علينا أن نتبين أموراً ثلاثة :

١ — موقف الوترين الصوتيين فى أثناء النطق به .

٢ — المخرج أو نقطة التقاء العضوين المكونين للصوت .

٣ — كيفية الالتقاء ، وهل هو التقاء تام يحدث انغلاقاً كاملا ، أو التقاء ناقص يحدث انغلاقاً جزئياً ، لنميز الصوت الانفجارى من الاحتكاكى .

خذ مثلا الكاف التى نجد أن هواء النفس معها ينحبس انحباساً تاماً لحظة قصيرة جداً عند التقاء أقصى اللسان بالحنك الرخو التقاء محكماً أى انغلاقاً كاملا ، ثم ينفصل العضوان فجأة فيندفع الهواء ويحدث انفجاراً نسمع ما يسمى بالكاف ، كذلك نلحظ أن الوترين الصوتيين فى أثناء النطق بالكاف لا يتذبذبان . وهذا كله يقال عن الكاف إنها صوت انفجارى مهموس مخرجه من أقصى الحنك .

ولكن الحس المرهف لعالم الأصوات يميز أشكالاً ثلاثة من الكاف يمكن أن يمثل لها بالكلمات الإنجليزية Keep ، Calm ، Cool ويسمى مجموع هذه الأشكال الثلاثة بالمصطلح الصوتى « فونيم » . فقد يتألف « الفونيم » من عدد من الأصوات التى ليس بينها اثنان يحل أحدهما محل الآخر فى نفس البيئة أو الموقع ، فهى فروع لشىء واحد أو متنوعات موقعية للفونيم الواحد . ويرتبط الفونيم فى الحكم عليه أو تحديده بلغة معينة ، أى أنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى بالفونيم العام أو العالمى . فلكل لغة فونيماتها الخاصة بها ؛ وما يمكن

أن يعدّ فونيماً مستقلاً في لغة من اللغات قد يكون فرعاً لفونيم في لغة أخرى؛ فالفونيم هو الوحدة النطقية الأساسية في لغة ما ، وأي انحراف صوتي في هذه الوحدة يترتب عليه تغيير في الدلالة أو الوظيفة لكلمة من الكلمات .

لهذا نلحظ فرقاً بين شعور الإنجليزى تجاه أنواع الكاف وشعور العربي نحو هذه الأنواع . فبينما نرى الإنجليزى لا يكاد يشعر بفرق بين الكاف في الكلمتين Calm ، Keep نجد أن العربي في لغته يتخذ الكاف في الكلمة Calm فونيما مستقلاً هو الذى يسميه بالقاف ، ويرمز له برمز كتابي مستقل في الكتابة العربية .

ولمزيد من الإيضاح نضرب مثلا بالفعلين العربيين (صبر ، سبر) اللذين يبدأان بصوتين متماثلين ولا فرق بينهما إلا في أن الأول مفخم والثاني نظيره المرقق . ومع هذا ينظر إلى كل منهما في العربية على أنه فونيم مستقل ويرمز لكل منهما برمز مستقل ، فقد ترتب على التفخيم والترقيق اختلاف الدلالة بين الفعلين . ولهذا اشتملت الأبجدية العربية على ما يسمى بالصاد ، وما يسمى بالسين . في حين أن الإنجليزى قد يفخم في نطقه هذا الصوت في كلمة مثل Ask دون تغيير في رموز الكتابي برغم أنه يسمع كالصاد العربية ، وأن الأمريكي يرقق عادة هذا الصوت من نفس الكلمة وبنفس الرمز الكتابي برغم أنه يسمع في نطقه كالسين . وهكذا نرى أن اللغة الإنجليزية تعدّ الصاد والسين فرعين لفونيم واحد ، أما العربية فتعدّ كلا منهما فونيما مستقلا . فلكل لغة نظام أو بنيان فونيمي خاص يدرس فيما يسمى بالتشكيل الصوتي للغة Phonology ، وقد نشأ هذا البنيان واستقر مع استعمال اللغة زمناً طويلا . وليس هذا البنيان مجموعة غير مترابطة من النماذج ، بل هو نظام على درجة عالية من التكامل والترابط حتى في ما يسمى باللغة البدائية . ففي تلك اللغات البدائية التي لم تتح لها فرصة الكتابة والتدوين ولم توضع لها رموز كتابية قد نرى في بنيانها مثلا شائقاً يبعث على الدهشة من حيث المستويات الثلاثة : الأصوات والصيغ والتراكيب . أي أنه ليس هناك أي دليل على صحة ذلك الفرض الساذج الذى

يقال فيه إن البدائيين أقل قدرة منا على تشكيل نماذج من الكلام دقيقة البنيان . ومع هذا فلابد لنا من الاعتراف أن بين اللغات ما هو أكثر تطوراً من اللغات الأخرى من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب ، أو أن منها ما أتيحت له فرص أكثر من التطور في هذه النواحي ، ومنها ما لا يزال يمثل مرحلة قديمة من مراحل تطور اللغة الإنسانية .

وتغير الصوت من الترقيق إلى التفخيم ، أو من الهمس إلى الجهر ، أو العكس في الحالين ، بسبب عامل داخلي في بنية الكلمة ودون تغيير في دلالتها أو وظيفتها ، لا يصح أن يغير من البنيان الفونيمي لهذه الكلمة . ومثال الحالة الأولى في اللغة العربية (يساقون ، يصاقون) ، ومثال الحالة الثانية في الإنجليزية Books ، Dogs . وكان من الواجب في الكتابة العربية أن يرمز لمثل (يساقون ، يصاقون) ومثل (هطل ، هتل) برمز كتابي واحد ، فالصوتان في كل من الكلمتين فونيم واحد ، إذ لم يترتب على التفخيم والترقيق تغيير في الدلالة .

وكما تختلف اللغات في البنيان الفونيمي تختلف أيضاً في النظام المقطعي : ففي اليابانية واللغة السواحيلية نجد أن معظم المقاطع مفتوحة أي ينتهي المقطع بصوت لين أو ما يسمى بالحركة طويلة أو قصيرة ، في حين أن اللغة العربية تؤثر المقاطع المغلقة أي تلك التي تنتهي بصوت ساكن أو ما يسمى بالحرف .

نكتفي بهذا العرض الموجز لأصوات اللغة من حيث الناطق بها ، لنعرض لموقف السامع من هذه الأصوات ، إذ لا تتم عملية الاتصال اللغوي إلا بين طرفين متكلم وسامع ، أو إرسال واستقبال .

والذبذبات التي يحركها الصوت الإنساني قد تعبر عن الحديث الداخلي للناطق ، وفي هذه الحالة تكون مهمتها مقصورة على مجرد تنظيم فكر هذا الناطق أو تجربته . غير أن هذه الذبذبات في أكثر الحالات الأخرى تحمل رسالة إلى سامع ما .

فذبذبات الوترين الصوتيين تتحرك حركة منتظمة في موجة صوتية . وتنتقل هذه الحركة إلى الهواء القريب ، وتظل هذه الحركة في انتقالها بين جزئيات

هذا الهواء متخذة شكل الموجة الضاغطة ومنتشرة فى جميع الجهات . ويبلغ متوسط سرعة الصوت فى الهواء حوالى ١١٢٠ قدما فى الثانية .

وكلما زاد عدد الذبذبات علت النغمة الموسيقية وارتفعت . ويتراوح عدد الذبذبات لدى أشهر المغنين فى العالم بين حوالى ٥٠ ذبذبة فى الثانية ، ويكون صوته فى هذه الحالة مع وضوحه وتميزه أنخفض ما يمكن أن يصل إليه ، إلى ٢٠٠٠ ذبذبة فى الثانية ويكون صوته فى هذه الحالة مع وضوحه وتميزه أيضاً أعلى ما يمكن أن يصل إليه ؛ وصاحب السمع العادى يستطيع أن يسمع النغمات العالية خيراً من سماعه النغمات المنخفضة . فإذا زادت النغمة عن أقصى درجاتها فى الارتفاع أو الانخفاض لا تكاد الأذن الإنسانية تدركها بوضوح .

وتستطيع الكلاب عادة سماع النغمات ذات الترددات العالية جداً ، ولذلك يستعين بها الشرطى فى تتبع اللصوص عن طريق صفارات ذات نغمات عالية جداً تجاوز الحد السمعى لهؤلاء اللصوص . ويقدر الحدّ السمعى للإنسان بنحو عشرين ألف ذبذبة فى الثانية ؛ فإذا زادت الذبذبات أو الترددات على هذا خرج الصوت حينئذ عن المجال السمعى للإنسان .

وأقوى أنواع الحيوان سمعاً الوطواط إذ يستطيع سماع النغمة التى عدد ذبذباتها فى حدود ستين ألف ذبذبة فى الثانية .

وإذا أمكن للمغنى أن يرتفع بنغمته إلى حدود ألفين ذبذبة فى الثانية . وأن ينخفض بها إلى حدود خمسين ذبذبة فى الثانية ؛ فإن الأمر يختلف فى حالة الكلام . ذلك لأن الفرق بين ارتفاع النغمة وانخفاضها فى أثناء الكلام قليل نسبياً . فالكلام يؤدى فى نغمات متدرجة لا يبعد بعضها عن بعض بعداً كبيراً ، فى حين أن الغناء يؤدى فى مراحل متباعدة النغمات ، ومع فترة زمنية ملحوظة تستمر خلالها كل نغمة .

والنغمات التى تصدر عن الوترين الصوتيين تأخذ ألواناً متعددة فى شكل يبعث على الدهشة ، فليس هناك شخصان يتحدان فى نبرات الصوت اتحاداً تاماً . وذلك لتلك الصفات الخاصة التى يتميز بها صوت كل منا . ومع أن

بعض الأصوات قد تتشابه فى نبراتها ، غير أن هذا التشابه لا يصل أبداً إلى حد التماثل التام .

وحين يتكلم المرء تصدر عنه سلاسل من الموجات الهوائية التى تقرع طبلة الأذن لدى السامع . وقرع الذبذبات لطبلة الأذن يترتب عليه تحريك العظيمات فى الأذن الوسطى حركات منتظمة كالتى فى الذبذبات ثم تنتقل هذه الحركات إلى الأذن الداخلية التى بها أعصاب السمع . وتحمل هذه الأعصاب ذلك الأثر السمعى إلى المخ لتفسيره .

وتؤكد لنا الدراسة الصوتية الحديثة أن بعض أصوات اللغة أوضح فى السمع من البعض الآخر . وتبين من تجـــارب الدارسين أن صوت اللين Vowel فى كلمة مثـــل Born يعد أوضح أصوات اللين ولا يعادله أو يقترب منه فى الوضوح إلا ذلك الذى فى الكلمة Barn .

وإذا شئنا ترتيب الأصوات الساكنة أو ما يسمى بالحروف ترتيباً تصاعدياً من حيث الوضوح السمعى ظهر لنا أنها كما يلى :

١ ــ المهموسة الانفجارية مثل : ت ، ك ، ب .

٢ ــ المهموسة الاحتكاكية مثل : ش ، س ، ث ، ف .

٣ ــ المهموسة المزجية مثل : تش .

٤ ــ المجهورة الانفجارية مثل : ب ، د ، الجيم القاهرية .

٥ ــ المجهورة الاحتكاكية مثل : ڤ ، ذ ، ز ، ج ، (الجيم الشامية) .

٦ ــ المجهورة المزجية كالجيم الفصيحة .

٧ ــ الأصوات الأنفية مثل : م ، ن .

٨ ــ الراء ، اللام .

٩ ــ أصوات اللين الضيقة مثل : الضمة والكسرة ومعهما الواو ، والياء .

١٠ ــ وأخيراً أوضح الأصوات جميعاً هى أصوات اللين المتسعة كالفتحة المفخمة وألف المد .

فى الحديث التليفونى وفى التسجيل الإذاعى لا يكاد المرء يميز الأصوات المهموسة الانفجارية كالتاء والكاف ، ولكنه عن طريق السياق أو المعنى العام يفترض وجودها ، ويتم هذا الفرض دون شعور متعمد منه ، أى أنه يعوض فقدانها فى الحقيقة بوجودها فى خياله .

ولهذا يجدر بالمغنين ومؤلفى الأغانى أن يتحاشوا مثل هذه الأصوات فى أغانيهم كلما أمكن ذلك ، فهى أصوات لا تكاد تصلح للغناء ، وهى فى نفس الوقت معرضة للسقوط أو الاختفاء فى التسجيل الصوتى .

رابعاً — المجتمع الإنسانى :

وأخيراً وليس آخراً المقوم الرابع للغة هو المجتمع الإنسانى . وهو بالنسبة للغة كالتربة بالنسبة للزهرة أو الحبة . فالحبة تكمن فيها جرثومة الحياة ولكنها لا تنبت إلا فى التربة . وكذلك اللغة فى الإنسان ، إذ يولد المرء مستعداً للنطق والكلام ، ولديه أجهزته وأعضاؤه . ولكنه وحده منعزلاً عن الناس لا ينطق ولا يتكلم ولا تنشأ له لغة . ونحن نلمس مظاهر هذا الاستعداد الفطرى لدى الإنسان فى صياح الوليد ومناغاته . تلك هى جرثومة اللغة أو القدرة على الكلام ، ولكنها لا تنمو إلا حين تتوفر للمرء الحياة فى مجتمع . ولم يكن بعض الفلاسفة والمفكرين فيما مضى يفطنون إلى هذه الحقيقة . فقد تصور صاحب قصة حى بن يقظان أن المرء حين يعزل فى جزيرة غير آهلة بالسكان ويتوفر له حاجات الحياة من مأكل ومشرب وكساء ، وبحيث يعيش فى أمن من قيظ الطبيعة أو زمهريرها ، ومن هوام الأرض ووحوشها ، يمكن أن يحيا وحده وأن يفكر وحده ، وأن تنمو لديه تلك الموهبة العقلية التى يولد كل إنسان معداً بها ومستعداً لها . فإذا مر بمرحلة الطفولة وأصبح صبياً ثم فتى ثم رجلا نمت معه تلك الموهبة العقلية ونما تفكيره ، واستطاع فى نهاية الشوط أن يصل إلى ربه . وأن يتعرف على عظمته وقدرته وأن يعبده فى هذه الجزيرة المنعزلة .

ولسنا نتصور أن يتم له كل هذا دون نطق أو دون كلام . ولسنا لهذا

تتجنى على صاحب حى بن يقظان حين نفترض أنه كان يرى أن المرء وحده يستطيع أن يؤلف لنفسه لغة كالتى نألفها بين الناس ، ذات أصوات وذات كلمات وذات تراكيب .

ولكن اللغوي الحديث يأبى الاعتراف بإمكان حدوث هذا أو ما يشبهه ، وينظر إليه على أنه كتلك الخواطر التى كانت تداعب بعض الملوك فى التاريخ القديم . فيروى لنا أن أحد الفراعنة « أبسمتيك » أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هى لغة الإنسان الأول ، ومنها تفرعت اللغات الأخرى ، فعزل طفلا أو طفلين زمناً ما ليتعرف على أول كلمة ينطق بها ، ثم خاب ظن فرعون فى هذه التجربة .

وقد حدث أن سمعتُ منذ سنوات عن قصة غلام عثر عليه فى صحراء حلوان بين قطيع من الغزلان ، وأن دورية من رجال الأمن أخذت تطارده حتى أمسكت به . وقيل لنا حينئذ إنه كان يجرى على رجليه مع الغزلان ، وأنه بعد أن أصبح بين يدى رجال الشرطة أخذ يصيح بأصوات غير مفهومة ، ويردد ما يشبه الكلام المنطوق . وتساءلنا يومئذ هل أمكن لذلك الغلام أن يكوّن لنفسه لغة أو كلاماً إنسانياً ؟ ولما زرته فى أحد الملاجئ الاجتماعية بعد شهور من العثور عليه ظهر لى أنه يتكلم بكلمات متقطعة استمدها ولا شك ممن حوله ، وكان يتعثر فى النطق بها ، ويلثغ فى أصواتها كأنه طفل فى سن الثانية من عمره . ولم يقم لدينا أى دليل على أن ما كان يصوت به حين عُثر عليه كان كلاماً أو ما يشبه الكلام . وكل الذى تأكد لنا من هذه التجربة العجيبة أن الإنسان مستعد بفطرته للكلام ، ولكن هذا الاستعداد لا يظهر له أى أثر إلا فى المجتمع الإنسانى .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن تلك القصص التى يقال فيها إن القردة أو الغزلان أو الذئاب قد قامت بتربية طفل إنسانى . وأنه شب بينها وشاركها فى طعامها وشرابها . غير أنا لا نعرف أحداً من كتاب هذه الروايات والقصص قد شطح به خياله فافترض لمثل هؤلاء الأطفال كلاماً إنسانياً .

بل حتى فى الحادثين اللذين كانا مثاراً للجدل والنقاش بين اللغويين فى القرن التاسع عشر حين عثر فى كل منهما على طفلين يتكلمان كلاماً غير مفهوم لمن حولهما وزعم قوم أن الطفلين قد اخترعا لغة يتفاهمان بها ، فقد ثبت بعد الدراسة أن ما كان يتلفظ به الطفلان مستمد كله من لغة البيئة .

ويتلخص الحادث الأول فى أن فتاة ولدت بمزرعة فى « جرينلند » ، وأنها كانت تتكلم مع أخيها التوأم كلاماً غير مفهوم لمن حولهما . وقد شق ذلك على والدهما فصمم على عزل الأخ عن أخته ، مما أدى إلى وفاة الصبى وبقاء الفتاة وحدها تصرّ فى عناد على التكلم بتلك اللغة المجهولة الغامضة . ولما شاع أمرها وبدأ العلماء يبحثون كلامها خيل إليهم فى أول الأمر أن كلامها لا يمت إلى لغة (جرينلند) بصلة ما . غير أن أحد العلماء قد استطاع فيما بعد أن يكشف الغطاء عما حاط كلماتها من غموض ، وبرهن على أنه لا يعدُو أن يكون مستمداً من لغة « جرينلند » فى صورة ممسوخة أو مبتورة ، فلا يؤلف لغة مستقلة ولا ما يقرب من اللغة .

وأما الحادث الثانى فيرويه « جسبرسن » قائلا : إن طفلين نشأا فى « كوبنهاجن » توأمين أيضاً مع أم لهما أرملة . وقد أهملتهما الأم بشكل شائن . فشبا وحدهما منعزلين عن الناس زمنا ما . ثم كان أن مرضت تلك الأم وأدخلت المستشفى للعلاج تاركة الطفلين زمناً طويلا فى كنف عمة لهما صماء بكماء . ويقول « جسبرسن » إنه زار الطفلين وتودد إليهما حتى استطاع أن يدون كلمات وعبارات كثيرة من تلك اللغة الغامضة التى كانا يتفاهمان بها فى طلاقة . ثم أجرى بحثه على تلك الكلمات والعبارات فوجدها تتصل اتصالا وثيقاً بلغة البيئة غير أنها ممسوخة مبتورة ، حذف منها بعض الأصوات وعوض عنها بأصوات أخرى ، كما وجد أن بعض الكلمات مما يمكن أن يعدّ صدى لأصوات الطبيعة .

لا غرابة بعد الذى تقدم أن نرى اللغويين المحدثين يجمعون على أنه لا وجود للغة إلا فى مجتمع إنسانى .

أما ما تسمع عنه فى بعض الأحيان من أن للحيوان لغة فليس فى الحقيقة

إلا من قبيل التجوز . فلا تؤلف تلك الأصوات الفطرية المحدودة العدد والتى نسمعها من أذكى أنواع الحيوان وأرقاها ، لغة أو ما يشبه اللغة . فقد يستمتع بعض الباحثين بالإصغاء لمواء الهر فى ظروف مختلفة ، ثم يحدثنا عن كيف يعبر الهر عن خوفه ، أو عن حنينه إلى أليفه ، أو عن طلبه الطعام والشراب ، أو عن فرحه بلقاء صاحبه ، وغير ذلك من صياح فطرى محدود التنوع ، ومن الإسراف أن يقارن بلغة الإنسان فى نظامها وسموها وتعقدها . بل قد يحلو لهؤلاء الباحثين أن يسجلوا لنا تسجيلا صوتيا فوق أسطوانات أو أشرطة تلك الأصوات الفطرية التى سمعها من الحيوان زاعماً أن للحيوان لغة كما للإنسان لغة ، وأنه لا فرق بين اللغتين إلا فى الكم .

يجب إذن أن نرقى بلغة الإنسان عن مثل هذا المستوى ، وأن نبحث صلة اللغة بالمجتمع الإنسانى فى ضوء ما نراه الآن فى المجتمع الحديث ، لندرك إلى أى مدى ترتبط اللغة بالمجتمع الإنسانى ، أو يتحتم أن تكون مقصورة عليه .

فالأسرة هى الوحدة الأساسية للمجتمع الإنسانى سواء كان مجتمعاً مثقفاً أو بدائياً . وقد دلت تجاربنا الكثيرة على أن النمو اللغوى لدى الطفل يتوقف عادة على ما تتسم به حياة الأسرة التى هو عضو فيها .

فالنشأة السليمة والتربية الطيبة تساهم فى نمو لغة الطفل أكثر مما يمكن أن يساهم به التعليم المنظم فى المدارس . فالصبى الذى يكثر استماعه إلى حديث أو نقاش حى من أناس مختلفى الأعمار فى محيط الأسرة خلال فترة طويلة من السنين يتمتع بمزايا لغوية لا حد لها .

واللغة فى المجتمع الإنسانى الراقى لها عدة مستويات : مستوى بلاغى ، ومستوى شعرى ، ومستوى أدبى ، ومستوى فى الطقوس ، وأخيراً المستوى العام ومنه الحديث أو الخطاب العادى . وتعتمد اللغة فى صحتها وقوتها على المستوى العام للغة ؛ لأن الحديث اليومى حين يحسنه أفراد المجتمع ينشط اللغة ويعيد إليها الشباب ؛ فليس الكلام الإنسانى من خلق العلماء أو اللغويين ، بل هو من

خلق العامة من الناس ممن ربما لم تتح لهم فرصة التعلم فى مدرسة ؛ وممن لا يكادون يحسنون كتابة أو قراءة .

حقاً إن العلماء والأدباء قد يعملون على تنمية اللغة وجعلها غنية حتى تزهر ذلك الجمال الرائع فى النصوص الأدبية ، ولكنا نلحظ أن أندر الزورات وأروعها هى تلك التى تظهر طبيعية ودون رعاية أو تعهد .

ولا تعمق جذور اللغة إلا فى التربة العامة التى منها تستمد اللغة عصيرها وغذاءها . هذا إذا قدر للغة ألا تموت وتندثر كما اندثرت تلك اللغات القديمة التى انقطعت صلتها بكلام الناس وخطابهم . يجب لهذا ألا تكون هناك فجوة عميقة بين ألفاظ الأدب والحديث اليومى . فقد تتطور تلك الفجوة إلى عزل لغة الأدب ، وتصبح أشبه باللغة المصنوعة التى تتقرر صيغها وأشكالها بوساطة سلطة عليا كما هو الشأن فى المجامع اللغوية بأوربا . فقد يصدر المجمع اللغوى قواعد محددة لتنظيم الاستعمال الأدبى ، وقد يفرض النصوص التى يجب أن تعلم فى المدارس ، ولكنه لن يستطيع السيطرة على ذلك الحديث المرح فى الأسواق ، ولا على الخطاب العادى فى البيوت وبين أفراد الأسرة .

فإذا انفصلت لغة الشعر مثلا عن لغة الحديث والخطاب انفصالا تاماً ، أصبح الشعر غير قابل للفهم ، ولم يعد الشاعر فى هذه الحال يخدم المجتمع ، بل يجد نفسه يخاطب فريقاً محدوداً من الناس وفى مجال ضيق من مجتمعه . من أجل هذا اكتسب كل من « تشوسر » فى القرن الرابع عشر و « دريدن » فى القرن السابع عشر شهرة عظيمة بين شعراء اللغة الإنجليزية ، لأن كلا منهما كان يراعى فى شعره تقاليد لغة الخطاب الذى كان سائداً فى عصره . ويعد هذان الشاعران من أوضح شعراء الإنجليزية ، وقد كان تأثيرهما فى هذه اللغة خالداً ومحل الإعجاب والتقدير فى مختلف العصور .

ومن المسلم به بين اللغويين الآن أن المرء يتعلم الكلام لا عن طريق الغريزة أو الإحساس الداخلى كما هو الشأن فى عمليات التنفس أو الأكل والشرب أو المشى ونحو ذلك ، بل يتعلمه من المجتمع الذى ينشأ فيه ، فى محيط الأسرة

أولاً ، ثم فى القرية أو الحىّ من المدينة ، وأخيراً فى المدرسة والحقل والمصنع ومحل العمل ، أو من زملائه فى المهنة ، ومن النوادى والمجتمعات العامة .

وحسن الكلام يتطلب توازناً بين أمرين : النظام ، والحرية .

أما النظام فبمراعاة ماتجرى عليه التقاليد اللغوية للمجتمع ، وأما الحرية فتتمثل فى محاولة المتكلم أو الكاتب التعبير عن نفسه فى صراحة وصدق وقوة تأثير . فالكاتب الذى يسخر من العرف اللغوى السائد فى مجتمعه ويختار عن عمد أسلوباً آخر ، لا يلبث أن يجد نفسه يكتب فى فراغ ، لانصراف الناس عن أدبه . أما الذى يلتزم التوازن بين النظام والحرية ، بين التقليد والتجديد ، بين سلطة المجتمع وشخصيته الفردية ، فهو صاحب الإنتاج المحبوب المأنوس الذى يتطلب دائماً أن ننشطه ، وأن نبعث فيه الحياة عن طريق تلك الينابيع المتفجرة من الاستعمالات العامة فى صورها التى لا حصر لها . فنحن الآن فى أمسّ الحاجة لإيصال الأفكار والأحاسيس فى دقة ودون لبس أو إبهام، لأنا فى عصر التقدم السريع للعلم والتكنولوجيا . فإن الوعى اللغوى لم يكمل نضجه ، ولم يتضح أثره إلا فى العصور الحديثة . وقد عبر عن هذا « لويس » فى بدء كتابه اللغة والمجتمع بقوله : (نحن فى وسط ثورة لغوية ، فى السنين الخمسين الأخيرة تأثر كل تحول كبير فى حياة الناس فى المجتمع بنمو المواصلات المادية ، ولم يكن تأثره بنمو الاتصال اللغوى أقل من ذلك أو متخلفاً عنه . ولعلنا فى بداية ما لا بد أن يكون تغيراً شاملا فى وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية)[1] .

وقد أسهب « لويس » وأفاض فى كتابه حين حدثنا عن أن اللغة وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية . وكان مما قرره أنه كلما ازداد الفرد توغلا فى عضويته للمجتمع ، ووثوقاً فى صلته به ، زاد دور اللغة ، لا فى حياته الاجتماعية فحسب ، بل فى سلوكه وإحساسه وتفكيره أيضاً .

وقد بدا دور اللغة فى المجتمع الإنسانى الحديث ، فى صورة جلية ، وظهر

(١) ترجمة الدكتور تمام حسان M.M. Lewis : Language in Society. ص ١ .

أثره فى الصناعة والحروب الحديثة والنظم السياسية . فأصبحت الثورة اللغوية جزءاً من الثورة الصناعية ، ولا يمكن لمجتمع اليوم أن يستغل كل موارده الاقتصادية ، استغلالا تاماً إلا على أساس تعميم القراءة والكتابة ، أو ما نسميه بالوعى اللغوى الذى يشمل أيضاً القدرة على الكلام والاستماع بعد أن تطورت وسائل الاتصال الكلامى على موجات الأثير .

فإذا نظرنا إلى الحرب الحديثة رأينا أن الاستعمال اللغوى غير مقصور على تدريب الجندى، بل إن الجندى خلال المعركة وفى كل لحظة من لحظاتها، وفى أثناء قيامه بالقتال ، يتلقى الأوامر بين الحين والحين . فالحرب الحديثة فى أيامنا هذه تعبير عن الشعور الجماعى ، وتتطلب لذلك وعياً لغوياً شاملا . وتمثل الزيادة الهائلة فى استعمال الكلمة المنطوقة والمكتوبة فى الحرب الحديثة ، أحد التيارات الرئيسية للثورة اللغوية . أى أنه مع الآلية الكاملة فى الحرب الحديثة ، ومع النمو الضخم فى حجم الوحدة المقاتلة ، وميدان العمليات الحربية، لا يصبح المنهج الجماعى ممكناً إلا مع اتصال لغوى شامل ؛ لأن الشعور الجماعى يعدّ من أهم ما تتسم به الحرب الحديثة . وليس يقتصر هذا الشعور الجماعى على المشتركين فعلا فى المعارك من جنود وبحارة وطيارين ، بل يشمل أيضاً كل عضو فى المجتمع . ذلك لأن الإرشادات اليومية التى تصدر للشعب . وتحريضه على التماسك فى وحدة لا تنفصم أمام العدو . وكتمان ما يحدث أمام الجماهير لئلا يعلم به الأعداء ؛ وتجاهل ذلك الفيض من الدعايات الذى يفد ليلا ونهاراً من معسكر العدو ، كل هذا يتطلب تناسقاً وترابطاً فى المجتمع كله عن طريق الكلمات المنطوقة والمكتوبة . فحتى المنشورات التى نلقيها من الجو تعدّ بمثابة قذائف لغوية ذات أثر كبير فى تحطيم الروح المعنوية لدى الأعداء .

أما دور اللغة فى النظم السياسية فربما يكون أوضح ، وأثره أعمق . ففى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية ؛ بل خلال هذه الحرب ؛ شهدنا بوضوح ظهور العقل الجماعى فى صورة متميزة لدى كل من النظم السياسية الثلاثة التى سادت فى أوربا حينئذ من شيوعية وفاشيستية وديمقراطية غربية .

فقد استغل الاتصال اللغوى لخدمة كل من هذه النظم السياسية المتباينة ، ووجد الساسة والقادة فى هذه الدول أن من الضرورى توجيه المواطنين نحو أهداف الدولة ، وتدريب كل منهم على أداء دوره السياسى . إذ يتحتم أن يصبح أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب يعنون بالنشاط السياسى ، ويتدربون على المناهج السياسية ، التى تكفل الحفاظ على كل من هذه النظم السياسية . فتوضع أمامهم غايات محددة لأهداف الدولة ، ويبصرون بها ويشجعون على الرغبة فى الوصول إليها . واستخدم فى هذا السبيل ، وعلى نطاق واسع ، الصحافة والإذاعة ، وهما من أهم أدوات الثورة اللغوية .

وبرغم أن موجات الإذاعة تتجاهل عادة حدود الدولة ، وأن العدو يستطيع أن يقتحم تلك الحدود بإذاعاته المسمومة ، لم يحاول القادة فى أى من هذه الدول مصادرة أجهزة الراديو لدى أفراد الشعب ، لأن مثل هذا التصرف ، فوق استحالة نجاحه حتى مع فرض أردع القوانين ، سيؤدى فى نهاية الأمر إلى حرمان الدعاية المحلية من أقوى أسلحتها وأمضاها .

ففى ألمانيا النازية أسست هيئة ثقافية تحت إمرة « جوبلز » ، وسيطرت هذه الهيئة على الأدب والصحافة والإذاعة والفن والموسيقى والمسرح والسينما . ووجهت كل ذلك لخدمة الدولة . وتطلب ذلك مختارات معينة من التعابير الكلامية ذات الأثر القوى فى نفوس الناس وعقولهم . واتسمت هذه التعابير بالزيف حينا ، والصدق حيناً آخر ، ولكنها فى الحالين تعد مظهراً من مظاهر الثورة اللغوية .

أما فى روسيا الشيوعية ففوق ما كان لدى النازيين من السيطرة على نواحى الاتصال اللغوى وتوجيهه ، يقضى دستورهم بانتخاب مجلس السوفييت الأعلى عن طريق اللجان المحلية لنواب العمال . فلديهم انتخابات ذات صور متدرجة من أسفل إلى أعلى ، أى تبدأ من القاعدة الشعبية وتنتهى بالمجلس الأعلى . ومن المفروض أن تتم عمليات الانتخاب وسط المناقشات التى تثور عند الترشيح لكل طبقة من طبقات النظام السوفييتى . وفى تلك المناقشات ولا شك توعية

لغوية ، أو اتصال لغوى شامل ، يؤدى حتماً إلى الشعور بدور اللغة وقوة تأثيره .

ولكن مع ذلك نشعر حين نعرض للنظام الديمقراطى الغربى ، أى الذى يعتمد على الحكومة النيابية الحزبية ، أن الحاجة إلى النقاش والمحاجة أشد وأكثر إلحاحاً . ذلك لأن الاتفاق النهائى فى مثل هذا النظام إنما يتم عن طريق الصراع بين الاختلافات الفردية فى الرأى . لذلك تُعنى النظم الديمقراطية الغربية بمسألة الاتصال اللغوى كل العناية ، وتوليها كل الاهتمام ، فليست المناقشة ابتغاء الوصول إلى رأى نهائى إلا تفكيراً جماعياً وسيلته اللغة أو الكلام . وحين يتقرر مبدأ سيادة الشعب ، وحرية رأى الفرد ، تتألف المجالس التى تمثل الأفراد من مجالس بلدية ومجالس إقليمية ومجالس نيابية ، ويحتدم النقاش فى كل من هذه المجالس فى لغة مشتركة تلقى بها الخطب ، وتصاغ بها البيانات والقرارات . وتدار عن طريقها المحاجة ، وكل ذلك رغبة فى الوصول إلى رأى يتفق عليه .

فالحزب السياسى يبرهن على وجوده وقوته وتماسكه بتلك الاجتماعات التى يعقدها لتبادل الآراء بين أعضائه . وتقرير الموضوعات ذات الصالح العام التى توضع للمناقشة بينهم . فاللغة ضرورة اجتماعية . والسلوك السليم فى المناقشة أمر لا يمكن الاستغناء عنه أبداً فى كل مجتمع حر . والقيادة الحكيمة الحازمة لرئيس الاجتماع ذات أهمية كبرى فى كل اجتماع ، سواء بدأنا بالاجتماعات القرية أوانتهينا إلى الاجتماعات العالمية . ومن مسئولية رئيس الاجتماع أن يستوثق من أن العمل فيه يسير فى نظام وسرعة إنجاز ، وأن المسائل المعروضة للمناقشة من الوضوح بحيث يتبين المجتمعون فى سهولة ويسر ماذا يراد منهم تقديره . وما يمكن أن يسفر عنه قرارهم . ولهذا يجب أن يتسم رئيس الاجتماع باللباقة والسيطرة التامة على اللغة . إذ يساعده هذا على إدارة الاجتماع فى مهارة وحزم . وإرشاد الأعضاء فى صبر وأناة . وتشجيعهم على المناقشة والمحاجة ، لأنه يدرك أن حرية الكلام هى أثمن الحقوق فى كل مجتمع حر ، وأنه لا يمكن الحفاظ على هذه الحرية إلا باليقظة وسعة الصدر .

وللاتصال اللغوى وجهان أو ناحيتان هما : الكلام والإصغاء. وليس يقل الإصغاء أهمية عن الكلام فى أى مجتمع عام . فاللبيب الحاذق حين يكون فى موقف المعارضة يدرك تمام الإدراك قدر الحكمة المأثورة التى تقول : « استمع جيداً إلى خصمك » . فالإصغاء الجيد مثل الكلام الجيد ، ولكنه ربما يكون أشق وأصعب . ذلك لأن الاستماع الجيد أو حسن الإصغاء يتطلب تركيزاً فى كل المواهب الذهنية . وليس من اليسير على كثير من الناس أن يصغوا إلى حديث يستغرق فترة طويلة دون أن يشط الذهن فى أى لحظة من لحظاته .

ومع أن الناس عادة يحسنون الحديث خيراً من الإصغاء ، لا نزال ندعو فى مجتمعاتنا إلى التنافس بين المتكلمين ، ونشجعهم على التعبير عن خواطرهم ، حتى حين لا يكون لديهم ما يستحق التعبير عنه . وقد نشجع على حسن الإصغاء أيضاً إذا تذكرنا أن بعض أولئك الذين يبدون فى المجتمعات وكأنهم مجرد مستمعين للمناقشة ؛ يستطيعون خلال هذا الصمت إعداد قدر من التعابير فى أذهانهم ، يدلون لها فيما بعد كل المجتمعين ، وتكفل لهم الغلبة والنصر على معارضيهم .

الفصل الثانى

القومية

القومية مصطلح اجتماعى سياسى حديث بدأ الدارسون للاجتماع والسياسة يتداولونه بالبحث منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن . وهو كمعظم مصطلحات الاجتماعية السياسية يعسر أن يعرّف تعريفاً جامعاً مانعاً ، ولذلك نرى فى بحوث من عرضوا للقومية تعريفات عدة متباينة إلى حد ما[1] .

ولعل مما أدى إلى عسر تعريف القومية فى شكل حاسم عدم وضوح الفرق بين مصطلحى «الأمة» و «الدولة» فى كثير من الأذهان ، والخلط بينهما فى العصر الحديث .

أما فى العصور التاريخية القديمة فلم يكد الباحثون يعنون بالتمييز بين فكرة «الأمة» وفكرة «الدولة» . وكل الذى تصوروه عن «الدولة» أنها السلطة القائمة بالحكم ممثلة فى ملك من الملوك ، أو فى إمبراطور ، أو فى قائد أو زعيم . أما «الأمة» فشعب يتميز باسم خاص يطلق عليه ، وبصفات معينة ربما كان أوضحها أن له لغة واحدة .

ولسنا نشك لحظة فى أن القدماء كانوا يدركون تميز الأمة العربية مثلا عن الأمة الفارسية أو عن الأمة الهندية ، ولكنهم لا يكادون يربطون بين فكرة «الأمة» وبين نظام الحكم أو القائمين به ذلك الربط الوثيق الذى نلحظه فى الدراسة الحديثة . ذلك لأن الذين قاموا بالحكم ، أو تولوا القيادة فى العهود القديمة ، كانوا ينتمون إلى أسر معينة وتوارثوا الحكم بعضهم عن بعض ، أو كانوا من الزعماء والقواد المغامرين الطموحين الذين نصبوا أنفسهم لحكم شعب أو أكثر من شعب . وربما كان كل من هؤلاء وهؤلاء أجنبياً عن الأمة

---

(١) انظر كتاب : «ما هى القومية» ؟ ، لساطع الحصرى بيروت ١٩٥٩ .

المحكومة لا يشرك أهلها فى نسب أو لغة أو نحو ذلك . فلم يكن المحكومون فيما مضى يرون غرابة أو غضاضة فى أن يتولى أمورهم أجنبى متى توفرت له أسباب الحكم ، واستطاع بوسيلة ما الوصول إلى مركز السلطان . أى أن ما نتصوره الآن من وجود صلة أساسية بين انتماء الفرد إلى « أمة » و إلى « دولة » معاً وفى نفس الوقت ، يعد فى الحقيقة فكرة جديدة نشأت فى القرون الثلاثة الأخيرة . فقد أصبحنا الآن ندرك أن معنى الجماعة القومية وهى التى يعبر عنها بالأمة ، يتضمن الحق فى أن تنال أو تكتسب صفة الدولة .

وهكذا نرى أن عصور التاريخ قد عرفت الأمم كما عرفت الدول ، وإن لم تميز بين هذه وتلك التمييز الدقيق على النحو الذى يقوم به المحدثون من دارسى الاجتماع والسياسة .

فإذا تساءلنا كيف ومتى نشأت فكرة « الدولة » تبين لنا أن نشأتها ترجع إلى آلاف من السنين ، وأنها أسست على النظام القبلى ذلك النظام الاجتماعى الأصلى للإنسانية الذى لا يزال سائداً فى بعض جهات أفريقيا وآسيا حتى الآن . فهو النظام الذى كان ينتظم كل أنحاء العالم فى وقت من الأوقات .

ويمكن أن يلخص هذا النظام القبلى ، دون خوض فى تفاصيل الدراسة الاجتماعية بأنه بدأ فى صورة القرابة أو الانتماء إلى أسرة واحدة ، وفى توثق صلة المرء بفريق من الناس أكثر من صلته بالآخرين ؛ وفى خضوعه لسلطة موحدة فى هذا المحيط الضيق .

وقد قويت هذه الوحدة بين الأقارب ، وتوثقت عراها عن طريق الاشتراك فى اللغة أولا وبالذات ، ثم عن طريق الاشتراك فى التقاليد والعادات والأساطير . ولذا نلحظ فى الأساطير الإنسانية القديمة صلة القرابة والانتماء إلى الأسرة الواحدة فى وضوح وجلاء ، كما نلحظ فيها التعبير عن الأغراب الذين لاينتسبون إلى هذه الأسرة ، والذين كانوا يعدون من وجهة نظر أفرادها أعداء فى كثير من الحالات .

وإنه لمن المؤسف والمخجل حقاً أن كل أسباب التوتر التى نشهدها فى

العصر الحديث، وكل أنواع الخلاف والنزاع الذى يقوم الآن بين الدول ويؤدى إلى العداوة والبغضاء وويلات الحروب، لها ما يناظرها فى المجتمع القبلى البدائى. فقد ظهر للمبشرين فى أفريقيا مثلا حين اكتشفت منذ نحو قرن أو يزيد أن كل الحروب القبلية هناك ترجع إما إلى ضغط اقتصادى من مجاعة وعوز، أو إلى ضغط سياسى رغبة فى التوسع القبلى. فاعتداء قبيلة على أرض أخرى، أو على مكان صيدها لا يكاد يختلف إلا فى الكم عن رغبة «هتلر» حين كان يمنى نفسه بالاستيلاء على مصادر القمح العظيمة فى «أوكرانيا». أى أن أولئك المعتدين البدائيين من زعماء القبائل فى مستهل تاريخ الإنسانية يعدون فى الحقيقة بمثابة الأسلاف لأمثال «الإسكندر، وتيمور – لانك، وجنكيزخان، ونابليون».

أما كيف انتهى ذلك النظام القبلى من معظم العالم. وكيف حل محله نظام الدولة فيرجع ذلك إلى عوامل ثلاثة:

أولها: الحاجة الملحة إلى التعاون بين القبائل لخلق حالة من الاستقرار دعا إليها التقدم الزراعى. وبدت هذه الحاجة واضحة جلية فى حوض النيل ودجلة والفرات. فلم يكن من اليسير التغلب على كوارث الفيضان فى هذه الأنهر إلا بعمل جماعى منظم يشترك فيه عدد كبير من الناس. ولذلك نشأت المدنية الإنسانية فى أحواض هذه الأنهار. وأدى التعاون بين القبائل فى هذه المناطق إلى خلق نظام سياسى وإدارى حتى تتحقق أهدافه أو أغراضه التى هى فى حقيقة الأمر أهداف اقتصادية. وحتى يجنى الجميع ثماره. ويكفل لهم حياة مستقرة فى رخاء وأمن من المجاعات، عن طريق ذلك التقدم الزراعى.

أما العامل الثانى فى نشأة الدولة، فهو هجرة جماعات كبيرة من الناس واستقرارها فى سلام بمنطقة معينة. فقبائل السلاقيين الذين انتشروا فى شرق أوربا هم أساس دولة الاتحاد السوفييتى، وكذلك الشأن فى الهجرات الكبيرة إلى أمريكا الشمالية.

ويحدثنا التاريخ عن عدد من مثل هذه الهجرات السلمية الجماعية التى ترتب عليها نشوء بعض الدول القديمة.

أما العامل الثالث: فهو الغزو ، وأمثلته كثيرة فى التاريخ . وترتب على هذا الغزو أن عظمت رقعة الدولة ، وأصبح الحكم فيها خلال فترات تاريخية طويلة ، واتخذ السلطان السياسى فيها شكل أسرة حاكمة لدولة عظيمة أو إمبراطورية .

ومع ظهور تلك الدول العظيمة فى عصور التاريخ ، ثم اختفاؤها أو اندثارها بقيت هناك قوة كامنة تربط بين جماعة من الناس ربطاً وثيقاً ، وتشد بعضهم إلى بعض فى تجاذب عجيب ، ومشاركة فى الشعور ، وإحساس بما يحفزهم على التوادّ والتراحم فيما بينهم فكأنهم أسرة واحدة ، مما يجعل لهذه الجماعة شبه كيان مستقل عن الجماعات الأخرى فى تلك الدولة العظيمة . وتلك القوة الكامنة هى التى تبلورت فى العصر الحديث إلى ما يسمى بالقومية .

أى أن التاريخ القديم قد عرف القومية . ولكنها كانت خلال عصوره المختلفة بمثابة القوة الكامنة التى لا تكاد تظهر حتى تختفى أو تكمن . وإلا فكيف تفسر أن إحدى الأسر الحاكمة فى الصين قبيل ظهور المسيحية قد ضمت إلى ممتلكاتها ما يعرف بدولة « أنام » شرقى الهند الصينية . وأن الأناميين قد خضعوا للحكم الصينى والثقافة الصينية أكثر من ألف عام . ثم مع هذا انفصلت « أنام » عن نفوذ الصين فى القرن الخامس عشر ، وحددت كيانها المستقل . وتم هذا برغم ما اشتهرت به الثقافة الصينية من القدرة على امتصاص الشعوب الأخرى وهضمها ، أى أن الإمبراطورية الصينية العظيمة لم تستطع خلال ألف سنة أن تقضى على تلك القوة الكامنة التى يمكن أن نطلق عليها القومية الأنامية . ودولة « أنام » هى التى تعرف الآن بفيتنام الشمالية والجنوبية ، والتى تشهد صراعاً مريراً مع أمريكا .

ويبدو أن تلك القوة الكامنة التى نطلق عليها الآن اسم القومية كان لها شأن ما فى كل عصور التاريخ ، وإن ظلت فى أكثر الأحيان فى حالة انزواء أو تربص ، تبزغ فى صورة خاطفة على إثر انهيار الإمبراطوريات أو الدول العظيمة . وفوق أنقاض المآسى والمذابح التى ابتلى بها الناس عند انهيار دولة من تلك الدول الكبيرة لاحظ المؤرخون أن هذه الدولة تتفتت إلى جماعات ، كل جماعة منها ينجذب أفرادها بعضهم إلى بعض برباط سحرى ، متخذين

لأنفسهم وطناً صغيراً يجمع شملهم ، وفيه ترعى مصالحهم . ثم لم تكد تمضى فترة تاريخية قصيرة حتى عادت الحال سيرتها الأولى ، وتكونت دولة كبيرة أخرى ، تنضوى تحت نفوذها تلك الأوطان الصغيرة .

ونتساءل فى كل حدث من تلك الأحداث التاريخية عن كنه ذلك الرباط السحرى الذى يعمل على انجذاب أفراد كل جماعة بعضهم إلى بعض ، وعن الحافز على وحدة الشعور بينهم ، وعلى أن يسود التوادّ والتراحم بعضهم مع بعض : هل هو الاشتراك فى لغة واحدة ؟ هل هو الاشتراك فى منطقة من الأرض يعيشون فيها ؟ هل هو الاشتراك فى العقائد والأديان ؟ . إلخ . ونظل نتساءل عن هذا السرّ . ثم لانكاد نتفق أو نجمع على رأى حاسم ، لأننا نجهل الكثير من الظروف والملابسات التى صاحبت تلك الأحداث التاريخية .

لذلك يعسر تشخيص القومية فى ضوء الأحداث التاريخية القديمة ، ويقتنع الباحث الآن بالتماسها فى التاريخ الحديث ، لأن حوادثه أقرب إلينا ، وعلمنا بتفاصيلها أكبر وأدق ؛ ولأن مصطلح القومية فوق هذا مصطلح حديث ، فلم يكن فى العهود القديمة موضع مدارسة بالتحليل والتفسير وسبر الغور .

لا غرابة إذن أن يقرر معظم الدارسين من المحدثين أن القومية كما نفهمها فى العصر الحديث قد ولدت فى مهد البحر الأبيض المتوسط وغرب أوربا . فبعد سقوط الدولة الرومانية كان غرب أوربا مستقراً لجماعات قبلية امتزج بعضها فى بعض نتيجة عدة غزوات ؛ وانتهى أمرها إلى أن اتخذت شكل الممالك أو الإمارات الإقطاعية . وفى أواخر القرون الوسطى بدأت ثلاث من هذه الجماعات تأخذ شكلا قومياً واضح المعالم والسمات . فالجماعة الأولى قد تألفت من قبائل « الغال » ؛ وكانت تتكلم لغة منحدرة من اللاتينية ، ولكنها تتميز بطابع محلى متأثرة بما كان سائداً فى تلك المنطقة من لغة اندثرت على إثر الغزو الرومانى وهى اللغة « الكلتيه » . لذلك اتصفت اللاتينية الجديدة فى بلاد « الغال » بسمات خاصة ، وأصبحت فيما بعد ما يعرف باللغة الفرنسية ، وما تعرف منطقتها باسم « فرنسا » . ولفرنسا حدود طبيعية مميزة ؛ إذ تتكون

معظم حدودها من جبال البرانس والمحيط الأطلنطى وجبال الألب . أما حدودها من جهة الألزاس واللورين فليست حدوداً طبيعية ، ولذلك كانت سبباً فى عدة غزوات ، وفى إثارة المشاكل السياسية بين فرنسا وألمانيا فى العصر الحديث . ولم يكد ينقضى القرن الرابع عشر الميلادى حتى كانت فرنسا مجتمعاً قوميا يشعر بكيانه المستقل ويتكلم ما نعرفه الآن باللغة الفرنسية التى أصبحت المهاد النفسى والفكرى لهذا الشعب . وهكذا تكونت القومية الفرنسية ؛ وأصبح الفرنسيون منذ ذلك الحين يشعرون شعوراً قويا بكيانهم وبقوميتهم التى نماها وقواها ، وأشعل أجيجها ، ما كان بين فرنسا وإنجلترا من حروب . فليس هناك ما يعمق الشعور بالقومية مثل وقوف الجماعة ضد أقوام آخرين ، واعتبارهم أعداء أو خصوماً .

وأما القومية الثانية التى نشأت فى غرب أوربا فقد كانت القومية الإنجليزية وقد مرت بما يشبه التجارب التى مرت بها القومية الفرنسية ؛ إذ بعد الغزو النورماندى امتزجت اللغة الفرنسية لغة الغزاة بلغة السكسونيين ، وتمخض ذلك الصراع اللغوى عما نعرفه الآن باللغة الإنجليزية ؛ التى سادت فى معظم الجزر البريطانية ، وأصبحت أيضاً المهاد النفسى والفكرى للشعب الإنجليزى . وقد ألهب الشعور بالقومية الإنجليزية وغذى جذوته ما خاضه الإنجليز من حروب فى ذلك الحين ضد الفرنسيين والأسبان ؛ كما عمل على تمييزها واستقلالها انعزال الإنجليز فى جزر مقطوعة الصلة بالقارة الأوربية . وقد استمد « شكسبير » فى رواياته التاريخية نماذج الشعور بالقومية الإنجليزية من حروب إنجلترا مع فرنسا وأسبانيا . ذلك لأن التحام الجماعة القومية بأعدائها يقوى دائماً من شعورها بكيانها وذاتيتها .

ثم كانت القومية الثالثة فى غرب أوربا ، وهى القومية الأسبانية التى نشأت على إثر صراع الأسبان مع العرب ، ونجاحهم فى إجلاء العرب عن شبه الجزيرة ذات الحدود الطبيعية من المحيط والجبال . ولعل مما ساعد على تميز القومية الأسبانية ، تلك الحدود الطبيعية التى عزلتها عن سائر أوربا ، وتلك الحروب

التى ثارت بينهم وبين العرب ، ثم التى خاضها الأسبان ضد إنجلترا . وهكذا نشأت القومية الأسبانية واللغة الأسبانية التى انحدرت أيضاً عن اللاتينية ؛ غير أنها تتميز بطابع محلى قوى من شعور الأسبان بقوميتهم . ذلك لأن الرومان حين غزوا أسبانيا ومعهم لغتهم اللاتينية عملوا جاهدين على أن تحل اللاتينية محل اللغة التى كانت سائدة فى أسبانيا حينئذ . وانتهى ذلك الصراع اللغوى بفوز اللاتينية وحلولها محل اللغة الأخرى ، ولكن بعد أن أثخنتها الجراح . واندثرت اللغة الأخرى تدريجياً بعد أن خلفت فى لاتينية أسبانيا آثاراً ميزتها عن الفرنسية . وأصبحت اللغة الأسبانية فى ثوبها الجديد المهاد النفسى والفكرى للشعب الأسبانى أيضاً .

وهكذا نرى أن أقدم القوميات الأوربية هى التى تكونت فى غرب أوربا ، ولكن تلك القوميات التى نشأت قبل القرن التاسع عشر قد انحرفت عن فكرة « القومية » كما يحددها الدارسون فى العصر الحديث ، وتطلعت إلى ما هو أبعد من القومية . وأصابتها فيما بعد ما يمكن أن يسمى بعقدة التفوق ؛ نشنت الحروب بغية التوسع فى أراضيها . وتكوين دولة كبيرة أو إمبراطورية ؛ كما شابها حكم الفرد من ملوك وأباطرة فى إنجلترا وفرنسا وأسبانيا . فأصبحت هذه الدول الكبيرة تتخذ شعار القومية فى بلادها ممثلا أولا فى ملوكها ثم فى حكومتها بعد ذلك . ولما زاد طموحها وكثرت أطماعها وأصبحت لها مستعمرات بدأت تنظر إلى « القومية » فى البلاد الأخرى نظرة خاصة ؛ تنكرها حينا وتسخر منها حيناً آخر .

وليست القومية فى مثل هذه الدول الكبيرة بالقومية التى يعنيها الدارس الحديث للاجتماع والسياسة . فهو يرى أن القومية بمفهومها الحديث لم تظهر فى أوربا إلا خلال القرن التاسع عشر على إثر حافزين أساسيين هما : قوة الوعى السياسى بين الأفراد فى المجتمعات ؛ والثورة الاقتصادية الصناعية .

ويعبر عن هذا بروفسر « توينبى » فيصف نمو القومية وقوتها فى القرن التاسع عشر بقوله : إن الدول قبل هذا القرن كانت تحكمها فى أوربا عائلات ملكية مثل أسرة « هابسبرج » فى ألمانيا . فلما كان القرن التاسع عشر اقتحم

هذه الدول قوتان: إحداهما الديمقراطية ، أى الرغبة الملحة لدى كل فرد فى أن يكون له دور ما فى المجتمع ، وأن المجتمع لذلك يجب أن يمثل مصالح المواطنين . أما القوة الأخرى فهى الاقتصاد القوى ، واعتقاد الناس أن الثورة الصناعية التى سادت فى بعض نواحى أوربا قد جعلت حياة الفرد فى خطر ، وحتمت على كل دولة أن تعمل جاهدة على حماية الاقتصاد القوى . وهذا الحماس المفاجئ فى الإحساس بالمصلحة لدى كل أفراد الشعب هو الذى نمى قدرة الشعب ونشاطه وإمكانياته فى القيام بالجهود العامة . ولكنه من ناحية أخرى ولسوء الحظ دعا إلى ما يشبه العداوة والبغضاء . فلم نلبث أن شهدنا أنه حين أصبحت مصلحة المجموع مهددة من الخارج هب المجتمع كله وهو يحس أن حياته كلها فى خطر . وهكذا على أساس من هذه المخاوف شحنت قومية القرن التاسع عشر بالعداوة والبغضاء وفقدان الثقة ، وأصبحت النظرية التجارية التى نادى بها « تنيسون » فى إنجلترا من توحيد الشعوب فى نسيج واحد مشترك المصالح ، ومن تكوين اتحاد بين شعوب العالم عن طريق التجارة الحرة ، أصبحت هذه النظرية فى خبر كان ، ولم يعد يؤمن بها أحد بعد منتصف القرن التاسع عشر [1] .

ونشوء القومية الحديثة فى غرب أوربا عملية تاريخية تمت فى دول معينة ، وفى ظروف خاصة ، وبوسائل مختلفة ، غير أن سهولة المواصلات فى العصر الحديث جعلت الفكرة الاجتماعية السياسية التى تشيع فى شعب من الشعوب تنتقل إلى الشعوب الأخرى ، إن شئت قلت عن طريق العدوى ، أو قلت عن طريق التقليد وتبادل الثقافات . أى أن ذلك الاتجاه الاجتماعى السياسى الذى ندعوه بالقومية أصبح ملكاً للإنسانية جمعاء . ومن المؤكد أن القومية فى غرب أوربا التى هى فى الحقيقة نتاج ظروف وعوامل خاصة بهذه المنطقة من حيث النواحى السياسية والجغرافية والاقتصادية ، قد انتقلت إلى العالم كله فساعدت على ذلك النمو السريع الذى نلحظه الآن فى عدد الدول المشتركة فى الأمم المتحدة .

Five Ideas that Change the World. by Barbara Ward p. 17. London 1959. (1)

فلم يحدث فى تاريخ الإنسانية أن استقل مثل هذا العدد الكبير من الدول على أساس القومية . فقد أخذت فكرة القومية تتغلغل أيضاً فى الشعوب الآسيوية ثم فى الشعوب الأفريقية . وهكذا يمكن أن يقال إنه إذا كان القرن التاسع عشر عصر القوميات فى أوربا ، فإن القرن العشرين عصر القوميات فى سائر العالم .

ومما يدعو إلى الدهشة حقاً موقف الدول الكبيرة فى أوربا من القوميات التى نشأت بها خلال القرن التاسع عشر . فقد كانت إمبراطورية النمسا وروسيا القيصرية من أشد الدول مقاومة لفكرة القومية ، وأقساها ضراوة فى محاربتها . فكانوا يقمعون الحركات القومية التى تقوم فى بقاعهم الشاسعة ، بل كانوا أيضاً يستنكرون أشد الاستنكار ما يقوم من القوميات فى سائر المناطق الأوربية الأخرى فى غير بلادهم ، ومما لا يخضع لنفوذهم . فحين قام الشاعر اليونانى « ريفاس » يدعو قومه إلى الاستقلال ويشيد بالقومية اليونانية فى أثناء إقامته ببلاد النمسا بادرت الحكومة النمسوية إلى اعتقاله وتسليمه إلى الدولة العثمانية التى قامت بشنقه فى بلغراد . وحين قام « ابيسبلانتى » بثورته فى رومانيا ، وإشادته بالقومية الرومانية ضد استعمار الدولة العثمانية ، تطوع قيصر روسيا فأصدر بياناً استنكر فيه هذه الثورة بأصرح العبارات وأقساها .

وقد قمعت روسيا القيصرية بكل عنف وقسوة ثورة « بولندا » سنة ١٨٣٠ . وكذلك الشأن عندما ثار المجريون على إمبراطورية النمسا سنة ١٨٤٩ سارعت روسيا القيصرية إلى نجدة النمسا لإخماد هذه الثورة .

على أن هذه الدول الكبيرة فى أوربا لم تلتزم موقفاً محدداً إزاء القوميات الناشئة ، فقد هبت روسيا القيصرية لمساعدة ثورة اليونان ، وجاهدت فرنسا جهاداً طويلا ضد الوحدة الألمانية أو القومية الألمانية ؛ أما إنجلترا فكانت سياستها إزاء القوميات الناشئة تتذبذب على حسب ما تقضى به مصالحها الخاصة ؛ فلم تكن تعترف بمبدأ حقوق القوميات اعترافاً صريحاً ، ولم تكن تعارضه معارضة واضحة جلية . وكذلك الشأن فى فرنسا ، فقد كانت تتأرجح بصدد قضايا القوميات بين التأييد والمعارضة . فقد أيدت الحركات القومية فى بلاد

اليونان وبلجيكا ، ولكنها وقفت موقف التردد والتخاذل إزاء حركات الاتحاد الإيطالى . وذلك برغم مبادئ الثورة الفرنسية ، وبرغم ما كان ينادى به بعض المفكرين فى فرنسا من أمثال «رينان» الذى كان يقول (إن كل قومية تولد وتنشأ يجب أن تلقى من فرنسا التشجيع والعون) ، وقول : لامرتين وهو وزير الخارجية سنة ١٨٤٨ مشيراً إلى حركات الاتحاد الإيطالى والاتحاد الألمانى : (إن فرنسا لن تعارض هذه الحركات ، ولن تسمح لسائر الدول بمعارضتها)[١] .

ومن الغريب حقاً أن نجد بعض الساسة والمفكرين فى هذه الدول الكبيرة يقفون من الحركات القومية فى أوربا خلال القرن التاسع عشر موقف الاستخفاف بها والسخرية منها ، ويرونها وليد الوهم والخيال . فيقول السياسى النمساوى الشهير «مترنيخ» هازئاً ساخراً من فكرة الوحدة الإيطالية : (لا رابطة تربط مختلف الأقطار فى إيطاليا غير التسمية الجغرافية) . ويقول السياسى الإنجليزى المعروف «ديزرائيلى» واصفاً فكرة القومية : (إنها من خلق جماعة من الطلاب المحرومين من المخ ، ومن الأساتذة الموغلين فى التعصب) . ويقول السياسى الفرنسى المشهور «تيير» عن مبدأ حقوق القوميات : (أنا لا أعرف مبدأ أشد سخافة من هذا المبدأ . وأقدر منه على الهدم والتخريب) .

بل إن جماعة من رجال الدين الكاثوليكى قد بلغ بهم الضلال إلى أن يصموا فكرة القومية بالكفر والإلحاد زاعمين أن اختلاف اللغات الذى يستند عليه مبدأ القوميات دليل صريح على غضب الخالق الأعلى : لأنه فى أصل نشأته نتاج للمعصية والزيغ عن طاعة الله . . ولعلهم بهذا يشيرون إلى قصة التوراة فى بلبلة الألسنة .

وأما المفكرون فى الأمم النامية خلال القرن التاسع عشر فقد أشادوا بالقوميات ودافعوا عنها : فكان فى ألمانيا «فيختة» ، و«ماكس نورداو» ؛ وفى بلجيكا «أميل لاوولاى» . ولكن مما يؤسف له أن هؤلاء المؤيدين لفكرة القومية فى القرن التاسع عشر قد قصروها على أوربا . فلم يكونوا يرون أن

(١) كتاب «ما هى القومية؟» لساطع الحصرى ص ١١ — ٢٣ .

شعوب آسيا وأفريقيا أهلا لتلك الحكم القومى. فيقول « ماكس نورداو» مثلا : (إن شمال أفريقيا يجب أن يكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوربية ، وأما سكانه الحاليون فيجب أن يدفعوا نحو الجنوب وفى مجاهل الصحراء إلى أن يفنوا هناك) ..

يجدر بنا بعد هذا أن نستعرض فى إيجاز نشأة القوميات الحديثة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فى القارات الثلاث : أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا .

١ — القوميات فى أوربا

شهد القرن التاسع عشر بعد مؤتمر ڤيينا صراعاً مريراً بين الدول الكبرى فى أوربا ممثلة فى روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والدولة العثمانية ، وبين الشعوب التى هبت تنادى بوحدتها واستقلالها على أساس ما عرف حينئذ بالقومية . وكانت الحركات القومية خلال هذا القرن بمثابة بعث للشعوب من مرقدها . ذلك لأن القومية الواحدة كان ينتهبها أكثر من دولة من تلك الدول الكبيرة ، كما أن الدولة الواحدة كانت تضم عدة قوميات . فلم تكن الحدود فى الدول تتغير بمقتضى نصوص المعاهدات التى تعقد بعد الحروب وحدها . بل كانت تتغير تلك الحدود أيضاً دون حرب أو قتال بسبب زواج الملوك أو وفاتهم . فقد غيرت حروب نابليون خريطة أوربا السياسية ، كما غيرتها الدول المتحالفة التى قهرت نابليون حين فكرت فى إعادة تنظيم أوربا ، وقررت العمل بمبدأ ما سمى حينئذ بحقوق الملوك الشرعية ، متجاهلة مع الأسف الحقوق الشرعية للشعوب والقوميات .

وهكذا ظلت خريطة أوربا بعد مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥ بعيدة كل البعد عن الاعتبارات القومية : فقد ظل الألمان موزعين بين عشرات من الإمارات المستقلة ، وظل الطليان كذلك لا تجمع بينهم وحدة سياسية ، والبولنديون موزعين بين ثلاث دول قوية هى روسيا القيصرية والإمبراطورية النمساوية وبروسيا الألمانية . وظل اليوغسلافيون خاضعين لحكم دولتين كبيرتين هما الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية .

فى حين ظلت الإمبراطورية النمساوية تحكم قوميات مختلفة من ألمان وطليان ومجريين ورومان وتشيكيين وبولنديين ويوغسلافيين . وظلت السلطنة العثمانية تضم فى قسمها الأوربى وحده قوميات متباينة : يونانيين ، وبلغاريين ، وألبان ، ويوغسلافيين .

فإذا قورنت خريطة أوربا بعد مؤتمر فيينا بما صارت إليه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت لنا قوميات أوربية متعددة : فقد توحدت ألمانيا ، وتوحدت إيطاليا ،واستقلت بولندا ، وتكونت يوغسلافيا ، وانفصلت فنلندا عن روسيا ، كما انفصلت النرويج عن السويد ، وبلجيكا عن هولندا ، وتم بجانب هذا أن تكونت دول جديدة أهمها: اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وتشيكوسلوفاكيا .

القومية اليونانية :

هبت اليونان بعد مؤتمر فيينا تنشد استقلالها ، ثائرة على حكم الدولة العثمانية. وظهر فيها جماعة من المفكرين المصلحين على رأسهم «كوريس » Corais الذى كان ينادى بأن الشعور القومى لا يكتمل إلا بإحياء اللغة الإغريقية والأدب الإغريقى . مع أن اليونانيين حينئذ لم يكونوا فى الحقيقة نسلاً مباشراً للإغريق القدماء . وهكذا تطلع اليونانيون إلى لغتهم التى تجمع شملهم ويتميزون بها وحدها عن سواهم . وساعدت الدول الكبرى الحركة اليونانية فهزمت أساطيل إنجلترا وروسيا وفرنسا أسطول محمد على فى نفارين ، وهزمت روسيا تركيا فى معارك أرضية . وأدى هذا إلى استقلال اليونان وبعث القومية اليونانية . فلم يكد العام ١٨٣٠ ينتهى حتى كان لليونانيين كيانهم المستقل فى أوربا وقوميتهم المتميزة ، وكانت بهذا أسبق القوميات الأوربية فى الظهور والاكتمال بعد مؤتمر فيينا . وتم ذلك برغم ماكان يتمتع به اليونانيون تحت حكم الأتراك من مزايا هامة كوظيفة سكرتير الباب العالى وترجمانه وقائد الأسطول العثمانى ، وبرغم الرواج التجارى الذى تمتعوا به ، والرخاء الذى عاش فيه الفلاحون منهم ،

ولكنها القومية ، والبعث القوى، الذى يدعو الناس فلايملكون إلا الاستجابة له.

القومية الإيطالية :

ترك مؤتمر فيينا القومية الإيطالية موزعة مشتتة بين ولايات صغيرة تزعم لنفسها الاستقلال ، وأخرى ترزح تحت حكم الدول الكبرى . ثم بزغ فجر القومية الإيطالية ، وبدأ الإيطاليون يحسون بكيانهم المتميز ، ممثلا فى تلك اللغة التى تنحدر انحداراً مباشراً من اللاتينية، وتربط بينهم ربطاً وثيقاً . فبها يتفاهمون بعضهم مع بعض، وبها يعبرون عن أفكارهم وأحاسيسهم وآمالهم . وظهر بينهم جمعية الكاربونارى ، ثم جمعية إيطاليا الفتاة التى أنشأها « مازينى » الذى لقب بنبى الحرية والوطنية . وبعد ثورات وحروب استغرقت نحو نصف قرن ، اشترك فيها السياسى المحنك ذو العقل الراجح والنظر البعيد « كافور » الذى آمن بالوحدة الإيطالية إيماناً قوياً ، كما اشترك فيها القائد البطل المقدام « غاريبالدى » تمت لإيطاليا وحدتها واكتملت قوميتها ، وتخلصت من نفوذ الإمبراطورية النمسوية سنة ١٨٧٠ . ومع هذا ظهر من زعماء إيطاليا وقادتها من كانوا يرون أن هذه الوحدة غير كاملة ولا شاملة ، وتطلعوا إلى مناطق فى شمال إيطاليا ظلت تحت سيطرة النمسا « كالترنتينو » و « التيرول » و « تريستا » . لا لشىء سوى أن معظم سكان هذه المناطق يتكلمون اللغة الإيطالية . وظهر فى إيطاليا بعد الوحدة حزب قوى يطالب بهذه المقاطعات، ولم تكد تتحقق آماله إلا فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

القومية الألمانية :

كانت حروب نابليون بمثابة المنطلق للقومية الألمانية : فقد أحس الألمان فى أثنائها وبعد هزيمة نابليون بكيانهم وتميزهم عن غيرهم ؛ وبدأوا ينجذب بعضهم إلى بعض ، ويتطلع بعضهم إلى بعض، مع ما كانوا عليه من تشتت وانفصال فى صورة إمارات وولايات يحاول كل من حكامها أن يستقل بمصالحه ونفوذه وسلطانه ، وكان أقواها بروسيا الألمانية . ووجد الألمان منذ

تطلعهم إلى الوحدة أن أوضح ما يتميزون به عن الشعوب الأخرى أن لهم لغة واحدة تجمع شملهم وتلم شتاتهم . ولذلك كان يقول فيلسوفهم « فيخته Fichte » في حواره مع رجل من أهالي بروسيا :

— أنت ، ألست ألمانياً ؟

فيجيبه الرجل فى شكل حاسم :

— كلا ، أنا لست ألمانياً ، بل أنا بروسى .. ولكن « فيخته » يرد عليه قائلا :

— أصغ إلى جيداً ، إن الفرق بين أهالى بروسيا وسائر الألمان ليس إلا فرقاً عارضاً وليد المصادفة . أما الذى يتميز به الألمان عن سائر الشعوب الأوربية فهو اللغة التى يشترك فيها جميع الألمان ، والتى تميزهم تميزاً جوهرياً عن جميع الشعوب الأخرى .

ولذلك تطلع الألمان منذ شعورهم بقوميتهم إلى إحدى زعامتين : بروسيا والنمسا ، ففى كل منهما تسود الألمانية . غير أن « النمسا » خذلتهم وانفصلت عنهم خاضعة لأطماع حكامها من الأباطرة الذين كانوا يؤثرون إمبراطورية شاسعة تضم قوميات متباينة ؛ وبهذا أسلموا زمام الوحدة الألمانية إلى بروسيا ؛ وتمت الوحدة الألمانية فيما بين ١٨٤٨ — ١٨٧٠ بفضل المجهود العظيم الذى بذله ملك بروسيا يعاونه « بسمارك » مستشار الدولة الذى كان يؤمن إيماناً قوياً أنه لا سبيل إلى وحدة ألمانيا بغير حرب ؛ ويعلن فى صراحة أن الوحدة الألمانية لا يمكن أن تقوم على نشر المبادئ والشعارات القومية وحدها ؛ بل لن تتحقق إلا على أسنة السيوف والرماح . فعمل أولا على أن يضمن حياد روسيا ، كما هادن « فرنسا » ، وذلك ليتفرغ للنمسا التى حاربها وهزمها فى موقعة « سادوا » سنة ١٨٦٦ واكتفى بإذلال هذه الإمبراطورية الكبيرة ؛ وضم بعض المقاطعات التى يتكلم سكانها الألمانية ، إلى الوحدة الألمانية مثل « شلسويج » و « هلشتين » ومملكة « هنوفر » ، ومقاطعة « هس » و « فرانكفورت » . فاتصلت أجزاء ألمانيا وأصبحت تؤلف وحدة جغرافية وسياسية تمتد من حدود روسيا إلى حدود فرنسا .

وأخيراً نجح بسمارك فى إثارة فرنسا وحاربها وانتصر عليها . وكان ذلك

ليضمن اعتراف العالم بهذه الوحدة الألمانية من ناحية ، والعمل على دعم الشعور القومى بين الألمان من ناحية أخرى . فليس أقوى على إشعال القومية وتوطيد أركانها من أن يشعر أبناؤها أنهم يواجهون عدواً لهم يتربص بقوميتهم ويكيد لها. وعلى إثر هزيمة فرنسا عقدت معاهدة بين المتحاربين ، وكان أهم نصوصها ضم الألزاس واللورين إلى ألمانيا ، لا لشىء سوى أن اللغة الألمانية لغة معظم سكان هاتين المقاطعتين . وأقنعت ظروف الحرب والانتصارات التى أسكرت الألمان كلهم تلك الولايات الجنوبية ، التى كانت تتردد فى الانضمام نهائياً إلى الوحدة الألمانية مثل « بافاريا » و « ورتمبرج » و « دوقية بادن » ، بأن من الخير لهم الانضواء تحت راية القومية الألمانية ، بزعامة بسمارك . وفى سنة ١٨٧١ توج الملك « ولهلم » إمبراطوراً على ألمانيا فى قصر فرساى . ولكنا نتساءل برغم هذا النصر المبين هل بلغت القومية الألمانية بعد هزيمة فرنسا كل ما كانت تصبو إليه ؟ لعل فى سلوك « هتلر » قبيل الحرب العالمية الثانية ما يجيب عن هذا التساؤل ، إذ كان دائم المطالبة بعشرة الملايين من الألمان المقيمين على حدود ألمانيا الحالية . وكان يعنى بهذا المتكلمين بالألمانية فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا . ولعل أهم ما يسر على هتلر ضم النمسا إلى بلاده دون حرب أو مقاومة أن سكانها لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية [1] .

القومية البولندية :

ظلت القومية البولندية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى تقاسى طغيان الحكم الروسى من ناحية والحكم البروسى من ناحية أخرى . وكان أهم ما اتجهت إليه روسيا القيصرية للقضاء على القومية البولندية محو كل أثر للثقافة البولندية ممثلة فى تاريخها وفى لغتها . فحرمت على سكانها اصطناع اللغة البولندية فى الأغراض الرسمية ، وفرضت عليهم اللغة الروسية ، وتاريخ الإمبراطورية الروسية فى المدارس ودور العلم . وتحدثنا العالمة المشهورة « مدام كورى » فى مذكراتها عما صادفها فى « بولندا » ، وهى تلميذة صغيرة بإحدى المدارس حين تجرأت مدرسة شجاعة من البولنديات ،

(١) The making of the modern World, by Lazarus Coppel p. 373.

وأخذت تتلو على تلاميذها شطراً من تاريخ بولندا القوى باللغة البولندية . فلما دقت الأجراس منذرة بزيارة المفتش الروسى تطوعت بعض التلميذات وأخفين فى لمح البصر الكتب البولندية فى مكان قريب . فلما أقبل المفتش يتهادى فى غطرسة وكبرياء وجد أمامه عشرين من التلميذات يستمعن إلى درس فى الخياطة والتطريز . وبعد أن قام بتفتيش الأدراج واطمأن إلى أنها خالية مما يمكن أن يثير أزمة أو لوماً ، سأل المدرسة أن تختار له إحدى التلميذات ليوجه إليها بعض الأسئلة . وكان أن اختارت له تلك التلميذة النابغة التى عرفت فيما بعد بمدام كورى . فسألها المفتش أن تتلو الصلوات والأدعية ، فتلتها فى لباقة ودون تعثر باللغة الروسية . ثم سألها عن قدر من تاريخ القياصرة الروس فأجابت بالروسية أيضاً ودون تردد أو تلعثم . فلما انصرف المفتش انفجرت التلميذة تبكى حزناً على القومية البولندية والتاريخ البولندى ، بل قل حزناً على لغتها القومية[1] .

ولم تكن بولندا تحت حكم الألمان بأسعد حظاً ، فقد حُرمت اللغة البولندية فى الأمور الرسمية ، بل فرضت الصلاة على صغار الأطفال باللغة الألمانية وتعرض بعضهم للجلد بالسياط كلما رفضوا ذلك .

ومع ماعانته القومية البولندية تحت حكم الروس والألمان : ثارت بولندا مرتين إحداهما سنة ١٨٣٠ والأخرى سنة ١٨٦٣ ، وأقمعت الثورة فى قسوة وعنف ، ولكن القومية البولندية ظلت تتأجج إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى .

قوميات أخرى فى أوربا :

ظلت الحركات القومية فى أوربا فى صراع مع الدول الكبرى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى أن انتهت الحرب العالمية بمعاهدة فرساى التى اعترفت بهذه القوميات ، وأعادت توزيع أوربا على أساسها . فى الشمال من شبه جزيرة اسكنديناوه ظهرت قوميتان متميزتان عرفتا فيما بعد بدولتى السويد والنرويج ، كما انسلخت القومية الفنلندية عن روسيا ، وكذلك دول البلطيق (استونيا ، لتفيا ، لتوانيا) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠٢ .

وفى الغرب انفصلت بلجيكا عن هولندا ، وهما مما وحّد بينهما مؤتمر فيينا ، ولكن التجربة أثبتت فشلها ، فثارت بلجيكا وطالبت بالاستقلال الذاتى سنة ١٨٣٠ وحصلت عليه بعد حرب مع هولندا . وكان أوضح ما ثارت له بلجيكا سوء سياسة هولندا، فقد جعلت اللغة الهولندية اللغة الرسمية ، وجعلت العاصمة « لاهاى » ، ومعظم الوزارات هولندية ، إلى غير ذلك مما ألهب القومية البلجيكية ، وأثارها ضد الوحدة مع هولندا . ولكنا مع هذا نتساءل هل الأساس الذى بنى عليه تكوين بلجيكا أساس قومى؟ ولعلنا نجد الجواب عن هذا التساؤل فيما لا نزال نشهده الآن من صراع فى بلجيكا بين اللغتين الفلمنكية والفرنسية.

وفى مناطق البلقان ظهرت قوميات ثلاث هى التى عرفت فيما بعد بقومية رومانيا ، والقومية البلغارية ، والقومية اليوغسلافية . وأساس هذه القوميات كما سنرى لغوى ، فلكل منها لغتها المتميزة التى جذبت أفرادها بعضهم إلى بعض وعبرت عن أفكارهم وأحاسيسهم ، وميزتهم عمن حولهم من شعوب . واكتمل لهذه القوميات كيانها ، وبرهنت على تميزها واستحقاقها الاستقلال بعد حركات ثورية عنيفة ، بل بعض الحروب أيضاً ، مما حمل المؤتمرين فى فرساى بعد الحرب العالمية الأولى على الاعتراف بهذه القوميات .

أما فى وسط أوربا فقد ظلت الإمبراطورية النمسوية ، أو قل ظل أباطرة النمسا يستمسكون بتلك الدولة الكبيرة التى كانت تضم عدة قوميات ، ويحاولون بالقهر والعسف حينا ، وبالمهادنة حيناً آخر ، الاحتفاظ بحدودها الشاسعة . غير أن الشعور القومى فى بعض مناطقهم كان أقوى من سلطانهم وجبروتهم؛ فقد تسربت مبادئ القومية إلى النمسا على إثر الانقلاب الصناعى فى أوربا ، وبعد إنشاء السكك الحديدية ، التى ربطت بين بلاد الإمبراطورية ، فساعدت على إشعال الشعور القومى . وكانت دولة النمسا تتألف من أربع قوميات :

١ – القومية السلافية فى الشمال ويتكلم أهلها لغة متميزة فى مقاطعة « بوهيميا » ، و « مورافيا » وجزء من شمال المجر ، والسلافية فى الجنوب وتتمثل « فى الكروات والصرب » .

٢ — القومية المغولية فى معظم أنحاء « المجر » .

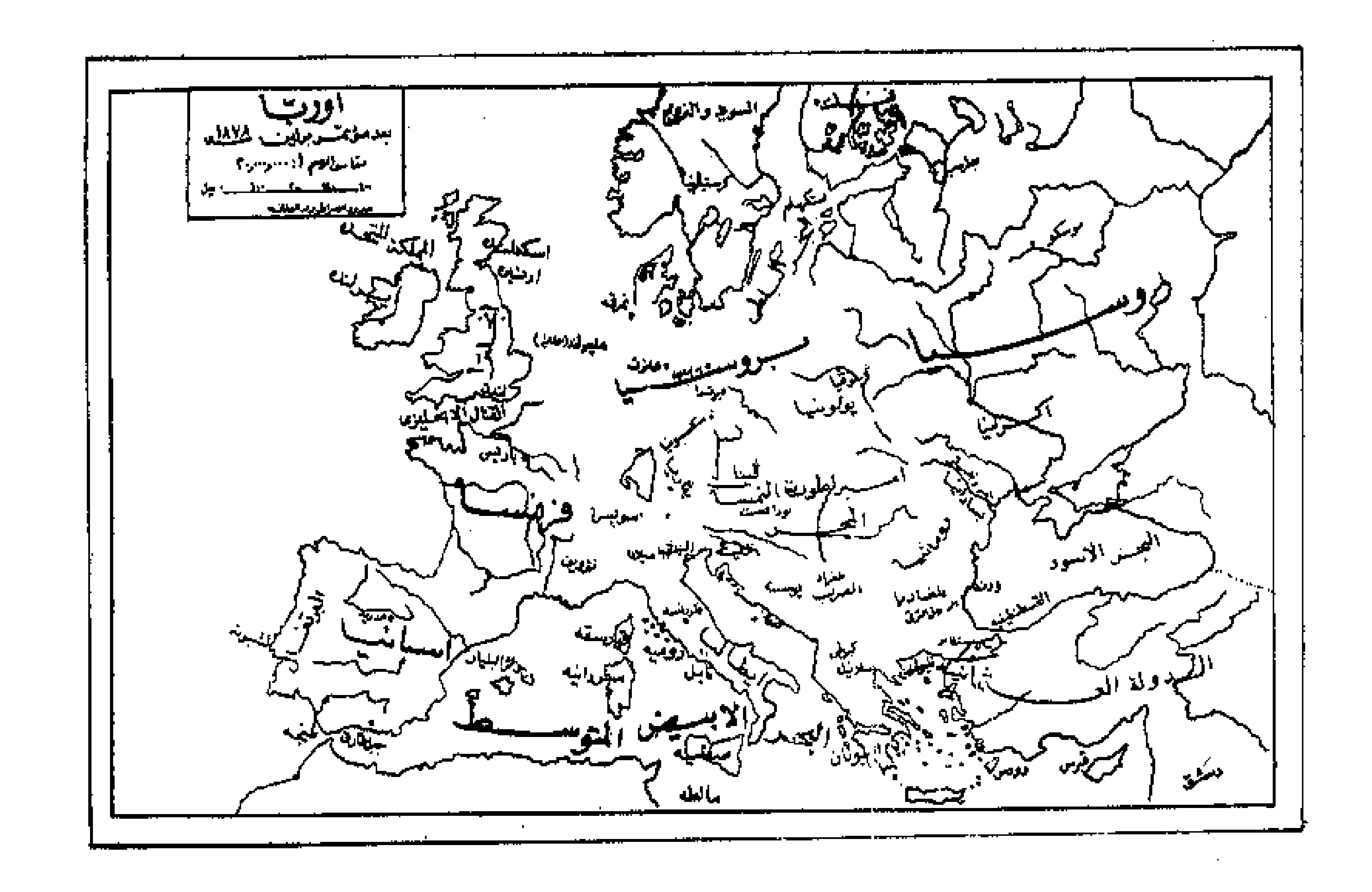
٣ — القومية الألمانية على ضفتى نهر الطونة .

٤ — القومية اللاتينية فى مقاطعة « ترنسلفانيا » و « بكوفيا » و « التيرول » و « تريستا » .

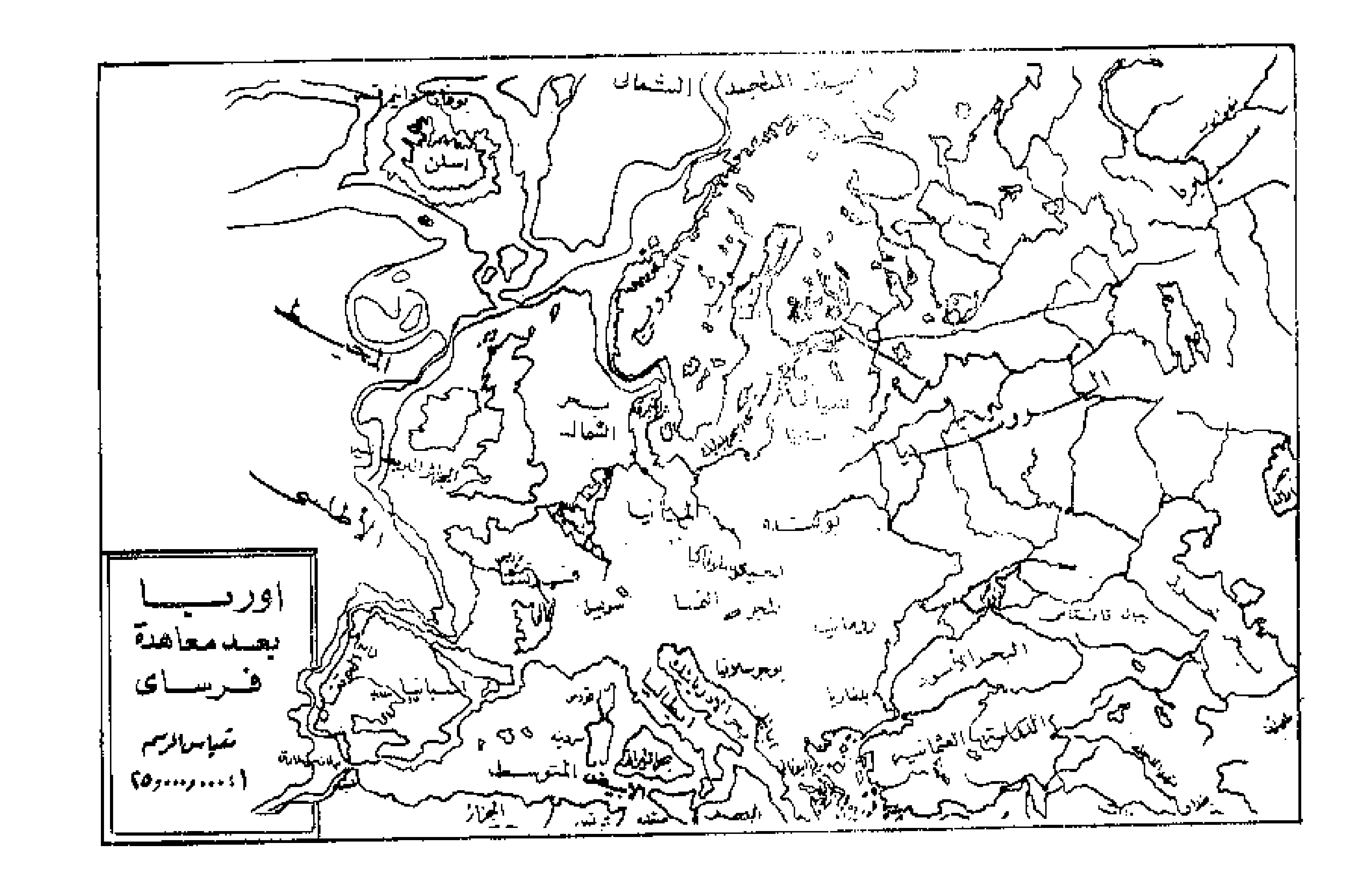
وكان لكل من هذه القوميات لغتها المتميزة التى ربطت بين جماعاتها ، وجذبت بعضهم إلى بعض . وظهر بين السلافيين زعماء يدعون إلى إحياء التاريخ القوى واللغة القومية ، وإلى الوحدة بين كل من ينتمون إلى العنصر السلافى ، أمثال « پلاكى » فى بوهيميا ، و « كولار » الذى دعا إلى وحدة السلافيين . كما ظهر فى « المجر » زعيم قوى وجه نشاطه إلى إحياء اللغة المجرية ، فأصدر أول صحيفة بهذه اللغة و هو « كشوط » .

وكانت سياسة الحكام من الأباطرة تعمد إلى استغلال الفرقة بين هذه القوميات ، وتؤلب بعضها على بعض ، أملا فى القضاء عليها جميعاً . فلما قامت الحركات القومية فى مقاطعات الإمبراطورية النمسوية قابلها هؤلاء الأباطرة بالعنف والقمع ، أو منح بعضها ما سموه بالاستقلال الذاتى . وظلت هذه القوميات فى صراع مع الأباطرة الطغاة إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى . وعقدت معاهدة فرساى التى اعترفت بالقوميات . وقد اشتعلت الثورات القومية فى الإمبراطورية سنة ١٨٤٨ : فقامت « المجر » تطالب بالاستقلال الذاتى ، وثارت « بوهيميا » مطالبة باعتبار كل اللغات على قدم المساواة . وفى لحظة مهادنة منح الإمبراطور « المجر » حكومة مستقلة ، وسمح لها بوضع دستور خاص بها . ثم نقض عهده حين رأى اختلاف القوميات فى إمبراطوريته ، وقيام بعضهم ضد بعض . فالذين من العنصر السلافى دعوا إلى الوحدة بينهم ضد الألمان ، وأساء المجريون معاملة من ينتمون إلى العنصر السلافى فانضمت الصرب إلى الكروات وهم من عنصر سلافى . وحاربوا المجريين . فانتهز الإمبراطور هذه الفرصة وسحب كل الامتيازات التى منحها « للمجر » ، وقضى نهائياً على الثوار والحركات القومية ، إلى أن كانت معاهدة فرساى سنة ١٩١٨ التى

كان من نتائجها أن مُنحت « بولندا » ما يسمى بالممر إلى بحر البلطيق لأن معظم سكانه كانوا يتكلمون اللغة البولندية . أما مدينة « دنزج » فبرغم أن أهلها من الألمان ويتكلمون الألمانية فقد وضعت بمقتضى هذه المعاهدة تحت وصاية عصبة الأمم . كما كان من نتائج هذه المعاهدة فصل « النمسا » عن « المجر » على أن يسود فى النمسا قومية ألمانيا وفى « المجر » قومية مجرية . أو إن شئت قلت : إن النمسا تكونت ممن يتكلمون الألمانية . وإن « المجر » تكونت ممن يتكلمون بالمجرية . ولكن كان من أوضح ما أخذ على معاهدة فرساى أنها سمحت بضم بعض المجريين أو من يتكلمون باللغة المجرية إلى رومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا . فقد ضمت « ترنسلفانيا » وسكانها من المجر إلى رومانيا ، وضمت « كرواتيا » إلى يوغوسلافيا ، وضم الجزء الشمالى من المجر إلى تشيكوسلوفاكيا ، وضمت مقاطعات التيرول فى الجنوب إلى إيطاليا . أى أن التقسيم الجغرافى فى هذه المعاهدة لم يكن كله على أساس القوميات ، بل ترك جيوباً للنزاع والشقاق القومى ، مما ظلت معه أوربا بين الحربين العالميتين تقاسى وتئن ، ومما كان من الأسباب المباشرة للحرب العالمية الثانية . ففى تشيكوسلوفاكيا أقلية كبيرة من الألمان فرضت عليهم اللغة التشيكية . فغضبوا لهذا وأصبحوا على خلاف دائم مع الأكثرية السلافية . وفى بولندا قوم من الألمان يتطلعون إلى ألمانيا الكبرى ، كذلك اقتُطعت مقاطعة « بسارابيا » من شمال رومانيا وضُمت إلى روسيا برغم أن أهلها لا يتكلمون إلا لغة رومانيا .



اوربا
بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨
فرنسا
اسبانيا
روسيا
بروسيا
بولونيا
البحر الاسود
البحر الابيض المتوسط
مالطه
دمشق
قبرص
اسكتلنده
باريس



اوربا
بعد معاهدة
فرساي
مقياس الرسم
بحر الشمال
ألمانيا
بولندة
تشيكوسلوفاكيا
النمسا
المجر
سويسرا
رومانيا
يوغوسلافيا
بلغاريا
البحر الأسود
المتوسط

٢ — القوميات فى أفريقيا

ذكرنا آنفاً أن القومية بوصفها فكرة سياسية واجتماعية تعدّ من الشعارات التى أمدّتنا بها أوربا فى العصور الحديثة . ذلك لأن القبائل التى شهدت سقوط الدولة الرومانية قد استقرت فى مناطق من أوربا ، وامتزجت بمن بقى فيها من سكانها الأصليين . وتكوّن من هؤلاء وهؤلاء ما نسميه فى الوقت الحاضر بالقوميات الأوربية .

ولما اندثر النظام القبلى فى أوربا حل محله ذلك النظام الذى يدعوه المؤرخون بالنظام الإقطاعى . ومع أن هذا النظام الإقطاعى قد اختلفت خصائصه باختلاف المناطق ، لكنه كان فى أساسه يتألف من قرية أو عدة قرى يسيطر عليها أحد اللوردات ، ويعد من الناحية العملية مالكاً للأرض فيها . ويدين هذا اللورد بالولاء لمن هو أكبر منه وأقوى مثل « الكونت » أو « الإيرل » أو « الديوك » ، ثم الملك . فكما يدين « اللورد » بالولاء للكونت أو الديوك ونحوهما يدين هؤلاء بالولاء للملك . أو كما حدثنا رجال القانون ممن وصفوا هذا النظام الإقطاعى : كان القروى يدين بالولاء « للورد » . وكل « لورد » يدين بالولاء « لكونت » أو « إيرل » ، وهذا الأخير يدين بالولاء « لديوك » ؛ وأخيراً يدين الديوك بالولاء للملك . ولكن هذا النظام لم يطبق على هذه الصورة فى كل الحالات .

ولما اندثر هذا النظام أو كاد ، لم يخلف من صور الولاء إلا الولاء للملك . ويعد ولاء الرعية نحو مليكها الأساس الذى بنى عليه ما يسمى بالواجب الوطنى أو الوطنية . ثم كان من اليسير أن امتد هذا الولاء من شخص الملك إلى الدولة أو المملكة . فنظر إلى الدولة على أنها بمثابة شخص يدين له كل مواطن بالإخلاص والحب ، وتطلب هذا الحب وذلك الإخلاص من المواطنين واجبات وخدمات . فإذا كان من حق المرء أن يكون مواطنا فإن عليه واجبا هو أن يكون مواطناً صالحاً أميناً مخلصاً . وهكذا تكونت الدولة القومية الحديثة فى أوربا من الناحية التاريخية .

وبرغم هذا فإن فى القومية الحديثة مضموناً عاطفياً قوياً هو الذى حار الدارسون فى تفسيره وبيان كنهه كما سنرى فيما بعد . على أنه مما يسترعى الانتباه أن الكلمة التى تعبر عن الوطنية فى معظم اللغات الأوربية قد انحدرت من أصل لاتينى معناه « الأب » ، ويطلق على الوطن فى بعض اللغات « أرض الأب » ، وفى البعض الآخر من اللغات قد تغلب العاطفة والحنين فيطلق على الوطن « أرض الأم » كما فى الإنجليزية مثلا . وكذلك الشأن فى اللغة التى ينشأ المرء عليها فى وطنه يطلق عليها عادة « لغة الأم » . ويعبر المرء أحياناً عن الوطن « بأرض الأسرة » كما هو الشأن فى بعض تعابير اللغتين الإنجليزية والألمانية .

ونستوحى مما تقدم أن المحبة والإيثار ، وهما مما يسود فى الأسرة السعيدة ، يرتبطان أيضاً بالوطن أو بما يسمى بالقومية . فالمرء فى مرحلة الرجولة وقد أعيته مشاكل الحياة وأرهقته قد يحن إلى عهد الطفولة يوم كان خلياً من تلك المشاكل . ولذلك يحس كل منا بالعاطفة والولاء تجاه وطنه كما يحس بهما تجاه أسرته السعيدة . وكذلك الشأن فى إحساسه نحو لغته التى تعلمها بين أحضان أمه ؛ وظل بعد ذلك يتأثر بتراثها الذى ينمى عاطفته وأحاسيسه نحو هذه اللغة[1] .

فإذا نظرنا فى ضوء هذا إلى حدود الدول الأفريقية وجدناها وليدة المصادفة أو الأحداث الاستعمارية . فقد أسس كل من البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا مراكز لها فى أفريقيا . وخططت الحدود بعد ذلك على أساس سلسلة من الاتفاقيات بين هذه القوى الاستعمارية ؛ بل فى بعض الأحيان كانت إحدى هذه الدول الاستعمارية تقسم الحدود فى مناطقها على أساس إدارى بحت كما كان الشأن فى أفريقية الفرنسية فى غرب القارة . فلو قد خُططت الحدود على أساس جغرافى أو أساس قبلى ، لما وجدت تلك الدول الحديثة فى غرب أفريقيا . ذلك لأنها تتألف من خليط عجيب من السكان ، وليس لحدودها معالم واضحة مميزة . أى أن القوميات فى أفريقيا لم تتكون على نفس الأسس التاريخية التى تكونت عليها القوميات فى أوربا الحديثة .

(١) Democracy in Africa, by W. Ivor Jennings, p. 25.

وليس من الضرورى فى الحديث عن القوميات فى أفريقيا التوغل فى تاريخ هذه القارة ، بل ربما يكفى فى الهدف الذى رسمناه لهذا الكتاب أن ننظر إلى أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ، فنرى أن بريطانيا قد استأثرت بمناطق شاسعة فى الشرق وببعض المناطق فى الغرب ، فى حين أن فرنسا قد احتلت معظم المناطق فى الغرب وبعض المناطق فى الوسط . وقد شاركت البرتغال وبلجيكا فى احتلال مناطق واسعة من وسط القارة .

وتعد الثورة القومية فى أفريقيا خلال العشرين سنة التى تلت الحرب العالمية الثانية من أهم الظواهر السياسية المتناهية التعقيد التى ظهرت فى منتصف القرن العشرين . فلم يكد العام ١٩٦٣ ينقضى حتى شهدت أفريقيا أكثر من ثلاثين دولة مستقلة كانت منذ سنوات قليلة أقاليم مستعمرة تشرف عليها القوى الاستعمارية الكبرى .

على أنه إذا كان للاستعمار من فضل فإن نشر التعليم فى هذه المناطق ومدها بكثير من مظاهر الحضارة الحديثة يعد فضلا لذلك الاستعمار البغيض . ولم تقم تلك الدول المستعمرة بإصلاحاتها وتنظيماتها واستثماراتها وتوفير وسائل الرخاء ومظاهر الحضارة فى هذه المناطق حباً فى أهلها ، أو رغبة فى النهوض بهم ، بقدر ما كانت لتوفير الحياة المريحة للمستوطنين الأوربيين أو تكوين أجهزة إدارية لخدمة الدولة المستعمرة . ومع هذا فرب ضارة نافعة . لقد تعلم الأفريقيون ونهضوا . وقوى الوعى بقوميتهم وكيانهم . ونشأ بينهم زعماء وقادة تطلعوا إلى الحياة الكريمة لقومهم وأوطانهم . وأسمعوا أصواتهم مجلجلة مدوية للعالم أجمع فى مؤتمر منشستر سنة ١٩٤٥ . وكان أبرزهم حينذاك « نكروما » و « جوموكينياتا » .

وبرغم بعض الاضطرابات العرضية التى ثارت فى أثناء الدعوة إلى القومية الأفريقية بين العامين ١٩٤٥ ، ١٩٦٠ ، فقد انتهى الصراع بالحصول على استقلال ذلك العدد الكبير من الدول ، دون الالتجاء إلى استخدام العنف فى أكثر الأحوال . فإذا استثنينا ما حدث للجزائر وكينيا « والكميرون » نرى أن مولد استقلال الدول الأخرى لم يصحبه عنف يؤدى إلى خسائر جسيمة فى الأرواح .

ونظرنا فإذا بأكثر من ثلاثين دولة مستقلة تنشأ فى أفريقيا خلال بضع سنوات ، وأصبحت كلها أعضاء فى الأمم المتحدة . ونتساءل هل كان الأساس الذى تكونت عليه هذه الدول أساساً قومياً حقيقياً بالمعنى الذى شهدناه فى قوميات أوربا ، أم أنها فى الحقيقة وليدة التنظيم الإدارى فى عهد الاستعمار ! ؟ وإلا فلا ندرى لماذا يقوم نزاع أو صراع بعد الاستقلال فى نيجيريا والكونغو وجهات أخرى من القارة .

وكيف تم فى مثل هذه الفترة القصيرة استقلال هذا العدد الكبير من الدول الأفريقية التى من بينها القزم الذى لا يكاد عدد سكانه يجاوز نصف مليون كدولة « جامبيا » فى الغرب ، والعملاق الذى يبلغ عدد سكانه أكثر من أربعين مليوناً كدولة « نيجريا » التى تكاد تساوى كل بريطانيا فى المساحة وعدد السكان . . فما هى الأسس أو المقومات التى بُنيت عليها دولة « جامبيا » ، وما الذى سوّغ أن ينشأ فى مثل هذه المنطقة الضيقة ومع ذلك العدد الضئيل من السكان ، دولة مستقلة ذات كيان متميز ؟

أخشى أن السماحة غير المتوقعة التى ظهرت لنا من الدول الاستعمارية الكبرى ولا سيما بريطانيا وفرنسا فى سياستها تجاه الحركة الاستقلالية فى أفريقيا . لم تكن إلا خدعة أرادوا بها تفتيت القارة إلى وحدات منعزلة غير متماسكة . وهكذا لم يكد يبدأ العام ١٩٦٣ حتى شهدنا فى غرب أفريقيا دويلات صغيرة الحجم قليلة السكان أمثال « داهومى » ، « توجو » ، « ليبريا » ، « سيراليون » ، « جامبيا » ، وغيرها من الدول التى أسكرتها فكرة الاستقلال ، والتى سمحت لبريقه الزائف أن يشتتها أو يفتتها . أى أن تلك الدول الاستعمارية ، بتشجيعها على مثل هذا التشتيت أو التفتيت قبل الاستقلال ، وبتجاهله بعده ، كانت بمثابة الراعى غير الأمين على السائمة ، فتركها تضل فى متاهات القارة الأفريقية لعلها تعود إليه نادمة آسفة حين تعانى من المشاكل الاقتصادية والإدارية ، ما ينوء به كل منها فى انعزالها الذى سموه استقلالا .

وتنبأ المصلحون من زعماء أفريقيا بمثل هذا المصير المروع ، فأخذوا ينادون

حتى قبل الاستقلال بالدعوة إلى لم الشمل فى صورة أو أخرى .

وظهرت أول خطوة إيجابية بذلك الاتحاد الذى تمّ بين غانا وغينيا سنة ١٩٥٨ ، ثم انضمت إليه « مالى » سنة ١٩٦٠ ، ولكن ، هذا الاتحاد لم يحقق أهدافه الطموحة ، ولم تلبث خططه أن انقلبت رأساً على عقب . فقد أدى الانفصال الجغرافى بين الوحدات المكونة لهذا الاتحاد ، والمفارقات الأساسية فى النظم الدستورية والإدارية والقضائية ، وفوق هذا كله أدى اختلاف اللغة إلى فشل التجربة . فلما كان العام ١٩٦١ اجتمع فى الدار البيضاء ممثلون للدول : غانا ، غينيا ، مالى ، المغرب ، ليبيا ، الجزائر ، والجمهورية العربية المتحدة ، وحاولوا تأليف جبهة قوية تواجه ذلك الاتحاد الذى تمّ بين اثنى عشرة دولة ، وعرف بمجموعة برازڤيل ، وهى الدول التى تسود فيها اللغة الفرنسية . وهنا يبرز دور اللغة فى عزل بعض دول أفريقيا عن البعض الآخر . فقد بدا التخلخل واضحاً فى مجموعة الدار البيضاء التى لا يكاد يجمع بينها ثقافة واحدة ، أو بعبارة أخرى لغة واحدة ، فى حين أن الروابط الثقافية بين الدول التى تتكلم الفرنسية فى مجموعة برازڤيل قد شجعتها على تحديد سياسة مشتركة ، وعلى مواجهة المشاكل الاقتصادية المشتركة . أى أن مجموعة برازڤيل بدت بسبب الاشتراك فى اللغة أكثر تماسكاً ، واتسمت قراراتها بطابع عملى يتميز بوضوح على تلك النعرة العاطفية التى بدت فى اجتماعات الدار البيضاء التى لم تتمخض عن نتيجة ذات بال .

وظهر مع هذين الاتحادين ، بل ربما قبلهما ، ميل عام فى شرق أفريقيا يؤلف من دوله الممثلة فى « تنجانيقا » ، « أوغندا » ، « زنزبار » ، « كينيا » ، اتحاداً عُرف باتحاد شرق أفريقيا الذى كان من أقوى دعائمه أن دوله قد أخذت بالثقافة الإنجليزية ، أى أن اللغة الإنجليزية تسود بينها .

ثم كانت نهاية المطاف بأن دعا المصلحون من زعماء أفريقيا إلى وحدة تلمّ شتاتها وتؤلف بين دولها المبعثرة المتنافرة ، وأخذوا يتلمسون لذلك أساساً أو شعاراً يجمع بينهم ويلتفون حوله . فنبتت فكرة الشخصية الأفريقية التى تبناها ، وكان من أكثر المتحمسين لها « نكروما » . فكان يتطلع إلى أفريقيا التى تتجاهل

الحدود الضيقة الخاصة بالجنس والطبقة والقبيلة واللغة ، فتؤلف من مناطقها ما يمكن أن يسمى بالولايات المتحدة الأفريقية ، التي تهدف إلى ربط الدول المستقلة برباط وثيق في صورة اتحاد « فيدرالي » سياسي واحد يشبه في بعض نواحيه البناء الدستوري القائم في الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا ظهرت منظمة الوحدة الأفريقية ، واكتمل شمل أعضائها في اجتماع عقد سنة ١٩٦٣ في أديس أبابا .

غير أن الرواية لم تتم فصولا ، ومن العسير التنبؤ بمصير هذه الوحدة الأفريقية ، فالتيارات السياسية العالمية تقوم بدور خطير في توجيه الصراع السياسي الذي نشهده الآن بين دول أفريقيا . ذلك لأن من بين هذه الدول ما يؤمن بالإيديولوجية الاشتراكية ، وأسبقها في هذا غانا على يدى « نكروما » ، وغينيا على يدى « سيكوتورى » . وبرغم أن كلا من الزعيمين يستلهم رأيه أو مذهبه من الاشتراكية العلمية ، غير أن مذهب نكروما يحاول تكييف الاشتراكية مع حاجات أفريقيا وظروفها ، ويدعوها باشتراكية أفريقيا . ويشركه في هذا رئيس جمهورية السنغال الذي يرى أيضاً وجوب تفسير الأفريقيين للاشتراكية بحيث تلائم حاجات أفريقيا وظروفها . في حين أن سيكوتورى في غينيا يختلف عنهما فلا يرى إحداث أى تعديل في النظرية الاشتراكية العلمية . ويرفض ما يسمى بالاشتراكية الأفريقية . ويعد هذا نوعاً من اللعب بالألفاظ .

ويبدو أن السر الحقيقي في اتجاه هؤلاء الزعماء نحو الإيديولوجية الاشتراكية هو فقدانهم الثقة في كل ما يمت إلى الدول التي استعمرت بلادهم زمناً طويلا . ولذلك انصرفوا عن نظامها الاقتصادى الرأسمالى إلى نظام آخر لعله يحقق أهدافهم ويكفل لبلادهم مستقبلا أكثر رخاء واستقراراً [١].

فأفريقيا الآن مسرح للصراع السياسى والاقتصادى بين الإيديولوجية الاشتراكية وإيديولوجية الغرب . وتعمل كل منهما جاهدة على كسب الأصدقاء بين دول أفريقيا ، وليس من اليسير التنبؤ بمصير هذا الصراع .

ونتساءل بعد كل ما تقدم هل اتضحت معالم القومية في أفريقيا ؛ وهل

(١) The Dillemmas of african Independence: by L. Gray Cowan,

استقرت على أمر معين محدد؟ يبدو أن القومية فى أفريقيا ، باستثناء إثيوبيا ودول الشمال ، لا تزال تتلمس طريقها فى ظلام هذه القارة ، وأن المفكرين فيها قد تجاهلوا حقيقة هامة ، أو لم يولوها ما تستحق من عناية . وتلك الحقيقة هى دور اللغة فى دعم القومية بين مناطق أفريقيا .

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ما نشر بالأهرام (مارس سنة ١٩٦٩) تحت عنوان « أفريقيا والفرنكفونية » على لسان الزعيم الأفريقى ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال وأحد مفكرى الوحدة الأفريقية . فهو فيما يبدو يؤمن إيماناً قوياً بدور اللغة لا فى دعم القومية فحسب ، بل أيضاً فى تجميع شعوب تعيش فى مناطق متباعدة . ونحن هنا نقتبس طرفاً من هذا المقال : (وتحدث الرئيس سنجور عن الفرنكفونية وهى تلك الحركة التى ترمى إلى الجمع بين البلاد التى تتكلم الفرنسية فى ظل رابطة ثقافية سياسية غايتها تدعيم الثقافة الفرنسية ونشر إشعاعها فى العالم . وقد سبق أن عرف الرئيس السنجالى هذه الحركة فى تصريحات سابقة فقال : الفرنكفونية هى إنسانية شاملة تنسج خيوطها حول المعمورة لتربط بين جميع الأجناس فى مختلف القارات . ومن الجدير بالذكر هنا أن اللغة الفرنسية كانت حتى أوائل هذا القرن هى لغة المعاملات الدولية . والمحافل الدبلوماسية والمؤتمرات حتى قامت اللغة الإنجليزية بمنافستها فيما بين الحربين العالميتين ، وحتى استطاعت أن تطغى عليها وتصبح لغة المعاملات الدولية وبخاصة بعد أن أتيح للدبلوماسية الأمريكية أن تسيطر على العالم عقب الحرب العالمية الثانية . ولكن لم يكد يمضى على هذه السيطرة زمن طويل حتى استطاعت الفرنسية أن تستعيد بعض مكانتها وتعود لتفرض نفسها فى المحافل الدولية وفى الأمم المتحدة . ويرجع ذلك فيما يرجع إلى استقلال مجموعة من الدول الناطقة بالفرنسية ، وإلى سياسة الرئيس ديجول الرامية إلى بعث الوجود الفرنسى فى المجتمع الثقافى الدولى .

واليوم يوجد ثلاث وثلاثون دولة تتكلم الفرنسية . إما لأنها تعتبرها لغتها الرسمية . وإما لأنها لغة التدريس فيها . وإما لأنها تعتبرها اللغة الثانية بعد لغتها

الأصلية . وسواء من هذه الدول ما كان فى القارة الأمريكية مثل كندا ، هاييتى أو فى آسيا مثل لاوس ، كمبوديا ؛ أو فى العالم العربى مثل لبنان وتونس والمغرب والجزائر ؛ أو فى أفريقيا مثل الكونجو كنشاسا . مدغشقر ، أو فى أوربا مثل سويسرا وبلجيكا ولوكسمبورج . . فإن هذه الدول فى مجموعها تتألف من نحو أكثر من مائتى مليون نسمة ، وإن كان من يجيدون الفرنسية من هذا المجموع ويتكلمونها فعلاً لا يجاوزون خمسة وسبعين مليون نسمة . وهذه الدول قد قررت أن تترابط فى ظل «كومنولث ثقافى فرنسى» للدفاع عن اللغة الفرنسية والعمل على نشرها . وهذا «الكومنولث» هو الذى أطلق عليه اسم «الفرنكفونية» . وكانت السنغال بزعامة الرئيس ليوبولد سنجور من أول المدافعين عن هذه الفكرة والمتحمسين لها . وبدأ الرئيس سنجور نشاطه لهذه الدعوة داخل منظمة «الأوكام» . وفى أحد اجتماعات مجلس رؤساء هذه المنظمة بمدينة «تاناريف» عاصمة مدغشقر فى يولية سنة ١٩٦٦ كلف المجلس الرئيس ليوبولد سنجور والرئيس «ديورى هامانى» رئيس جمهورية «النيجر» بالقيام بإجراء الاتصالات اللازمة لوضع مشروع لإقامة منظمة دولية للدول الناطقة بالفرنسية . وقد سافر الرئيس سنجور فى سبتمبر سنة ١٩٦٦ إلى كندا فى سبيل هذا المشروع وكان من نتائج مساعيه إنشاء المجلس الدولى للغة الفرنسية فى ٥ مايو سنة ١٩٦٧ والجمعية الدولية لبرلمانات الدول الناطقة بالفرنسية . وفى نوفمبر سنة ١٩٦٧ قررت منظمة «الأوكام» الأفريقية إنشاء منظمة دولية للتعاون الفنى بين الدول الناطقة بالفرنسية ، بل كان موضوع «الفرنكوفونية» محل مناقشات رؤساء الدول الأفريقية فى أثناء اجتماعهم فى الشهر الماضى بمدينة كنشاسا . وفى نهاية شهر فبراير اجتمع بمدينة «نيامى» مؤتمر جديد يجمع بين ممثلى ثلاث وثلاثين دولة لوضع اللمسات الأخيرة لمؤتمر عام تقرر أن يتعقد سنة ١٩٧٠ لوضع النظام النهائى للفرنكوفونية) .

أفريقية

مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠٠

أفريقيا بعد معاهدة فرساي



افريقيا الحديثة

٣ — القوميات فى آسيا

هذه هى القارة العظيمة التى شهدت الحضارة الإنسانية منذ بدئها وفى مهدها، والتى قامت بها حضارات عريقة ذات تراث فكرى وفلسفى رائع ، والتى يحدثنا تاريخها القديم عن دول وإمبراطوريات أسست بها ، ومع هذا كله ظلت القوميات فى بعض مناطقها تنتظر كل هذه القرون قبل أن تتبلور إلى ما نشهده الآن فى الجنوب الشرقى منها .

فإذا بدأنا بغربى آسيا وجدنا به بعض القوميات العريقة الأصيلة ممثلة فى القومية الإيرانية والقومية التركية والقومية العربية فى العراق وبلاد الشام . ولعل من حسن التنظيم هنا أن نترك الحديث عن القومية العربية فى آسيا إلى حديث أكثر إسهابا وإفاضة حين نعرض إلى القومية العربية فى كل مناطقها ونخصها ببحث أشمل وأكمل.

أما القومية الإيرانية فتلك التى عرفت فى التاريخ القديم بدولة فارس التى نافست اليونان والرومان ، وكان لها فى التاريخ شأن عظيم . نشأت هذه القومية فى المنطقة التى بها الآن دولة إيران الحديثة . وظلت خلال معظم العصور التاريخية متميزة ذات كيان مستقل برغم ما أصاب البلاد من اضمحلال وهزات فى بعض الفترات التاريخية . وسنرى فيما بعد أن غزو العرب لبلاد فارس ونشر الدين الإسلامى بها ، بل اصطناع الفرس للخط العربى واقتباسهم مئات من الكلمات العربية . كل هذا لم يؤثر فى القومية الفارسية ولم يقض على تميزها واستقلالها. وهكذا خرجت القومية الفارسية من تاريخها الطويل متماسكة قوية البنيان . فلما كان العصر الحديث وتعرض العالم لحربين عالميتين شهدنا القومية الإيرانية تظفر من الدول الكبرى بالاعتراف بكيانها واستقلالها ، فلا يصيبها من تلك الدول إلا ضغوط مؤقتة لفترة قصيرة . لا تلبث بعدها أن تتركها وشأنها . ويكفى أن نذكر هنا أن بريطانيا وأمريكا قد انسحبتا من إيران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ثم انسحبت روسيا بعد مضى عام واحد على الانسحاب البريطانى الأمريكى . لأن هذه الدول الكبرى كانت تنظر إلى احتلال إيران

فى أثناء الحرب على أنه إجراء مؤقت تطلبته ظروف استراتيجية . وذلك لما تتسم به القومية الإيرانية من عراقة فى تاريخها وأصالة فى تكوينها . ولا تملك قوة إزاء هذا إلا الاعتراف بكيانها وتميزها واستقلالها .

ومع كل ذلك لا تزال إيران تشهد نزاعاً حول بعض حدودها ؛ ففى الجنوب تثور إحدى مناطقها مطالبة بالانفصال ، لأن سكانها يتكلمون العربية وحدها وتدعى هذه المنطقة عربستان ، وفى حدود أخرى لإيران يثور قوم من الأكراد مطالبين بالانفصال لأنهم يتكلمون اللغة الكردية . وفى منطقة أذربيجان تقوم دعوة للانفصال على أساس اللغة كذلك .

أما القومية التركية فقد نشأت حيث هى الآن فى آسيا الصغرى ، ومنها امتدت واتسعت فتوحاتها حتى كونت إمبراطورية عظيمة ضمت عدة قوميات ، ثم انكمشت بعد الحرب العالمية الأولى إلى القومية التركية التى تسود فى كل أنحائها اللغة العثمانية ، فتجعل من قومها جماعة متميزة ذات كيان مستقل ، برغم اعتناق الأتراك للدين الإسلامى . ولما أراد كمال أتاتورك دعم القومية التركية ولم شتات ما تفرق من أبنائها ، لم يجد خيراً من اللغة التركية عماداً يستند إليه فى دعوته وإصلاحاته . ففرض الكتابة اللاتينية ، وتخلص من مئات الكلمات العربية التى اقترضتها اللغة التركية . ذلك لأنه أراد أن يعيد للغة التركية تميزها واستقلالها ، إيماناً منه بأن القومية التركية لا تقوم إلا على أسس لغة أصيلة خالية من كل العناصر الأجنبية عنها .

فإذا تساءلنا بعد الذى تقدم عما يمنع إيران وتركيا من الاندماج فى بلاد القومية العربية التى على حدودها ، والتى تشركها فى العقيدة الإسلامية ، لم نجد لمثل هذا التساؤل جواباً أوضح من أن اللغات هى التى فصلت بين هذه الدول الإسلامية ، وجعلت منها قوميات متميزة مستقلة .

وفى غرب آسيا من القوميات المتميزة ، القومية الأفغانية التى على أساسها قامت دولة أفغانستان ، وهى دولة إسلامية على حدود دولتين إسلاميتين هما إيران وباكستان ، ومع هذا تستقل عنهما لأن شعبها يتكلمون « البوشتو »

ويتميزون بها وحدها . ويقوم الآن نزاع بين أفغانستان وباكستان حول منطقة تقع شرق باكستان ، وتطالب بها أفغانستان لأن سكانها البالغ تعدادهم خمسة ملايين يتكلمون اللغة المسماة « بالبوشتو » وهى اللغة القومية لأفغانستان . وبرغم أن أفغانستان قد شهدت خلال تاريخها الطويل قوى أجنبية تحكمها وتخضعها لنفوذها ، من فرس وإغريق وعرب وأتراك ومغول ، ظلت قوميتها متماسكة متميزة بفضل لغتها القومية « البوشتو » . فلما كان القرن التاسع عشر عانت أفغانستان من ضغوط سياسية واقتصادية ، فرضتها بريطانيا وروسيا ولكنها اكتملت استقلالها ، وتميزت قوميتها بعد الحرب العالمية الأولى ، وانضمت إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ ، ثم إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ ، ولزمت الحياد خلال الحرب العالمية الثانية .

فإذا انتقلنا إلى شرق آسيا وجدنا قوميتين متميزتين هما القومية اليابانية والقومية الصينية .

القومية اليابانية :

ظلت اليابان منعزلة عن العالم الغربى قبل القرن التاسع عشر خلال كل تاريخها الذى لا نعرف عن تفاصيله إلا القليل . ولم يكن لليابان قبل هذا القرن اتصال بالأمم الأخرى . إلا ما كان من اتصالها بالصين اتصالا ثقافياً وتجارياً . ثم كانت تلك الرحلة التاريخية للأدميرال « برى » الأمريكى حين رحل فى منتصف القرن التاسع عشر إلى شواطىء الجزر اليابانية ، وأرغمهم على الاتصال التجارى بالعالم الغربى . وأحست اليابان بقوة العالم الغربى وبحضارته وتفوقه فى الصناعة ، فعمدت إلى الأخذ بهذه الأساليب الحديثة ، وبمظاهر الحضارة الغربية ، ثم أصبحت بفضل ما اتصف به أبناؤها من جد ومثابرة تشكل منافساً قوياً لتلك الحضارة الغربية فى تجارتها وصناعتها ، وعظم شأنها بين دول العالم لا سيما بعد أن هزمت الأسطول الروسى سنة ١٩٠٤ . وهكذا عاشت اليابان فى التاريخ الحديث محل الاحترام والهيبة من العالم الغربى ، وفى منجاة من الاستعمار الأوربى ، عزيزة كريمة فى جزرها يطلب الجميع ودها ، ويهاب قوتها ، ويخشى

من تفوقها التجارى والصناعى . ثم كانت الحرب العالمية الثانية واستسلمت اليابان للقوة النووية الرهيبة واحتلتها الجيوش الأمريكية حتى العام ١٩٥٢ .

ومع هذا ظلت القومية اليابانية متميزة الكيان مستقلة عما عداها من الشعوب التى تحيط بجزيرها . فبرغم أن اليابان قد استمدت من الصين ديانتها وثقافتها وفلسفتها ، بل اصطنعت أيضاً الزى الصينى والخط الصينى وطرق الطهى ، والموسيقى ونظم الإدارة ، برغم هذا كله ظلت اليابان على تميزها واستقلالها(١) القومى ؛ فلم يكن ما اقترضته من الصين إلا بمثابة المظهر الخارجى ، وظلت القومية اليابانية فى حقيقة أمرها وفى أعماقها على ما كانت عليه من تطلع إلى آفاق أبعد . من الحضارة أو الثقافة الصينية . ومرّت القومية اليابانية فى أطوار تشبه إلى حد كبير تلك التى مرت بها القوميات الأوربية ، من انتقال من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى فى البنيان الاقتصادى .

ونتساءل هنا عن الذى عزل القومية اليابانية ، وجعلها تحتفظ بكيانها وتميزها ، برغم أخذها بكل مظاهر الحياة فى الصين ؟ ثم لانكاد نظفر بجواب أوضح من أن لليابان لغة قومية متميزة لا تمتّ إلى اللغة الصينية بصلة إلا من حيث إنهما تكتبان بخط واحد ، ولكنهما تقرآن وتنطقان وتسمعان فى أصوات مختلفة متباينة .

القومية الصينية :

هى من أعرق القوميات فى القارة الآسيوية : فتاريخها حافل بالثقافة والفلسفة والتفكير منذ قرون كثيرة قبل ظهور المسيحية . ومع ما تعرضت له الصين فى العصر الحديث من تدهور اقتصادى وتخلف فى مظاهر الحضارة وضغوط استعمارية رهيبة ، هبّت الصين من كبوتها وبُعثت من مرقدها ، وأصبحت الآن من أقوى دول العالم ، وأعظمها خطراً . وقد ظلت القومية الصينية خلال كل تاريخها الطويل العريق وبرغم ماتعرضت له فى بعض فتراته ، متماسكة متميزة ، دون أن يكون لنظامها الاقتصادى ، الحديث منه والقديم ،

---

(١) Asia in the Balance by Michael Edwardes P 65

أثر واضح فى تلك القومية الصينية . فالصين الحديثة التى تأخذ الآن بالنظام الشيوعى أو الاشتراكى قد مرت فيما يشبه هذه التجربة الاشتراكية مرتين من قبل إحداهما قبيل ظهور المسيحية على يد الزعيم «وانج منج» الذى أقنع الإمبراطور بالنظام الاشتراكى من ملكية الدولة للموارد الطبيعية ، واحتكارها للسلع ، وتنظيمها للأسعار ، وإصلاح للأراضى ، وتأسيس الوحدات الجماعية التى تسمى الآن «كميونات» . ثم انهارت هذه الإمبراطورية الاشتراكية بسبب انتشار الفساد فيها ولم تعمر طويلا . أما التجربة الاشتراكية الثانية فى تاريخ الصين فكانت بعد هذا بنحو ألف من السنين ، أى خلال القرون الوسطى لأوربا . وفى هذه التجربة أممت التجارة ونظمت الأجور والأسعار ، وسيطرت الدولة على البنوك ، ثم فشلت هذه التجربة أيضاً[1] .

نشأت إذن القومية الصينية على أساس تاريخها العريق فى الثقافة والفلسفة ممثلا فى لغتها القومية التى وحدت بين أفكار الصينيين وأحاسيسهم وميزتهم عن غيرهم من الأمم والشعوب .

القوميات فى الجنوب الشرقى لآسيا :

كانت كتب الجغرافيا إلى عهد قريب تطلق على هذه المنطقة اسم الهند الصينية ، لأنها تقع جنوبى الصين والهند . ولأنها فوق هذا قد تأثرت خلال تاريخها الطويل بالحضارتين الصينية والهندية . فالمسافر من الصين إلى ما يجاورها من هذه المنطقة لا يكاد يشعر بأنه انتقل إلى أرض غريبة ، أو بين قوم يتميزون فى معظم المظاهر العامة عن الصينيين . بل حتى فى الملامح الجسمانية قد يرى المسافر وجوه شبه واضحة بين أهل الصين ومن يجاورهم من أهالى هذه المنطقة . فالعادات متشابهة ، والملامح متقاربة ، ومعظم مظاهر الحياة يمت بعضها إلى بعض . وكذلك الشأن بين الهند وما يجاورها من أراضى ما كان يسمى بالهند الصينية . ولهذه المنطقة تاريخ قديم يتصل بتاريخ الصين من ناحية وبتاريخ الهند من ناحية أخرى . ففيتنام مثلا التى يجرى شأنها الآن على كل

(١) نفس المرجع ص ١٥٧ .

لسان كانت إلى عهد قريب تسمى « مملكة أنام » . ويحدثنا التاريخ أن أرض « أنام » قد خضعت للسيطرة الصينية قبل القرون الوسطى بنحو ألف سنة ، فتأثرت بالثقافة الصينية والفلسفة الصينية والعادات والفنون التى سادت فى بلاد الصين ، ثم برغم هذا ظلت القومية الأنامية متماسكة متميزة ، واستقلت « أنام » عن الصين فى القرن الخامس عشر ، مع ما اشتهرت به الثقافة الصينية من القدرة على امتصاص الشعوب الأخرى وهضمها .

ونظرنا بعد الحرب العالمية الأولى فإذا بهذه المنطقة التى كانت تسمى حينئذ بالهند الصينية مقسمة تقسيماً مصنوعا اقتضته النظم الإدارية للاستعمار الغربى ؛ ففيها « ڤيتنام » و « كمبوديا » و « لاوس » و « تيلاند » التى كانت تعرف باسم سيام . وخضعت هذه الأراضى فيما عدا « تيلاند » للنفوذ الفرنسى أو الاستعمار الفرنسى . ونجت « تيلاند » أو « سيام » من الاستعمار الأوربى ، وتميزت شخصيتها فى المجال الدولى الحديث . وهى الآن على علاقة طيبة بالعالم الغربى ، فلا تعترف بالجمهورية الصينية ؛ برغم أن بها جالية صينية قوية يبلغ تعدادها نحو ½ سكان « تيلاند » . أما ڤيتنام فقصتها مع الاستعمار الفرنسى لا تزال ماثلة فى الأذهان . فبعد صراع دموى مرير انسحبت جيوش فرنسا من ڤيتنام ثم كانت المنافسة حول ڤيتنام بين النظامين الشرقى ممثلا فى روسيا والصين ، والغربى ممثلا فى أمريكا . وتقسم ڤيتنام الآن إلى شمالية وعاصمتها هانوى ، وجنوبية وعاصمتها سيجون .

أما « كمبوديا » فينتمى معظم سكانها إلى السياميين أو أهالى « تيلاند » ، فهم خليط من النسل المنغولى والآرى . والديانة السائدة بها هى البوذية . وقد تأثرت « كمبوديا » بالثقافة الهندية فيما مضى ، كما تأثرت لغتها باللغة السنسكريتية وهى اللغة الهندية الدينية القديمة . وفى العصر الحديث حصلت « كمبوديا » على استقلالها منذ سنة ١٩٥٣ .

ثم مملكة « لاوس » التى ينتمى معظم سكانها إلى أهالى « بورما » . ونعرف من تاريخها القديم أنها أصبحت مملكة مستقلة فى القرن الثامن الميلادى . فلما كان القرن الثامن عشر تنازعت أرضها دولتان من دول المنطقة فسيطرت

« تيلاند » أو سيام على معظم أراضيها ، وسيطرت « أنام » أو ڤيتنام على الباقى من أرضها . ثم كان الاحتلال الفرنسى وظلت « لاوس » خاضعة للنفوذ الفرنسى إلى أن استقلت سنة ١٩٥٤ .

أما مناطق النفوذ البريطانى فيما كان يسمى بالهند الصينية فهى « بورما » و « الملايو » و « سنغافورة » و « سراواك » فى شمال جزيرة « بورنيو » .

وتشمل « بورما » أقواماً من أجناس مختلفة غير أن معظمهم من الجنس المنغولى وتسود فيها الديانة البوذية ، ولكنها من حيث اللغة موزعة المقاطعات بين لغات متباينة . ومع هذه الفروق التى تباعد بين سكانها جعلت منها بريطانيا منطقة محددة ، وفصلت بينها وبين الهند ، ثم استقلت بورما سنة ١٩٤٩ .

وأما « الملايو » وسنغافورة و « سراواك » فقد تألف منها فى السنين الأخيرة ما يعرف الآن « بماليزيا » التى يقوم النزاع بينها وبين « أندونيسيا » حول « سراواك » التى هى جزء من إحدى الجزر الأندونيسية . هذا إلى أن معظم سكان سنغافورة من الصينيين . ويقوم الصراع الآن بين أبناء اللغتين الملاوية والصينية، مما اضطر حكومة ماليزيا إلى إعلان الأحكام العرفية فى ١٥/٥/١٩٦٩.

دعنا نتخذ من دولة « ماليزيا » من بين دول آسيا ، مثلا رائعاً لدور اللغة فى تشكيل القومية ودعمها . إذ نشهد الآن صراعاً دموياً فى « ماليزيا » ونتساءل عن السر فى نشوب هذا الصراع ، ثم لا نكاد نجد تفسيراً واضحاً سوى أن دولة ماليزيا تسودها ثلاث لغات مختلفة لا تمت إحداها إلى الأخرى بصلة . وهى : اللغة الملاوية ، واللغة الصينية ، واللغة الهندستانية .

وقد شاء الاستعمار البريطانى منذ ست سنوات أن يؤلف من هذه المناطق المتباينة دولية اتحادية أطلق عليها اسم «ماليزيا» . وكان أبناء هذه المناطق ، قبل أن ينحسر ظل الاستعمار ، قانعين بأن تنتظمهم لغة المستعمر أى اللغة الإنجليزية ، أو على الأقل تنتظم الطبقة المثقفة التى تطلعت إلى مقاليد الحكم بعد الاستقلال . وظلت الإنجليزية لغة الثقافة والتعليم والسياسة والإدارة ونظم الحكم فى هذه البلاد زمناً ليس بالقصير قبل الاستقلال ، وقد نشأ زعماء

ماليزيا الحاليون ومعهم الطبقة المستنيرة فى ظل الثقافة الإنجليزية ، بل قل فى أحضانها ، ولم يكن أحد منهم يرى غرابة أو غضاضة فى أن تسود بينهم اللغة الإنجليزية تجمع بينهم ويتفاهمون بها برغم لغاتهم المحلية . فليس للملاوى إزاء اللغة الإنجليزية فضل على الصينى أو الهندى ، بل هى بالنسبة لهم جميعاً لغة المستعمر القوى ، فلا يدّعيها لنفسه أى فريق منهم ، وهكذا قضوا سنوات الاحتلال .

ثم تطلع الزعماء إلى الاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم فى إثر تلك الحركات الاستقلالية التى سادت كل مناطق آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية . فلما تم لهم ذلك بدأت القوميات المحلية تطلّ برأسها ممثلة على الأقل فى أقوى لغتين بتلك المناطق ، وأكثرها شيوعاً ، وهما اللغتان الملاوية والصينية . فدولة ماليزيا الاتحادية تتألف من ثلاث قوميات أو ثلاث لغات . ونحو نصف السكان يتكلمون اللغة الملاوية ، ونحو ٣٥٪ يتكلمون اللغة الصينية ، ويتكلم ما بقى من السكان لغات أهمها شأناً اللغة الهندستانية التى تمثل نسبة ١٠٪ من عدد السكان .

وقنعت كل الأطراف المعنية فى ماليزيا بذلك النظام الاتحادى الذى أقنعهم به الاستعمار البريطانى أو فرضه عليهم . وساد الهدوء فى أوائل عهد تأسيس ذلك النظام الاتحادى . غير أن المجتمع الصينى أو إن شئت قلت : إن المتكلمين بالصينية عاشوا خلال السنوات الست الماضية يؤلفون من أنفسهم مجتمعاً منعزلا مغلقاً يمتلىء بالأسرار والغموض ، فلا يسمحون لأنفسهم ولا لغيرهم أن يعقد معهم علاقات من أى نوع ، فلاتزاوج مع غيرهم، بل حتى الصداقات العادية البريئة لم يسمحوا بها لأنفسهم مع المتكلمين باللغة الملاوية .

ثم كان أن وزعت المناصب الكبرى بين زعماء الشعوب الثلاثة بعد قيام الاتحاد الماليزى ، فنجد أن الملك ورئيس الوزراء ونائبه ووزراء التعليم والثقافة والإعلام والعدل من المتكلمين بالملاوية ، وأن وزراء التجارة والصناعة والاقتصاد والمالية من الصينيين أو المتكلمين بالصينية، وليس بين الهنود سوى وزير العمل .

وأصبح الأهالى فى ماليزيا بعد تأسيس الاتحاد ينظر بعضهم إلى بعض على أنهم أبناء شعوب مختلفة متباينة ، فلا تكاد تسمع أحداً منهم يقول إنه ماليزى

الجنسية ، بل يعبر فى صراحة واعتزاز بأنه ملاوى أو صينى أو هندى . أى أن دور اللغة فى تشكيل هذه القوميات الثلاث بدأ بعد الاستقلال ، وترك أثراً قوياً فى مجتمعات ماليزيا . فاعتز كل فريق بلغته واستمسك بها وذاد عنها . ولا غرابة لذلك أن نشهد أن صحف العاصمة « كوالا لمبور » تصدر باللغات الثلاث الملاوية والصينية والهندستانية ومعها اللغة الإنجليزية ، وأن الإذاعة والتليفزيون تذيع نشراتها وأحاديثها بكل هذه اللغات .

ولعل أهم ما أثار تلك النعرات القومية فى « ماليزيا » وأدى إلى ذلك الصراع الدموى الذى نشهده الآن أن الحكومة قد اتخذت مجموعة من الخطوات تهدف بها إلى اتساع المجال أمام الملاويين ، وتحد من نشاط الصينيين بصفة خاصة . وأبرز تلك الخطوات عقد امتحان فى اللغة الملاوية لكل المتقدمين إلى الجامعة وجعل اجتياز هذا الامتحان بنجاح شرطاً أساسياً لدخول الجامعة .

ولذلك لا ندهش حين تتركز الاضطرابات فى ثلاث مقاطعات هى : « سيلانجور ، بيراق ، بينانج » . وهى المقاطعات التى تسود فيها اللغة الصينية . فأبناء هذه المقاطعات ينادون الآن فى صراحة بأن لغتهم الصينية فى خطر ، ويخشون عليها أن تندثر .

وأخيراً نجد « أندونيسيا » التى تتكون من عدد كبير من الجزر أشهرها جاوة وسومطرة وبورنيو . والتى خضعت للاستعمار الهولندى إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ، فحلت اليابان محل هولندا خلال هذه الحرب . ولما انتهت الحرب بهزيمة اليابان حاولت هولندا العودة إلى أندونيسيا فوجدت الدنيا غير التى ألفتها من قبل ، ووجدت القومية الأندونيسية ؛ أو إن شئت قلت الوعى السياسى بأندونيسيا على أشده . ثم بعد نزاع وصراع ومفاوضات طويلة ، تم استقلال أندونيسيا سنة ١٩٤٩ ، وأصبحت جمهورية ذات سيادة .

وأهالى أندونيسيا ينحدرون من الجنس « الملايوبولينيزيا » مختلطين بأجناس أخرى . ونعرف من تاريخهم أنهم تأثروا بالثقافة الهندية والديانة البوذية إلى أن دخلها الإسلام فى القرن الثانى عشر [١] .

(١) Asia and Africa in the Modern World, by S. L. Poplai. P. 76.

وهكذا نرى أن الجنوب الشرقي لآسيا قد شهد بعد الحرب العالمية الثانية عدداً من الدول المستقلة التي تتباين في اتساع أراضيها وفي تعداد سكانها. فسكان أندونيسيا نحو ٩٠ مليوناً ، وسكان « بورما » نحو ٢١ مليوناً ، وسكان « تيلاند » نحو ٢١ مليوناً كذلك . وسكان الملايو مع سنغافورة نحو ٨ ملايين ، وسكان «ڤيتنام» نحو ٢٩ مليوناً ، وسكان « لاوس » نحو مليونين ، وسكان « كمبوديا » نحو خمسة ملايين .

فإذا تساءلنا عن أسس القومية في كل دولة من هذه الدول نجد أنفسنا في حيرة . ذلك لأن حدود الدول الآسيوية التي استقلت حديثاً ليست في الحقيقة إلا تركة خلفها الاستعمار والاحتلال ، ولم يطرأ عليها من التغيير بعد الحرب العالمية الثانية ، إلا تقسيم الهند إلى دولتين الهند وباكستان ، وتقسيم ڤيتنام إلى شمال وجنوب . وفيما عدا هذا ظلت التقسيمات التي صنعها الاستعمار أيام الاحتلال ، وهي تلك التقسيمات التي لا مسوغ لها من أساس جغرافي أو جنسي واضح ، بل هي وليدة التقسيم الإداري للاستعمار حينا ، وتوسعات الاحتلال حيناً آخر ، أو السيطرة على الأماكن الاستراتيجية في بعض الأحيان . هي إذن حدود مصطنعة لا مسوغ لها من حيث النظر إلى القوميات . ونلحظ أن كل دولة من دول الاحتلال قد اتخذت مركزاً تلتف حوله المنطقة الخاضعة لنفوذها رغبة في أن تظهر هذه المنطقة في شكل موحد . أو صورة قومية زائفة . وكان ذلك دون نظر أو أخذ في الاعتبار ما يقوم في أنحاء هذه المنطقة من خلاف جنسي أو لغوي أو عقائدي . ولم تلتفت دول الاستعمار إلى مثل هذه الفروق إلا حين كانت سياستها تهدف إلى التفرقة بين الأقوام والجماعات في إحدى المناطق ، وهي سياسة فرق تسد ، رغبة في القضاء على كل معارضة ، وفي حكم المنطقة كلها حكماً دكتاتورياً .

وترتب على تلك السلطة المركزية في المنطقة المحتلة أن تولد في أذهان الناس ما يشبه القومية ، ولكنها قومية زائفة لا مسوغ لها ولا أساس تقوم عليه . ولهذا لم يكد الاحتلال ينحسر عن هذه المناطق حتى شهدنا النزاع والخلاف يشتد بين أقوام المنطقة الواحدة ، وأوشكت تلك الوحدة المصطنعة أو المصنوعة على

الانفصام إلى أجزاء متنافرة . وقد ظهر أثر ذلك فى النزاع اللغوى الناشب الآن بين بعض مقاطعات الهند، كما ظهر أيضاً فى ضعف السلطة المركزية بأندونيسيا، لولا أن تنبه زعماؤها واتخذوا لأندونيسيا لغة قومية هى التى يسمونها Bahasa Indonesia، كما ظهر أثر ذلك فى الثورة التى قامت بها قبائل «كرين Karen» فى «بورما».

فإذا نظرنا فى ضوء ما تقدم إلى الهند الحديثة رأينا أمر الحدود المصطنعة أوضح . فحدود الهند الحديثة من صنيع الإدارة البريطانية ، أو الاحتلال البريطانى قرابة قرن من الزمان . فبريطانيا هى التى خلقت من تلك المنطقة الشاسعة فى آسيا ما يسمى بالهند، التى اتخذ لها الاستعمار مركزاً تدير منه كل المقاطعات ، وتجتمع حوله كل النواحى ، ويتطلع إليه السكان الذين يختلفون عقيدة ولغة وجنساً على أنه موضع وحدتهم والجامع لشملهم . فرسخ فى نفوسهم أو كاد ، أنهم أبناء وطن واحد متميز الحدود ، تدير شئونهم سلطة موحدة هى سلطة الاستعمار ، ويتأثرون بثقافة واحدة صدّرتها لهم بريطانيا، بل فوق هذا كله أصبح المثقفون منهم وفى كل أنحائها يتكلمون ويتفاهمون بلسان واحد هو اللغة الإنجليزية، وهذا أمهر ما توصل إليه الاستعمار من خداع هؤلاء القوم الذين يعيشون فى الهند الحديثة . أما الهند العريقة التى حدثنا التاريخ عن فلسفتها وحكمتها وتفوقها فى الرياضة ، فلا نكاد تنطبق حدودها على حدود الهند الحديثة . فنحن نعرف أن شمال الهند بما فى ذلك باكستان كان قبل الاحتلال البريطانى وحدة متماسكة إلى حد كبير ، لها ثقافتها ولغاتها وعاداتها المستقلة تمام الاستقلال عما كان سائداً فى الجنوب . فقد خضع شمالى الهند فيما مضى لغزوات متعددة ، وهجرات وفدت إليه من أواسط آسيا ، وأمدته بثقافات وعادات تبلورت بعد ذلك وأصبحت تشكل كياناً متميزاً لأهالى الشمال . أما جنوب الهند فلم يتعرض لمثل هذه الهجرات أو الغزوات ؛ ولذلك بقيت له لغاته القديمة وعاداته الأصيلة . وبرغم هذا التباين بين الشمال والجنوب استطاعت بريطانيا خلال الاحتلال أن تؤلف منهما وحدة إدارية ذات مركز هام تتطلع إليه كل البلاد فى الشمال والجنوب[1] .

---

(١) Asia in the European Age, by Michael Edwardes. p. 35

وشاء الاستعمار البريطانى فوق هذا أن يجعل من بعض المناطق الوثيقة الاتصال بالهند وحدات مستقلة . فخلق لأسباب إدارية أو استراتيجية دولة فى جزيرة « سيلان » صبغها بالصبغة البريطانية فى نظام الحكم ، ومعظم مظاهر الحياة ، وفرض على أهلها اللغة الإنجليزية بوصفها اللغة الرسمية . فلما انتهت الحرب العالمية الثانية استقلت سيلان وانضمت إلى الكمنولث سنة ١٩٤٨ . ولكن لم يكد يستتب أمر الاستقلال فى هذه الجزيرة حتى شهدنا الخلاف ينشب بين أبنائها حول اللغة الرسمية ، وكانوا فى عهد الاحتلال قانعين بأن تكون اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية للجزيرة كلها ، حتى إذا استقلت بدأ النزاع بين اللغتين المحليتين هناك وهما اللغة « السنهالية » التى يتكلم بها معظم السكان ، واللغة « التاملية » التى يتكلم بها نحو ٢٠ ٪ من السكان . ذلك لأن الدولة قد اتجهت بعد الاستقلال إلى جعل اللغة السنهالية اللغة الرسمية ، فاحتج أبناء « التامل » وثاروا لعدم المساواة بين اللغتين . وبرغم السماح لأبناء « التامل » أن يتعلموا بلغتهم المحلية قامت الخلافات ، بل الصراع الدموى الذى أدى إلى قتل كثيرين بين الفريقين وإلى تشريد عدة آلاف من المتكلمين باللغة « التاملية » .

وبلغ من نزوات الاستعمار أن خلق فى شمال الهند مملكة صغيرة هى التى تعرف الآن بمملكة « نيبال » التى لا يجاوز تعداد سكانها على حسب آخر الإحصاءات ثمانية ملايين ، والتى تقع على حدود جبال الهملايا . فقبل موجة الاستقلال التى سادت الهند فى إثر الحرب العالمية الثانية ، كان الاستعمار ينظر إلى « نيبال » على أنها وحدة متميزة ، ويعاملها على هذا الأساس طلباً لود « المهراجا » حاكمها الذى ورث حكم هذه المنطقة عن أجداده. فلما استقلت الهند سنة ١٩٤٧ تبع هذا استقلال « نيبال » ، ولكن بعض الدول الكبرى ظلت تنظر إلى « نيبال » على أنها لم تستكمل كيان الدولة المستقلة ، ولهذا عارضت روسيا فى مجلس الأمن عن طريق « الفيتو » فى قبول « نيبال » عضواً فى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ .

نحن بعد الذى تقدم أمام مجموعة من الدول الصغيرة التى استقلت خلال بضع سنوات بعد الحرب العالمية الثانية ، والتى تقع مناطقها فيما كان يسمى

بالهند الصينية ، ومع هذه الدول الصغيرة دولة كبيرة المساحة غزيرة السكان هي الهند . وقد رأينا آنفاً أن حدود هذه الدول مصطنعة أو مصنوعة تكونت في عهد الاحتلال على أسس أبعد ما تكون عن الجنس أو اللغة أو العقيدة . وقد نشأ في هذه الدول طائفة من الزعماء والمفكرين الذين تعلموا في الجامعات الأوربية وتأثروا بنظام الحكم في أوربا وأعجبوا به . واستمد هؤلاء الزعماء آراءهم عن نظام الحكم الأوربي ، ممثلا في الديمقراطية ، من كتب ألفها علماء الغرب . فبهرهم الاستقرار والرخاء والحرية التي تتمتع بها الدول الأوربية ، وأسكرتهم تلك الشعارات الجذابة التي رأوا تلك الكتب تصف الديمقراطية بها ، مثل حق الثورة على الظلم ، ومثل أن الديمقراطية هي الحصن الحصين ضد الطغيان ، وأن تاريخ النظام الديمقراطي ليس إلا سجلاً لأعمال مجيدة ضد كل نظام أو حكم سياسي سيئ . ونظر هؤلاء الزعماء في أثناء جهادهم قبل الاستقلال فإذا بقوى الاستعمار تُشيد بالنظام الديمقراطي ، وتلوح به أمام أعينهم في غطرسة وكبرياء ، بوصفه نظاماً فوق مستوى الناس في آسيا ، زاعمين أن القوم في آسيا لم يكتملوا الأهلية لمثل هذا النظام . وهكذا أصبح هذا النظام يبرق لأعين الزعماء في آسيا ، وهم العطاش إلى حرية بلادهم ، المتطلعون إلى نهوضها ، بحيث تصبح على قدم المساواة مع تلك الدول الأوربية . وأصبحت الديمقراطية بمثابة الطعام الشهي الذي يبرق أمام أعين الجائع من خلف زجاج سميك ، ولا سبيل إلى الوصول إليه . ولهذا أقبل على هذا النظام كثير من هؤلاء الزعماء ، وسعوا إلى التمتع بمزاياه وتطبيقه في بلادهم . غير أن بعض هؤلاء الزعماء المجاهدين كانوا قد فقدوا الثقة بكل ما يمت إلى عهد الاستعمار بصلة ، حتى ولو كان فيه من الناحية النظرية خير لبلادهم ، ومن بين ما يمتّ إلى الاستعمار البغيض ذلك النظام الديمقراطي . ولهذا لم يكن أمامهم إلا أن يلقوا بأنفسهم في أحضان النظام المناوئ للغرب أي الشيوعية أو الاشتراكية .

وكان على زعماء آسيا وقد ورثوا عن الاستعمار حدوداً مصطنعة لبلادهم أن يعملوا جاهدين على أن تتكون من تلك الحدود قوميات على نسق القوميات في أوربا ، وأخذوا يلتمسون الأسس التي عليها تُبنى هذه القوميات الجديدة .

وقد أدركوا فى قرارة أنفسهم أن الدعوة إلى القومية الهندية مثلا على أساس ما نشأت عليه القوميات فى أوربا ليس إلا سراباً يبرق للأعين حتى إذا جاءه الظمآن لم يجده شيئاً . فالظروف فى آسيا تختلف عنها فى أوربا ، والتاريخ غير التاريخ. إذ تضم الحدود الجغرافية للهند الحديثة عالماً من أجناس متباينة متنافرة، ولغات مختلفة ذات لهجات كثيرة . فنى الهند عشر لغات أساسية ، ولكل منها لهجات متعددة . فليس بها ما يمكن أن يسمى باللغة القومية . وقد فشلت الجهود والمحاولات فى جعل اللغة الهندستانية لغة قومية لكل مناطق الهند ، لأنها هى نفسها لغة محلية يتكلم بها فى مناطق محدودة .

ولما افتقد هؤلاء الزعماء فى مناطقهم تلك الأسس التى عليها بُنيت القوميات فى أوربا لجأوا إلى شعارات تنبثق من ظروفهم ، ومن طبيعة تكوين مناطقهم وأخذوا يدعون إليها ، ويؤلفون قلوب الناس حولها . فنى أندونسيا مثلا ظهرت اللغة التى يسمونها Bahasa Indonesia ، وأصبح القوم هناك يتخذونها لغة قومية يلتفون حولها وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم .

ومع هذا فلا تزال بعض القوميات فى آسيا فى دور التكوين ومن العسير التنبؤ بمستقبلها .

دعنا نعقد مقارنة سريعة بين الظروف التى نشأت فيها القوميات بأوربا ، وتلك التى تجرى أحداثها الآن فى أفريقيا وآسيا .

كانت أوربا كما أشرنا آنفاً تخضع لسيطرة الدولة الرومانية قبل القرون الوسطى ، ثم انهارت تلك الدولة العظيمة ، وتفتتت إلى مناطق يحكم كلا منها ملك أو ديوك أو نحو هذا ، وخيم على القارة نوع من الهدوء النسبى نسيت معه عهد الرومان الذى لم يشكل استعماراً بالمعنى الذى شهدناه فى أفريقيا وآسيا . ذلك لأن كثيراً من الحاميات الرومانية قد استقرت فى مناطق أوربا بعد انهيار الإمبراطورية ، وامتزجت بسكانها امتزاجاً تامًّا ، وانقطعت صلتها بروما ، ولم يعد أحد من نسل تلك الحاميات يذكر أن أجداده فى يوم ما كانوا غزاة أو محتلين لتلك المنطقة. وعاش مَنْ نسل من تلك الحاميات حياة مدنية

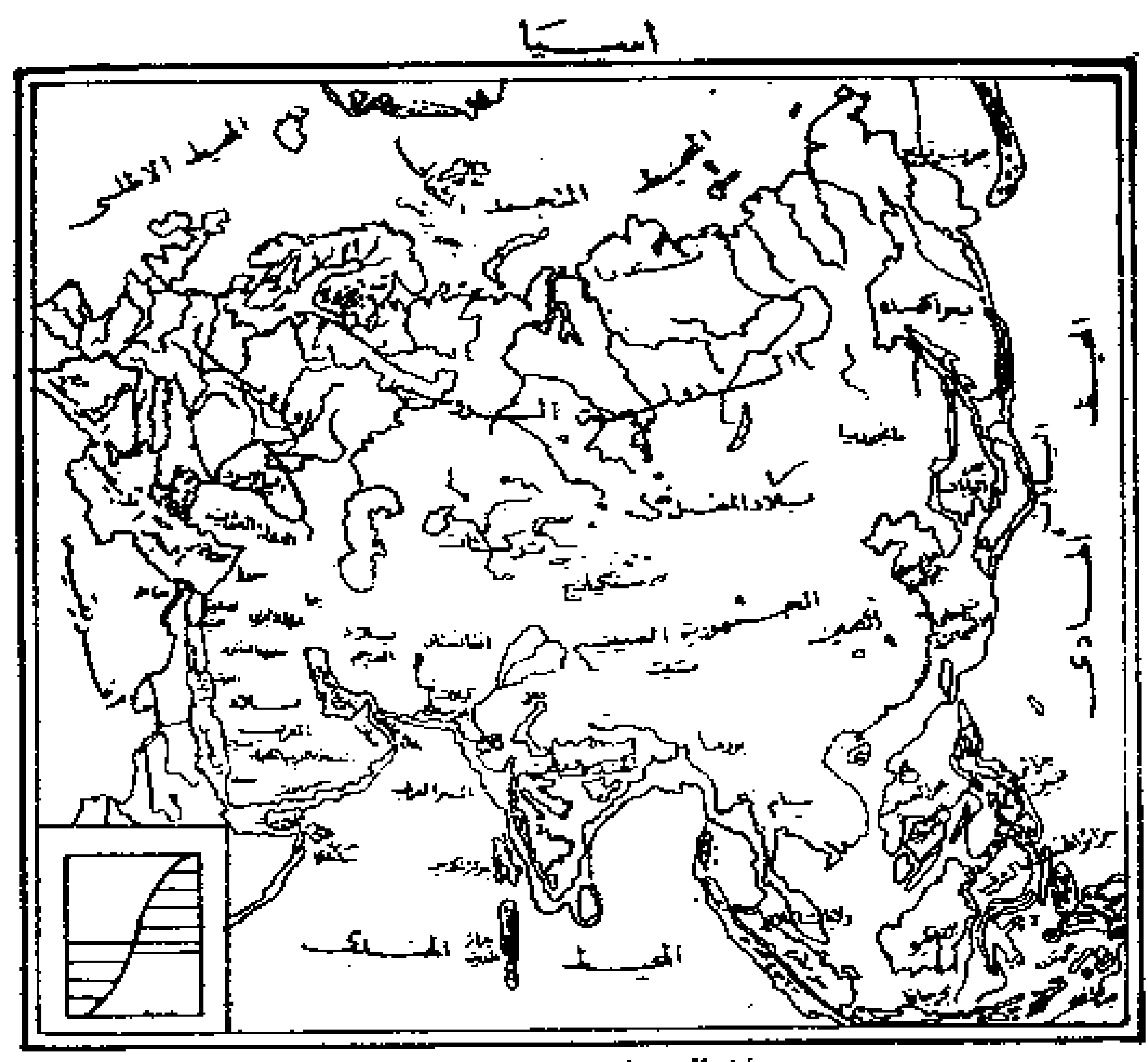
مستقرة ، وعملوا فى الزراعة ونحوها من وسائل العيش وطلب الرزق ، وشاركوا الناس فى تلك المناطق فى كل مظاهر الحياة وتكلموا بلغاتهم . ثم كان عصر النهضة الأوربية ، وساد أوربا هدوء نسبى ، وبعث جديد فى الفكر والعلم والفن . وفى ضوء هذه النهضة بدأت القوميات فى أوربا تنشأ رويداً رويداً فتنجح فى مكان وتتعثر فى آخر ، إلى أن اكتمل كيانها فى أواخر القرن التاسع عشر . ومع أن بعض القوى الكبرى خلال ذلك القرن كانت تحاول الضغط على هذه القوميات والحد من انتشارها ، فإن الرأى العالمى حينئذ كان بوجه عام ينصرها ويشجع عليها ، أو على الأقل يقف منها موقف الحياد . ولم يترك ضغط القوى الكبرى فى هذه القوميات إلا أثراً مؤقتاً لم يُضعف من قوتها ، ولم يمنع من انتشارها . ولعل المنافسة التى كانت بين هذه القوى الكبرى روسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا — كانت من العوامل التى ساعدت القوميات الأوربية على استكمال نموها وتميزها واستقلالها . ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القوميات فى أوربا مستقرة معترفاً بها . هذه هى القوميات الأوربية التى ورثتنا ذلك المصطلح السياسى الاجتماعى الذى نسميه الآن بالقومية .

فإذا نظرنا إلى القوميات فى أفريقيا وآسيا وجدناها قد وُلدت بعد احتلال واستعمار ، وأن نشأتها إنما كانت بعد انحسار كابوس الاستعمار . دون أن تنهار تلك الدول التى فرضته وأسسته . ودون أن تتفتت كما تفتتت الإمبراطورية الرومانية ؛ بل انسحبت وهى لا تزال على قدر كبير من قوتها ، تاركة مناطق فى أفريقيا وآسيا مؤسسة على حدود إدارية أو استراتيجية خلقها الاستعمار دون اعتبار لجنس أو دين أو لغة . وتلك الحدود المصطنعة أو المصنوعة هى التى على أساسها تقوم الآن الدعوات القومية فى أفريقيا وآسيا . ولم تتح لمناطق أفريقيا وآسيا فترة كافية من الاستقرار والهدوء والنهضة العلمية والفكرية كالذى ساد فى أوربا قبل ظهور قومياتها . ولهذا يحاول الآن الزعماء والقادة فى أفريقيا وآسيا أن يلتمسوا شعارات جديدة ، وأسساً جديدة يبنون عليها قومياتهم أو دولهم ، وليس من المغالاة إذن أن يقال إن مفهوم القومية فى أوربا يختلف إلى حد كبير عن مفهومها فى أفريقيا وآسيا .

والقومية فى حقيقة أمرها هى تلك القوة السحرية التى تدعو الأفراد فى بيئة من البيئات إلى التجاذب بعضهم نحو بعض ، وشعورهم بوحدة بينهم فى الفكر والأحاسيس ، وتعاونهم على مواجهة الحياة ، يعملون جاهدين على أن يكونوا من أنفسهم مجتمعاً منسجماً فى الآمال والأهداف ، ومتطلعاً إلى السلام والاستقرار والرخاء فى بيئتهم . وهذا هو القدر المشترك بين قوميات أوربا وقوميات أفريقيا وآسيا ، برغم الظروف التى نشأت فيها هذه أو تلك .

فإذا تساءلنا عن دور اللغة فى قوميات أوربا ، ودورها فى قوميات أفريقيا وآسيا ، تبين لنا أن الأمر يتطلب فصلا خاصًّا نحاول فيه أن نعالج دور اللغة فى نشأة القومية ، أو ما نسميه « اللغة والقومية » .

آسيا



مقياس الرسم ١ : ٤٠,٠٠٠,٠٠٠

آسيا بعد معاهدة فرساي

آسيا الحديثه   مقياس الرسم ١ : ٤٤ مليون

الفصل الثالث

اللغة والقومية

بعض الذين كتبوا عن القومية فى العصر الحديث كانوا من السياسيين الذين سخروا من فكرة القومية ، ووصموها بأنها شعار من الوهم يعمد إليه بعض الزعماء والقادة فى بيئة من البيئات ليجمعوا الناس حوله ويخدعوهم به ، فيضمنوا ولاءهم وخضوعهم ؛ أو ليؤلفوا قلوبهم ، فيستقر الحكم والسلطان لهؤلاء الزعماء والقادة . وقد يكون سلوك هؤلاء الزعماء ذا طابع أنانى شخصى ولا هم لهم إلا ضمان النفوذ والاستئثار بالسلطة . غير أن بعضاً منهم من ذوى النفوس الطيبة والنوايا الخيرة ، الذين يعملون جاهدين لصالح قومهم ، ليكفلوا لهم حياة كريمة يسودها الأمن والرخاء والاستقرار . وهؤلاء قد يعمدون إلى فكرة القومية فيدعون لها ، ويتشبثون بها ؛ لأنها فى رأيهم السبيل الوحيد لتجميع القوى ، وتوحيد الجهود بين أفراد قومهم . وإن كانوا فى قرارة أنفسهم يؤمنون أن فكرة القومية ليست إلا وهماً وخيالا .

وهؤلاء السياسيون الساخرون يرون أن ما يسمى بالقومية لا يعدو أن يكون الانتماء إلى دولة من الدول أو ما يدعى بالجنسية « Nationality » وقد يكتسب المرء هذه الجنسية بالميلاد وحده ، أو بالإقامة فى البيئة فترة من الزمن ، وهو مع هذا لا يكاد يشعر نحو هذه البيئة بولاء أو اعتزاز ، بل قد لا يتكلم لغتها ولا يدين بدينها ، ولا يأخذ بعاداتها وتقاليدها . فالدولة فى رأيهم هى وحدها ذات المفهوم الواقعى ، فقد حدد القانون الدولى معالمها ، ونظم أمورها مع الدول الأخرى فى العالم . وهى وحدها التى تنتمى إلى هذا القانون المعترف به فى كل أنحاء العالم ، وعلى أساس مواده تحكم محكمة العدل الدولية . والدولة وحدها هى التى يمكن أن تشترك فى تلك المنظمة العالمية المسماة بهيئة الأمم المتحدة ، وكان يجب

لهذا أن تسمى بهيئة الدول المتحدة . فليس الاشتراك أو الانتماء إليها يقوم على أساس ما يسمى بالقومية ، بل على أساس الدولة .

وهذه ولا شك صورة قاتمة لفكرة القومية ، إذ يسلبنا هؤلاء السياسيون الساخرون برسمها قيمة عاطفية نبيلة يعتز بها معظم الشعوب فى العالم ويستمسكون بها ، ويؤسسون كيانهم عليها .

ولكن معظم الذين تحدثوا عن القومية من غير هؤلاء السياسيين الساخرين قد نظروا إليها على أنها حقيقة واقعة ، وأشادوا بها وبأثرها فى نهضة الشعوب كما حاولوا أن يحددوا مقوماتها ، ويوضحوا معالمها وسماتها . ثم نظرنا فإذا بهؤلاء يختلفون فى تلك المقومات ، ويضطربون فى بيان تلك المعالم والسمات ، ونشأ عن هذا عدة نظريات حول القومية وحقيقة أمرها والأسس التى تقوم عليها ، وغير ذلك مما تفصله الكتب التى عرضت لتعريف القومية . فمنهم من يجعل الدعامة الأساسية فى نشأة القومية بما يسميه بمشيئة المعيشة المشتركة ، وقد أخذ بهذه النظرية جماعة من كتاب فرنسا ومفكريها أشهرهم « رينان » إذ يقول فيما يقول : (إن الأمة روح وجوهر معنوى . وهذا الجوهر المعنوى يتألف من أمرين : أحدهما يعود إلى الماضى ، والآخر يتعلق بالحاضر . ويرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً . ذلك لأن الاشتراك فى تراث ثمين من الذكريات الماضية ، والرغبة فى المعيشة المشتركة ، مع الاحتفاظ بذلك التراث المعنوى المشترك ، والسعى وراء زيادة قيمة ذلك التراث ... هذا هو أس الأساس فى تكوين الأمة)(١) .

ولا نحب أن نقف طويلا أمام هذه النظرية ، لأنها إنما نشأت فى عهد احتدم فيه الجدل والنقاش بين مفكرى الألمان والفرنسيين إبان الحرب السبعينية . فهى وليدة ظروف خاصة بين الدولتين الكبيرتين ، ولذلك تتسم بالذاتية لا بالموضوعية . فيقول المؤرخ الفرنسى « دوكولانج » مثلا فى معرض هذا النقاش : (قد يكون الألزاسيون ألماناً باللغة ، ولكنهم على كل حال فرنسيون بالنزعة والمشيئة . والذى جعلهم فرنسيين لم يكن فتوحات لويس الرابع عشر أو معاهدة

---

(١) انظر كتاب ساطع الحصرى (معنى القومية) ص ١٢٢ بيروت .

« وستاليا » — كما يتوهم الألمان — بل هى الثورة العظمى . فإن هذه الثورة هى التى دعت إلى اندماج الألزاس فى فرنسا ، وجعلت الألزاسيين فرنسيين بكل معنى الكلمة . إن القومية لا تتعين باللغة ، بل إنها تتعين بالرغبة والمشيئة . . . . فالعدالة تقضى بمراعاة مشيئة الألزاسيين وتحقيق رغباتهم فى هذا المضمار) . .

ويكفى هنا أن نتساءل لماذا تلاشت مشيئة الانفصال التى ظهرت بين الجنوبيين فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد هزيمة جيوشهم فى ساحة القتال ، فى حين أن مشيئة الانفصال التى ظهرت بين المجاريين فى أوربا ظلت تتأجج وتشتعل ، برغم الخسائر التى تكبدوها خلال ثوراتهم المتتالية ، وسلسلة الهزائم الأليمة التى تعرضوا لها .

أما النظرية الثانية التى نادى بها بعض المفكرين فى الدول الشيوعية والاشتراكية فكان أساسها كما هو المتوقع ، أن المصالح الاقتصادية هى أس الأساس فى نشأة القومية ، وإن لم ينكر أصحاب هذه النظرية أثر اللغة الواحدة ، والأرض الواحدة ، والثقافة الواحدة فى نشأة القومية .

ويبدو لنا أن أولئك الذين ركزوا اهتمامهم وعنايتهم عند الحديث عن القومية على مشيئة المعيشة المشتركة حينا : وعلى المصالح الاقتصادية حيناً آخر قد خلطوا بين أمرين كان يجب التمييز بينهما : أولهما تلك الطاقة الكامنة التى قد تنفجر وينشأ فى إثر هذا الانفجار ما نسميه بالقومية ؛ والآخر الحوافز على هذا الانفجار ومعالمه الظاهرة . فإذا اختلفت سمات القومية فى أوربا بعض الاختلاف ، فقد اشتركت ولا شك فى تلك الطاقة الكامنة التى هى السر الحقيقى فى كل قومية .

ولسنا ندهش إزاء تلك الآراء المتباينة والجدل المحتدم بين من يعترفون بالقومية أن يظهر أولئك السياسيون الذين أنكروا وجودها ، وقرروا أنها لا تعدو أن تكون الانتماء إلى دولة من الدول .

وإذا تذكرنا أن نشأة القومية عملية تاريخية بطيئة تتطلب زمناً طويلا أدركنا أن فكرة المشيئة فى المعيشة المشتركة أو المصالح الاقتصادية ليست فى الحقيقة إلا عوامل قد تساعد على دعم القومية لا خلقها . فمثل هذه الأمور ترتبط بزمن

معين وبظروف سياسية خاصة . فالقومية الصينية فى عهد الرأسمالية هى هى فى النظام الشيوعى الذى يسود الصين الآن ، وإن كان يمكن القول بأن النظام الاقتصادى الجديد قد قوى أو ساعد على دعم تلك القومية الصينية .

دعنا بعد هذا نتناول فى عرض سريع أشهر تلك المقومات التى نصادفها فى الكتب التى تحدثت عن القومية : الجنس . الدين . الثقافة . اللغة .

١ — الجنس :

يعنى الدارسون بمصطلح « الجنس » عادة قوماً من الناس نشأوا من أصل واحد أو أرومة واحدة ، وأصبحت لهم ملامح جسمانية معينة مشتركة بينهم : كأن يشار مثلا إلى الجنس اليهودى ، أو كأن يقال إن الأوربيين فى الوقت الحالى يتألفون من أجناس متعددة ، وأن ما يمكن أن يسمى بالنقاء الجنسى لم يعد له وجود فى أوربا . فما كان يسمى فى أوربا بالجنس النوردى ، أو جنس البحر الأبيض المتوسط ، أو الجنس الألبانى ، وغير ذلك مما كان فى وقت من الأوقات يعدّ أجناساً متميزة ، كل هؤلاء قد أصبحوا الآن يؤلفون أجناساً مختلطة ممتزجة مع تفاوت فى نسبة هذا الاختلاط والامتزاج .

وفى الحق أن مصطلح الجنس لا يعدّ مصطلحاً علميًّا دقيقاً ، فليس له مكان بين تقسيمات المخلوقات الحية تلك التقسيمات التى اكتسبت القبول والاعتراف بها بين الدارسين فى العالم . فعالم الطبيعة يتألف من ثلاث ممالك : الحيوان . النبات . المعادن . وكل مملكة منها ترتب فى نظام تدريجى ذى سبع شعب هى التى تعرف : بشطرى المملكة ، والأقسام ، والمراتب ، والأسر ، والأنواع ، والأجناس ، وأخيراً المتنوعات .

فالإنسان ينتمى إلى النوع المسمى Homo الذى يندرج تحته أجناس ، ومتنوعات ، حددت تحديداً علميًّا دقيقا فى علم الأحياء .

ولا تتضح فى هذا النوع Homo معالم الجنس البشرى على النحو الذى قرره عالم مثل « يوهان فردريك باومنباخ Johann Friedrich Blumenbach » فقد

قسم الجنس البشرى إلى خمسة متنوعات على حسب تلك السمة الواضحة، وهى لون البشرة :

(ا) الأبيض القوقازى .

(ب) الأصفر المنغولى .

(ح) الأسود الأثيوبى .

(د) الأحمر الأمريكى أو الإنجليزى .

(ه) الأسمر الملاوى .

ثم استمر هذا العالم يصف هذه المتنوعات على حسب الهياكل والتكوين العظمى كشكل الجمجمة (طويلة . متوسطة . عريضة . . إلخ) ، وكاعتدال الأنف أو فلطحته ، وكبروز الصدغ ، وكتجعد الشعر ، وكلون العيون . . ونحو ذلك من صفات جعلها أساساً لتقسيماته .

وقد قام بنفس المحاولة علماء مشهورون فى علم الأجناس ، أو الفرع الخاص بمقاييس الأعضاء فى الجسم الإنسانى . ثم تكررت المحاولات : ولكن النتائج التى اهتدوا إليها ، وحدثونا بها ، كانت مضطربة وغير مؤكدة . وتبين ثم بما لا يدع مجالاً للشك أن توزيع الأجناس فى العالم تباين تباينا غير متوقع . حين تكون الأسس المختارة للتوزيع ملامح معينة أو مجموعة من الملامح مثل : القامة ، والجمجمة ، والأنف ، والصدغ ، والأعين ، والشعر ، والبشرة ونحو ذلك .

فالأجناس التى حاولوا تمييزها قد تبين للدارسين أنها غير واضحة المعالم : وأن أساس تمييزها تحكمى .

أما الذين درسوا الأجناس البشرية من حيث الوراثة والبيئة فكانوا أكثر نجاحاً . فبرغم أن الاكتشافات الرائدة التى قام بها « ماندل » لم تكن معروفة لداروين ، ولم ينتفع بها أحد إلا بعد انقضاء القرن التاسع عشر ، فإن التقدم الذى أحرزه علم الوراثة منذ ذلك الحين تقدمٌ سريع مرموق . فمن المحقق الآن أن الوراثة تتم عن طريق الجرثومات فى الكروموزومات ، وليست عن طريق الدم . ذلك لأن وراثة الدم فكرة خاطئة ظلت محل القبول منذ عهد

أرسطو الذى كان يؤكد لتلاميذه أن دم المرأة فى النظام الشهرى ، وهو الذى ينقطع فى أثناء الحمل ، يساهم فى المادة التى يتكون منها جسم الجنين . وفى الحق أنه ليس هناك جريان دموى بين المرأة وجنينها ، فلا تمر قطرة واحدة من دم الأم إلى الجنين فى رحمها . بل الصحيح هو أن نواة كل خلية من جسم الوليد تحتوى على ٢٤ زوجاً من الكروموزومات ، زوج من جهة الأب ، وزوج من جهة الأم . أى أن الجنين ينحدر إليه ٢٤من الكروموزومات عن كل من الأبوين ، ولكن عدد ما يرثه الوليد من هذه الكروموزومات قد يختلف باختلاف الوالدين . فما يرثه عن أحدهما قد يكون أقل ، أو أكثر ، أو مساويا ، لما يرثه من الآخر ، ويتم كل هذا فى حدود ٢٤ كروموزومات . وهكذا نرى أنه بعملية رياضية بسيطة يكون عدد الا حتمالات فى وراثة الكروموزومات عن الأبوين فى حدود الملايين . . غير أن الغالب السائد أنه فى حالة التزاوج المختلط ، أى حين لا يقتصر التزاوج على أفراد أسرة معينة ، نلحظ أن عدد ما ينحدر إلى الوليد من الكروموزومات من الأجداد يتباين ، فهو من الجد الرابع أكثر من الجد الثامن ، ومن الجد الثامن أكثر من الجد السادس عشر . ويؤكد لنا علماء الوراثة أننا لا نكاد نرجع إلى ما قبل الجد الرابع والستين ، أى فى حدود الجيل السادس ، حتى تشهد حالات كثيرة قد انعزل فيها الوليد عن أسلافه من حيث الكروموزومات ، فلا يكاد ينحدر إلى الجنين من هؤلاء الأسلاف القدماء عناصر جسمانية . وعليه فأولئك الذين يدعون الآن الانتساب أو الانتماء إلى النسل المباشر لأحد الخلفاء الراشدين مثلا ، ويتخذون من هذا الادعاء وحده شعاراً لفخرهم واعتزازهم ، يجدر بهم أن يعرفوا — على حسب مايؤكده علماء الوراثة — أن من المشكوك فيه أن يكونوا قد ورثوا عناصر جسمانية بيولوجية عن هذا الخليفة .

وقد أصبح من المقرر الآن من الناحية البيولوجية أن الفرق بين دم الزنجى فى أفريقيا ودم الرجل الأبيض فى « اسكنديناوا » طفيف ، بل قد تبرهن التحاليل على أن المجاميع الدموية لهما متحدة تمام الاتحاد .

مما تقدم نرى أن فكرة الجنس بين البشر قد أسست على وهم ، أو بعبارة

أدق ليس لها أساس بيولوجي مؤكد .

أما الكلمة الأجنبية (Race) التي تترجم عادة بالجنس البشري فقد انحدرت إلى بعض اللغات الأوربية عن الكلمة العربية « رأس » عن طريق اللغة الأسبانية. وتختلف هذه الكلمة فى الأصل الاشتقاقى عن نظيرتها (Race) أيضاً تلك التي تعبر فى الإنجليزية عن السباق . وقد كانت الكلمة (Race) بمعنى الجنس فى اللغة الإنجليزية تعبر فيما مضى عن نسل الحيوان من أب واحد ، واستعملها شكسبير بهذا المعنى فى بعض رواياته ، غير أنه استعملها أيضاً للإنسان،إذ يقول فى إحدى رواياته (Happy race of kings) وفى رواية أخرى (The whole race of mankind) . وبرغم ورود هذه الكلمة عدة مرات فى أعمال شكسبير لا نكاد نعثر على مثل واحد لها فى ترجمة الكتاب المقدس أيام جيمس الأول — أى فى أواخر القرن السادس عشر من الميلاد : بل عُبّر عن معناها بكلمات أخرى .

وظلت كلمة (Race) فى اللغة الإنجليزية غير محددة الدلالة حتى جاء « ماكس ميلر» فى منتصف القرن التاسع عشر وخلط فى استعمال الوصف « آرى » فلم يقصره على اللغات الآرية أو المتكلمين بها كما فعل « وليم جونس » من قبله ؛ بل استعمله فى بعض أقواله للدلالة على قوم ذوى ملامح جسمانية متميزة ، كطول القامة ، وكالشعر الأصفر ؛ مما شجع بعض الكتاب فى عهده على استعماله بمعنى « الجنس الآرى » الذى زعموا أنه يتفوق على الأجناس الأخرى فى العالم . وقد استغلت هذه الدلالة استغلالا دنيئاً أيام هتلر .

وكان هذا برغم أن «ماكس ميلر» نفسه قد تنبه فيما بعد إلى هذا الخلط ونبذه فى كتاباته المتأخرة إذ يقول : (لقد أعلنت مراراً وتكراراً أنى حين أشير إلى الآريين لا أعنى مطلقاً أولئك الذين يتصفون بملامح معينة فى الدم أو العظام أو الشعر أو الجمجمة . وإنما أريد فقط أولئك الذين يتكلمون لغة آرية . وحين أتحدث عنهم لا يخطر فى ذهنى أى خصائص تشريحية . فأصحاب العيون الزرق ، والشعر الأصفر فى اسكنديناوا قد يكونون الغزاة وقد يكونون من وقع عليهم

الغزو . قد يكونون قد اصطنعوا لغة الغزاة السُّمر أو العكس . وفى رأيى أن علماء الأجناس البشرية الذين يتحدثون عن الجنس الآرى والدم الآرى والأعين الآرية والشعر الآرى إنما مثلهم فى الخطيئة مثل اللغوى الذى يحدثنا عن معجم طويل الرأس أو أفطس الأنف)[١] . .

ومع هذا فقد استقر الرأى بين الكتاب على قصر استعمال الوصف « آرى » على معنى الجنس الآرى ، وتسمية ما أسماه وليم جونز باللغات الآرية ، اللغات الهندية الأوربية ، منعا للبس والإبهام .

حقًّا إنه من العسير فى بعض الأحيان أن نلتمس كلمتين مختلفتين إحداهما تعبر عن اللغة والأخرى تعبّر عن المتكلمين بها . فنحن نقول مثلا : اللسان الكلتى ، كما نقول الجنس الكلتى ، ونقول اللسان العربى كما نقول الجنس العربى ، لا لشىء سوى أننا نفتقد كلمة أخرى للتفرقة بين تسمية اللغة وتسمية الجنس . غير أن السياق فى مثل هذه الحالة كفيل بتحديد المعنى المقصود . ومن واجب الدارس على كل حال أن يفصل فصلا تامًّا بين أنساب الشعوب واللغات التى يتكلمون بها ، وألا ينساق مع أولئك الذين يستمسكون بالأفكار الزائفة المضللة حول ما يسمى بالجنس ، ويصرون فى غباء على الحديث عن النقاء الجنسى والتفوق الجنسى . .

وإذا تبين مما تقدم أن فكرة الجنس ونقاء الجنس ليس إلا وهماً ، وليس له أساس علمى مؤكد ، فهل يجوز مع هذا أن نعدها من مقومات القومية ؟

٣ — الدين :

الدين هو الولاء الروحى لعقيدة من العقائد . وإذا نظرنا إلى موقف الدين فى العالم الآن تبين لنا أن الصين تترفع إلى حد ما عن الكونفيوشية ، وأن الديانة البرهمية واليهودية قد أصبحتا فى الوقت الحالى تقتصران على قوم معينين . ولذلك يمكن القول بأن هناك ثلاثة أديان عالمية فقط هى التى تستأثر بالمحبة والإخلاص

---

(١) Language in the modern world, by Simeon Potter. P. 24.

بين جميع البشر ، وهي : البوذية ، والمسيحية ، والإسلام .

وتسمو هذه الأديان الثلاثة فوق حدود الجنس والقومية والنظم الاجتماعية والطبقات والطوائف وكل القوانين والدساتير الوضعية ، لأنها تتسم حقاً بالعالمية والخلود . فهي تؤكد لنا حقيقة ذلك العالم الروحي غير المحسوس الذى لا يمكن رؤيته ، وتدعو جميعاً إلى خلود القيم المجردة للخير والجمال والحق . فهي لذلك تمنح البشرية قدراً وافراً من الأمن والسلام ، مما لا تقدر الدنيا على منحه .

وقد يعتنق المرء ذلك الولاء الروحي فجأة ، بل ربما فى غمضة عين ، كالذى حدث لعمر بن الخطاب حين سمع أخته تقرأ آيات بينات من القرآن الكريم . وكذلك الشأن فى الشعوب ، فقد يسود أحدها دين جديد خلال فترة قصيرة نسبياً ، كما حدث فى اسكنديناوا حين عمت المسيحية بها ، وانتشرت بين قومها ، فى القرن العاشر الميلادى . ولم تكن سيادة المسيحية فى هذه المناطق الشمالية مجرد تغيير فى العقيدة ، بل شمل هذا تغييراً فى الثقافة أيضاً ، وترتب عليه غنى كبير فى اللغة . فالعلماء والمثقفون هناك وجدوا أنفسهم فى حاجة ملحة لخلق مصطلحات جديدة تعبر عن المفاهيم التى تتصل بالعقيدة الجديدة .

وقد يتخذ أثر الدين فى اللغة أشكالا أخرى . فاللغة « الكرواتية » واللغة « الصربية » وكلاهما فى يوغوسلافيا تُعدّان فى الحقيقة لغة واحدة . ولكن بسبب الاختلاف المذهبي بين أبناء هذه وأبناء تلك فى الفلسفة المسيحية ، تكتب « الكرواتية » بحروف لاتينية ، فى حين أن « الصربية » تكتب بالحروف « السيريلية » وهى حروف الكنيسة الأرثوذكسية للإغريق .

وإذا كانت أشهر الديانات فى العالم تتسم بالروح العالمى ، وتسمو على كل ما يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فهل يعقل مع هذا أن ندعى أن الدين من مقومات القومية ؟

فالإسلام مثلا جاء للناس كافة ، ويدعو البشرية جمعاء إلى اعتناقه والإيمان بتعاليمه وشرائعه ، لا يفرق بين جنس أو لون أو وطن . ويقول نبيه الكريم إنه : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » . ويتسم الإسلام أيضاً

بالسماحة والبعد عن التعصب إزاء الديانات السماوية الأخرى .

ولا يصح لهذا أن يكون داعياً إلى القومية، أو من مقوماتها، فهو دين عالمى، ويعتنقه الآن فى العالم أقوام من قوميات متباينة فى مشارق الأرض ومغاربها وكلهم إخوان فى الدين يتعاطفون روحيًّا ، وينصر بعضهم بعضاً فى صدق هذا الدين الحنيف ، ونشر تعاليمه ، ودعم أركانه . وفى مبادئ الإسلام ما يسمح لكل وطن بتنظيم شئونه السياسية والاقتصادية على حسب متطلبات الحياة فيه ، وعلى حسب ظروفه الاجتماعية ، فلا يفرض لكل مسألة دنيوية حلاً معينا ، بل تتسم شرائعه بالمرونة ، وسعة الأفق ، بحيث يمكن تطبيقها فى كل أرض وكل وطن . ولنا من قصة تأبير النخل بالمدينة خير دليل على هذا ، تلك القصة التى يحسمها النبي الكريم بقوله الرائع : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .
ولا يصح لهذا أن نتصور أن نشأة دولة باكستان إنما كانت على أساس الدين وحده ، بل يجب أن نلتمس أسباب نشأة هذه الدولة من ظروف أخرى بعضها تاريخى وبعضها لغوى ، وأن نسمو بديننا الإسلامى عن الدعوة المحلية . هذا إذا وصفت دولة باكستان بالقومية الباكستانية . وفى الحق أن القول بأن باكستان دولة قومية بالمعنى المألوف لنا فى قوميات أوروبا فيه قدر كبير من التجوز والمغالاة .

أما فى أوروبا فلم يكد ينقضى القرن التاسع عشر حتى شهدنا الناس ينظرون إلى الدين نظرة أوسع أفقاً وأكثر سماحة ، ولم يعد لهم تلك الحساسية العقائدية التى سادت أوروبا خلال القرون الوسطى ، ولذلك نشأت كل القوميات الأوروبية فى رحاب المسيحية ، واستقل بعضها عن بعض وتميزت ، برغم أن الجميع من المسيحيين . فهل يمكن أن يقال مع هذا إن الدين كان من مقومات القوميات الأوروبية ؟ بل إن المسيحية منذ نشأتها قد فرقت بين الدين والدنيا ، وتركت ما ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وبهذا سمحت بنشأة القوميات ، أو لم تعترض عليها ، ولم تحد من انتشارها .

فالقوميات التى هى من صنع الإنسان ، ومن النظم الدنيوية التى اهتدى إليها بعقله وتفكيره وليس بوحى من الله ، لا يصح أن نربطها بالدين ، وأن نجعله

من مقوماتها ، وإلا نكون بذلك قد هبطنا بذلك المستوى الروحي الخالد الشامل الذى تتسم به الديانات السماوية إلى مستوى دنيوى محدود الأفق ، هو من عمل الإنسان وحده ، وليس للوحي الإلهى فيه نصيب .

من الإسراف إذن أن يقال إن القومية بمعناها الحديث فى السياسة والنظم الاجتماعية تتطلب الدين أو العقيدة كأحد مقوماتها .

٣ — الثقافة :

حين نتساءل عن تعريف مقبول للثقافة نجد أنها لاتكاد تعنى سوى ذلك الطريق الموروث للحياة فى شعب من الشعوب . وحين نتحدث عن الحضارة التقليدية فى شعب ما نجد أنها تشمل فنونه وحرفه التى ترجع إلى أزمان بعيدة فى القدم ، كما تشمل قوانينه ، ونظرته إلى تأسيس المجتمع ، وموقفه من الأخلاق والفضائل ، وسمو من يتحلى بها ؛ بل تشمل أيضاً قدر ما يتسم به هذا الشعب من الذوق السليم ، وسعة الأفق والسماحة ، وروح الدعابة بين أبنائه .

وكلمة الحضارة حين نقابلها بالبداوة لا تعنى أكثر من حياة المرء فى المدينة حياة مستقرة منظمة ، فى مجتمع يتمسك بالقانون ويخضع له . إنها مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى ، تمت بعد تطور طويل شاق للمجتمع البشرى .

وتقع أقدم مراكز الحضارة والثقافة فى أحواض الأنهار الصالحة للملاحة كالنيل والفرات ودجلة ونحوها . وقد نشأت هذه المراكز مستقلة فى إثر الاهتداء إلى الفلاحة المنظمة فى الأودية الكبيرة ؛ حيث يسهل تبادل السلع والأفكار بين الناس . ثم تأثر بعضها ببعض ؛ غير أنه لا يمكن الوقوف على مدى تأثر ثقافة بأخرى فى هذه المراكز الحضارية ، أو تحديد قدر هذا التأثر . فى تاريخ الإنسانية شهدنا بين الحين والحين شعوباً مختلفة قدمت للعالم هدايا فكرية وثقافية متعددة ، وعملت على استقراره ورخائه ونهضته . فالمصريون القدماء قد منحوا العالم ذلك النوع من الكتابة التصويرية التى تطورت بعد ذلك على أيدى الفينيقيين إلى الكتابة المقطعية ، ثم عنهم أخذ الإغريق حروف الهجاء أو الكتابة

الهجائية . ووهبنا الإغريق القدماء دروساً ونماذج رائعة فى فن النحت والدراما والموسيقى والفلسفة ، كما وهبنا الرومان القانون والنظم الإدارية . أما العرب فإليهم يرجع الفضل فى نشر المعرفة بالرياضيات والفلك وغير ذلك من صنوف العلوم .

ولكن الغريب فى ثقافات الشعوب خلال العصور التاريخية أنها لا تثبت على حال ، فبينما نرى الثقافة فى شعب ما تتقدم فى اطراد عدة أجيال ، قد نراها تعود القهقرى وتنتكس ، دون توقع لمثل هذا الانتكاس أو تفسير واضح له .

فإذا تساءلنا بعد هذا عن أوضح مقياس للثقافة فى العالم الحديث لا نكاد نهتدى إلى رأى حاسم قاطع . فهل نقيس الثقافة الآن عن طريق الدراسة الدقيقة للفن والأدب والقانون فى شعب من الشعوب ؟ أو هل الثقافة تعتمد أولا وبالذات على المستوى العام للتعليم فى هذا الشعب ؟ إنها فى الحقيقة تستمد جذورها ، وإلى حد كبير ، من كل ما تقدم . ولكنها مع هذا تعكس بوضوح درجة التحرر وسعة الأفق والسماحة بين الناس فى حياتهم العامة ، كما تعكس مدى رغبتهم فى السماح لغيرهم بحرية الرأى . فإذا نظرنا فى بيئة من البيئات وشهدنا السماحة وسعة الأفق تسود بين الناس تبين لنا بجلاء أن مستوى الثقافة فى هذا المجتمع مستوى راق وعلى درجة سامية . وعلى العكس من ذلك إذا شهدنا أن هذه الصفات آخذة فى الانحطاط والانتكاس فليس يعوضنا عن فقد الثقافة فى مثل هذا المجتمع أو يغنى عنا ما قد نراه فيه من مظاهر براقة فى الفن والعمارة الشاهقة أو النظم المحكمة فى التعليم والإدارة . ذلك لأن الشعارين الأصيلين للثقافة هما : التحرر ، والسماحة .

فإذا تبين لنا أن الثقافة والنهضة الفكرية لم يستأثر بهما شعب واحد فى كل العصور التاريخية ، وأن ثقافات الشعوب قد صبّ بعضها فى بعض وتأثر بعضها ببعض ، وأن شعوباً متعددة قد أسهمت فى النهضة الثقافية للإنسان خلال التاريخ البشرى ، إذا تبين كل هذا فكيف يقال مع ذلك إن الثقافة من مقومات القومية الحديثة . إن الثقافة فى معظم مظاهرها تراث إنسانى ، وما قد يتسم منها بالمحلية قدرٌ تافه لا يمكن أن يخلق شعباً أو قومية واعية . دعنا إذن

نفتش عن السر الحقيقي لنشأة القومية ، أو بعبارة أخرى عن أس « الأساس » بين مقومات القومية ، فربما نقتنع في نهاية الأمر أنه ينحصر في اللغة المشتركة .

٤ — اللغة :

يحدثنا الدارسون لعلم النفس عن غرائز أو نزعات فطرية عامة ذات أثر بيّن في حياة المجتمع ، ويخصون ثلاثاً منها بالعناية وهي : المشاركة الوجدانية ، والاستهواء ، والتقليد . ويطلقون على هذه النزعات الثلاث في بعض الأحيان النزعات الاجتماعية ؛ ذلك لأنها تربط المرء بمجتمعه ربطاً وجدانياً وإدراكياً وسلوكياً ، فتهيئ لأفراد المجتمع التماسك والانسجام في الوجدان والفكر والسلوك .

أما المشاركة الوجدانية فهي أن يحس المرء بالانفعالات التي قد تكون عند الآخرين ، أي أن يشركهم في السراء والضراء والحزن والفرح . فإذا دخل المرء بيته ووجد أهله يضحكون مثلا شاركهم في هذا الشعور وضحك مع الضاحكين ، وإن لم يشعر شعوراً تاماً بسبب هذا السرور . بل إن المرء في السينما قد يضحك مع الضاحكين بسبب حوار خاص باللغة الإنجليزية ، وإن لم يكن على معرفة بهذه اللغة تسمح له بتتبع هذا الحوار .

وتكون المشاركة الوجدانية على قدر ما بين المرء والذين حوله من صلة القرابة أو الصداقة ، وعلى قدر محبته لهم . فالأطفال يشاركون أهلهم وجدانياً في سرعة ويسر ، لأنهم يكنّون لأهلهم الأقربين الودّ والمحبة والعطف والرحمة .

وأما الاستهواء فهو أن يتقبل المرء أفكار الكبار حوله وآراءهم ، دون مطالبة بما يثبت أو يبرهن على تلك الأفكار والآراء . وتتوقف عملية الاستهواء أيضاً على قدر محبة المرء لصاحب الرأى ، وعلى احترامه له ، واعتزازه بآرائه . ولهذا لوحظ أن الأطفال تستهويهم آراء الكبار من أهلهم ، ويتأثرون بها تأثراً عميقاً .

وأما التقليد فكأن يعجب المرء بسلوك غيره فيقلده في هذا السلوك . فالطفل قد يقلد أبويه في طريقة كلامهما ومشيتهما وطريقتهما في تناول الطعام أو الجلوس إلى المائدة .

ويميل بعض الدارسين لعلم النفس إلى اعتبار هذه النزعات الثلاث نزعة واحدة يطلقون عليها لفظ التقليد . ذلك لأن المشاركة الوجدانية هي فى الحقيقة تقليد فى الإحساس والمشاعر ، واعتناق المرء لآراء غيره دون فحص لها ليس فى الحقيقة إلا تقليداً فى الإدراك ، ويبقى بعد هذا التقليد فى السلوك .

ويرى هؤلاء الدارسون فى ختام حديثهم عن هذه النزعات الاجتماعية أنها من أكبر العوامل فى انسجام الجماعات ، وأن لها أثراً كبيراً فى توافق الجماعة وتآزرها ، ووحدتها فى الآمال والأمانى ، وسعيها الدائب لتحقيق تلك الأمانى والآمال.

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن تلك النزعات الاجتماعية تتخذ مع الإنسان صورة أرقى وأسمى من مجرد غريزة يشركه فيها بعض الأنواع الراقية من الحيوان . ويتحقق ذلك عن طريق اللغة التى يتميز بها النوع الإنسانى . فلا يكون الانسجام بين أفراد الجماعة تامًّا وشاملاً إلا عن هذا الطريق . فالمتعة الوجدانية التى يحس بها المرء العارف باللغة الإنجليزية حين يشارك المتفرجين وجدانهم فى مشهد سينمائى ، أرقى وأسمى من تلك التى قد تكون لدى من يجهل هذه اللغة . وإعجاب المرء بآراء غيره يصحبه عادة تعبيرات ساحرة أخاذة تصدر من صاحب هذه الآراء . وكذلك الشأن فى تقليد السلوك لا يتم عادة فى صمت مطلق . بل يكتنفه عادة كلام مقنع فصيح يثير إعجابنا بالسلوك ويدفعنا إلى تقليده . تصور مثلا أسرة تتألف من أب عيىّ ، وأم صماء بكماء ، وأبناء شاءت الظروف أن ينشأوا فى بيئات أجنبية فلا يحسنون لغة أبويهم . فإذا ضمّ مجلسٌ أفراد هذه الأسرة شهدنا انفصاماً بينهم ، وتفككاً فى صلة بعضهم ببعض ، وشهدنا ما يمكن أن يكون بينهم من مشاركة وجدانية أو استهواء فى الرأى أو تقليد فى السلوك ، فى صورة أدنى مرتبة وأقل فعالية مما يكون لدى أسرة أخرى ينطق كل أفرادها بلسان واحد ويتفاهمون بلغة واحدة . فانسجام الأفراد فى الجماعة ، وتوافقهم وتآزرهم ووحدتهم فى الآمال والأمانى ، وغير ذلك مما ينسبه الدارسون للنزعات الفطرية لا يتحقق كاملا شاملا إلا مع اللغة التى هى أقوى رباط بين أفراد المجتمع .

فإذا سمونا عن تلك النزعات الفطرية التي يشترك فيها الحيوان أيضاً ، تبين لنا أن المجتمع الإنساني يتطلب في كمال انسجامه وتآزره وتعاونه شيئاً أرقى من تلك الغرائز ، ويتمثل هذا الشيء في خير ما اهتدى إليه الإنسان في كل تاريخ الإنسانية ، ألا وهو اللغة .

فاللغة هي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض ، واشتراكهم في نفس الذكريات سواء كانت تاريخية أو ثقافية ، بل واقتصادية أيضاً .

ليست اللغة إذن كما قد يظن لأول وهلة مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار أو مجرد رموز لما يدور في الأذهان ، بل هي تلك الوسيلة التي امتزجت بعقولنا ونفوسنا ، والتي سما بها الإنسان فوق الحيوان ، وندين لها بتلك القوة التي ساعدتنا على التعاون مع رفاقنا ، ومنحتنا السيطرة على مخلوقات أقوى منا جسماً .

فإذا كان للقومية وجود حقيقي ، أو مفهوم محدود ، وجب أن نلتمسه في تلك الرابطة الوثقى التي تؤلف بين أفراد المجتمع ، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم وعواطفهم ، والتي تسمى باللغة أو اللسان .

فأقوى رباط يجمع أواصر الأسرة هو اللغة التي يشعر معها أفراد الأسرة أنهم يفكرون بطريقة موحدة ، ويحسون بإحساس واحد ، وينطقون نطقاً متماثلا . فللأسرة صفات خاصة في النطق والأداء ، واختيار الألفاظ ، وإيثار بعضها على بعض . فكثيراً ما يتماثل أفراد الأسرة في النطق بصوت معين ، في صورة لثغة أو عيب نطقي ، وكثيراً ما يتماثلون في إيثار لفظ بعينه ، أو تركيب بعينه ، يشيع بين أفراد الأسرة ، ويصبح إحدى خصائصهم التي يتميزون بها في محيطهم الضيق ، والتي توثق من ترابطهم ، وشعورهم بأنهم وحدة منسجمة ، يفكرون معاً ، ويشعرون معاً ، كما يأكلون ويشربون حول مائدة واحدة . فشعورهم بكيانهم الأسرى ، وتميزهم عن الأسر الأخرى ، هو في الحقيقة بمثابة قومية صغيرة . وهكذا تكون القومية بمعنى الرباط الوثيق بين أفراد المجتمع ذات مستويات ، وذات أحجام ، وأصغرها حجماً ما نسميه بالأسرة ، ثم ما نسميه بالقرية ، ثم ما نسميه بالمدينة ، ثم ما نسميه بالدولة

التى لها لغة مشتركة تنتظم كل المناطق ، ويعمد إليها كل أفراد المجتمع .

فالقومية فى حقيقة أمرها ليست إلا الشعور بما يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض لتتألف منهم وحدة متميزة . وقد تخدعنا بعض المظاهر الخارجية والعادات الاجتماعية الطارئة التى لا تتسم بالثبات والدوام ، والتى تطرأ على الشعوب فى فترة من تاريخها تحت تأثير ضغط سياسى أو اقتصادى أو حتى ثقافى ، قد يخدعنا هذا كله فنلتمس فيه مقومات القومية : غافلين أو متغافلين عن الرباط الحقيقى ذى الصبغة الدائمة الخالدة الذى قامت القرون الطويلة بنسجه ودعمه ، وتعميق جذوره ، فى قلوبنا ، وأفئدتنا ونفوسنا ، وهو اللغة .

فتصورنا للقومية بوصفها رباطاً وثيقاً بين الأفراد يبدأ من الأسرة التى هى أصغر صورة للقومية ، ثم القرية وهكذا . وعلى قدر اتساع مناطق القومية يقل وثوق ذلك الرباط بين الناس ، لا لشىء سوى أنهم يكتشفون أن بينهم فروقاً نطقية محلية تباعد بينهم ، وتخلخل تماسكهم . فإذا نشأت بينهم ما يسمى باللغة المشتركة عادت لهم وحدتهم ، وتطلعوا إلى هذه اللغة التى تلم شتاتهم ، وتجمع ما قد تبدد من وحدتهم وانسجامهم . وإذا لم تتكون لقوم من الأقوام تلك اللغة المشتركة . فلا قومية بينهم إلا فى حدود الأسرة أو القرية .

وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات ، وتسهل بينها وسائل الاتصال ، تتكون لها مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم ، وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر ، وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية . ولدينا فى العصر الحديث أمثلة كثيرة للغات المشتركة كالإنجليزية المشتركة التى تسود فى مناطق إنجلترا ، وكالفرنسية المشتركة التى تسود فى مناطق فرنسا ... إلخ .

وتتخذ اللغة المشتركة فى بدء نشأتها مركزاً معيناً يتاح له من الظروف والفرص ما لا يتاح لغيره ، فتتطلع إليه المناطق الأخرى ، وتسلم له الزمام فى النواحى السياسية ، والاقتصادية والثقافية ، وينزح إليه الناس من كل صوب . ثم تتبلور عملية الاتصال إلى مزيج لغوى منسجم يقبله الجميع . وهو ما يسمى باللغة المشتركة . ومراكز اللغات المشتركة فى العالم هى عادة العواصم التى يتهيأ لها

من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مالا يتاح لغيرها من المناطق :
وأهم صفات اللغة المشتركة أنها على حد تعبير « هنرى سويت » (تلك اللغة التى لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة المحلية التى ينتمى إليها المتكلم) . أى أن اللغة المشتركة قد أصبح لها مع الزمن كيان مستقل ، فلا تذكرنا فى أثناء الحديث بها أو سماعها بمنطقة خاصة أو طبقة خاصة ، بل يشعر كل من السامع والمتكلم أنها ملك الجميع ، وأم الجميع ، لا يدّعيها لأنفسهم قوم بأعينهم ، ولا تنسب إلى بيئة معينة . وهى لذلك تكتسب الاحترام من الناس جميعاً . فلا يسخر منها أحد ، ولا ينقدها أحد ، بل يلجأ إليها الكل ليتخذوا منها العصا السحرية التى تقضى لهم مصالحهم الدنيوية .

واللغة المشتركة هى فى الحقيقة تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية . ولذلك لم يكن من المصادفة أن القومية حين بدأت تتخذ شكلها فى القرن الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين أو السياسيين ، وإنما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يلتمسوا روح الشعب فى الأساطير القديمة ، والأغانى المجهولة الأصل . وكانت اللغة فى أعمال هؤلاء المفكرين أداة هذه الذكريات . والتجارب المشتركة . والسجل التاريخى . فليست القومية إلا تلك الصلة الروحية التى أساسها الأفكار والرغبات والشعور ، وكلها تنتقل من عقل إلى عقل ، ومن نفس إلى نفس فى كلمات شائعة وثيقة الاتصال بتلك العقول والنفوس . فالكلام المشترك والتعابير العامة والنغم الكلامى بل المجازات ، كل هذا يتغلغل فى نفوس أبناء البيئة الواحدة ، ويصبح المهاد النفسى للشعب ، ثم قد ينفجر فى لحظة من لحظات التاريخ ، وينشأ عنه ما يسمى بالقومية .

لا غرابة بعد الذى تقدم أن نرى مفكرى الألمان يؤمنون إيماناً قوياً بأثر اللغة فى تكوين القومية . ولعل « هردر Herder » العالم اللغوى فى أواخر القرن الثامن عشر كان أول من نبه الأذهان فى كتبه إلى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها إذ يقول : (إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل

بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا إنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ، لايمكن أن نشك فى أنها الآن تخلق العقل ، أو على الأقل تؤثر فى التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدده وتوجهه توجيهاً خاصاً . والأدب الذى يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل فى كل روح الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . إن قلب الشعب ينبض فى لغته . إن روح الشعب يكمن فى لغة الآباء والأجداد)[١].

وهكذا نرى أن « هردر » كان ينادى بأن اللغة مكمن القلب والروح للأمة ، ولذلك تستمسك الأمة بلغتها استمساكها بالحياة. وكان يدعو إلى أن من واجب كل فرد فى أمته ، بل من حقه ، التمسك بلغته القومية ، وعلى الدولة التى ترعى شئون الشعب أن تحترم هذا الحق .

ولما أصدر إمبراطور النمسا فى أيام « هردر » أمراً يقضى بجعل اللغة الألمانية اللغة الرسمية فى بلاد « المجر » التى كانت تابعة لإمبراطوريته ، استنكر « هردر » وهو الألمانى . هذا الأمر أشد الاستنكار وقال : (وهل لشعب ما . حتى لوكان شعباً جاهلا متخلفاً . ثروة أثمن من لغة أجداده ؟ فى تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين ، وفيها ينبض قلب الشعب ، ويتحرك روحه . وإن ممن ينتزع من مثل هذا الشعب لغته ، أويقصر فى احترامها ، يحرمه من ثروته الوحيدة التى لا تعرف البلى ، والتى تنتقل من الآباء إلى الأبناء وعلى مر الأجيال والعصور) .

وقد كان لآراء « هردر» أبلغ الأثر فى البلاد الألمانية والسلافية ، فقد أصبح بعدها كثير من المفكرين والسياسيين فى ذلك الحين يربطون بين اللغة والقومية ربطاً وثيقاً ، ويقررون أن اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة ، وعليه فالمتكلمون بها يصبحون ذوى قلب واحد ، وروح مشتركة ، فتنشأ لهم قومية

---

(١) ساطع الحصرى فى كتاب « ما هى القومية ؟ » ص ٥٦ .

واحدة ، وعلى دعائمها يجب أن تؤسس لهم دولة موحدة .

وجاء بعد « هردر » الفيلسوف الألمانى « فيخته Fichte » فى أوائل القرن التاسع عشر ، وشهد النكبات التى حلت ببلاده على يدى نابليون ، فأصدر كتاباً بعنوان « محاورات وطنية » نصّ فيه على حوار رائع تمّ بينه وبين رجل من أهالى بروسيا :

فيخته : أنت ، ألست ألمانياً ؟

فيجيب الرجل إجابة حاسمة : كلا .. لست ألمانياً ، بل أنا بروسى .. وأفخر ببروسيتى ، ولا أرضى عنها بديلا ..

فيقول فيخته : أصغ إلى جيداً . إن الفروق التى بين أهالى بروسيا وسائر الألمان ليست إلا مظاهر عارضة طارئة سطحية نتجت عن أحداث اعتباطية ولدتّها المصادفة البحتة . أما الذى يتميز به الألمان عن الشعوب الأخرى فشىء أساسى طبيعى يتمثل فى اللغة التى يشترك فيها جميع الألمان فتميزهم عن غيرهم تمييزاً جوهرياً .

ثم ألقى فى جامعة برلين خطاباً حماسياً ألهب به مشاعر الشباب ، واستهله بقوله : (إلى جميع الذين يتكلمون باللغة الألمانية . فإننى عندما أخاطبكم أنتم أيها المجتمعون أمامى الآن يتجه ذهنى من خلفكم ، ومن وراء جدران هذه القاعة ، إلى جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية) .

ولعل أروع ما جاء فى بعض خطبه قوله : (اللغة والقومية أمران متلازمان ومتعادلان . إن اللغة التى ترافق المرء ، وتحركه حتى أعمق أغوار تفكيره وإرادته ، هى التى تجعل منا نحن الألمان مجتمعاً متماسكاً يدبره عقل واحد . إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة ، ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متينة ، وإن كنا لا نراها . إن الحدود التى تستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هى التى ترسمها اللغات) .

وشهد القرن التاسع عشر أيضاً شاعراً ألمانياً عظيماً هو « موريس آرنت » الذى كان يؤمن فى أوائل حياته بالنزعة العالمية حتى كانت حروب نابليون

ومآسيها ، فأصبح يدعو فى حماس شديد إلى القومية الألمانية . ففى إحدى قصائده الرائعة يتساءل عن الوطن الألمانى ، هل هو بروسيا ؟ هل هو بافاريا ؟ هل هو « وستفاليا » ؟ ثم يجيب عن التساؤل بالنفى ويقول :(إن الوطن الألمانى يجب أن يكون أكبر وأسمى من هذا كله . إنه كل البلاد التى ترن فى أرجائها أصوات اللغة الألمانية) .

ثم تبنى بعد هؤلاء فكرة أن اللغة أساس القومية جماعة من المفكرين المصلحين منهم « ماكس نوردو » الذى كان يقول :(إن الفرد يندمج فى المجتمع باللغة ، وبها وحدها . باللغة يصبح عضواً فى الشعب الذى يتكلمها . وباللغة وحدها يتلقى كل التراث الفكرى والشعورى والأخلاقى والاجتماعى للأمة ، سواء منه ما انحدر عن قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين ، السالفين ، أو المعاصرين).

ومن أروع ما جاء فى كلام هذا الكاتب المفكر قوله :(فى عهد من عهود الحضارة التى اجتزناها منذ أجيال كان عمل اللغة فى الحياة العامة محدوداً نسبياً ، لأن أداة الحكم فى ذلك العهد كانت تتمثل فى السوط ، ولغة السوط مما يفهمه الناس دون حاجة إلى وساطة النحو والصرف والمعاجم . . حتى العدالة لم تكن تحتاج إلى كثير من الكلام . لأن الحكام والقضاة كانوا يضيقون بالأخذ والرد والحوار بين المتخاصمين . بل حتى العقيدة نفسها لم تكن تلتفت إلى كلام الناس ، فالكاثوليكية كانت تصور الخالق للناس فى صورة صاحب السلطان الأجنبى الذى لا يستطاع التقرب إليه ، وطلب المغفرة منه ، إلا بلغته الأجنبية وهى اللاتينية ، وعلى يدى حجاب معينين هم القسس . أما العامة فلم يكونوا يتمتعون بحق الكلام ، وأما النبلاء فكانوا يرثون ما يرثون دون أن يحتاجوا إلى الكلام ولكن الأمور تغيرت الآن . فصار كل شىء يرتبط باللغة وأصبح حرمان شعب من حق استعمال لغته أسوأ ما تتعرض له الشعوب من عسف وظلم وذلة ومهانة إن لم يكن فى هذا القضاء المبرم على هذا الشعب المسكين) .

ويتضح صدق الرأى الذى نادت به النظرية الألمانية من أن القومية مرادفة للغة حين نتذكر تلك القوميات التى نشأت فى أوربا خلال القرن التاسع عشر .

فقد وحدت ألمانيا على أساس اللغة وحدها بعد أن كانت مجزأة إلى دويلات كثيرة ، وكذلك وحدت إيطاليا على أساس اللغة أيضاً . وإن استقلال بولندا واتحادها قد تم أيضاً على أساس أن الناطقين بالبولندية أصحاب قومية واحدة . وكذلك استقلال اليونان وبلغاريا ورومانيا وألبانيا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا . فكل هذه الدول قامت على أساس أن لكل منها لغة قومية متميزة عن غيرها. أي أن تفكك كل من السلطنة العثمانية والإمبراطورية النمساوية إنما كان بسبب اختلاف اللغات فيهما ، فانفصلت عن السلطنة العثمانية الشعوب التي تتكلم بغير التركية ، وانفصلت عن الإمبراطورية النمساوية الشعوب التي تتكلم بغير الألمانية .

وبرغم أن أحداث التاريخ خلال القرن التاسع عشر تبين بوضوح وثوق الصلة بين اللغة والقومية لا يزال بعض السياسيين ينسبون الفضل في نشوء هذه القوميات إلى عوامل أخرى ، ويرون دور اللغة في ظهور القوميات الأوربية دوراً ثانوياً .

ويسوق أصحاب هذا الرأي أمثلة من الدول فيها أكثر من لغة واحدة ، ناسين أو متجاهلين أن أهم عامل في تفكك الإمبراطورية النمساوية والسلطنة العثمانية هو اختلاف اللغات فيهما . فقد انفصلت عن كل منهما قوميات . وكان الأساس الواضح في ظهور هذه القوميات هو اللغة وحدها .

ومن الأمثلة التي يسوقونها « بلجيكا » التي تسود فيها الآن لغتان مختلفتان هما الفرنسية و « الفلمنكية » . ففي الإحصائيات الرسمية نجد أن نحو ٣٨٪ من مجموع السكان في بلجيكا لا يعرفون غير اللغة الفرنسية ، وأن نحو ٤٢ ٪ منهم لا يتكلمون غير الفلمنكية ، أما الباقي فيسيطرون على اللغتين .

وفي نقاشنا لأصحاب هذا الرأي يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه ليس من اللازم أن تنطبق حدود الدولة على حدود القومية . فللدولة صفاتها التي تحددها القوانين السياسية العالمية التي انبثق منها القانون الدولي العام ، وأسست لها المحاكم الدولية . في حين أنه ليس للقوميات في العالم قوانين وضعية تنظم شئونها أو تحكم بينها . وقد حدثنا التاريخ عن دولة تضم عدة قوميات ، كما حدثنا عن قومية واحدة

وُزّع أبناؤها بين عدة دول . وترتب على هذا نزاع وصراع وسفك دماء نعرض لبعض تفاصيله فى فصل من الفصول التالية .

وأما الشأن مع بلجيكا فعلينا أن نذكر أنها لم تصبح دولة مستقلة إلا منذ سنة ١٨٣٠ ، وأن للقوى الكبرى من بريطانيا وفرنسا وغيرهما دوراً واضحاً فى الإبقاء على بلجيكا فى صورتها الحالية . وفى الحق أن هذه الدولة تتألف من قوميتين أو لغتين متميزتين . فإذا قدّر لهاتين القوميتين انفصال إحداهما عن الأخرى فسيكون هذا على أساس اللغة وحدها ، أى أن المناطق التى تسود فيها اللغة الفرنسية تندمج مع فرنسا ، والمناطق الأخرى التى يتكلم سكانها اللغة الفلمنكية تندمج مع هولندا. تقرب اللغة الفلمنكية من الهولندية قرباً شديداً .

على أننا حين ندرس أحوال بلجيكا الداخلية وموقف الدول الكبرى منها قد نرى ما يسوّغ وجود بلجيكا على حالتها الراهنة ، ولو إلى أمد ما .

فإذا نظرنا إلى التوزيع اللغوى فى بلجيكا تبين لنا أن معظم المتكلمين بالفرنسية يقطنون فى الجنوب ، وأن معظم المتكلمين بالفلمنكية يقطنون فى الشمال ، غير أن الخطوط الفاصلة بين هؤلاء وهؤلاء معقدة شديدة التشابك . فهناك مدن وبقاع فرنسية تحيط بها أخرى فلمنكية ، وكذلك العكس . أى أن تشابك اللغتين قد يظهر حتى فى بعض المدن البلجيكية الصغيرة . فى العاصمة « بروكسل » مثلا نجد أن نحو ٢٨ ٪ من السكان لا يعرفون غير الفرنسية ، وأن نحو ١٧ ٪ لا يعرفون غير الفلمنكية ، وأن نحو ٢٥ ٪ يعرفون اللغتين ولكن تغلب عليهم الفرنسية . فى حين أن نحو ٣٠ ٪ يعرفون اللغتين أيضاً ولكن الفلمنكية تغلب على ألسنتهم . ولعل هذا التشابك اللغوى العجيب هو الذى حدا بهاتين القوميتين إلى أن قنعتا بنوع من التعايش السلمى فى ظل دولة واحدة .

ثم لا ننسى أن بلجيكا كانت خاضعة لأسبانيا فى القرن السابع عشر ، ثم للنمسا فى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم لفرنسا بعد ذلك ، فلم تتح للحركة القومية فرصة الظهور تحت ضغط الاحتلال طوال هذا الزمن ، أو قل إن احتلالها زمناً طويلا قد أبطأ من ظهور القومية فيها أو تبلورها .

كذلك لا ننسى موقف بريطانيا من بلجيكا - فقد عملت جاهدة على عزلها أو استقلالها . فقد وجدت بريطانيا أن نابليون حين احتل بلجيكا استغل سواحلها فى إحكام الحصار البرى الذى أعلنه على بريطانيا . ولهذا عملت بريطانيا بعد انتصارها على نابليون على فصل بلجيكا عن فرنسا وضمها إلى هولندا . وتكوّن من بلجيكا وهولندا فى وقت مّا ما يعرف بمملكة الأرض الواطئة التى بذلت بريطانيا جهوداً جبارة فى دعمها ، ولكن البلجيكيين ثاروا وطالبوا بالانفصال عن هولندا ، فلم تجد بريطانيا بدّاً من مسايرة هذه الثورة . ومنح الاستقلال لبلجيكا بعد أن أخذت العهود الصريحة من فرنسا بضمان هذا الاستقلال واحترامه . ولما حاول نابليون الثالث ضم بلجيكا إلى فرنسا ثانية هاجت بريطانيا وماجت وأعلنت على لسان وزير خارجيتها لورد «كرزن» أن مصلحة بريطانيا تقضى بأن تبقى سواحل بحر الشمال فى أيدى دولة أو دول صغيرة) . أى أن سياسة بريطانيا كانت من أقوى العوامل التى أدت إلى أن تصبح بلجيكا على وضعها الراهن .

ومع ذلك لا نغالى حين نقرر أن مشكلة اختلاف القومية ممثلة فى اختلاف اللغة فى بلجيكا ، قد واجهت الدولة منذ استقلالها . ولا تزال تواجهها حتى الآن كما سنرى فى الفصل التالى .

أما المثل الآخر الذى يلتمسه عادة أصحاب الرأى الذى يعارض فكرة الربط الوثيق بين اللغة والقومية هو «سويسرا» .

وفى الحق أن «سويسرا» تعدّ مثلا فريداً بين الدول . ففيها أربع لغات : الإيطالية على حدود إيطاليا ، والفرنسية على حدود فرنسا . والألمانية على حدود ألمانيا ، وأخيراً لغة رابعة من أصل لاتينى هى اللغة «الرومانشية» . وإن كان المتكلمون بها لا يكادون يجاوزون واحداً فى المائة من مجموع السكان . أما نسبة المتكلمين بالإيطالية فهى فى حدود ٤ ٪ ، والمتكلمين بالفرنسية فى حدود ٢١٪ ، والمتكلمين بالألمانية نحو ٧٤٪ . ولو قد تركت أمور «سويسرا» وشأنها لنشأت بها قوميتان متميزتان على الأقل هما القومية الألمانية والقومية الفرنسية ، غير

أن هناك ظروفاً تاريخية وعوامل جغرافية ساعدت على خلق هذه الدولة المحايدة وسط عدد من الدول التى تقوم المنافسة بينها ، والتى رأت منذ زمن بعيد أن مصلحتها جميعاً تقضى بأن تفصل بين الواحدة منها والأخرى مناطق محايدة ، وأن وجود هذه المناطق والاحتفاظ بها يلائم مصلحة الجميع من كل الوجوه .

وهكذا نرى أن العامل الأساسى فى الإبقاء على « سويسرا » بوضعها الراهن هو الرغبة الصادقة بين الدول الأوربية المحيطة بها فى أن تكون أرض « سويسرا » بمثابة المناطق المنزوعة السلاح ، أو بمثابة ملجأ أمين يفرّ إليه القوم كلما أصابتهم محنة سياسية أو هزيمة عسكرية ، أى أن « سويسرا » منذ بدء تكونها كانت فى الحقيقة من صنع دول أوربا المحيطة بها. هذا إلى أن الطبيعة الجغرافية فى « سويسرا » كان لها دور مّا فى تشكيل هذه الدولة . فالجبال التى تؤلف « سويسرا » كثيرة الفروع معقدة الشعاب ، وتتقطع سفوحها المتشابكة بكثير من الوديان العميقة التى تضم عدداً من البحيرات . مما جعل مناطقها فى شبه انعزال إحداها عن الأخرى .

وقد بدأ التحالف السويسرى بين ثلاثة من هذه الوديان ، ثم أخذ يتسع تدريجياً خلال عدة قرون ، ودون أن يتعرض لمؤثرات أو ضغوط خارجية ، إلى أن أصبح على الشكل الحالى .

فسويسرا الآن تتألف من خمس وعشرين مقاطعة لا يجمع بينها إلا الشئون الخارجية والدفاع ، وبعض الأمور المتعلقة بالمواصلات . وأما الشئون الأخرى فقد تركت لكل مقاطعة تقررها وتصرفها كما تشاء . ولكل مقاطعة شعار خاص ، وعلم خاص ، ودستور خاص ، وتسير الإدارة فيها وفق خطة من اللامركزية الواسعة النطاق . .

وبرغم ذلك الاستقرار الظاهرى فى سويسرا نجد أن ميول السكان وعواطفهم تتجه اتجاهات متباينة . فعواطف أهالى سويسرا الإيطالية تتجه بقوة نحو إيطاليا ، وميول سويسرا الفرنسية تتجه نحو فرنسا وهكذا .

وقد ظهرت آثار هذه الخلافات العاطفية فى شكل واضح خلال أحداث

الحرب العالمية الأولى ، ولم تستطع الحكومة الاتحادية التغلب عليها إلا ببذل جهود شاقة .

ونختتم هذا النقاش مع المعارضين لفكرة الربط الوثيق بين اللغة والقومية بأن نقول : حتى إذا سلمنا جدلا أن سويسرا نجحت وحدها فى تكوين دولة مستقرة ذات عدة لغات ، لا يصح أن نتخذ من هذا المثل الفريد دليلا ينقض الأمثلة الكثيرة التى نشهدها الآن فى أوربا وأفريقيا وآسيا . فسويسرا كما تبدو لنا الآن دولة لم تستقر فيها القومية على وضع معين ، أو لم تتبلور قوميتها لتأخذ طابعاً متميزاً . وليس هناك ما يمنع من الناحية النظرية أن تكون دولة ولا قومية لها ، وأن تكون قومية ولا دولة لها . فالدولة والقومية أمران متميزان ، أو يجب أن ننظر لهما على هذا النحو ، فقد حددت القوانين الدولية مفهوم الدولة ، وبينت بوضوح ما لها وما عليها ، فى حين أن فكرة القومية لا تزال تضطرب فى مفهومها ، وفى مقوماتها بين كثير من السياسيين ، أو محترفى السياسة .

دعنا إذن نتتبع المشاكل العالمية التى نجمت عن فصل حدود اللغة عن حدود الدولة .

* * *

الفصل الرابع

فتش عن اللغة

نستمد هذا العنوان الغريب من المثل الفرنسى « فتش عن المرأة » لإيماننا بأن كثيراً من المشاكل الاجتماعية والسياسية ، بل الاقتصادية ، فى العالم يمكن أن يعزى إلى اللغة ودورها فى المجتمع .

ومن الغريب أن الكتب التى تعرض لمثل هذه المشاكل تكاد تغفل أو تتجاهل الأثر الكبير للغة فى إثارتها بين الدول ، وتعزوها إلى عوامل طارئة ، أو أمور لم يعد لها وزن فى العصر الحديث .

فالحدود الجغرافية الطبيعية التى كانت فيما مضى تفصل بين القوميات كالجبال والبحيرات والأنهار ونحوها أصبحت الآن فى خبر كان ، بعد ذلك التقدم العظيم الذى نشهده فى وسائل المواصلات بين بلدان العالم . فدولة مثل « بلغاريا » تبدو على الخريطة وقد قسمتها جبال البلقان إلى إقليمين منفصلين . ومع هذا تسودها الوحدة السياسية ، بل إنها تعدّ من أكثر دول البلقان تجانساً من حيث التكوين البشرى . وأقواها تماسكاً من حيث القومية . كذلك فى الحديث عن حدود القوميات قد تثار بعض المسائل الاقتصادية أو الاستراتيجية ، وهى فى الحقيقة من الأمور الطارئة ، أو التى تفتعل لتغطية الأطماع التوسعية لدى بعض الدول . ويغفل الساسة عن السرّ الحقيقى لمشاكل الحدود أو الصراع بين القوميات . وهو فى رأينا يتركز فى اللغة . أما ما كان يسمى بالجنس أو أصل الشعوب فقد تبين لنا آنفاً أنه أصبح أسطورة ، وأنه من العسير الآن الحكم على جماعة من الناس بأنهم ينتمون إلى جنس معين . فقد اختلطت الأجناس فى معظم أنحاء العالم ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يطلق عليه جنس خالص نقىّ لا تشوبه صفات من الأجناس الأخرى .

ويبدو أن تجاهل اللغة فى تحديد القوميات إنما يرجع إلى أن شأن اللغة من الوضوح والشيوع بحيث يُظن أنها لا تتطلب تعمقاً فى دراستها ، أو بحثاً فى أثرها . فهى تجرى على كل لسان ، ولا يكاد يُلتفت إليها إلا على أنها مجرد وسيلة للتعبير . ولذلك يلتمس الساسة أسباباً أخرى فى تمييز القوميات ، لأن دراسة اللغات فوق طاقتهم ، وتحتاج إلى جهد كبير وزمن طويل ، ولا يتسع وقتهم لمثل هذا ؛ أو إن شئت قلت إن غفلتهم عن اللغة أو تجاهلهم لقدرها كان فى بعض الحالات متعمداً وعن قصد ، ويحفزهم إلى هذا سوء النية فى كثير من الأحيان .

فالقوميات الحديثة فى أوربا ، وبعد أن قاست صراعاً مريراً فيما بينها خلال القرن التاسع عشر ، وبعد أن مرت بحربين عالميتين ، لاتزال تفتقد الحكم العادل الحاسم فى تكوين حدودها ، ولا تزال تتطلع إلى اليوم الذى تنال فيه كل حقوقها القومية ، وذلك بضم أصحاب كل لغة إلى إخوانهم فى اللسان الذى يوحد بين مشاعرهم وأحاسيسهم ، ويكون بمثابة السجل الذى يضم تراثهم والجاذبية السحرية التى تلم شتاتهم ، وتؤلف بين قلوبهم وعقولهم ، ليصبحوا وكأنهم عقل واحد ، يفكرون بطريقة واحدة ، ويشعرون بشعور موحد .

ورأينا لهذا أن نستعرض أشهر المشاكل السياسية والاجتماعية بين القوميات الحديثة فى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ليتضح لنا دور اللغة فيها بصورته الحقيقية التى طمس الساسة كثيراً من معالمها وملامحها .

أما مشاكل اختلاف اللغات فى آسيا وأفريقيا وأثر ذلك فى الصراع بين القوميات فلاتزال بمثابة رواية لم تتم فصولا ، إذ لم يكد يمر على نشأة هذه القوميات وتميزها أكثر من بضع سنوات ، ولذلك سنكتفى بالإشارة إليها إشارة سريعة عابرة .

فإذا بدأنا بالهند رأينا أنها ظلت خاضعة لحكم بريطانيا خضوعاً تاماً أكثر من قرن ، وأن بريطانيا عملت جاهدة على نشر اللغة الإنجليزية فيها ، فلم يكد يبدأ القرن العشرون حتى شهدنا هذه اللغة قد أصبحت فى كل مناطق

الهند بمثابة لغة مشتركة توحد بين أقاليمها المختلفة وطوائفها المتباينة ، وتجمع بعضهم إلى بعض ، برغم أنها لغة المستعمر . وإذا كان للاستعمار من خير في هذه البلاد فهو أنه منح الهند لغة مشتركة جعلتهم يفكرون تفكيراً موحداً ، وقوت وعيهم السياسي والاجتماعي ، ومكنت زعماءها وقادتها من السيطرة على قلوب الناس وعقولهم عن طريق ذلك اللسان الموحد ، فاستجابت لهم الجماهير والتفوا حولهم .

فلما بدأ ظل الاستعمار يتقلص ، وبدأت لغة المستعمر تتقلص معه ، شهدنا مع الدهشة والأسف اللغات الهندية المحلية تطل برأسها ، وتكاد تؤدي إلى تفكك أقاليمها . وهكذا تعددت القوميات في الهند بتعدد اللغات . ومع ما يبدو من أن فصل باكستان عن الهند أساسه ديني أو عقائدي ، نجد أن السر الحقيقي في الفصل بينهما يكمن في اختلاف اللغة ولا يكاد القوم يشعرون بهذا ، أو على الأقل لا يكادون يعترفون بالأثر الكبير في هذا الانفصال . « فالأردية » التي تسود في أنحاء الباكستان تمت في الحقيقة إلى الهندوستانية بصلة وثيقة ، ومع ذلك تميزت اللغتان إحداهما عن الأخرى ، فالأردية التي هي في الأصل لغة الجيش ، قد تطورت تطوراً مستقلاً ، وأصبحت تكتب بالأبجدية العربية . وتشتمل على ألفاظ عربية وفارسية كثيرة . وهكذا أخذت صورة مباينة لأختها الهندوستانية . وأدى ذلك إلى ما يسمى بالقومية الباكستانية والقومية الهندوستانية .

ونشهد الآن في الهند بعد زوال نفوذ اللغة الإنجليزية صراعاً بين بعض اللغات المحلية التي يحاول أصحابها أن يبرهنوا على كيانهم وقوميتهم المتميزة باصطناع تلك اللغات والدعوة إليها . ومن العسير التنبؤ بمصير هذا الصراع اللغوي الذي نشهد مظاهره في بعض أقاليم الهند في الوقت الحالي . ويكفي هنا أن نسوق أمثلة لما ينشر في الصحف العالمية بهذا الصدد :

١ — في شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ نشرت الصحف خبراً مؤسفاً لخصته في قولها : (قتل خمسة وخمسون شخصاً خلال الاضطرابات العنيفة التي سادت

طوال الأيام الأربعة الماضية فى مدينة « رانشى » بولاية « بيهار » الهندية بسبب نزاع لغوى نشب على إثر توزيع منشور فى الولاية يعارض بشدة إدخال اللغة الأردية كلغة رسمية ثانية بجانب الهندوستانية . وقد أعلن وزير البوليس الهندى أن ١٠٦ من الأشخاص قد أصيبوا واعتقل ٧٩٥ شخصاً) .

٢ — (لا يزال الصيام من الأسلحة التى يستخدمها الزعماء السياسيون الهنود وزعماء الطوائف والمذاهب المختلفة فى مختلف الأزمات التى يواجهونها . ومنذ أسبوعين بدأ واحد من هؤلاء الزعماء هو زعيم طائفة « السيخ » الصيام حتى الموت . واعتكف فى الهيكل الذهبى فى « أمرتيسار » بعد أن أقسم أن يظل صائماً حتى تستجيب حكومة « نهرو » لمطالبه بإنشاء ولاية تتكلم اللغة البنجابية ويكون فيها « السيخ » أغلبية) . هذا هو نص ما نشرته الصحف . أما اللغة البنجابية التى يشار إليها فى هذا الخبر فهى أهم لغات الشمال الغربى من الهند ، ويتكلم بها سكان « لاهور » ، وتلك الطائفة المعروفة باسم « السيخ » .

٣ — أما الصراع اللغوى الذى يقوم الآن فى منطقة « مدراس » فدموى عنيف ، وقد أشارت إليه الصحف فى عدة مناسبات :

فى فبراير سنة ١٩٦٤ نشرت الصحف ما نصه : (أعلنت حكومة شاسترى اليوم أن رجال البوليس أطلقوا النيران على الطلبة المتظاهرين بولاية « مدراس » وقتلوا أربعة منهم . وكان الطلبة قد تظاهروا احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية بجعل اللغة الهندوستانية اللغة الرسمية للبلاد . وقد أطلق رجال البوليس نيران مدافعهم عندما حاول الطلبة اقتحام مركز البوليس . وصرح مسئول فى حكومة « مدراس » بأنه صدرت تعليمات إلى رجال الجيش الهندى بأن يكونوا على استعداد للتدخل فى أى وقت ، وقال إن الطلبة يلقون بأنفسهم على قضبان السكك الحديدية ليرغموا القطارات على الوقوف ، ثم يجبروا ركابها على النزول ؛ كما أحرقوا إحدى عربات القطار . وكان رجال البوليس قد قتلوا ستة طلاب آخرين خلال الاضطرابات التى نشبت منذ أسبوعين للسبب نفسه ، كما انتحر

ثلاثة أشخاص احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية ، واعتقل نحو ألف شخص معظمهم من الطلبة) .

وفى يناير سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف : (لا تزال الهند تعانى من نزاعها الداخلى الحاد الذى نشأ عن القرار الذى اتخذته الحكومة الهندية باعتبار « الهندوستانية » اللغة الرسمية ، والذى تسبب حتى الآن فى انتحار ثلاثة أشخاص . ولا تزال معظم مدارس هذه الولاية مغلقة بعد أن انتشرت خلال اليومين الماضيين أعمال العنف وإراقة الدماء . . . وقد طوق رجال البوليس مساكن الطلبة فى المدارس والكليات بعد أن أشعلوا النار فى سيارات الأوتوبيس المدرسية ، وقذفوا المرافق العامة ومقر حزب الدستور الحاكم بالطوب . وجدير بالذكر أن اللغة الهندوستانية فى هذه الولاية التى يتكلم أهلها لغة « التامل » تعد لغة أجنبية ؛ ولهذا يقول الطلبة إن فرض اللغة الهندستانية على الولاية ضرب من الاستعمار الهندى) وقد زج البوليس بما لا يقل عن ٢٠٠ طالب فى السجون ، كما اعتقل ألفين معظمهم ينتمى إلى الحزب الانفصالى الذى يعارض منذ مدة فرض اللغة الهندستانية على الولاية .

وفى فبراير من نفس العام عادت الصحف إلى نشر ما يلى (توقفت حركة المرور فى « مدراس » بعد أن أعلن سائقو القطارات وسيارات التاكسى والأوتوبيس الإضراب عن العمل فى جميع أنحاء الولاية احتجاجاً على إحلال اللغة الهندستانية محل اللغة الإنجليزية كلغة رسمية ، كما أغلقت المحال التجارية والفنادق أبوابها تضامناً مع المضربين . وقد دعا زعيم العمال فى منطقة « مدراس » عمال الموانئ و ٣٥ ألف عامل فى المصانع للإضراب عن العمل اليوم .

وانتحر اثنان آخران من المواطنين فى ولاية مدراس بإشعال النار فى نفسيهما للسبب نفسه ، وكان أحد الذين انتحروا ناظراً لمدرسة ابتدائية والثانى مزارعاً . وقد وصل عدد الذين انتحروا فى الولاية احتجاجاً على استخدام اللغة الهندستانية أربعة حتى الآن) . ثم تستمر الصحيفة فى وصف المظاهرات وتدخل البوليس والجيش إلى أن تقول : (وقد اضطر شاسترى رئيس وزراء الهند إلى التراجع

فأعلن فى كلمة أذيعت فى الراديو أن الحكومة لن تفرض اللغة الهندستانية كلغة رسمية على الولايات التى لا تتكلم فيها هذه اللغة ، وأن هذه الولايات تستطيع استخدام اللغة الإنجليزية بدلا من اللغة الهندستانية) .

هذه هى الحال التى تواجهها الهند الآن من حيث المشاكل اللغوية . ومن العسير ، بل قل من المحال أن يستقر أمر القومية الهندية إلا بعلاج المشكلة اللغوية . ولا شك أن هذا يتطلب جهوداً متضافرة وزمناً طويلا ، قبل أن يقال إنه قد أصبح للهند قومية متميزة ذات كيان مستقل، تعمل على اجتذاب الناس بعضهم إلى بعض ، وشعورهم بشعور واحد ، وتعاونهم على ما فيه الخير والرخاء لهم جميعاً . ذلك لأن دستور الهند الذى صدر سنة ١٩٥٠ قد نص على وقف استخدام اللغة الإنجليزية بعد خمسة عشر عاماً ، وعلى أن تحل اللغة الهندستانية محلها بوصفها لغة رسمية . غير أن عدد المتكلمين بالهندستانية لا يكادون يجاوزون ١٩٠ مليوناً من سكان الهند البالغ عددهم ٤٤٠ مليوناً . وفى الهند بجانب اللغة الهندستانية عشرات من اللغات ومئات من اللهجات، وأشهر لغاتها : السنسكريتية ، والبالية ، والسنهالية ، والبنغالية ، والمهراتية ، والبنجابية ، والسيجاتية ، وتنتمى هذه اللغات إلى الفصيلة الكبرى المسماة بالهندية — الأوربية . كما بها لغات أخرى تنتمى إلى الفصيلة الدراقيدية أشهرها : التاملية ، والكنارية ، والتلوجو .

فاللغة المحلية التى تثير الاضطرابات فى منطقة « مدراس » هى التاملية ، أو لغة « التامل » التى يتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً لا تمت إلى الهندستانية بأية صلة . وتثير لغة « التامل » فى جزيرة سيلان مشكلة كذلك ، فهى فى صراع مستمر مع « السنهالية » السائدة هناك ، وتوشك أن تقسم الجزيرة إلى منطقتين قوميتين . (الصراع بين لغة الملايو واللغة الصينية فى ماليزيا وإعلان الأحكام العرفية فى ١٥ / ٥ / ٦٩ انظر ص ٧٦) .

ونلحظ نفس الظاهرة بين دول أفريقيا المستقلة حديثاً . فبعد أن بدأ ظل الاستعمار يتقلص ومعه لغته من إنجليزية وفرنسية وغيرها ، شهدنا اللغات المحلية تطل برأسها وتثير العصبية بين أبناء هذه الدول ، وتدعو إلى حركات

انفصالية مؤسفة لا ندرى مصيرها ، ولكنا نرجو مخلصين أن يتنبه لها القادة والزعماء فى منظمة الوحدة الأفريقية . فليس الصراع الدموى الذى نشهده الآن فى « نيجيريا » إلا مظهراً لصراع لغوى بين لغة « الهوسا » فى شمال « نيجيريا » ، و « الإيبو » فى جنوبها .

فاللغة وحدها هى أساس القومية ، فهى الجاذبية السحرية التى تجذب قوما من الناس بعضهم إلى بعض ، وتجعلهم يشعرون بشعور واحد ، ويحسون بكيانهم وتميزهم عن غيرهم .

خذ مثلا جزيرة « قبرص » التى يسكنها منذ زمن طويل جماعات من الناس تضمهم أرض واحدة ، ومصالحهم الاقتصادية مشتركة ، وفى صلاح أمر الجزيرة واستقرار الرخاء والأمن فيها خيرهم جميعاً . ومع هذا نشهد الآن صراعاً بين فريقين فى هذه الجزيرة الصغيرة ، ولا مسوغ له إلا وجود لغتين مختلفتين هما اللغة التركية واليونانية .

بل خذ « كندا » مثلا واضحاً لما تثيره اللغة من مشاكل فى الدولة الواحدة ففيها المتكلمون باللغة الإنجليزية الذين يؤلفون معظم السكان . وبها المتكلمون بالفرنسية الذين أصبحوا فى حدود ثلث مجموع الشعب الكندى ، وتتركز هذه الأقلية الفرنسية فى مقاطعة « كويبيك » التى أصبحت الآن أشبه بجزيرة فرنسية وسط محيط من المتكلمين بالإنجليزية . فهى فى شبه عزلة عن « فرنسا » التى يسمونها بالوطن الأم . وترتب على ذلك اختلاف فى مستوى المعيشة بين الكندى البريطانى والكندى الفرنسى . فالمناصب الرئيسية فى الدولة تكاد تكون مقصورة على المتكلمين بالإنجليزية ، فى حين أن أبناء الطائفة الفرنسية لا يسمح لهم بالتعيين فى الوظائف العامة إلا إذا توفر فيهم شرط إجادة اللغة الإنجليزية . أما الذين من أصل بريطانى فلا يحفلون بتعلم الفرنسية ، بل حتى إذا تصادف أن ألمّ بها أحدهم نراه يستنكف من التحدث بها إلى مواطنيه الفرنسيين ، ويصرّ على مخاطبتهم بالإنجليزية . و « كويبيك » الآن هى المقاطعة الوحيدة فى كندا التى تستخدم فيها اللغتان الإنجليزية والفرنسية بوصفهما لغتين رسميتين . أما

سائر المقاطعات فيقتصر فيها على الإنجليزية كلغة رسمية . وتعمل فرنسا الآن على تشجيع الكنديين الفرنسيين ، فى حين أن بريطانيا والولايات المتحدة يعملان على تشجيع المتكلمين بالإنجليزية . وقد بلغ التوتر الداخلى فى كندا حدا ينذر بقيام ثورة انفصالية شاملة فى مقاطعة «كويبيك» من أجل استقلالها وانفصالها نهائياً عن كندا .

دعنا بعد هذا نشير فى تفصيل إلى المشاكل التى أثارتها اللغة فى قوميات أوربا بعد أن مرّ على نشوء هذه القوميات ما يقرب من قرنين ، وبعد أن شهدت حربين عالميتين ومع هذا فلا تزال قائمة تنذر بالحروب والصراع الدموى . بل حتى التى يُظن من هذه المشاكل أنها سويت واستقرت، فيبدو أن التسوية قد تمت على دخل ، وتحت ضغط الدول الكبرى ، وأنها تكمن الآن متربصة تتحين الفرصة المواتية لتثور ثانية وتهدد السلام فى كثير من مناطق أوربا .

أولاً — الحدود بين فرنسا وإيطاليا :

قبيل الحرب العالمية الثانية دوت فى العالم نداءات مصدرها الفاشية الطموح فى إيطاليا تطالب بتعديل الحدود بين إيطاليا وفرنسا . وبلغ الحماس ذروته بين الجماهير الإيطالية حين طالبت بعض الصحف باستعادة «نيس» ، «سافوا» ، و «كورسيكا» من فرنسا . ذلك لأن «نيس» ، «سافوا» تركتا لفرنسا سنة ١٨٦٠ كشرط من شروط تلك الصفقة السياسية التى عقدت بين نابليون الثالث والزعيم الإيطالى «كافور» ، غير أن فرنسا لم تقم بتنفيذ جميع الشروط ، ولم تف بكل التزاماتها فى هذه الصفقة . أى أن أساس المطالبة الإيطالية كان فى ظاهره أساساً تاريخياً . وتجاهلت إيطاليا ذلك الاستفتاء الذى أجرته فرنسا حينئذ فى هاتين المنطقتين وكانت نتيجته رغبة الأهالى فى الانضمام إلى فرنسا ، لأن مثل هذا الاستفتاء كان فى رأى موسولينى وأتباعه محل ريبة وشك . ولكن موقف فرنسا من هاتين المنطقتين اكتسب مع الزمن تدعيماً وقوة ، لأن السكان بهما أصبحوا يتكلمون الفرنسية ، فصاروا بهذا جزءاً من

القومية الفرنسية . ولا تحدّد القوميات على أساس الأوضاع التاريخية ، فالعبرة بما صارت إليه المنطقة ، لا بما كانت عليه . ولذلك لم يُنظر إلى هذه المطالبة نظرة جدية فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، وإيطاليا فى أوج غطرستها . فى الهدنة التى عقدت مع فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تحتل إيطاليا « نيس » أو « سافوا » اللتين طالما نادت بأحقيتها فيهما :

ولما خرجت إيطاليا من الحرب مهزومة مدحورة لم تطالب فرنسا إلا ببعض التعديل فى الحدود الشرقية ، على ساحل « الريفييرا » حيث يتكلم السكان الفرنسية وحدها . وركزت فرنسا مطالبها بعد الحرب على مناطق استراتيجية فى الجانب الإيطالى من جبال الألب ، فيها القوى المائية والقوى الكهربائية المولدة عنها . وأرسل الحلفاء المنتصرون لجنة من الخبراء لتبيّن رغبات الأهالى فى هذه المناطق ، فوجدت اللجنة أنهم يتكلمون لهجة قريبة من الفرنسية والإيطالية ، وأنهم لذلك غير متحمسين للانضمام إلى فرنسا أو إيطاليا . ومع هذا رضخت الدول المنتصرة إلى المطالب الفرنسية ، على أن تضمن فرنسا المصالح الإيطالية وحقها فى استغلال القوى المائية ومياه الأنهار المنحدرة صوب إيطاليا وتأيّد هذا فى معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . وهكذا نرى أن مشكلة الحدود بين فرنسا وإيطاليا ليست فى حقيقة أمرها إلا مشكلة لغوية أو قومية . وإن تستقر على حال فى مستقبل الأيام مالم تخطط على هذا الأساس وحده .

ثانياً — الألزاس واللورين :

ضُمت هاتان المقاطعتان إلى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . برغم أن غالبية السكان فى الألزاس لا يتكلمون إلا الألمانية وحدها . أما فى منطقة اللورين فكانت اللغة الألمانية تسود فى جهاتها الشرقية ، فى حين أن الفرنسية كانت تسود فى الغرب منها . ولما كان لهاتين المنطقتين أهمية اقتصادية كبيرة تطلعت إليهما الدولتان الكبيرتان المتنافستان . فلما هُزمت فرنسا فى حرب السبعين استولت ألمانيا على المقاطعتين على أساس أن اللغة الألمانية هى السائدة

فى معظم الأنحاء بهما. ثم تبدلت الحال بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، واستعادت فرنسا المقاطعتين العزيزتين ، غير أنها فى غباء وسوء فهم للشعور القوى بين السكان قد عملت جاهدة على زيادة نفوذها وثقافتها بينهم ، فحاولت تغيير لغة الأهالى وحظر تعليم اللغة الألمانية . وعارض سكان الألزاس ذلك فى قوة وإصرار ، مما اضطرت معه الحكومة الفرنسية إلى الاعتراف بمبدأ ازدواج اللغة فى الإقليم .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، ونجحت ألمانيا فى أوائل الحرب فى ضم المقاطعتين لأراضيها ، ولكن القدر أبى إلا هزيمة ألمانيا ثانية فى هذه الحرب العالمية ، وعادت المقاطعتان إلى فرنسا ، ولا تزال مشكلتهما من أعقد المشكلات الأوربية ، لأنها لم تخطط على الأساس اللغوى القومى ، وستظل مثار النزاع بين الدولتين إلى أن تقوم بينهما الرغبة الصادقة فى تسويتها على هذا الأساس وحده .

ثالثاً — منطقة السار :

منطقة ذات أهمية اقتصادية كبرى تطلعت إليها فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى ، وحاولت ضمها إلى أراضيها ، برغم أن الأهالى بها لا يتكلمون إلا الألمانية . ولكن الحلفاء فى معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ قرروا وضع هذه المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم لمدة ١٥ سنة ، يُجرى بعدها استفتاء عام ليقرر السكان ما إذا كانوا يرغبون فى العودة إلى القومية الألمانية ، أو الانضمام نهائياً إلى فرنسا . ومرت مشكلة « السار » فى مراحل ثلاث :

١ — من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥ كانت المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم .

٢ — فى سنة ١٩٣٥ أجرى استفتاء عام ، وأسفرت نتيجته عن رغبة الكثرة الغالبة من السكان فى العودة إلى ألمانيا .

٣ — بعد الحرب العالمية الثانية نظمت العلاقات بين فرنسا و « السار » بمقتضى اتفاقية وقعت سنة ١٩٥٠ ، فيها مُنح « السار » استقلالا ذاتياً فى

التشريع والإدارة ، على أن تكون فرنسا مسئولة عن سياسته الخارجية ، وأن يكون هناك اتحاد اقتصادى جمركى ونقدى بين « السار» وفرنسا .

ثم كان الاستفتاء العام بين أهالى « السار» سنة ١٩٥٥ ، وصوت الأهالى ضد وضع المنطقة تحت الإشراف الدولى . وكان فى هذا الدليل الحاسم على نفور السكان من السيطرة الفرنسية ، ولا سيما بعد استقلال ألمانيا الغربية . ولم تجد فرنسا وحلفاؤها بداً من عودة هذه المنطقة إلى القومية الألمانية ، وتم هذا نهائياً سنة ١٩٥٩ ، لسبب بسيط واضح هو أن الأهالى لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية ، وليس يجدى مع تمسك الأهالى بلغتهم أو قوميتهم ، تلك الضغوط السياسية التى قد تقوم بها الدول الكبرى[1] .

رابعاً ـــ دوقية « لوكسمبورج » :

تمثل هذه المنطقة أدق تمثيل مجال الانتقال بين فرنسا وألمانيا ، إذ تسود فيها اللغة الألمانية ، ولكنها مع هذا تتأثر إلى حد بعيد بالثقافة الفرنسية . ويبدو أن الدول الكبرى خلال القرن التاسع عشر أرادت أن تجعل من هذه الدوقية منطقة حياد . أو مايسمى بالدولة الحاجزة Buffer State . لتحول دون توقع الصدام بين ألمانيا وفرنسا ، ولكن هذا الحياد قد خرق مرتين فى الحربين العالميتين ، فاستغلت ألمانيا أراضى « لوكسمبورج » فى الهجوم على فرنسا وتحطيم خط « ماجينو» أو تقويضه .

وفى أوائل الحرب العالمية الثانية أعلنت ألمانيا ضم « لوكسمبورج » إلى «الريخ » الألمانى أو القومية الألمانية ، على أساس أن الأهالى بهذه المنطقة لا يتكلمون إلا الألمانية ، ولكنها تحررت من جديد فى نهاية الحرب ، غير أن فرنسا لم تحاول المطالبة بهذه الدوقية بعد الحرب . أو ضمها إليها ، فقد وجدت من تجاربها فى مناطق أخرى أن لا جدوى من القضاء على اللغة الألمانية أو القومية الألمانية ، فقنعت بحيادها واشتراكها مع دول الحلفاء فى أوربا فى السوق الأوربية .

---

(١) مشكلات الحدود السياسية ص ٢٦٨ للدكتور محمد فاتح عقيل .

ولكن « لوكسمبورخ» تواجه الآن مستقبلا مظلما تكتنفه الشكوك والريب ، وستظل تشكل مشكلة من مشاكل الحدود ، لأنها جزء من القومية الألمانية اقتُطع منها ، وستطالب به ألمانيا فى أول فرصة تتاح لها . وكل هذا لأن السكان بها لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية ، فلا يدينون إلا إلى القومية الألمانية . وأغلب الظن أنه لو أجرى هناك استفتاء محايد لطالب السكان بقوميتهم المسلوبة ، والانضمام إلى إخوانهم الشعور والأحاسيس المشتركة التى وعاؤها ولا شك اللغة الألمانية .

خامساً ــ مشكلة يوبن Eupen وماليدى Malmedy :

هاتان مقاطعتان على حدود ألمانيا وبلجيكا كانتا تابعتين لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وطالبت بهما بلجيكا بعد الحرب على أساس أن معظم السكان بهما يتكلمون اللغة الفرنسية إحدى اللغتين الرسميتين فى بلجيكا . ووافقت دول الحلفاء على مطالب بلجيكا ، وضمت « يوبن » ، « ماليدى » إلى بلجيكا ، برغم أن بهما جالية كبيرة لاتتكلم إلا الألمانية . ثم واجهت بلجيكا صعوبات كبيرة بسبب هذا الضم ؛ لأن العناصر الألمانية بالمنطقة قد رغبت فى العودة إلى ألمانيا . ولما كانت الحرب العالمية الثانية وغزت ألمانيا بلجيكا ضمت إقليمى « يوبن » ، « ماليدى » إلى الريخ الألمانى سنة ١٩٤٠ ؛ ولكنهما أعيدتا إلى بلجيكا فى إثر نهاية الحرب . ويرى بعض الساسة من البلجيكيين أنه إذا أريد الاستقرار فى هذه المنطقة ، وجب طرد الألمان منها وإحلال عناصر بلجيكية محلهم وإلا فسوف تتجدد المشكلة .

ولكن بلجيكا نفسها التى تطالب بهذه المنطقة على أساس اللغة ، أو ما يسمى بحق تقرير المصير ، تواجه الآن مشكلة من أعقد المشاكل هى سيادة لغتين فى هذه الدولة الصغيرة : اللغة الفلمنكية واللغة الفرنسية . وتتخذ بلجيكا عادة مثلا لإمكان تأسيس الدولة على لغتين مختلفتين . وقد أشرنا آنفاً إلى الأسباب التى ساعدت على تماسك الدولة البلجيكية حتى الآن ، غير أن مستقبل بلجيكا ينذر بالخطر ، وتوشك أن تتشعب إلى قوميتين ، وربما انفصلت

إحداهما عن الأخرى ، واستقلت استقلالا ذاتياً فى مستقبل الأيام وذلك بسبب الصراع القائم الآن بين اللغتين الفلمنكية والفرنسية . فبرغم أن المجلس التأسيسى قد قرر أن تكون اللغتان متساويتين فى حق الاستعمال ، إلا أن هذا القرار بقى منذ ذلك الحين حبراً على ورق ، لأن اللغة الفرنسية ظلت لغة العلم والثقافة فى جميع أنحاء البلاد ، فى حين أن « الفلمنكية » اقتصر أمرها على لغة كلام بين أهلها .

وحاول أبناء اللغة الفرنسية ، أو أصحاب القومية الفرنسية ، فرض هذه اللغة فى الدواوين والمدارس رجاء أن تنتظم كل أنحاء بلجيكا ، غير أن اللغة الفلمنكية أو القومية الفلمنكية عارضت هذا وأثبتت وجودها ، وعملت على دعم كيانها . فألف بعض أبناء هذه اللغة سلسلة طريفة من الأشعار والقصص والروايات وأصبحت الفلمنكية لغة أدب وثقافة أيضاً .

وبدأت بلجيكا استقلالها بأن جعلت اللغة الفرنسية وحدها اللغة الرسمية للبلاد ، وأدى هذا إلى حرمان أبناء اللغة الأخرى من تولى الوظائف والمساهمة فى الأعمال الحكومية ، كما أدى إلى صعوبة التفاهم بين الموظفين الذين لا يعرفون غير الفرنسية، وأصحاب المصالح والحاجات ممن لايعرفون غير الفلمنكية . ولذلك ثار أبناء الفلمنكية وتذمروا من هذا الوضع المجحف بحقوقهم ، وبدأت هذه الحركة القومية تتبلور ، وتتخذ شكلا منظماً منذ سنة ١٨٤٠ . واضطرت الحكومة البلجيكية فى سنة ١٨٥٦ إلى تأليف لجنة لدراسة مطالب أبناء الفلمنكية أو القومية الفلمنكية ، واقترحت اللجنة عدة اقتراحات أهمها :

(ا) أن اللغة الفلمنكية يجب أن تكون لغة التعليم فى جميع المناطق التى يتكلم أهلها هذه اللغة ، وأن جامعة « غاند » يجب أن تحول إلى جامعة فلمنكية .

(ب) أن القوانين يجب أن تنشر باللغتين ، وعلى القضاة والمحامين والممثلين السياسيين أن يسيطروا عليهما .

(ج) أن الجيش يجب أن يقسم إلى كتائب بعضها من المتكلمين بالفرنسية والبعض الآخر من المتكلمين بالفلمنكية .

ولكن الحكومة البلجيكية ظلت تتلكأ في تنفيذ هذه الاقتراحات حتى سنة ١٨٧٨ ، ثم أخذت تستجيب لها شيئاً فشيئا. فسمحت أولا بأن تكون البلاغات الرسمية والمراسلات الإدارية باللغة الفلمنكية في المناطق التي تسود فيها هذه اللغة . ثم سمحت بأن تصبح الفلمنكية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية بهذه المناطق . وأخيراً سمحت أن تكون التشريعات والقوانين باللغتين ، وأن يكون ضباط الجيش ملمين باللغتين .

ولكن أبناء اللغة الفلمنكية لم يقتنعوا بتلك الخطوات . وظلوا حتى الآن يطالبون بخطوات أخرى أكثر تحقيقاً لقوميتهم ، ودعماً لكيانها . ويكفي أن نقرأ ما ينشر بالصحف العالمية في هذه الأيام بصدد هذه المشكلة ، لندرك أن مشكلة اللغة أو القومية في بلجيكا تعد الآن في الحقيقة رواية لم تتم فصولا .

في اكتوبر سنة ١٩٦٢ كتبت صحفنا ما نصه : « معارك عنصرية في بروكسل بين المتحدثين بالفرنسية والمتحدثين بالفلمنكية . اضطر البوليس البلجيكي اليوم إلى استخدام العصي الغليظة لفض المعارك التي وقعت بين البلجيكيين الذين يتحدثون بالفرنسية ، وعشرات الآلاف من إخوانهم الذين يتحدثون بالفلمنكية . وقد قام أبناء الفلمنكية بالزحف على « بروكسل » للمطالبة بالمساواة في الحقوق ، في الوقت الذي قامت فيه مظاهرة مضادة من أبناء الفرنسية . واشتبك الفريقان في معركة تدخل فيها البوليس : واعتقل عدد كبير من الجانبين ، وأصيب عدد آخر . وقد امتلأت الشوارع بالأحجار والمسامير ، وظلت مكبرات الصوت تدوي في المدينة طول الليل ، وتنادي أبناء اللغة الفرنسية ليجتمعوا للدفاع عن العاصمة » .

وفي مايو سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف أيضاً بعنوان « خطر المنازعات في بلجيكا بسبب اللغتين الفرنسية والفلمنكية يتجدد ثانية» : ثم ذكرت الصحيفة أن الانتصارات المذهلة التي ظفرت بها الجماعات السياسية في الانتخابات

البرلمانية التى جرت يوم الأحد الماضى أدّت إلى اشتداد الخوف من أن تتجدد المنازعات بين البلجيكيين الذين يتخاطبون بالفرنسية ، وأولئك الذين يتكلمون اللغة الفلمنكية . فقد تحولت المنازعات فيما مضى إلى معارك دامية بين الفريقين ولم تهدأ الحال إلا بعد أن أصدرت الحكومة الائتلافية قانوناً بشأن استعمال اللغتين ، قبله الفريقان على مضض ، ومن ثم اتفقا على المهادنة . غير أن حزب الحرية والتقدم وهو الحزب المحافظ ، قد كسب فى الانتخابات عشرين مقعداً جديداً . وكان هذا الحزب يدعو فى أثناء المعركة الانتخابية إلى الحرية اللغوية فى كل أنحاء البلاد . ولا تعنى هذه الدعوة إلا رفض القانون الذى صدر فى العام الماضى ، ويقضى بأن تكون اللغة الفلمنكية اللغة الرسمية فى شمال البلاد ، وأن تكون اللغة الفرنسية اللغة الرسمية فى الجنوب ، وأن تستخدم اللغتان رسميا فى العاصمة بروكسل . وقد ظفرت الجماعات المتطرفة التى تريد تقسيم بلجيكا إلى دولتين لكل منهما استقلالها الذاتى ، بعدد لا يستهان به من المقاعد فى الانتخابات هى الأخرى . ومن ثمّ يتوقع المراقبون السياسيون أن تتجدد المنازعات حول اللغتين الفرنسية والفلمنكية .

فهل يقال بعد هذا إن بلجيكا استقرت فيها القومية برغم اختلاف اللغة بين أبنائها ؟ إن بلجيكا تعدّ فى الحقيقة مثلا رائعاً لقوة الارتباط بين اللغة والقومية فلم يُغن عنها أن أرضها مشتركة ، وأن مصالحها الاقتصادية مشتركة ، بل ولا تاريخها المشترك . ولأمر ما لم تثر منازعات فى الحدود الجنوبية لبلجيكا ، ذلك لأنها حدود مصنوعة بين لغة واحدة وقومية واحدة ، وليس من المغالاة أن يقال إن خط الحدود بين فرنسا وبلجيكا ليس له أى مسوغ من الناحية الطبيعية أو البشرية .

سادساً — أيرلندا :

تعرضت الجزر البريطانية فى تاريخها الحافل لغزوات من أوربا تتمثل فى الأنجلو ساكسون أولا فى القرنين الخامس والسادس من الميلاد . ثم الغزو

النورماندىّ فى القرن الحادى عشر . ولم يكد ينتصف القرن السادس عشر من الميلاد حتى كان شأن اللغة الإنجليزية أو القومية الإنجليزية ، قد استقر على حال تمثلت فى آثار شكسبير وفى الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس . وظلت هذه اللغة فى صعود حتى الوقت الحالى ، إذ يتكلم بها فى العالم الآن ما ينيف على ٢٨٠ مليوناً ، فى مناطق متباعدة من العالم الحديث ، وقد حلت اللغة الإنجليزية محل لغة قديمة كانت تسود تلك الجزائر البريطانية ، هى اللغة « الكلتية » . ثم لما كان الغزو النورماندى طُعمت اللغة الإنجليزية بكثير من الألفاظ والتراكيب الفرنسية . فلما اكتمل للإنجليزية نموها وازدهارها ، وأصبحت تشكل لغة متميزة ذات أدب وفلسفة وثقافة ، نشأ ما يسمى بالقومية الإنجليزية . وكان من أثر الصراع بين الإنجليزية الغازية والكلتية المغزوة ، أن تقهقرت الأخيرة إلى أماكن منعزلة فى أسكتلندا وويلز وأيرلندا . ولا تزال فروعها سائدة فى بعض هذه المناطق حتى الآن . غير أن المتكلمين بها فى أسكتلندا وويلز أصبحوا الآن من القلة بحيث لا يكادون يشكلون خطراً أو ما يشبه الخطر على القومية الإنجليزية . أما فى إيرلندا فقد التجأت إليها العناصر القديمة التى احتفظت بصفاتها الجنسية وخصائصها الثقافية . أو بعبارة أخرى احتفظت باللغة « الكلتية » القديمة أو ما تفرع منها ، وعلى أساس هذا وحده تكونت القومية الأيرلندية التى ظلت مثار النزاع والصراع الدموى حتى استقلت فى السنين الأخيرة .

فبعد الكفاح المرير أصدر البرلمان البريطانى سنة ١٩١٤ قراراً يمنح الحكم الذاتى لأيرلندا ، ولكن هذا المشروع تأجل مؤقتاً بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى . فلما انتهت الحرب أخذ أهل أيرلندا يجاهرون بوجوب تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ، وطالب القوميون منهم بزعامة « دى ڤاليرا » بالاستقلال التام ، كما طالبوا بشمال أيرلندا المسمى « ألستر » Ulster ، وهو المنطقة التى نجحت بريطانيا فى عزلها عن سائر أنحاء « أيرلندا » بعملية تهجير واسعة النطاق من العناصر الإنجليزية الذين استقروا بها ومعهم لغتهم . واضطرت بريطانيا سنة ١٩٢١ إلى الاعتراف بقيام دولة أيرلندا الحرة على أن تظل داخل

مجموعة الأمم البريطانية ، بينما ظلت « ألستر » جزءاً من المملكة المتحدة .

ثم تكونت فى أيرلندا منظمة سرية عرفت باسم الجيش الأيرلندى الثورى ، بنت سياستها على العنف والتخريب والإرهاب لتحقيق ما تصبو إليه من ضم « ألستر » إلى « أيرلندا » ، وفصلها عن المملكة المتحدة .

وفى الحرب العالمية الثانية وقفت أيرلندا الحرة على الحياد ، بل مالت إلى مساندة دول المحور . وكلف هذا الموقف دول الحلفاء ثمناً غالياً ، فقد كانت « أيرلندا » ميداناً لجاسوسية دول المحور . وفى سنة ١٩٤٨ أعلن الانفصال التام بين جمهورية أيرلندا وبريطانيا ، وخرجت أيرلندا من الكمنولث البريطانى ، وما زالت جمهورية أيرلندا ترفض بقاء منطقة « ألستر » منفصلة عنها ، وتطالب بتوحيد الجزيرة كلها .

وليس لكل هذا الصراع من سر سوى اختلاف اللغتين الإنجليزية « والكلتية » التى تسود معظم مناطق أيرلندا ، وتشكل قومية أيرلندية متميزة . فهل أجدى إزاء هذا المصالح الاقتصادية المشتركة بين هذه الجزر ؟ وهل أجدى إزاء هذا وحدة الجزر من الناحية الجغرافية ؟ إن عجز اللغة الإنجليزية عن غزو الكلتية فى أيرلندا والقضاء عليها ، أو إن شئت قلت إن عجز أهالى أيرلندا عن السيطرة على اللغة الإنجليزية ، وأداءهم لها فى لكنة متميزة ظلت محل السخرية بين الإنجليز زمناً طويلا ، كل هذا أدى إلى أن تكونت للفريقين مانسميه بعقدة اللغة ، وهى على الجانب الإنجليزى عقدة التفوق ، وعلى الجانب الأيرلندى عقدة النقص ، وهكذا صمدت اللغة الكلتية فى معظم أنحاء أيرلندا ، وعلى أساسها تكونت القومية الأيرلندية . واللغة الكلتية هى لغة شعب من الجنس الآرى يرجع وجوده فى أوربا إلى عصور ما قبل التاريخ . سكن أولا أوربا الوسطى ثم بلاد الغال (فرنسا) ، وأسبانيا ، ثم الجزر البريطانية . ولكن هذه اللغة اندثرت من أوربا مخلفة جيوباً صغيرة ضئيلة الشأن فى « بريتونى » ، وحل محلها فروع للغة اللاتينية كالفرنسية والأسبانية . فلو قد نجحت اللغة الإنجليزية بأيرلندا فيما نجحت فيه اللغة الفرنسية فى بلاد الغال ، لما شهدنا الآن ما يسمى بالمشكلة الأيرلندية .

سابعاً — مشكلة شلزفيج Schleswig :

كانت هذه الدوقية جزءاً من أراضى التاج الدنيمركى منذ أكثر من ستة قرون . ثم هاجر الألمان إليها ومعهم لغتهم ، وأصبحوا الأغلبية فى الجنوب من هذه الدوقية . وأبدى هؤلاء الألمان رغبة ملحة فى الاتحاد مع ألمانيا ، وتم لهم ذلك على أيدى بروسيا والنمسا فى حرب سنة ١٨٦٤ . فقد غزتا دوقية « شلزفيج » واستولتا على قسميها الشمالى والجنوبى دون اعتبار لرغبات السكان فى الشمال وهم من الدنيمركيين . وظلت بروسيا والنمسا تحكمان معاً هذه الدوقية إلى أن تنازلت النمسا عن حقوقها فيها لبروسيا سنة ١٨٦٦ ؛ وحينئذ بدأ عهد جديد عملت فيه ألمانيا على صبغ الإقليم بالصبغة الألمانية . ولما هزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى جدد أهالى الشمال من هذه الدوقية مطالبتهم بالانضمام إلى الدنيمرك على أساس حق تقرير المصير . وأجرى استفتاء عام فى هذه الدوقية سنة ١٩٢٠ كانت نتيجته أن سكان الشمال وهم الذين يتكلمون الدنيمركية أبدوا رغبتهم فى الانضمام إلى الدنيمرك ؛ فى حين أن سكان الجنوب وهم المتكلمون بالألمانية أبدوا رغبتهم فى الانضمام إلى ألمانيا .

ثامناً — فنلندا :

وقعت هذه الدولة الصغيرة تحت حكم السويد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، وبقيت فى قبضة السويد حتى استولت عليها روسيا فى أوائل القرن التاسع عشر . وظلت ترزح تحت نير القياصرة الروس إلى قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى حين ثارت للتخلص من السيطرة الروسية ، وأسست جمهورية مستقلة سنة ١٩١٧ . واحتفظت فنلندا باستقلالها وكيانها القومى منذ ذلك الحين ، برغم أطماع ألمانيا وروسيا خلال الحرب العالمية الثانية ، فلم تفكر روسيا السوفيتية بعد الحرب فى ضم هذه المنطقة إلى أراضيها ؛ بل اعترفت بالكيان الفنلندى أو القومية الفنلندية فى معظم الحدود التى كانت لها قبل الحرب[1] .

---

(١) Pounds. N.J.G. : An Historical and Political Geography. p. 273. London 1947.

فإذا تساءلنا كيف صمدت فنلندا الصغيرة لتحدى روسيا خلال الحرب الأخيرة وبعدها ، تبين لنا أن فنلندا تسودها قومية متميزة متمثلة فى لغة تختلف كل الاختلاف عن كل اللغات التى تحيط بها : كالسويدية والروسية والألمانية . فاللغة الفينية تمتّ إلى فصيلة لغوية تعرف باسم « الفينية — الأجرية » التى منها لغة « المجر » . ولغات هذه الفصيلة لا ترتبط بلغات أوربا بأية صلة . . وهذا هو السر الحقيقى فى تميز القومية الفنلندية وبقائها عبر القرون صامدة إزاء تحديات الدول الكبرى التى تحيط بها . فهل هناك مثل أروع من هذا للدلالة على أن أسّ الأساس فى القومية هو اللغة ؟ وأقرب القوميات شبهاً بالقومية الفنلندية فيما يحيط بفنلندا من مناطق ، هى القومية التى فى جمهورية « أستونيا » ؛ ذلك لأن اللغة « الفينية » هى لغة « أستونيا » أيضاً ، ولا ندرى سبباً للفصل بين فنلندا وأستونيا وهما متجاورتان ، ومتماثلتان فى اللغة أو القومية ؛ إلا حين نتذكر أطماع الدول الكبرى ، وسياستها الحمقاء فى الفصل بين أجزاء القومية الواحدة ؛ لأغراض توسعية أو استراتيجية . فبالقرب من « أستونيا » قوميتان صغيرتان أخريان هما القومية « اللتفية » والقومية « اللتوانية » ؛ ولكل منهما لغتها المتميزة . فكل من اللغة اللتفية واللتوانية يمثل مجموعة لغوية تُعرف بالمجموعة البالطية أو البلطيقية ؛ وهى إحدى مجموعات تلك الفصيلة الكبرى التى يطلق عليها الهندية — الأوربية ؛ والتى ينتمى إليها معظم لغات أوربا . وقد تطورت اللغة اللتفية ؛ وطبعت بها نصوص فى منتصف القرن السادس عشر ، ثم أصبحت لغة قومية ذات أدب وتراث منذ منتصف القرن التاسع عشر . أما اللغة اللتوانية فقد استرعت انتباه اللغويين المحدثين ، لأنها لا تزال تحتفظ بخصائص قديمة للفصيلة الكبرى أكثر من أى لغة أوربية أخرى . وقد نشر بها بعض الكتب الدينية فى منتصف القرن السادس عشر ، وأصبحت لغة قومية ذات آداب وتراث فى القرن التاسع عشر .

لا غرابة إذن فى أن الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى قد اعترفوا بهاتين المنطقتين بوصفهما قوميتين متميزتين ؛ فمنحتا الاستقلال على أساس مبدأ حرية تقرير المصير .

ولكن هذه الجمهوريات الثلاث الصغيرة على بحر البلطيق ظلت مجالا لأطماع الألمان والروس خلال الحرب العالمية الثانية . وانتهى أمرها بعد الحرب بأن خرجت من عداد الدول المستقلة ، واختفت من الخريطة السياسية لأوربا ، ولكن إلى حين ؛ فستظل القومية بكل مثارها مثار النزاع ما بقيت لغاتها الثلاث صامدة . وهى الآن خاضعة لروسيا ، بل ضُمت إلى أراضيها بعد استفتاء عام أجرته روسيا ، وقيل إن نتيجته كانت ٩٩ ٪ فى صالح الحزب الشيوعى ، مما يشكك فى حرية هذا الاستفتاء . وترتب على الاستفتاء أن المجالس التشريعية فى هذه الجمهوريات قررت المطالبة بالانضمام إلى الاتحاد السوفيتى ؛ ووافقت روسيا على هذا الطلب ؛ وأعلن وزير خارجيتها مولوتوف فى مجلس السوفيت الأعلى ضم أستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى الاتحاد السوفيتى بناء على طلبها . . واعترفت بريطانيا بهذا الضم على أساس أنه الأمر الواقع ، غير أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تأبى الاعتراف به حتى الآن .

تاسعاً – حدود بولندا :

تلك هى المشكلة المزمنة فى أوربا . وقد أشرنا آنفاً إلى القومية البولندية ودور اللغة فيها . وقد ظلت حدود بولندا ما يجاوز ألف سنة تشكل مشكلة كبرى واجهت دول أوربا الوسطى ، وتعرضت تلك الحدود لكثير من التغييرات نتيجة الضغوط السياسية والعسكرية من جانب الدول المجاورة لها .

وقد حدث خلال ما بين الحربين العالميتين أنه نجحت بولندا إبان قوتها ، فى الوصول إلى البحر البلطى ، فعزلت بعض الجماعات الألمانية فى الشرق عن إخوانهم فى الغرب ، مما أدى إلى السبب المباشر فى إشعال الحرب العالمية الثانية .

وقد تعرضت بولندا خلال تاريخها الطويل لبعض الغزوات والاعتداءات من الدول الكبرى المجاورة لها ، ولكنها برغم هذا ظلت تحتفظ بوحدتها اللغوية والقومية .

وفى القرن الثامن عشر زاد ضغط الألمان على حدودها الغربية ، وضغط الروس على حدودها الشرقية ، وكادت بولندا تزول من الوجود بوصفها دولة مستقلة ، فقد قُسمت أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا . وعملت هذه الدول الثلاث على تحطيم الروح القومية فى بولندا ، ففرضت لغاتها وثقافاتها على الشعب البولندى . ثم لم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القومية البولندية المكبوتة تنفجر كالبركان ، وعادت بولندا إلى سابق عهدها ، وأسست جمهورية جديدة سنة ١٩١٨ . وقرر مؤتمر الصلح فى باريس سنة ١٩١٩ جعل الحدود الغربية والجنوبية لبولندا على أساس التوزيع اللغوى بصفة عامة ، وفُصل بين الأغلبية البولندية على جانب والأغلبية الألمانية أو التشيكوسلوفاكية على الجانب الآخر . أما على الجانب الغربى فلم يكن هناك خط واضح يفصل الألمان عن البولنديين، وكان الحد بينهما فى تلك المنطقة حداً بشرياً أو لغوياً وليس حداً جغرافياً طبيعياً . ورأت دول الحلفاء حينئذ، وفى غباء وسوء تقدير ، ضرورة اتصال بولندا بالبحر البلطى ، وبذلك خلقت مشكلة الممر البولندى و « دانزيج » التى كانت السبب المباشر فى الحرب العالمية الثانية . ذلك لأن « دانزيج » كانت مدينة ألمانية صرفة بلغت نسبة الألمان بها نحو ٩٠ ٪ . واستيلاء « بولندا » عليها يتنافى مع حق تقرير المصير . ولذلك وضعها الحلفاء مؤقتاً تحت إشراف عصبة الأمم . أما حدودها الشرقية فقد تركت لتتفق عليها بولندا مع روسيا. واقترح الحلفاء سنة ١٩١٩ خطاً فاصلاً بين الدولتين على أساس لغوى بحت هو ما يعرف بخط « كرزون » .

وهكذا أصبحت حدود بولندا بعد الحرب العالمية الأولى تتاخم ست دول هى « لتفيا » ، « ليتوانيا » ، وألمانيا ، والاتحاد السوفييتى ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا . وقد كانت الأطماع البولندية حينئذ سبباً فى توسيع رقعتها ، وامتدادها خارج نواتها القومية، مما خلق لها مشكلات الأقليات فى أراضيها، وأدى إلى نزاع سياسى خطير فيما بعد .

فلما قامت الحرب العالمية الثانية غزت النازية بولندا ، ثم لم تلبث أن

قسمت أراضيها بين ألمانيا وروسيا بمقتضى اتفاق تم بين وزير خارجية ألمانيا « روبنتروب » ووزير خارجية روسيا « مولوتوف » سنة ١٩٤٠ . ثم عُدلت حدودها بعد الحرب تعديلا بعيداً عن التوزيع اللغوى أو حق تقرير المصير ، مما سيؤدى حتما إلى إثارة القومية البولندية فى المستقبل . ذلك لأن اللغة البولندية وإن كانت إحدى لغات المجموعة السلافية غير أنها تشكل فرعاً منها مستقلا متميزاً . وعرفت هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وتطور أدبها فى القرون الأخيرة ، فأضحى من الآداب الأصيلة ذات التراث القومى العريق . وأقرب لغات أوربا شبهاً باللغة البولندية هى اللغة التشيكية، لغة تشيكوسلوفاكيا .

عاشراً — حدود تشيكوسلوفاكيا :

كون الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى هذه الدولة الجديدة ، ووضعوا لها حدوداً لا تكاد تمت إلى مبدأ حق تقرير المصير بصلة . ولذلك تعد خليطاً عجيباً من قوميات مختلفة ، ومثلا واضحاً لاستحالة تأسيس الدولة على تلك القوميات المتنافرة . فقد أصبحت بعد سنة ١٩١٨ تشمل « بوهيميا » و « مورافيا » وجزءاً من سيليزيا العليا وهى المناطق التى كانت تابعة للإمبراطورية النمسوية . كما تشمل مقاطعة سلوفاكيا و « روثينيا » اللتين كانتا تابعتين للمجر قبل الحرب . وقد بدأ تأسيس هذه الدولة الجديدة بالجمهورية التشيكية المستقلة سنة ١٩١٨ ، ثم أبدى المجلس الوطنى فى مقاطعة سلوفاكيا رغبته فى الانضمام للتشيكيين فى دولة واحدة ، وتم ذلك سنة ١٩١٩ فى معاهدة « سنت جرمان » . واعتقد زعماء هذه الدولة الجديدة حينئذ أن التشابه فى اللغة والتقاليد والشعور القومى متقارب جداً ، بحيث يسمح بضم التشيكيين وأهالى سلوفاكيا فى دولة واحدة . ولكن الأيام برهنت على أنهما قوميتان متميزتان كما سنرى[١] .

ومما هدد سلامة هذه الدولة الجديدة شمولها على بعض الأقليات القوية ذات القوميات المختلفة . ففى إقليم « السوديت » غرب بوهيميا ، وفى « سيليزيا » و « مورافيا » وبعض المدن الكبيرة ما يقرب من ثلاثة ملايين من الألمان . وفى

(١) W. Fitzgerald. op. cit. p. 133. : The New Europe. London 1948.

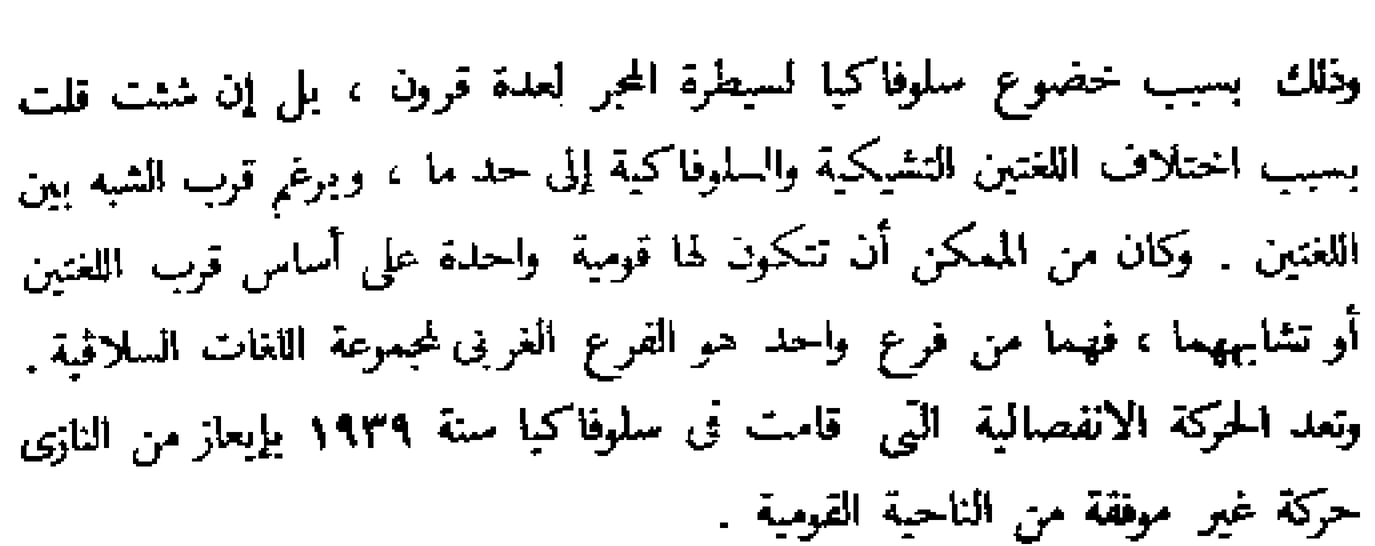
سلوفاكيا جالية كبيرة تجاوز نصف مليون من المجريين . ويخالف هذا الوضع مبدأ حق تقرير المصير .

وتكوين هذه الدولة الجديدة على هذا النحو جعلها أشبه بجزيرة من السلافيين فى وسط أوربا ، فيها أكثر من ثلث السكان لا ينتمون إلى التشيكيين، ولا إلى أهالى سلوفاكيا . ومن هنا نشأت تلك المشكلة التى عرفت قبيل الحرب العالمية الثانية بمشكلة « السوديت » ، تلك المشكلة التى بلغت الذروة فى اتفاقية ميونيخ سنة ١٩٣٨ ، حين تُركت تشيكوسلوفاكيا فريسة لأطماع النازية . ثم تبع ذلك احتلال بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس أن اللغة الألمانية هى السائدة فى هاتين المقاطعتين .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ، وتأسست تشيكوسلوفاكيا ، تطلعت هذه الدولة الجديدة إلى منطقة « السوديت » الألمانية وضمتها إلى أراضيها ، ولكن أهالى السوديت وهم من الألمان اعترضوا على هذا ؛ وكانت تلك الواقعة بمثابة خطوة أولى فى تذمر أهالى « السوديت » ، ومطالبتهم بالانضمام إلى الريخ الألمانى . ثم رحبوا فيما بعد بحركات النازى السياسية التى كانت تنشر دعايتها عن تحرير الألمان الذين يعيشون خارج الوطن الألمانى . حتى أولئك الذين غادروا ألمانيا منذ أكثر من ثمانية قرون . ولكنهم مع هذا احتفظوا بلغتهم الألمانية وقوميتهم الألمانية . وأمكن للنازية استعادة السوديت سنة ١٩٣٨ فى اتفاقية ميونخ . بل غزوا بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس اللغة أيضاً .

ولكن الغريب أن تعلن « سلوفاكيا » : وهى التى يتكون من اسمها نصف الاسم الذى أطلقه الحلفاء على الدولة الجديدة تشيكوسلوفاكيا . استقلالها سنة ١٩٣٩ . وكانت سلوفاكيا قبل الحرب العالمية الأولى خاضعة لحكم « المجر » ، وقام المجريون فى أثناء حكمهم لها بجهود كبيرة فى محاولة صبغ أهالى سلوفاكيا بالصبغة المجرية .

وفى الحق أن أهالى « سلوفاكيا » لم يكونوا على وفاق دائم مع جيرانهم من التشيكيين نظراً لأن مستواهم الحضارى والثقافى كان أقل من مستوى التشيكيين ،



وذلك بسبب خضوع سلوفاكيا لسيطرة المجر لعدة قرون ، بل إن شئت قلت بسبب اختلاف اللغتين التشيكية والسلوفاكية إلى حد ما ، وبرغم قرب الشبه بين اللغتين . وكان من الممكن أن تتكون لها قومية واحدة على أساس قرب اللغتين أو تشابههما ، فهما من فرع واحد هو الفرع الغربي لمجموعة اللغات السلافية . وتعد الحركة الانفصالية التي قامت في سلوفاكيا سنة ١٩٣٩ بإيعاز من النازى حركة غير موفقة من الناحية القومية .

ومن المشاكل القومية في تشيكوسلوفاكيا تلك التي تعرف بمشكلة « روثينيا » ، وهي مقاطعة في أقصى الشرق من الدولة الجديدة ، كانت تابعة للمجر ، وكانت اللغة المجرية هي اللغة الرسمية السائدة بها جنباً إلى جنب مع اللغة المحلية . وقد ضُمت هذه المقاطعة إلى تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى ليتسنى لها الإحاطة بالمجر ، ولفصل المجر عن بولندا ، ولكي تسمح باتصال تشيكوسلوفاكيا برومانيا في حالة ما إذا احتاج الأمر إلى تعاونهما الحربي . وقضت معاهدة سنت جرمين سنة ١٩١٩ بأن تمنح تشيكوسلوفاكيا مقاطعة « روثينيا » الاستقلال الذاتي ، فقد لاقت صعوبات ومتاعب فيما يتعلق بالحقوق اللغوية ، وباللغة التي تدرس في مدارسها ، وتعرضت لكثير من الاضطهاد فيما بين الحربين العالميتين ، فلغة روثينيا أقرب إلى لغة أوكرانيا في روسيا . لا غرابة لذلك أن ضمتها روسيا إلى أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية ، وأطلقت عليها « أوكرانيا » الكرباتية التي أصبحت الآن جزءاً من الاتحاد السوفييتي .

وهكذا نرى أن السرّ الحقيقي في كل مشاكل الحدود بتشيكوسلوفاكيا لا تعدو أن تكون اختلاف اللغات . أو اختلاف القوميات في تأسيسها .

حادى عشر — حدود « المجر » :

يؤكد لنا الدارسون للأجناس أن شعب المجر من عنصر مغولى الأصل كالبلغار ، غير أن البلغار يتكلمون إحدى اللغات السلافية في الفرع الجنوبي لهذه المجموعة اللغوية التي تضم عدداً من لغات أوربا . في حين أن المجر لا تزال

تحتفظ بلغتها الأصلية التي وفدت بها إلى أوربا ، والتي لا تمت إلى لغات أوربا بصلة ، فيما عدا اللغة الفنلندية . فاللغة المجرية إحدى لغات تلك المجموعة المسماة « الفينية الأجرية » الغريبة عن لغات أوربا .

ومن هنا تميزت القومية المجرية عن القومية البلغارية ، وبعدت إحداهما عن الأخرى، برغم ما يقال من أنهما من جنس أصلي واحد هو الجنس المغولي، وهكذا نرى أن العبرة في تشكيل القومية هو اللغة لا ما يسمى بالجنس الأصلي . فلم يعد هناك ما يربط بين القوميتين بعد اختلاف اللغة ، ولم تعد إحداهما تشعر بعطف أو جاذبية تجاه الأخرى ، بعد أن أصبح سكان بلغاريا يصطنعون لساناً مبايناً للسان المجريين .

وقد بدأ ظهور شعب المجر في وسط أوربا منذ القرن التاسع الميلادى ، ثم نهضوا وأسسوا مملكة لأنفسهم نمت وازدهرت خلال القرون التالية .

وفي القرن الثامن عشر تأسس من المجر والنمسا إمبراطورية ثنائية تحت حكم أسرة « هبسبورج » ، ظلت قوية متماسكة حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن المجريين لم ينسوا أبداً خلال هذا الحكم الثنائي قوميتهم الممثلة في لغة غريبة عن لغة النمسا ، بل لا تمت إلى لغات أوربا بصلة . ولما هزمت هذه الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى انفصلت المجر عن النمسا ، وتجاهل الحلفاء المنتصرون الحدود القومية للمجر في معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ ، وتركوا نحو ثلاثة ملايين من المجريين خارج حدود قوميتهم ، جماعات منهم في ترانسلفانيا في الشرق وآخرون في مقاطعة براتيسلافا (برسبورج سابقاً) في الشمال الغربي من سلوفاكيا ، وجماعة ثالثة يبلغ عددهم ربع مليون على حدود يوغسلافيا .

وظلت مسألة إعادة النظر في معاهدة تريانو سنة ١٩١٩ الشغل الشاغل للحكومات المجرية في الفترة من ١٩٢٠ — ١٩٣٨ . ولما قامت الحرب العالمية الثانية انضمت المجر إلى ألمانيا ، ونجحت في أوائل الحرب في استعادة أبناء قوميتها ، بل طغت على قوميات أخرى مجاورة في ترانسلفانيا وروثينيا وغيرها[1] .

---

(١) Campbell. J.C. : The European Territorical Settlement. p. 214.

وبانتهاء هذه الحرب عادت المجر إلى حدودها سنة ١٩٣٨ ، وتأكد هذا فى معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . أى أن الحلفاء المنتصرين فى هذه الحرب لم يجدوا مفراً من الاعتراف بالقومية المجرية الممثلة فى لغة غريبة متميزة عن لغات أوربا ، فتركوا لها حدودها بعد أن انتزعوا منها « روثينيا » التى يتكلم سكانها لغة أقرب إلى لغة أوكرانيا ، ولذلك ضمت إلى روسيا ، كما انتزعوا منها ترانسلفانيا وضموها إلى رومانيا برغم الأقلية المجرية التى تقيم فيها والتى يبلغ تعدادها أكثر من مليون نسمة. وكان ضم « ترانسلفانيا » إلى رومانيا على أساس أن أغلبية السكان يتكلمون لغة رومانيا . وقد تبين من دراسة مشكلة ترانسلفانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية أنه من العسير حل هذه المشكلة بما يرضى الطرفين طالما تستمسك كل من المجر ورومانيا بقوميتها أو بلغتها . ولن ينجح أى تغيير فى الحدود بين الدولتين ما دامت الجماعات المجرية المسماة « الزكلر » تعيش فى رومانيا بعيدة عن وطنها القومى المجرى .

أما فى الحدود الجنوبية للمجر وهى المتاخمة ليوغوسلافيا فتوجد منطقة انتقال بين الصرب والمجر ، وتتمثل هذه المنطقة فى أقاليم : « باتشكا » ، « بارانجا » « بانات » . التى اختلفت فيها القومية الصربية اليوغسلافية . والقومية المجرية . وقد ضمت هذه الأقاليم إلى يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم عادت إلى المجر فى أوائل الحرب الثانية ، ثم عادت مرة أخرى إلى يوغسلافيا بعد انتهاء هذه الحروب .

ثانى عشر — مشكلة « التيرول الجنوبى » و « ترنتينو » :

كان هذان الإقليمان تابعين للنمسا قبل الحرب العالمية الأولى . فلما انتهت الحرب بهزيمة النمسا تطلعت إيطاليا لضم الإقليمين إلى أراضيها ، ونجحت فى ذلك برغم مبدأ حق تقرير المصير الذى أعلنه الحلفاء حينئذ . ذلك لأن « التيرول » الجنوبى تسود فيه اللغة الألمانية ، فى حين أن إقليم « ترنتينو » تسود فيه اللغة الإيطالية . وقد حاولت إيطاليا فيما بين الحربين العالميتين صبغ الإقليمين

بالصبغة الإيطالية ، فنشرت بهما الأسماء الإيطالية ، وأحلت اللغة الإيطالية محل الألمانية فى التيرول الجنوبى . ولم تفلح الأسماء الإيطالية ، ولا الموظفون الإيطاليون فى القضاء على الشعور القومى والمعارضة العنيفة التى أبداها سكان التيرول الجنوبى الذين دأبوا على المطالبة بالانضمام إلى أبناء قوميتهم فى النمسا . ولا تزال هذه المشكلة قائمة حتى الآن . وتتناولها الصحف العالمية المحايدة بالشرح والتفسير . ومع مرور ما يقرب من نصف قرن على ظهور هذه المشكلة نقرأ الآن فى الصحف المحلية عرضاً مفصلا للمشكلة نقتبسه فيما يلى :

فى معاهدة تسويات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ استولت إيطاليا على ولاية « بولتزانو » وهى المعروفة باسم التيرول الجنوبى التى كانت خاضعة للنمسا . وفى نفس العام وعد ملك إيطاليا وحكومتها وبرلمانها أبناء التيرول المتحدثين باللغة الألمانية بالاستقلال الذاتى فى شئون ولايتهم . وبعد ما يقرب من ٢٧ عاماً أى سنة ١٩٤٦ اتفق وزير خارجية إيطاليا مع وزير خارجية النمسا على نفس المبدأ . ونصت المعاهدة فى مادتها الأولى على أن يتمتع السكان المتحدثون باللغة الألمانية فى المنطقة بكافة الحقوق والامتيازات التى تمنح للسكان المتحدثين بالإيطالية . حتى يمكنهم المحافظة على تراثهم الفكرى الألمانى وعلى ثقافتهم المتميزة . وبعد سنتين فقط من هذه المعاهدة أعلنت إيطاليا ضم ولاية « ترنتينو » إلى التيرول الجنوبى ومنحها الاستقلال الذاتى فى إدارة موحدة . وبهذا بدأت أزمة العلاقة بين إيطاليا والنمسا . ذلك لأن أبناء التيرول الجنوبى يطالبون بفصل إقليمهم عن « تورنتينو » ومنحهم الاستقلال الذاتى كما وعدت إيطاليا فى اتفاقيتى سنة ١٩١٩ ، سنة ١٩٤٦ ؛ لأن سياسة الإدماج جعلتهم يواجهون سياسة تمييز عنصرى تهدد مستقبلهم بالخطر . وأعلنوا إنكارهم لما تردده الشائعات من أنهم يتخذون من الحكم الذاتى خطوة أولى نحو الانفصال عن إيطاليا ، والانضمام إلى النمسا مرة أخرى .

أما النمسا فقد أعلنت فى « فيينا » أنها لا تطالب بإعادة التيرول الجنوبى إليها ، ولكنها تطالب باحترام الاتفاقيات المعقودة مع إيطاليا وتنفيذها نصاً

وروحاً . وترى النمسا فيما قامت به إيطاليا سنة ١٩٤٨ من إدماج الإقليمين تحت حكم موحد محاولة للتخلص من الأغلبية المتحدثة باللغة الألمانية . فهم فى التيرول الجنوبى يمثلون ثلثى السكان ، ولكنهم بانضمامهم إلى « تورنتينو » سيصبحون أقلية لا يتجاوز عددهم ثلث السكان فى الإقليمين معاً .

وأما إيطاليا فترى أن الأقلية الألمانية تتمتع بحقوق لا تقل عن حقوق أية أقلية أخرى فى أوربا . أما سياسة الإدماج فى رأيهم ، فتدعو إليها ضرورة إستراتيجية من جانب ، وإدارية من جانب آخر .

وتمسك كل من الطرفين برأيه فى المشكلة ، والتجأ الطرفان إلى الأمم المتحدة بشكواهما ، ولكن المنظمة الدولية لم تصل إلى قرار حاسم ، ونصحت الدولتين بالدخول فى مفاوضات مباشرة . ولما فشلت هذه المفاوضات المباشرة اقترحت إيطاليا عرض المشكلة على محكمة العدل الدولية ، ولكن النمسا رفضت ذلك ، واقترحت النمسا تكليف « همرشولد » بالوساطة والقيام بالمساعى السلمية لإنهاء الخلاف ، ولكن إيطاليا رفضت هذه الوساطة . وهكذا عادت المشكلة إلى نقطة بدايتها من جديد دون أى تقدم .

ثالث عشر — مشكلات الحدود فى البلقان :

ليس من الضرورى فى الحديث عن القوميات الرئيسية بالبلقان كما شهدها القرن التاسع عشر أن نذهب إلى أبعد من هذا القرن . فقد كانت هذه القوميات فى أوائله خاضعة لحكم السلطنة العثمانية منذ زمن طويل . ثم ضعفت هذه السلطنة ، وبدأت المنافسة بين الدول الكبرى فى أوربا حول أراضى البلقان التى يقطنها شعوب تنتمى إلى أجناس مختلفة ، ولا يمكن أن تتكون على أساسها قوميات متميزة . لذلك كان الأساس فى نشأة القوميات فى منطقة البلقان أساساً لغوياً صرفاً . فلم يكد يبدأ القرن التاسع عشر حتى شهد العالم فى البلقان ست لغات رئيسية هى : « التركية ، الرومينية ، البلغارية ، اليونانية ، الألبانية » وأخيراً « الصربية — الكرواتية » فى يوغوسلافيا . وبرزت القوميات البلقانية

على أساس هذه اللغات ، وتميزت كل منها عن الأخرى ، مما اضطر الحلفاء المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى إلى تأسيس دولة لكل لغة من هذه اللغات، على حسب مبدأ حق تقرير المصير الذى نادوا به إثر انتهاء الحرب . ولكن الحلفاء لم يوفقوا فى كل الحالات إلى وضع حدود سليمة بين هذه اللغات ؛ ومن هنا نشأ ما يسمى بمشاكل البلقان فى المنازعات السياسية .

فإذا بدأنا بالقومية التركية تبين لنا أنها مؤسسة على اللغة التركية العثمانية الحديثة ، التى تنتمى إلى مجموعة لغوية بعيدة كل البعد عن اللغات الأوروبية ، هى التى تسمى باللغات الأتراكية . ومنطقتها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وآسيا الوسطى وجزءاً من سيبيريا . وأهم فروع هذه المجموعة اللغة التركية الحديثة التى تسمى أيضا اللغة العثمانية ، وهى لغة أتراك الأناضول و « تراقيا » الشرقية . وهى اللغة الرسمية للجمهورية التركية فى الوقت الحاضر . ليس غريباً إذن أن مبدأ تقرير المصير قد أدى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى أكبر حركة هجرة وتبادل السكان فى التاريخ الحديث . فقد كانت الأقليات اليونانية التى تعيش على سواحل الأناضول ، ولا سيما فى مدينة أزمير وضواحيها تجاوز المليون نسمة ، وتشكل خطراً كبيراً على كيان القومية التركية الفتية وجمهوريتها الجديدة فى آسيا الصغرى . ولهذا أجبرت تلك الأقليات اليونانية على الهجرة من تركيا إلى الأراضى اليونانية ، وبخاصة فى « تراقيا » الغربية ، وتم ذلك خلال ثلاث سنوات فيما بين ١٩٢٢ — ١٩٢٥ .

أما اللغات الأخرى فى البلقان فتنتمى كلها إلى الفصيلة الكبرى التى يسميها اللغويون بالفصيلة الهندية — الأوروبية ، غير أنها تنحدر من فروع مختلفة لهذه الفصيلة .

فاللغة الرومينية وهى لغة رومانيا الحديثة إحدى اللغات اللاتينية كالإيطالية والفرنسية والأسبانية . ولا ندرى كيف استقرت فى تلك المنطقة البعيدة نسبيا عن مهد اللغات اللاتينية . ولا يزال أصل السكان فى رومانيا ، وتكوينهم الجنسى ، موضع خلاف كبير بين علماء الأجناس . ولا يجمع بينهم فى الحقيقة

إلا اللغة التي هي أساس قوميتهم ومحل فخارهم واعتزازهم .

ومع أن القومية في رومانيا محددة المعالم متميزة بتميز لغتها ، نشأ على حدودها ما يعرف بمشكلة « بسارابيا » تلك المقاطعة التي دل الإحصاء سنة ١٩١٩ على أن نحو ٦٤ ٪ من سكانها يتكلمون اللغة الرومينية ، وأن نحو ١٥ ٪ يتكلمون لغة أوكرانيا . ولذلك ضمت هذه المقاطعة إلى رومانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن روسيا استعادتها في أوائل الحرب الثانية . ولم تشأ الحكومة الرومانية إثارة مشكلة « بسارابيا » ثانية عند إقرار معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ ، وقد عوضت رومانيا عنها بمقاطعة ترانسلفانيا التي معظم سكانها من الرومانيين ، ولكن المعاهدة تجاهلت وضع المجريين المسمين « الزكلر » والذين يبلغ عددهم حدود المليون نسمة ويعيشون في شبه جزيرة في نطاق رومانيا . وهكذا خلق حل مشكلة بسارابيا بين رومانيا وروسيا ، مشكلة « ترانسلفانيا » بين رومانيا والمجر .

أما القومية اليونانية فليست في حاجة إلى تعريف ، فهي تنحدر من القومية الإغريقية العظيمة التي وهبت الإنسانية تراثاً رائعاً في الفكر والفلسفة قبل المسيحية . وعلى ما خلفته للإنسانية قامت النهضة الأوروبية الحديثة . وتتمثل هذه القومية في العصر الحديث في اللغة اليونانية الحديثة التي انبثقت عن الأصل القديم . ولا تكاد تختلف عنه في الأصوات ، بل يتركز الخلاف بينهما في بعض النواحي الاشتقاقية ، وفي المفردات .

ولما كانت هذه القومية متميزة بتميز لغتها العريقة لم يثر بينها وبين جيرانها ما يسبب مشاكل خطيرة حول الحدود . واقتصر النزاع بينها وبين بلغاريا على منطقة صغيرة في « ترا قيا » الغربية التي أصبح معظم السكان بها يتكلمون اللغة اليونانية بعد تهجيرهم من الأناضول كما أشرنا آنفاً . كما اقتصر على المنطقة التي تعرف « بالأبيروس » الشمالي بين اليونان وألبانيا .

وأما « ألبانيا » تلك الدولة الإسلامية الصغيرة فهي أصغر دول البلقان مساحة وأقلها سكاناً . ويلاحظ دارسو الأجناس أن سكان ألبانيا يتألفون من

شعبين متميزين يتمثل أحدهما فى جماعات « الغج » Gheg طوال القامة وهم المعرفون بالأرناءوط ، وتعدادهم فى حدود ٦٥ ٪ من السكان . أما الشعب الآخر فيعرف أبناؤه « بالتوسك » Tosk وهم أقصر قامة ويشبهون فى صفاتهم الجسمانية وفى طباعهم جيرانهم اليونانيين . وتعدادهم فى حدود ٢٣ ٪ من السكان .

ولم يكن هناك من مسوغ لتأسيس هذه الدولة الصغيرة بعد الحرب العالمية الأولى سوى أن أهلها يتكلمون لغة متميزة تختلف تمام الاختلاف عن اللغات المجاورة لها . وكان هناك شبه اتفاق على الإبقاء على « ألبانيا » بوصفها دولة مستقلة ، لوجود عنصر ألبانى متميز لا يستطيع الاستقرار والعيش فى هدوء مع أية دولة بلقانية أخرى ، ودار كل الخلاف بين الدول حول مدى اتساع هذه الدولة الجديدة . وفى الحق أن المسوغ الحقيقى لتأسيس هذه الدولة هو اللغة الألبانية التى هى فرع مستقل من فروع الفصيلة الكبرى الهندية ـــ الأوربية . وتسمى هذه اللغة عند أهلها بالأشكيب Shkip . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها المخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى . وأول نصوص مطبوعة لها يرجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وقد جمعت بهذه اللغة أغان كثيرة وقصص شعبية فى القرن التاسع عشر . ومعظم المتكلمين بها يعتنقون الدين الاسلامى .

وأخيراً نختتم الحديث عن قوميات البلقان أو لغاته بلغتين تنتميان إلى مجموعة لغوية واحدة هى المجموعة السلافية ، بل إلى فرع واحد من فروع هذه المجموعة هو الفرع الجنوبى ، وهاتان اللغتان هما اللغة البلغارية التى يتكلم بها فى بلغاريا وهى لغة قومية ذات حضارة وتراث أدبى . تميزت بين اللغات منذ القرن الثامن عشر وتكتب بالأبجدية الكريلية أو السيريلية . أما اللغة الأخرى فهى « الصربية ـــ الكرواتية » التى يتكلم بها فى معظم مناطق جمهورية يوغوسلافيا وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة ، الهرسك ، الجبل الأسود . ولها ثلاث لهجات محلية متميزة ، ويكتبها المسيحيون الأرثوذكس بالأبجدية « الكريلية »

أو السيريلية »، فى حين أن الكاثوليك يكتبونها بالأبجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها التى ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، غير أنها لم تصبح لغة حضارة إلا فى القرن التاسع عشر .

ومع أن سكان بلغاريا يتسلون من أصل مغولى هاجروا منذ قرون إلى هذه المنطقة واستقروا بها ، نجد أنهم اتخذوا ذلك اللسان السلافى وسيلة التفاهم والخطاب فيما بينهم . ثم كان أن استقلت هذه اللغة ، وتميزت عن أخواتها من اللغات السلافية ، وأصبحت وحدها تشكل القومية البلغارية . وتعدّ بلغاريا من أكثر دول البلقان تجانساً واستقراراً فى قوميتها ، ومن أقلها مشاكل فى حدودها. وكل ذلك بفضل لغتها المتميزة الموحدة التى هى اللغة المشتركة لكل السكان .

أما يوغسلافيا ففيها تكثر الاختلافات العنصرية والانقسامات الاجتماعية ، وقد أدى موقعها إلى متاخمة جميع دول البلقان ، بل هى تتاخم أيضاً المجر والنمسا وإيطاليا . ولذلك كانت علاقاتها منذ نشأتها بكل هذه الدول يشوبها قدر من التوتر والمشكلات السياسية :

١ — مشكلة كارينثيا السلوفينية :

وتعدّ هذه المشكلة من أكبر المشكلات التى تؤثر فى سير العلاقات بين يوغسلافيا والنمسا . ذلك لأن أغلبية السكان بهذا الإقليم يتكلمون الألمانية ، وظهر من الانتخابات والاستفتاءات التى أجريت فى هذا الإقليم ميلهم وولاءهم للنمسا ، ومع هذا فلا تزال يوغسلافيا تلح فى المطالبة بضم الإقليم إلى أراضيها بدعوى أن معظم السكان يتكلمون اللغة السلوفينية إحدى لغات الفرع الجنوبى للمجموعة السلافية ، فهى لذلك من أقرب اللغات إلى « الصربية — الكرواتية » اللغة الرسمية ليوغوسلافيا .

٢ — المشكلة المقدونية :

يشكل هذا الإقليم نزاعاً شديداً بين يوغسلافيا وبلغاريا من ناحية ، وبين يوغسلافيا واليونان من ناحية أخرى . ويؤلف السكان فى هذا الإقليم وحدة

بشرية متميزه، ويتكلمون لهجة سلافية تعرف باللهجة المقدونية . وقد ضُم معظم أراضيه إلى يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن السكان ظلوا غير راضين عن حكم يوغوسلافيا ، وتثيرهم وتحرضهم على الثورة بلغاريا . ولم تنجح يوغوسلافيا فى الاحتفاظ بهذا الإقليم ، إلا على أساس تكوين الجمهورية المقدونية التى هى إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى .

٣ ــ مشكلة ميناء تريست ، فينيتسيا جوليا :

بين يوغوسلافيا و إيطاليا ، وهى المشكلة المعقدة التى كادت توقع العالم الحديث فى حرب عالمية ثالثة . وليس لهذه المشكلة من مسوغ سوى اختلاط السكان فى هذه المنطقة بين سلافيين و إيطاليين ؛ أو إن شئت قلت : سيادة لغتين فى المنطقة ، إحداهما وثيقة الصلة بلغة يوغوسلافيا . والأخرى باللغة الإيطالية .

ولعل من أهم أسباب اشتعال هذه المشكلة وتعقدها بعد الحرب العالمية الأخيرة ، تلك المنافسة القائمة بين المعسكرين الشرقى والغربى . فروسيا من ناحية تناصر يوغسلافيا وتعمل على تحقيق مطالبها ؛ فى حين أن دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تؤيد الجانب الإيطالى فى مطالبه ، وبعد صراع سياسى طويل بين الكتلتين الشرقية والغربية ؛ وفشل الكثير من المقترحات التى تقدم بها كل من الفريقين ، انتهى النزاع أو كاد ، باتفاقية لندن سنة ١٩٥٤ وهى التى تقضى بتقسيم المنطقة بين يوغوسلافيا وإيطاليا ، وحصلت إيطاليا على ميناء « تريست » وشقة ساحلية صغيرة تصلها بالأراضى الإيطالية . كما نص فى الاتفاق على إنهاء الحكم العسكرى للحلفاء فى المنطقة وعلى تخصيص منطقة جمركية حرة فى ميناء تريست ، وحماية حقوق الأقليات فى القسمين اليوغسلافى والإيطالى .

على أن المشكلة الحقيقية فى دولة يوغسلافيا هو تعداد الأجناس فى أراضيها ، ويوحى بهذا اسمها القديم وهو مملكة الصرب والكروات والسلوفين ، وقد هاجر

إليها فوق هذه الأجناس جماعات من المجر ورومانيا وبلغاريا وألمانيا وإيطاليا ، فزادت هذه الهجرات من التعقد الجنسي في يوغوسلافيا . وترتب على تلك الاختلافات اللغوية والثقافية في يوغسلافيا ظهور جبهات معارضة تعمل على تفكك هذه الدولة ، مما اضطر الحكومة اليوغسلافية إلى إنشاء اتحاد يوغسلافي سنة ١٩٥٣ يتألف من ست جمهوريات هي :

١ — جمهورية الصرب وعاصمتها « بيوغراد » .
٢ — جمهورية كرواتيا وعاصمتها « زغرب » .
٣ — جمهورية البوسنة .
٤ — جمهورية سلوفينيا وعاصمتها « لوبليانا » .
٥ — جمهورية مقدونيا وعاصمتها « سكوبلي » .
٦ — جمهورية « مونتنجرو » الجبل الأسود ، وعاصمتها « تيتوجراد » .

وإذا كان الحكم الاشتراكي الناجح في يوغسلافيا قد كفل لها حتى الآن استقراراً ورخاء ، وإذا كانت البطولة التي ظهر بها زعماؤها الحاليون خلال الحرب قد أسكرت الناس وجعلتهم يلتفون حول هؤلاء الزعماء ، ويطمئنون إلى حسن سياستهم وبراعة قيادتهم ، إذا كان هذا هو الواقع المشاهد الآن في هذه الدولة ، فليس هناك ما يؤمن المستقبل من تفتت العناصر البشرية المتباينة التي تتكون منها . فلا بد من دعم القومية اليوغسلافية على أساس وحدة لغوية شاملة ، فبرغم أن بها لغة رسمية هي اللغة « الصربية — الكرواتية » لا تكاد تنتظم هذه اللغة كل أنحاء الدولة ، ولا تزال هناك لهجات إقليمية متعددة يخشى معها أن تطل بعض الحركات الانفصالية برأسها في المستقبل ، حين تتبدل الزعامة الحالية بغيرها ، أو حين تجد صعوبات في تطبيق النظام الاقتصادي الحالي . ولا سبيل لتفادي هذا إلا بدعم اللغة المشتركة في الدولة ، والعمل على أن تنتظم كل مناطقها ، بحيث ينظر كل السكان إليها على أنها لسانهم المفضل ، فيؤثرونها في كل المجالات وكل الأوساط ، وتوحد بين مشاعرهم وأحاسيسهم . ولا شك أن تحقيق هذه الغاية يتطلب زمناً طويلا وجهداً كبيراً . ولكنا مع الأسف

نقرأ الآن أخباراً تنشر فى بعض الصحف وتشير إلى بعض ما يوجه يوغسلافيا من الناحية اللغوية . فقد نشر بالأهرام فى شهر أبريل سنة ١٩٦٧ ما نصه :

(اجتمعت لجنتا الحزب الشيوعى اليوجوسلافى فى مدينتى بلجراد ، زغرب ، لاتخاذ قرار بشأن الذين اشتركوا فى الاضطرابات اللغوية التى نشبت بين إقليمى الصرب وكرواتيا عندما صمم كل جانب على تعميم استخدام المصطلحات اللغوية الخاصة به فى الشئون الرسمية . والمعروف أن الطرفين يستخدمان نفس اللغة ، ولكن مع بعض الاختلافات . وقد شكا المثقفون فى الإقليمين من التفرقة اللغوية ، ويخشى زعماء يوجوسلافيا أن تؤدى تلك الخلافات إلى إحياء خصومات قديمة بين الإقليمين) .

وتتضح لنا خطورة المشكلة اللغوية بيوغسلافيا حين نتذكر أن بهذه الدولة ثلاث لهجات محلية متميزة ، وأن الأرثوذكس يكتبون بالأبجدية السيريلية ، فى حين أن الكاثوليك يكتبون بالأبجدية اللاتينية .

* * *

الفصل الخامس

أشهر اللغات القومية الحديثة[1]

١

فى أوربا

فى عرضنا هنا للغات أوربا والحديث عنها نؤثر أن نترك اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى الفصل الذى فيه سنتحدث عن اللغات العالمية الحديثة . فقد أخذت هاتان اللغتان فى العصر الحديث طابعاً عالمياً أكثر منه قومياً . وتنتمى الكثرة الغالبة من اللغات الحديثة فى أوربا إلى الفصيلة الكبرى التى تسمى الهندية — الأوربية .

المجموعة الجرمانية :

هى مجموعة من اللغات فى غرب أوربا ووسطها وشمالها الغربى . وهى لغات ذات صلة وثيقة بعضها ببعض . وتشترك فى خصائص لغوية أصيلة ؛ لا سيما فى تطور الأصوات أو التبادل الصوتى بين أفرادها ، وهو ما يعرف بقانون جريم Grimm وأشهر هذه اللغات وأوسعها انتشاراً فى العصر الحديث اللغة الإنجليزية ، وستحدث عنها بين اللغات العالمية الحديثة . وأفراد هذه المجموعة اللغوية فى الوقت الحالى هى :

١ — الدنمركية :

وهى لغة منتشرة فى شبه جزيرة « الدنيمرك » فى بحر البلطيق وما حولها من جزر . وقد أصبحت لغة كتابة وأدب منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

---

(١) A. Meillet and M. Cohen; Les Langues du Monde. Paris 1952.

(٢) Mario Pei : The World's Chief Languages. London 1949.

٢ — السويدية :

لغة منتشرة فى النصف الشرقى من شبه جزيرة « اسكنديناوا » . وصارت لغة كتابة وآداب منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

٣ — النورويجية :

لغة النصف الغربى لشبه جزيرة « اسكنديناوا » ، وقد أصبحت لغة كتابة وأدب فى القرن الثامن عشر الميلادى بعد أن استقلت عن النفوذ الدنيمركى .

٤ — الأيسلندية :

وهى اللغة التى يتكلم بها فى جزيرة « أيسلندا » ، وتكتب منذ القرن العاشر الميلادى . وبسبب انعزالها احتفظت بظواهر لغوية قديمة . وهى مشهورة بأدب الملاحم « إدّا » التى تقارن عادة بملاحم « هوميروس » ، وملاحم اللغة السنسكريتية فى الهند .

٥ — الألمانية :

وهى لهجتان متميزتان شمالية وجنوبية . والجنوبية هى أصل اللغة الألمانية الرسمية الحديثة التى بدأ التدوين بها أيام « مارتن لوثر » الذى ترجم إليها الكتاب المقدس فى القرن السادس عشر الميلادى . وتعدّ الألمانية أكثر اللغات الجرمانية محافظة ، فقد استمسكت بعناصر لغوية قديمة أكثر من غيرها .

٦ — الهولندية :

وهى اللغة الرسمية لمملكة هولندا . وهذه اللغة تنحدر من لهجات ألمانيا الشمالية ، وتتصل اتصالا وثيقاً باللغة « الفلمنكية » التى يتكلم بها فى شمال بلجيكا ، وتعدّ لغة رسمية هناك . وقد انتقلت الهولندية إلى جنوب أفريقيا مع المهاجرين حيث شاع استعمالها وأطلق عليها هناك « الأفريكانية » Afrikoans .

المجموعة البلطية ــ السلافية :

مجموعة من اللغات تشترك فى كثير من الخصائص التى تميزها عن المجموعات اللغوية المجاورة لها . وهذه المجموعة تنقسم إلى شعبتين : البلطية ، السلافية ، أما فروع البلطية فهى :

١ ــ **اللتفية** : وهى لغة « لتفيا » على بحر البلطيق . طبعت منها نصوص فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى . وقد تطورت هذه اللغة وأصبحت لغة قومية ذات أدب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى .

٢ ــ **اللتوانية** : وهى لغة « لتوانيا » على بحر البلطيق . وتحتفظ هذه اللغة بخصائص قديمة جداً ترجع إلى الفصيلة الكبرى الأم « الهندية ــ الأوربية » أكثر من أى لغة أوربية أخرى . ونشر بها بعض كتب دينية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادى .

وأما لغات الشعبة السلافية فيتصل بعضها ببعض على قدر مجاورة إحداها للأخرى . فالمسافر من « موسكو » متجهاً إلى الغرب إلى « منسك » ثم إلى « وارسو » ثم إلى « براج » . يلحظ أن صيغ الكلمات وطراز الجمل والعبارات يتغير تدريجياً . وعلى مراحل متداخلة كأنها ألوان الطيف . فأبناء اللغات السلافية المتجاورة يفهم بعضهم بعضاً إلى حد ما . أما غير المتجاورة منها فنلحظ بينها تبايناً فى الأصوات والتصريف وتركيب الجمل ، بل فى الألفاظ أيضاً .

وأهم الصفات المشتركة بين لغات الشعبة السلافية هى : كثرة الأصوات الساكنة ، واستعمال عدد متجاور من هذه الأصوات فى أوائل كثير من الكلمات ، وكذلك استخدام مايعرف لدى الدارسين بالثنائية فى الصوت الساكن (أى صورة حنكية وأخرى غير حنكية مثل مافى الإنجليزية من نطق التاء فى الكلمتين Tune ، Tomb) . وللاسم فى اللغات السلافية سبع حالات إعرابية وثلاث حالات للتعبير عن الجنس (مذكر ، مؤنث ، محايد) . وبرغم أن الفعل

ينظر إليه من حيث الزمن على أنه ماض ، حاضر ، مستقبل ، ومن حيث الحدث على أنه تام ، ناقص ، مؤقت ، مستمر ، وبرغم أن للفعل صيغا معينة فى كل هذه الأحوال ، نلحظ أن المتكلم بهذه اللغات يعنيه بوجه عام كون الحدث مستمراً أو كاملا ، أكثر مما يعنيه كونه معبراً عن الزمن الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

وتختلف اللغات السلافية فى موضع النبر من الكلمة . فاللغة التشيكية تجعل النبر على المقطع الأول من الكلمة ، فى حين أن البولندية تجعل النبر عادة على المقطع الذى قبل الأخير .

أما الروسية فالنبر فيها متغير الموقع ، وليس له موضع ثابت فيما يبدو ، بل ينتقل فى الكلمة الواحدة تبعاً لتصريفاتها . وينطبق هذا أيضاً على « الصربية — الكرواتية » لغة جمهورية يوغوسلافيا ، ولكن المتكلمين بهذه اللغة يتحاشون جعل النبر على المقطع الأخير .

كذلك تختلف اللغات السلافية فى طريقة الكتابة الهجائية ، فأولئك الذين ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما فى روسيا ، الصرب ، بلغاريا يصطنعون الكتابة « الكريلية » . فى حين أن المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية كما فى تشكوسلوفاكيا ، بولندا ، كرواتيا ، يصطنعون الأبجدية اللاتينية .

وفروع الشعبة السلافية هى :

١ — **السلوفينية :** ويتكلم بها فى المنطقة الجنوبية للنمسا على ساحل الأدرياتيك ، وأقدم ماوصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادى . ولها أدب مكتوب منذ القرن الثامن عشر الميلادى .

٢ — **الصربية — الكرواتية :** وهى لغة منطقتها جمهورية يوغسلافيا ، وهى اللغة الرسمية لها فى الوقت الحاضر . وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة ، الهرسك ، الجبل الأسود . ولهذه اللغة ثلاث لهجات محلية متميزة . ويكتبها المسيحيون الأرثوذكس بالأبجدية الكريلية ، والكاثوليك بالأبجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها الأدبية من القرن الخامس

عشر الميلادى ، ولكنها لم تصبح لغة حضارة وآداب إلا فى القرن التاسع عشر .

٣ – **البلغارية** : وهى لغة جمهورية بلغاريا ، ويتكلم بها أيضاً فى بعض المناطق المحيطة بهذه الجمهورية . وقد أصبحت لغة قومية ذات حضارة وآداب منذ القرن الثامن عشر ، وتكتب بالأبجدية الكريلية .

٤ – **التشيكوسلوفاكية** : وهى اللغة الرسمية لجمهورية تشكوسلوفاكيا . وتكتب بالأبجدية اللاتينية منذ القرن الثالث عشر الميلادى . وقد أصبحت لغة أدبية منذ النهضة القومية فى القرن التاسع عشر .

٥ – **البولندية** : وهى اللغة الرسمية لجمهورية « بولندا » . وقد عرفت هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادى . وتطور أدبها فى القرون الأخيرة وأصبح من الآداب الأصيلة الغزيرة . وهى تكتب بالحروف اللاتينية .

٦ – **الروسية (الكبرى)** : وهى اللغة الرسمية للاتحاد السوفييتى . وقد أصبحت لغة مشتركة لجمهوريات الاتحاد السوفييتى منذ سنة ١٩٤٥ . وأساس هذه اللغة هو لهجة « موسكو » التى اشتهرت بعد تأسيس جامعة موسكو سنة ١٧٥٥ م ، وقد أخذت شكلها الحالى منذ القرن التاسع عشر . وكان يتكلمها فى العهد الروسى القيصرى ما لا يزيد على نصف عدد السكان . وهى تكتب بالأبجدية الكريلية .

٧ – **الروسية البيضاء** : وهى اللغة الرسمية لجمهورية روسيا البيضاء إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى المتاخمة لبولندا ، وليتوانيا . ويتكلم بها نحو عشرة ملايين .

٨ – **الأوكرانية (الروسية الصغرى)** : وهى لغة « أوكرانيا » الواقعة فى جنوب روسيا البيضاء . ويتكلم بهذه اللغة نحو ٤٠ مليوناً .

مجموعة اللغات الرومانية :

وتنحدر هذه اللغات الحديثة عن اللغة اللاتينية ، ولذلك تشترك فى خصائص لغوية أصيلة . وأشهر هذه اللغات الفرنسية التى سنتحدث عنها بين اللغات العالمية الحديثة .

ويؤكد لنا اللغويون المحدثون أن لغات هذه المجموعة لم تنحدر عن اللاتينية النموذجية الأدبية التى خطب بها «شيشرون» وكتب بها «فرچيل» ، وإنما انحدرت عن اللاتينية العامية التى كانت تصطنع فى الخطاب بين عامة الشعب فى الإمبراطورية الرومانية ، قبل سقوطها فى القرن الخامس الميلادى . وكانت هذه اللاتينية أيضاً لغة الحاميات الرومانية فى المواقع البعيدة من الإمبراطورية ، وبين أفراد هذه الحاميات من ولد وعاش كل حياته دون أن يقع نظره على عاصمة الإمبراطورية . غير أنا نفتقد فى كثير من الأحوال النصوص المدونة التى يمكن أن تُعدّ حلقة اتصال بين هذه اللاتينية العامية وبين فروعها الحديثة من اللغات الأوربية .

وأشهر أفراد هذه المجموعة هى :

١ — **الرومينية (لغة جمهورية رومانيا)** : وهى اللغة السائدة الآن فى رومانيا وبعض المناطق المجاورة لها . وأقدم ما وصل إلينا من آثارها يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى مكتوباً بالأبجدية الكريلية . ولكن هذه اللغة تكتب الآن بالحروف اللاتينية ، ويتكلم بها ما يقرب من تسعة عشر مليوناً .

٢ — **الإيطالية** : هى لغة إيطاليا وبعض المناطق التى فى جنوب سويسرا . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى منتصف القرن العاشر الميلادى ؛ أما اللغة الإيطالية المستعملة اليوم فهى لهجة مقاطعة «تسكانيا» التى كتب بها «دانتى» فى أوائل القرن الرابع عشر .

٣ — **الرومنشية** : هى لغة منتشرة فى بعض مناطق سويسرا والنمسا . وعدد المتكلمين بها الآن نحو نصف مليون . وترجع أهمية هذه اللغة إلى أنها إحدى اللغات الرومانية التى اعتمد عليها الدارسون فى المقارنات اللغوية . وأقدم ماوصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى . وقد أصبحت منذ سنة ١٩٣٨ إحدى اللغات الرسمية فى الاتحاد السويسرى .

٤ — **القطلونية** : وهى لغة يتكلم بها شرقى إسبانيا (قطالونيا ، فلانسيا ، جزر البليار) وعدد المتكلمين بها نحو خمسة ملايين . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى .

٥ — **الإسبانية** : وهى لغة إسبانيا ومعظم جهات أمريكا اللاتينية ، وتعد من أكثر لغات العالم انتشاراً . وأقدم ما وصلنا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادى . وقد دخلت فيها ألفاظ عربية كثيرة .

٦ — **البرتغالية** : وهى لغة البرتغال وبعض جهات أمريكا اللاتينية وبخاصة فى البرازيل . وأقدم ماوصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومن اللغات القومية الحديثة لغتان تنتميان أيضاً إلى الفصيلة الكبرى (الهندية الأوربية) ولكن يتميز كل منهما بصفات لغوية تجعل لها كياناً متميزاً مستقلاً عن اللغات الأوربية الأخرى ، وهما :

١ — **اللغة اليونانية الحديثة** : وهى صورة منبثقة عن اللغة « الكوينية » التى كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولا تكاد تختلف اليونانية الحديثة عن « الكوينية » فى الناحية الصوتية . وإنما الاختلاف فى بعض النواحى التصريفية وفى المفردات . وتحاول دولة اليونان الآن وتؤيدها الكنيسة فى هذا ، أن تقترب ما أمكن من اللغة « الكوينية » . وقد أصبحت اليونانية الحديثة بمثابة لغة مشتركة لكل بلاد اليونان منذ القرن الثامن عشر ، وعلى أساسها تكونت القومية اليونانية الحديثة .

٢ ــ **اللغة الألبانية** : وهى لغة دولة « ألبانيا » وتسمى عند أهلها بالإشكيب Shkip وقد اقترضت كثيراً من مفرداتها من اللغات المجاورة لها كاللاتينية واليونانية والصربية ، والتركية . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها المخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى . وأول نصوص مطبوعة ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وفى القرن التاسع عشر جمعت بهذه اللغة أغان كثيرة وقصص شعبية . ومعظم المتكلمين بهذه اللغة يعتنقون الدين الإسلامى . ويتكلم بها نحو ١,٥ مليون نسمة . وباستثناء بعض الوثائق القانونية لم يبق من تراثها الأدبى ما هو أقدم من القرن التاسع عشر .

وأشهر لغات أوربا التى لا تنتمى إلى الفصيلة الكبرى « الهندية ــ الأوربية » لغتان حديثتان هما :

١ ــ **الفينية** : وهى اللغة الرسمية لفنلندا ، ويتكلم بها أيضاً فى « أستونيا » وهى مدونة منذ القرن السادس عشر الميلادى .

٢ ــ **المجرية** : ويتكلم بها فى المجر وفى بعض المناطق المتاخمة لها . وهى أقدم اللغات المعروفة بالفصيلة « الفينية ــ الأجرية » . ووصلنا بعض من نصوصها التى ترجع إلى القرن العاشر الميلادى .

٢
فى آسيا

تنتمى اللغات القومية الحديثة فى آسيا إلى عدة فصائل لغوية لا صلة بينها ؛ وأشهر هذه الفصائل تلك الفصيلة الكبرى (الهندية ــ الأوربية) ، ولهذه الفصيلة فى آسيا ثلاث شعب :

١ ــ الشعبة الهندية ولغاتها القومية الحديثة هى :

(ا) الهندستانية :

وهى اللغة الأساسية فى غرب الهند . وقد أطلق عليها هذا الاسم اصطلاحاً ، لأنها أكثر اللغات انتشاراً فى الهند . ولهذه اللغة صورتان : « الأوردية » وهى فى الأصل لغة الجيش ، وتكتب بالأبجدية العربية ، وتشمل ألفاظاً عربية وفارسية كثيرة ، وهى الآن اللغة الرسمية فى باكستان . أما الصورة الثانية فهى ما يسمى « بالهندى » وتكتب بالخط الهندى القديم وفيها ألفاظ سنسكريتية كثيرة . ويتكلم بالهندستانية ما يقرب من ١٩٠ مليوناً . وتعدّ هاتان الصورتان بمثابة لهجتين متميزتين للهندستانية ، فلا يقتصر الفرق بينهما على اختلاف الكتابة كما هو الشأن مع الكرواتية والصربية ، بل إن « الأردية » تظل متميزة حتى لو كتبت بتلك الحروف الهندية القديمة . فاللهجتان تختلفان فى البنيان وفى الألفاظ ، لأنهما خضعتا لمؤثرات تاريخية مختلفة .

(ب) السنهالية :

وهى لغة منتشرة فى القسم الجنوبى من جزيرة سيلان وقد أصبحت اللغة الرسمية للجزيرة بدلا من اللغة الإنجليزية منذ سنة ١٩٦٤ .

(جـ) البنغالية :

وهى أوسع لغات شرقى الهند انتشاراً فى كلكتا وما حولها ، ولها أدب قديم . وكتب بها طاغور ، ويتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً .

(د) الجهراتية :

وتنتشر فى منطقة بومباى ، ولها أدب شعرى قديم . وترجع بعض نصوصها إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، ويتكلم بها ٤٠ مليوناً .

(هـ) البنجابية :

وهى أهم لغات الشمال الغربى للهند . ويتكلم بها سكان « لاهور » والطائفة المعروفة بالسيخ .

٢ – الشعبة الإيرانية وأشهر لغاتها القومية الحديثة هى :

(ا) الفارسية :

وهى اللغة الرسمية لدولة إيران فى الوقت الحالى . وتكتب بالخط العربى ؛ وأقدم نصوصها التى وصلت إلينا ترجع إلى القرن الثامن الميلادى . وهى ذات آداب غزيرة ؛ وبلغت أوج ازدهارها على يدى الفردوسى فى القرن العاشر الميلادى ؛ وتتضمن ألفاظاً عربية كثيرة جداً .

(ب) الكردية :

وهى لغة الأكراد فى الشمال الغربى من إيران . ويتكلم بها نحو خمسة ملايين ولا يزال معظم آدابها غير مدوّن .

(جـ) الباشتو (لغة الأفغان) :

وقد عُرفت منذ القرن السادس عشر من الميلاد . واتخذت لغة رسمية لأفغانستان منذ سنة ١٩٣٦ . وتكتب بالحروف العربية . وهى متأثرة بالفارسية ؛ وكثير من آدابها لم يدوّن حتى الآن .

٣ – الشعبة الأرمينية :

وهى لغة واحدة متميزة ذات كيان مستقل سادت فى البلاد الجبلية الممتدة فيما بين العراق والأودية الجنوبية للقوقاز وعلى الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود . ولها أبجدية خاصة تتكون من ستة وثلاثين رمزاً ؛ وتعد مثلا دقيقاً للأبجدية الصوتية . ويرجع أقدم المخطوطات التى عثر عليها من هذه اللغة إلى القرن التاسع



الميلادى . ولا يزال يُتكلم بها فى جمهورية « أرمينيا » فى الاتحاد السوفييتى ، وفى مناطق أخرى مثل « جورجيا » « وأذربيجان » . وعدد المتكلمين بها نحو ٤ ملايين وقد احتفظ أصحاب هذه اللغة بشخصيتهم وكيانهم المتميز خلال تاريخهم الملىء بالمآسى والاضطرابات . ولا تزال لغتهم نشيطة وقوية ، وتتضمن كلمات فرنسية مقترضة منذ أيام الصليبيين ؛ كما فيها قدر كبير من الكلمات الفارسية والمصطلحات الروسية .

أما الفصائل اللغوية الأخرى التى تنتمى إليها اللغات القومية الحديثة فى آسيا فهى[1] :

١ — اللغات الأتراكية :

ومنطقتها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وآسيا الوسطى . وقد استعمل أهل هذه اللغات فى كتابتها حروفاً قومية يُعتقد أنها سامية الأصل ، وظلت سائدة بينهم حتى دخول الإسلام فأحلّوا محلها الحروف العربية . وتتصف هذه اللغات بأنها لغات التصاقية . ومن فروعها الحديثة « التتارية » على شواطئ « الفولجا » وجبال « الأورال » . و « القازاقية الأزبكية » التى يتكلم بها نحو عشرة ملايين من المسلمين السنيين فى « طشقند » و « سمرقند » و « بخارى » و « فرغانة » ؛ و « القوميقية » على شواطئ بحر قزوين . ولكن أهم اللغات الأتراكية فى العصر الحديث هى اللغة التركية العثمانية اللغة الرسمية للجمهورية التركية . وهى لغة أتراك الأناضول « وتراقيا » الشرقية . ومنذ تأسست الإمبراطورية العثمانية فى القرن الثالث الميلادى نشأ لهذه اللغة أدب عثمانى يسمى اليوم بالأدب التركى . وهذه اللغة متأثرة تأثراً كبيراً بالعربية والفارسية .

ويتكلم بالتركية أكثر من عشرين مليوناً ؛ وتكتب الآن بالحروف اللاتينية وتتميز هذه اللغة بظاهرة الانسجام بين أصوات اللين أو الحركات . فصوت اللين الأمامى يتبعه أمامىّ مثله ، والخلفى يتبعه خلفى مثله وهكذا . وصوت اللين

---

(١) تركنا الحديث عن اللغة العربية إلى الفصل الخاص بالقومية العربية .

فى اللواحق يتبع صوت اللين فى الجذر الأصلى ويصبح مثله . فمثلا Ev بمعنى بيت يُجمع Evler . أما Oda بمعنى حجرة فتجمع Odalar . واللغة التركية من اللغات الملصقة ، فيها الجذر الأصلى يتركب عادة من مقطع واحد لا يتغير ، ويتصل به لواحق متعددة للتعبير عن معظم الوظائف والعلاقات النحوية . ويقع الفعل فى آخر الجملة التركية . وبرغم أن التركية قد اقترضت ألفاظاً كثيرة من العربية والفارسية قد حافظت على بنيانها وتراكيبها الخاصة خلال القرون .

٢ — الفصيلة الدراڤيدية :

وتنسب إلى شعب « الدراڤيد » الذى كان يسكن فى جنوب الهند . وهى مجموعة من اللغات التى يتحدث بها نحو خمس سكان الهند ، أى نحو ٧٢ مليوناً معظمهم فى المنطقة الجنوبية . وأهم خصائص هذه اللغات من حيث التصريف أنها خالية من السوابق والدواخل . أما اللواحق فتحدد وظيفة الكلمة فيها . ومن خصائص هذه اللغات أيضاً أنها لا تتضمن أى أثر للمثنى ، وليس بها صيغ خاصة بالنعت . وأن بعض أصواتها مما يسمى بالأصوات الالتوائية وأشهر فروعها الحديثة فى الهند هى :

(ا) **التأملية** : ومنطقتها فى الجنوب الشرقى من بلاد الهند « مقاطعة مدراس » وجزء من جزيرة سيلان ، وتعد آداب هذه اللغة من أغنى آداب اللغات الهندية بعد اللغة السنسكريتية . ويتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً . ولها تراث أدبى عريق يرجع إلى القرن الثانى من الميلاد .

(ب) **الكنارية** : ومنطقتها حول مدينة « ميسور » ، وفى الجنوب الغربى من الهند ، ولها آداب مكتوبة كانت مزدهرة فى القرن التاسع الميلادى . ويتكلم بها نحو ٢٤ مليوناً .

(حـ) **التلوجو** : ومنطقتها الشاطئ الشرقى من الهند شمالى منطقة « التأملية » ، وفى الجهات المتاخمة لحيدر آباد ، ولها آداب عرفت منذ القرن الحادى عشر الميلادى . ويتكلم بها نحو ٣٦ مليوناً .

٣ – الملايو – البولينيزية :

وهى مجموعة من اللغات يتكلم بها شعوب تمتد من جزيرة « مدغشقر » فى الغرب إلى جزيرة الفصح فى الشرق ، ومن « فرموزا » وجنوب فيتنام فى الشمال إلى نيوزيلندا فى الجنوب . وتتألف هذه المجموعة من شعبتين :

الشعبة الأندونيسية وتتضمن عدة لغات يتكلم بها نحو ١١٥ مليونا . وقد تأثرت لغات هذه الشعبة باللغة العربية بعد دخول الإسلام فى هذه المناطق ، ولذلك تتضمن كلمات عربية كثيرة . ومن لغات هذه الشعبة لغة « مدغشقر » ويتكلم بها نحو ٤ ملايين وتكتب بالحروف اللاتينية ، ولغة « الملايو » وقد أصبحت هذه اللغة الآن بمثابة لغة مشتركة لسكان كل الجزر الأندونيسية وشبه جزيرة الملايو ؛ ولغة « جاوة » ويتكلم بها نحو ٥٠ مليوناً وهى لغة عريقة ولها تاريخ قديم ، وكانت تكتب بالحروف الهندية فى قديم الزمان ،وكان لها آداب قديمة حافلة بالملاحم ، ولغة « سومطرة » ويتكلم بها نحو ١٢ مليوناً فى جزيرة سومطرة .

أما الشعبة الثانية فمنطقة انتشارها تمتد من نيوزيلندا فى الجنوب إلى جزر « هاواى » فى الشمال ، ويتكلم بها نحو ٣٥٠ مليوناً ممن يسكنون عدة جزر صغيرة فى المحيط الهادى .

وتعد لغة « الملايو » أهم لغة فى هذه المجموعة وأوسعها انتشاراً . وقد أصبحت الآن تحتل المرتبة التاسعة بين لغات العالم الحديث . وأصبح لهذه اللغة فى الشرق الأقصى أهمية كبيرة ، فهى بمثابة اللغة المشتركة لمعظم مناطقه ، وقد سميت « بهارا أندونيسيا » ، واتخذت اللغة الرسمية للإدارة والحكم فى هذه المناطق الشاسعة . وقد ظل أهل « الملايو » يستخدمون الحروف العربية فى كتبهم وصحفهم زمنا طويلا ، وذلك لشيوع الدين الإسلامى بينهم؛ ولكنهم الآن لسوء الحظ قد بدأوا يتجهون نحو الحروف اللاتينية . وتوصف لغة الملايو بأنها أيسر لغات العالم ، فليس فيها تلك المجاميع الصوتية الخشنة التى عرفت بها لغات

القوقاز . ونظام التصريف فيها سهل غير معقد . وكذلك تراكيب جملها بسيطة لا تعقيد فيها . وقد اقترضت اللغات الأوروبية الحديثة بعض كلماتها مثل :
Bamboo, Sago

ومع أن لغات هذه المجموعة قد تبدو لأول وهلة متباينة كل التباين ، غير أن الدراسة العميقة قد برهنت على أنها تشترك فى ملامح لغوية كثيرة . فنماذجها من « الفونيات » تتشابه تشابها قوياً ، وتتألف الأسماء فيها من مقطعين ، ويقع النبر على الأول منهما . هذا إلى أنه ليس لظاهرة الكم أو العدد فى هذه اللغات صيغ خاصة أو تصريف متميز . ويعبّر الفعل فيها بوساطة اللواحق والسوابق عن التعدية واللزوم والبناء للمجهول والمطاوعة والمشاركة وغير ذلك . ويندر فيها تجاور عدد من الأصوات الساكنة . كما يندر أن تنتهى كلماتها بالمقاطع المغلقة ، وترتب على هذا أن الأصوات الساكنة فى هذه اللغات قد أخذت فى الانكماش أو التناقص ، ومالت إلى الاختفاء من الكلام .

٤ — الصينية — التبتية :

مجموعة من اللغات المنتشرة فى الصين ، وهضبة التبت و « الهملايا » وفى الهند الصينية : سيام وبورما وڤيتنام وكمبوديا . وقد تميزت منها فى العصر الحديث لغات قومية ، على أساسها تكونت عدة دول فى هذه المنطقة تعرف باسم ڤيتنام ، سيام ، وكمبوديا ، وبورما . وبرغم أن لغات هذه الدول قريبة الشبه بعضها البعض ، غير أن كلاً منها قد تطور وأصبح ذا كيان لغوى متميز ، مما سوّغ انفصال هذه الدول واستقلال كل منها عن الأخرى . وأهم لغات هذه المجموعة :

(١) الصينية :

وهى لغة جمهورية الصين ، ولها عدة لهجات أهمها لهجة العاصمة « بكين » التى تعتبر اللهجة الرسمية للجمهورية . والموطن الأصلى للغة الصينية هو منطقة النهر الأصفر ، ومنه انتشرت ناحية الغرب . ولها كتابة قديمة مزيج

من الرموز التى تدل على الصورة والتى تدل على الصوت . ولم تتغير الكتابة الحديثة عن القديمة إلا قليلا فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حين استعملت الريشة بدل أدوات الكتابة الصلبة . وهذه اللغة ذات أدب عريق يعدّ أغنى آداب آسيا. وأقدم ما وصل إلينا منه مكتوباً يعدّ عاصراً لنصوص السنسكريتية ، ولكن العصر الذهبي للأدب الصينى يعاصر العصر الذهبي للإغريقية . فالفيلسوف الصينى « مينج تسى » ولد قبل أرسطو بنحو ١٢ عاماً ، أى أنهما عاشا فى القرن الرابع قبل الميلاد ؛ ولكنهما عاشا وماتا دون أن يسمع أحدهما بالآخر . وأهم خصائص هذه اللغة أن ألفاظها آحادية المقطع ؛ وأن النغمة هى التى تحدد معنى الكلمة ، وأن الوظيفة النحوية للكلمة تُحدَّد بموقعها من الجملة ؛ وأن حرف اللام قد سقط واندثر من هذه اللغة .

ويُتكلم بالصينية الآن فى الجمهورية الصينية الشاسعة ؛ وفى بعض جهات الملايو والهند الصينية وسيام وجزر الهند الشرقية . وظلت كذلك لغة الثقافة فى اليابان « وكوريا » و « أنام » زمناً طويلا ، ومنها يستمد أبناء هذه البلاد دون انقطاع المصطلحات العلمية ، كما يستمد أبناء اللغات الأوربية الحديثة مصطلحاتهم من اللاتينية والإغريقية . .

أما اللهجات الصينية فلا يكاد أصحابها يفهم بعضهم بعضا . وتستخدم الكتابة الصينية بمثابة أداة صلة بين أبناء هذه اللهجات التى لا يفهم المتكلمون بها بعضهم بعضاً إلا كما يفهم الدنيمركى السويدىّ . أو كما يفهم البرتغالى الإسبانى . ويعمل المسئولون فى الصين الآن على جعل لهجة « بكين » اللغة القومية ، إذ يتكلم بها فى معظم أنحاء الصين . وقد فرض الزعيم الصينى « ماوتسى تونج » بحكم القانون تعلم هذه اللهجة فى كل مدارس الجمهورية الصينية .

وإذا سلمنا بأن التمييز بين اللهجة واللغة أساسه الفهم المتبادل فحسب ، وجب أن ننظر إلى هذه اللهجات الصينية على أنها لغات لا لهجات . ولذلك كانت الرموز التقليدية التى تشبه الكتابة التصويرية أمراً بالغ الأهمية لأصحاب

هذه اللهجات الصينية . فهم جميعاً يستطيعون قراءتها ولكن فى نطق مختلف؛ أى كما يقرأ الأوربيون الأرقام . فحين يرى الإنجليزى الرقم 5 يقول five ولكن الفرنسى يقول Cinqu ويقول كل من الإيطالى والإسبانى شيئاً آخر.

(ب) التبتية :

ويُتكلم بها فى منطقة هضبة « التبت » . وقد وصلت إلينا نصوص قديمة من هذه اللغة ترجع إلى القرن الثامن الميلادى . ومن خصائصها الصوتية أنها تقبل توالى السواكن فى أول الكلمة وآخرها ، وأن الاسم لا يتميز من الفعل إلا عن طريق السياق ، وأنها تفرق بين المذكر العاقل والمؤنث العاقل بإضافة لاحقة « پا » للمذكر ، « ما » للمؤنث . وتأثرت هذه اللغة بالأدبين البوذىّ والسنسكريتى تأثراً كبيراً .

(ج) البرمية :

ويتكلم بها فى « بورما » . وتتميز عن « التبتية » بأنها لا تقبل توالى الأصوات الساكنة . لا فى أول الكلمة ولا فى آخرها . ويعبر عن الحالات الإعرابية بترتيب الكلمة من الجملة . وهى تكتب بحروف من أصل هندى .

٥ — اليابانية — الكورية :

فى الحق أن الصلة بين اليابانية والكورية لا تعدو أن تكون مجرد ظن أو حدس . فليس لدينا برهان قاطع على هذه الصلة سوى التشابه فى البنيان . فكلا اللغتين من النوع اللصقى . وكلاهما يتجاهل فى التصريف ظواهر الجنس والكم والشخص . ولكن مثل هذا التشابه لا يقطع بأصالة الرابطة بين اللغتين.

أما اليابانية فتاريخها القديم مجهول أو لم تكتمل معرفتنا به . فهى تصطنع فى الكتابة الرموز الصينية التى تعدّ من الكتابة التصويرية . والتى شاعت منذ القرن الرابع الميلادى . واليابانية مع ذلك — بعكس الصينية الحديثة — تعدّ من اللغات التصريفية . ولذلك احتاجت إلى اصطناع بعض الرموز الصوتية .

فابتدعت منذ زمن طويل حروفاً تسمى « كانا » تمثل مقاطع محددة ذات نطق ثابت . وقد تضاف هذه الحروف إلى الرموز التصويرية فى الصحف والمجلات لمساعدة أولئك الذين لا يجيدون القراءة على الفهم السريع ، كأن يكتب بالإنجليزية مثلا five Pounds £ 5 .

ويلاحظ فى الكلمة اليابانية أن حروفها متحركة ، بمعنى أن الحرف تعقبه حركة ، ثم حرف آخر تعقبه حركة أخرى وهكذا . ولذلك توصف المقاطع اليابانية بأنها من النوع المفتوح أى الذى ينتهى بصوت لين أو حركة ، مثل « هراكيرى » ، « نجازاكى » « هيروشيما » . . فى حين أن الصينية تنتهى الكلمة فيها بصوت ساكن. وقد تأثرت اليابانية بالصينية أيضا من حيث الألفاظ فقد اقترضت اليابانية من الصينية — عبر قرون مضت ودون انقطاع — كلمات من أصل صينى للتعبير عن حاجاتها .

وأما الكورية فتاريخها قبل القرن الخامس الميلادى يكاد يكون مجهولا جهلا تاماً . بل لا نزال حتى الآن نفتقد الوصف التحليلى الكامل لهذه اللغة فى صورتها الحالية ، ولكن يبدو مع هذا أنه من المرجح أن الكورية ترتبط باليابانية . وقد اقترضت الكورية كثيراً من الكلمات الصينية .

٣

فى أفريقيا

إن الحديث عن اللغات فى أفريقيا[١] أمر مرهق غاية الإرهاق للدارسين . وقد توفر على دراسة هذه اللغات فى السنين الأخيرة عدد من المتخصصين ليس بينهم لسوء الحظ مصرى أو عربى . ويبلغ عدد اللغات فى أفريقيا

(١) The language families of Africa, by A. Werner.

Linguistic analyses, by A.M. Tucker.

Distribution of the Nilotic & Nilo-Hamitic Languages of Africa, by M.A. Bryan.

نحو ٥٠٠ لغة يتكلم بها نحو ١٠٠ مليون من الزنوج الذين يعيشون جنوبي الصحراء وفي المناطق الاستوائية .

فإذا استثنينا اللغة العربية فى شمال أفريقيا ، تبين لنا أن هناك فى شرق القارة لغتين قوميتين متميزتين : إحداهما تنتمى إلى الفصيلة السامية وهى الأمهرية اللغة الرسمية فى أثيوبيا . والأخرى تنتمى إلى المجموعة الكوشية وهى اللغة الصومالية .

١ ــ اللغة الأمهرية :

لغة قومية حديثة تنسب إلى منطقة « أمهرا » ويرجح أنها تحدرت من أخت للغة « الجعزية » انقرضت أو اندثرت . وقد تأثرت الأمهرية بعناصر كوشية . ومنطقة انتشارها تمتد شمالا إلى منطقة المتكلمين « بالتجرينية » . وجنوباً إلى صحراء الدناكل ، أى معظم بلاد أثيوبيا الحديثة . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى . وقد أصبحت الأمهرية اللغة الرسمية فى أثيوبيا منذ القرن الثالث عشر الميلادى . وعلى أساسها تكونت القومية الحبشية .

٢ ــ اللغة الصومالية :

وتنتمى هذه اللغة إلى فرع من الفصيلة الحامية يدعى المجموعة الكوشية التى تشمل الركن الشرقى لأفريقيا فيما عدا المناطق المنتشرة فيها اللغات الحبشية السامية . وتمتد شمالا بين النيل والبحر الأحمر وجنوبا إلى كينيا . أما فى الغرب فتحدها المنطقة الجبلية فى أثيوبيا . وقد بدأت دراسة هذه اللغات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وليس لها أدب مدون سوى بعض أسفار من الكتاب المقدس نشرتها الإرساليات الدينية . وأشهر لغات هذه المجموعة « البجة » ، و« الجالا » ، والصومالية . غير أن الصومالية وحدها هى التى تستحق أن يطلق عليها لغة قومية حديثة ، فقد تميزت عن أخواتها . واستقرت فى بلاد الصومال وعلى أساسها تكونت القومية الصومالية .

فإذا تجاوزنا هاتين اللغتين باحثين عن لغات قومية فى أفريقيا وجدنا أنفسنا فى محيط خضم من اللغات واللهجات . غير أن الذين عنوا بدراسة هذه اللغات فى حقلها الطبيعى قد اصطلحوا على تقسيمها إلى مجموعات ثلاث تميز كل منها بخصائص لغوية محددة :

١ — المجموعة السودانية :

وهى التى تمتد فى شكل حزام عبر السودان الجنوبى من « جامبيا » إلى « كينيا » وتتضمن خليطاً عجيباً من اللغات المختلفة . وأهم خصائص هذه المجموعة : أن مفرداتها آحادية المقطع ، وأنها تكاد تخلو من التصريف على حسب العدد أو الشخص أو الجنس . وأن الإضافة فيها تكون بوضع المضاف إليه قبل المضاف فمثلا : « محمد كتاب » معناه « كتاب محمد » ، وأن دلالات كثير من كلماتها ووظائفها النحوية تتغير بتغير النغمة .

وأهم لغات هذه المجموعة لغة « الهوسة » التى يتكلم بها فى السودان الأوسط وشمال نيجيريا . وقد اكتسبت هذه اللغة أهمية خاصة بين لغات أفريقيا فى السنوات الأخيرة . وأصبحت بمثابة لغة مشتركة للتجارة فى مناطق متباعدة من غرب القارة . وكنا نأمل أن تتأسس عليها قومية حديثة فى نيجيريا بعد استقلالها ؛ ولكن الصراع الذى نشهده الآن فى نيجيريا بين الشمال والجنوب يدل دلالة واضحة على أن القومية فى جمهورية نيجيريا لم تستقر على وضع معين . فلم يكد يتقلص ظل اللغة الإنجليزية لغة المستعمر حتى أخذت اللغات المحلية الأخرى فى نيجيريا تطل برأسها مطالبة بالانفصال . فالصراع الذى يدور الآن فى نيجريا هو فى الحقيقة صراع لغوى بين « الهوسة » و « والإيبو » . ويبدو أن ما فى نيجيريا من لغات متعددة أشهرها « الهوسة » ، و « كانو » فى بعض جهات الشمال من الجمهورية ، « اليوروبا » فى الغرب ، « نوبى » فى جهات أخرى من الشمال أيضاً ، « إيدو » فى الغرب . وأخيراً « إيبو » التى تسود فى الشرق والغرب ، يبدو كل هذا سبباً معوقاً لقيام قومية موحدة ؛ وكذلك الشأن فى الدول التى استقلت

حديثاً فى غرب أفريقيا ، مع ما فى كل منها من تعدد اللغات . خذ مثلا [غانا] التى يبلغ عدد سكانها نحو ٧ ملايين ، فيها من اللغات المحلية أربع لغات كبيرة هى : « أكان » ، « توى » ، فولتا « السنوفو » ، « إيوى » . وكذلك [داهومى] التى يبلغ عدد سكانها مليونين فيها ثلاث لغات هى : « يوروبا » ،« إيوى » ، « الفولانى » . و [السنغال] التى يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين فيها أربع لغات هى : « الفولانى » ، « الولف » ، « ماندى » ، « السيرير » . و [سيراليون] التى يبلغ تعدادها ٢٫٥ مليون فيها لغتان محليتان هما : « ماندى » ، « تمنى » . و [توجو] التى تعدادها فى حدود مليون ونصف فيها لغتان هما : « إيوى » ، « القون » . و [مالى] التى تعدادها نحو خمسة ملايين فيها : « الفولانى » ، « ماندى مندينجو » ، « ماندى عبارا » ،و « سونتيكة » . و [غينيا] التى تعدادها ٣٫٥ ملايين فيها : « الفولانى » ، « ماندى مندينجو » و « كيللى » . .

٢ ـ مجموعة البانتو :

وتبدو هذه المجموعة أكثر انسجاما أو أقل اضطراباً فيما بينها من المجموعة السودانية . ويتكلم بها نحو ٥٠ مليوناً فى وسط وجنوب أفريقيا على الجانب الآخر مما يسمى بخط « البانتو » الذى يعبر غابات « الكونغو » رأسياً ، من خليج « الكمرون » فى الغرب إلى « ممباسا » فى الشرق .

ومعنى كلمة « بانتو » ba-ntu الناس أو القوم ، وهى جمع « مانتو » mu-ntu بمعنى الرجل ، وقد سماها بهذا الاسم اللغوى المشهور « وليم بليك » فى منتصف القرن التاسع عشر[1] .

ويعتقد أبناء « البانتو » أن أجدادهم قد نزحوا نحو الجنوب من أعالى النيل واحتلوا الوسط والجنوب الشرقى من القارة . ولكنهم فشلوا فى غزو الجنوب الغربى حيث يقيم « الهوتنتوت » و « البوشمان » .

---

(١) W.H.J. Bleek, A Comparative Grammar of South African Bantu languages.

ومن أهم خصائص هذه المجموعة أن التصريف فيها مقصور على العدد والشخص ، دون الجنس ؛ وأن التصريف فيها يكون عن طريق المطابقة بين الأشكال المتعددة للاسم والسوابق Prefixes المتعددة فى هذه اللغات . وأن الإضافة فيها على عكس المجموعة السودانية ، وأن كلماتها ثنائية المقطع فى الغالب ، وأن مقاطعها مفتوحة أى تنتهى بحركة أو صوت لين ، وأن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير من الكلمة . ولعل أوضح صفات هذه المجموعة أن مقاطعها المفتوحة ذات وقع موسيقى جميل ، وأن أصواتها توحى بالدلالات فى شكل رائع . ولا يكاد يتجاوز فى هذه اللغات حرفان ساكنان إلا حين يكون أولهما صوتاً أنفياً والثانى انفجارياً مثل بانتو bantu ، أو أن يكون الأول متبوعاً « بياء » أو « واو» مثل سواحيلى Swahili ، «كينيا » Kenya .

أما ظاهرة المطابقة فتبدو واضحة حين يرتبط اسم بفعل أو وصف أو ضمير ، فى هذه الحالة تضاف سابقة PreFix إلى كل من الاسم والفعل ؛ أو كل من الاسم والصفة . أو كل من الاسم والضمير . وتتحدد الدلالات عن طريق هذه السوابق ؛ فمثلا الاسم «غندا» تصبح «لوغندا» أى اللغة . «باغندا» أى الناس . و « أوغندا » أى المكان الذى يعيش فيه هؤلاء الناس . فى السواحيلى مثلا وهى أشهر لغات هذه المجموعة نلحظ أن المقطع الأول من الاسم الذى فى أول الجملة يلتزم ، فيضاف إلى سائر الكلمات فى الجملة بعده . ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بالمطابقة الاستهلالية فى أوائل كل كلمات الجملة . فمثلا كلمة Umuntu التى معناها « رجل » تبدأ بالمقطع Umu الذى نراه فى مجموعة كبيرة من الكلمات . فكلما استعملت إحدى هذه الكلمات فى أول الجملة التزم هذا المقطع فى أوائل الكلمات الأخرى من هذه الجملة. ويكفى لتوضيح هذه الظاهرة أن نضرب المثل الآتى : الكلمة Wili معناها العدد « اثنين » ، فإذا شئنا تمييز العدد بكلمة مثل Visu التى معناها مُدية قلنا : Visu Viwili أى مديتان أو سكينان . وكذلك الشأن فى miti miwili معناها شجرتان ؛ Watu Wawili معناها شخصان .

وأشهر لغات هذه المجموعة وأوسعها انتشاراً « السواحيلى » التى هى فى الأصل لغة « زنزبار» وما يجاورها من السواحل . وقد استخدمت « السواحيلى » بوصفها لغة مشتركة فى التجارة فى كل أفريقيا الوسطى منذ زمن طويل ، أى أن مثلها مثل « الهوسة » فى المجموعة السودانية . وقبل أن تمدّ السكك الحديدية فى أفريقيا ، وقبل استخدام السيارات كان الاعتماد كله فى استكشاف الأراضى يقوم على وسائل الركوب البدائية التى نظمها السواحيليون . وتحتل اللغة « السواحيلية » الآن مركزاً مرموقاً بوصفها لغة العلم والتعليم فى المدارس « بكينيا » « وتنجانيقا » ومناطق عدة فى الكونغو البلجيكية . وتكتب هذه اللغة بحروف عربية ، وقد نمت ألفاظها وكلماتها نمواً كبيراً بفضل ما اقترضته من ألفاظ عربية كثيرة .

أما الدول التى استقلت حديثاً فى مناطق « البانتو» فلا تكاد القومية فيها تستقر على وضع معين ، وذلك بسبب تعدد اللغات فى كل منها .

فمثلا فى « كينيا » و « تنجانيقا » و « زنزبار» وهى المنطقة التى تسود فيها اللغة السواحيلية نجد بجانب هذه اللغة لغات أخرى هى : « الياو » - « نياموبزى» « سوكوموبا » - « نياسا » - « الشجا » - « كيكويو » - « كامبا » - « الكافيرونلدو » : « هايا » - « زنزا » - « أنجونى » . وكل هذه اللغات برغم أن عدد السكان فى المنطقة لا يكاد يجاوز عشرين مليوناً .

ونجد فى « الكونغو » التى تعدادها فى حدود ١٥ مليوناً نحو سبع لغات محلية هى : « النجالا » ، « مونجو » ، « التيلا » ، « لوليوا » ، « اللوبا » ، « اللواندا » » ، « اللامبا » .

أما « زمبيا » التى لا تكاد تجاوز فى تعدادها أكثر من ٢٫٥ مليون ففيها من اللغات المحلية ما يأتى : « اللوزى » - « اللامبا » - « البمبا » - « اللواندا » ، « ماراڤى » . . .

تلك هى المشكلة الكبرى فى أفريقيا ، وليس يُرجى أن تستقر معها القوميات الأفريقية ، بل ليس يرجى معها أن تجنى الدول التى استقلت حديثاً

ثمار استقلالها . ومن واجب الزعماء والقادة فى هذه القارة أن يُولُوا هذه المشكلة ماتستحق من عناية ، بل من واجب منظمة الوحدة الأفريقية أن تجعل منها الشغل الشاغل ، وألا تضنّ فى سبيل حلها بجهد مادىّ أو أدبى مهما بلغ قدره . ويبدو أن من خير الحلول التى يمكن أن تُقترح لحل هذه المشكلة ، العمل على نشر لغة « الهوسة » فى كل مناطق غرب أفريقيا بحيث تصبح لغة مشتركة بين أهلها ، ونشر « السواحيلى » فى كل مناطق شرقى القارة لتصبح لغة مشتركة لها .

* * *

الفصل السادس

القومية العربية

يعتز كثير من الدارسين المحدثين بتعريف العلم الإيطالى « باسكال مانتشيني » للأمة إذ يقول : [إن الأمة مجتمع إنسانى طبيعى مؤسس على وحدة الأرض والأصل والتقاليد واللغة ، على نحو كامل متفاعل فى الحياة وفى الوعى الاجتماعى] . ويستمدون من كلامه فى ثقة وحماس تعريفاً للقومية يتلخص فى أن القومية فى حقيقة أمرها شعور الناس فى مجتمع ما بكيانهم وتميزهم عن غيرهم ، ولا يتم هذا الشعور إلا إذا توافرت لهم عدة مقومات مشتركة هى : وحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة . فالجماعة التى تمتاز بوحدتها الجغرافية والجنسية وتقاليدها ولغتها ودينها لها الحق فى تقرير مصيرها السياسى ؛ ومن ثمّ جاء المبدأ المشهور الذى عرف فى إثر الحرب العالمية الأولى وسمي بحق تقرير المصير .

ولما اتجه الزعماء والقادة فى هذه الأيام إلى بعث القومية العربية شهدنا كثيراً من كتابنا وعلمائنا يغمرهم الحماس للفكرة ، ويسكرهم صداها القوى فى البلاد العربية ؛ فيحاولون دعمها بحديث مفصل عن كل العناصر التى وردت فى تعريف العالم الإيطالى للأمة ، فكأنما قد أحسوا أنه لا يكفى فى دعم القومية العربية ، أن تُعزى إلى مقوم واحد أساسى كاللغة مثلا ، فأشركوا معها ما سموه الاشتراك فى الوطن الجغرافى وتصدى لهذا علماء الجغرافية ، والاشتراك فى التاريخ وعُنى بهذا أساتذة التاريخ ، والاشتراك فى المصالح الاقتصادية وعالج هذا طائفة من الاقتصاديين ، بل والاشتراك فى الدين كما يؤكد لنا بعض من المفكرين . ونفتقد بين هؤلاء الكتاب المحدثين حديثاً مفصلا عن دور اللغة فى نشأة القومية ، فلا نكاد نظفر فى كلامهم عن دور

اللغة إلا بحديث عابر سريع لا يدل على معاناة حقيقية لهذا الدور ، أو دراسة تخصصية فى اللغة وطبيعتها ووظائفها فى المجتمع .

ونحن نحمد هذا الحماس لتلك الفكرة القومية التى يدعو الجميع إلى بعثها ودعمها ، ولكنا فى الوقت نفسه لا نتصور كيف يمكن أن يقال كما يقول الجغرافيون منهم : (إن الوطن العربى من الناحية الجغرافية يمثل وحدة متكاملة متناسقة العناصر . فهو بمثابة إقليم متميز فى مساحته وموقعه وخصائصه الطبيعية)[١] . يقال مثل هذا برغم أن الوطن العربى يمتد من المحيط إلى الخليج ، وبرغم اختلاف المناخ فيه اختلافاً واضحاً ، إذ يمتد عرضاً فى حدود عشرين درجة عرضية تجعل من بعض أقاليمه ما يشبه الزمهرير ، ومن البعض الآخر ما يشبه الجحيم . وهل من اليسير أن نتجاهل الصحارى والجبال وطبيعة التربة ، وأن نقول مثلا : إن هناك وحدة جغرافية بين بلاد الشام وبلاد المغرب من ناحية والسعودية والسودان من ناحية أخرى ؟ ولم لا نتذكر أن بلاد العرب تقع الآن فى قارتين ، ونتذكر مع هذا أن وسائل المواصلات الحديثة وتطورها العظيم لم تدع للحدود الجغرافية ما كان لها فى قديم الزمان من أثر فى عزل القوميات بعضها عن بعض ؟

أما حديثهم عن الاشتراك فى التاريخ فيكتنفه بعض الغموض . بل فيه بعض الخلط بين الاشتراك فى التاريخ والاشتراك فى التراث الفكرى . فقد مر الوطن العربى بأحداث تاريخية متباينة . وليس من الضرورى فى الحديث عن القومية العربية أن نشير إلى حركات السلاجقة فى العراق وأرض الجزيرة ، وإلى حركات الأيوبيين فى مصر والشام ، والمرابطين والموحدين فى المغرب . والمماليك فى مصر ، بل ولا إلى أثر الحروب الصليبية التى يكاد أمرها يقتصر على بلاد الشام ، والمغول الذين لا نعرف لهم دماراً حقيقياً إلا فى بلاد العراق وما حولها . أما الاشتراك فى التراث الفكرى فهو حقيقة لا مراء فى هذا ، ولكنه كما سنرى يمثل ناحية من دور اللغة فى القومية .

---

(١) دراسات فى المجتمع العربى لطائفة من الأساتذة الجامعيين ص ٢٧ ، نشر دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢ .

وأما الاشتراك فى المصالح الاقتصادية فدعوة حديثة ينادى بها أصحاب مذهب اقتصادى معين ، ولكنها فى رأينا ليست من عوامل نشأة القومية ، وقد تكون من عوامل دعمها . فالشعب يحس بكيانه وتميزه أولا ، وبتلك الجاذبية السحرية التى تربط بين أفراده ، وبجذب بعضهم إلى بعض لتتألف منهم كتلة متميزة ذات شعور موحد وفكر موحد وكيان متميز ، ثم يحملهم هذا كله على التعاون فيما بينهم والتماسهم معاً ما يكفل لهم جميعاً الاستقرار والأمن والرخاء . وحينئذ يلتمسون لأنفسهم نظاماً من الحكم يحقق لهم ذلك ، ونظاماً اقتصادياً يلائمهم ويطمئنون إلى نفعه وجدواه . فالبعث القومى يبدأ أولا ، وله مقومه الأساسى الذى تنشأ القومية وتولد فى أحضانه ، وفى ظلال هذا البعث يلتمس أصحاب القومية الواحدة ما يعتقدون أن فيه خيرهم وصلاحهم وما يحقق لهم منافع دنيوية .

ونلحظ أن معظم الذين كتبوا عن القومية فى العصر الحديث ينظرون الآن إلى ما يسمى بوحدة الجنس على أنه مجرد أسطورة . فليس هناك ما يمكن أن يسمى بالجنس العربى الخالص . فتلك القبائل التى فتحت الأمصار ، وتلك الهجرات القبلية التى تمت بعد ذلك قد امتصت كلها وهضمت فى البيئات الجديدة . فلا نكاد نشهد الآن سمات أو ملامح جسمانية خاصة يتميز بها المواطن العربى . وقد أشرنا آنفاً إلى عدم جدية ما يسمى بوحدة الجنس فى تكوين القوميات الحديثة .

أما الذين ربطوا بين الدين الإسلامى والقومية العربية فعذرهم أن الدعوة الإسلامية قد ارتبطت منذ ظهورها ارتباطاً وثيقاً بلغة العرب ، فالمعجزة الكبرى للإسلام تتمثل فى القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربى مبين ، ودعى المسلمون فى جميع بقاع الأرض إلى التعبد ببعض نصوصه . فهم فى صلاتهم ونسكهم وفى كل شعائر الإسلام يطالبون بقراءة ما يستطيعون من آياته البينات ، فلا تصح صلاتهم ولا يتم تعبدهم إلا بترتيل تلك الآيات . ولكنا مع هذا لا ننصف الدين الإسلامى حين نربطه بالقومية العربية أو نقصر أمره عليها . فهو دين الناس كافة ، ولا تقتصر دعوته على شعب معين ، فهو دعوة روحية

عالمية ولا تقف تعاليمه عند حدود القوميات ، ولكنها مع هذا لا تناقض القومية ولا تدعو إلى تحريمها ، بل سارت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى القومية منذ ظهور الإسلام . ولسنا بحاجة إلى الإفاضة فى الحديث عن العالمية فى الإسلام والمسيحية ، فنحن نشهد الآن قوميات متميزة فى أوربا بين المسيحيين ، كما نشهد بين العرب أصحاب القومية الواحدة ، عدداً كبيراً ممن ظلوا على دينهم المسيحى ويؤمنون مع هذا بقوميتهم العربية إيماناً قوياً . وفى العالم الآن عشرات الملايين من المسلمين الذين لا يحسنون كلاماً عربياً ، ولا يخطر فى بالهم أنهم ينتمون إلى قومية عربية . فى حين أن الوطن العربى الحديث يضم ملايين من المسيحيين ليس بينهم عربى واحد لا يحسن الخطاب باللسان العربى ويسيطر عليه .

فالقومية العربية تتمثل فى شعور المرء نحو قومه ، أما الدعوة الإسلامية فتتجلى فى موقف العبد من ربه ، وفى أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وفى مثل الآية الكريمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . غير أن صلة الإسلام بالقومية العربية أوثق من صلة المسيحية بقوميات أوربا . وذلك للصلة التى بين الإسلام واللغة العربية . أى أن الإسلام يرتبط بالقومية العربية على قدر ارتباطه باللسان العربى لا أكثر ولا أقل . فالإسلام دعوة سماوية روحية عالمية ، فى حين أن القومية العربية دعوة اجتماعية تنحصر فى قوم معينين ، ومع هذا لا تناقض بين الدعوتين ، بل إن الإسلام منذ ظهوره قد عمل على تعميق الشعور بالقومية العربية . فالذكر الحكيم الذى نزل به الروح الأمين ، ووعدنا سبحانه بالحفاظ عليه ، يتألف من نصوص بتلك اللغة التى عليها تأسست القومية العربية .

القومية العربية قبل الإسلام :

يجمع الدارسون الآن على أنه كان للعرب قبل الإسلام لغة مشتركة انتظمت جل أنحاء شبه الجزيرة . واصطنعت فى المجالات الجدية من القول . فقد نظم بها الشعراء وخطب بها الخطباء وكتبت بها الرسائل والوصايا . وأهم

ما تتصف به هذه اللغة المشتركة النموذجية الأدبية أنها سمتْ على اللهجات المحلية القبلية ، فلا تتضمن صفة خاصة لإحدى القبائل . وقد نشأت هذه اللغة المشتركة ونمت وازدهرت قبل الإسلام ، وأصبحت قبيل ظهور الإسلام سجلاً لكل الآداب الجاهلية . أما كيف نشأت هذه اللغة فيُعزى ذلك إلى عدة عوامل منها الروحى ومنها الاقتصادى ، بل ومنها السياسى .فقد تطلع العرب القدماء إلى بيئة مكة وما حولها من مدن الحجاز ، يحجون إلى الكعبة ويؤدون المناسك فيها ويلتمسون الزلفى من أصنامهم التى توسطها صنم قريش المسمى « هبل » . وترتب على مواسم الحج قبل الإسلام أن اجتمعت وفود القبائل وتأثر بعضهم بلغة البعض ونشأ عن تلك الاجتماعات الروحية نواة لغة مشتركة بين العرب مؤسسة فى أغلب عناصرها على لهجة مكة والحجاز . وساعد على تبلور هذه اللغة واستقرارها ذلك العامل الاقتصادى الهام الذى يتمثل فى أسواق العرب قبل الإسلام التى أشهرها « عكاظ » وهى السوق العامة للعرب وكانت تعقد قرب مكة فى شهر « ذى القعدة » ، وسوق « المجنة » وكانت تعقد فى أواخر ذى القعدة بعد موسم عكاظ ، ثم سوق « ذى المجاز » فى أوائل ذى الحجة ، ثم سوق « خيبر » بعد موسم الحج .

ولم يكن أمر هذه الأسواق مقصوراً على تبادل المنافع فى البيع والشراء ، بل كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية للعرب ، أو كما يصفها المستشرقون كانت أشبه بالأعياد الأولمبية لدى اليونان القدماء . ففى هذه الأسواق كانت تنشد القصائد ، ويخطب الخطباء وتقوم المساجلات والمناظرات ، وتستمتع وفود العرب بكل ذلك النتاج الأدبى الرائع . فهى مجال المباراة والمنافسة الأدبية بين العرب ، ولا يُتصور أن تتم مثل هذه المباراة إلا على أساس لغة موحدة يسيطر عليها الخاصة بين وفود القبائل ويتنافسون فى إتقانها نظماً ونثراً ، كما يفهمها عامة العرب وينفعلون بحسن جرسها وجمال موسيقاها . ثم تعود الوفود إلى قراها أو مناجعها ، وتنشر كل ما سمعت أو بعضه فى ربوعها .

وهكذا تمت نشأة اللغة العربية المشتركة قبل الإسلام فوحدت من شعور

العرب بكيانهم وتميزهم عن الأمم الأخرى من فرس ورومان ويونان : بذلك اللسان العربى المبين ، الذى عليه وحده تأسست القومية العربية مع ماظل عليه العرب من بعض مظاهر الفرقة . فقد ظلت كل قبيلة أو مجموعة من القبائل تتخذ فى عبادتها صنما خاصاً ، وتؤثر أن تحافظ على أنسابها ، ولا تخضع إلا لرؤسائها وشيوخها . وربما شنوا الغارات بعضهم على بعض بباعث الفتوة وحب المغامرة ، أو طلباً للثأر ، أو الذود عن حياضهم ، ولكنهم برغم هذا كانوا يشعرون أنهم جميعا عرب ، وأن هناك ما يجذب بعضهم إلى بعض ويجمع شملهم أمام الغزو أو العدوان الأجنبى . وكان ذلك الجامع لهم والموحد لكيانهم يتمثل فى لغتهم العربية التى اعتزوا بها كل الاعتزاز ، والتى أصبح الرجل منهم يقاس مركزه بين قومه بمقدار إتقانه لها وسيطرته عليها . وهكذا نشأت القومية العربية قبل الإسلام على أساس اللغة وحدها .

فلما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم بهذه اللغة الكريمة عظم شأنها واكتسبت فوق ما كان لها بين قومها من حب واعتزاز وإيثار : الخلود الذى وعدنا به سبحانه فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

غير أن الدعوة الإسلامية التى جاءت إلى الناس كافة . والتى تتسم بالعالمية فى تعاليمها وشرائعها وكل أسسها . قد بهرت العرب فى أوائل عهد الإسلام ووجهتهم وجهة أسمى من القومية الخاصة ، ونظرنا فإذا الدعوة تنادى بالإسلامية . وأن المسلمين إخوة فى الدين . وأن مثل المسلم للمسلم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وأن المسلمين بعضهم لبعض كالبنيان المرصوص ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . فأذهل كل ذلك العرب وبهرهم ، وجعلهم يتجهون بكل قلوبهم وعواطفهم نحو هذا الدين الحنيف . ثم كانت الفتوحات التى تمت فى صدر الإسلام لنشر الدين فى ربوع الأرض . وتثبيت أركانه فيما وراء شبه الجزيرة . فشعور العرب كله فى تلك الفترة كان محصوراً فى الدعوة الإسلامية ، وفى أنهم المسلمون الذين دعوا إلى إنقاذ الناس فى البقاع الأخرى من الغواية والضلال . ليهتدوا مثلهم .

وليصبحوا إخواناً لهم فى هذا الدين الجديد . وهكذا انصرف شعراء العرب أو كادوا عن النظم فيما تعودوه قبل الإسلام ، والتفوا حول النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يستمدون منها مثلهم الأدبية والخلقية . فأصبحت السيادة للإسلامية أكثر منها للعربية دون تناقض بينهما ، أو حض على نبذ إحداهما لحساب الأخرى .

فلما استقرت الفتوحات فى العهد الأموى واتصل العرب بأقوام آخرين فى الأمصار ، لهم لسان غير لسانهم ، وشق التفاهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عاد إلى العرب إحساسهم بلغتهم ، وبدأوا يشعرون أنها التى تميزهم عن غيرهم ، وأن كيانهم ووحدتهم تنحصر فى تلك اللغة التى اعتز بها أجدادهم قبل الإسلام ، والتى شرفت بنزول القرآن بها . فقوى اعتزازهم بها ، واشتد استمساكهم بكل خصائصها ، وعاد لهم شعورهم بالقومية العربية ، مع الشعور بتميز لغتهم العربية عن اللغات الأخرى التى صادفوها فى الأمصار . فحولوا الدواوين من الفارسية إلى العربية فى فارس ، ومن الرومية إلى العربية فى الشام ، ومن القبطية إلى العربية فى مصر . لا مغالاة إذن أن يقال إن الدولة الأموية كانت عربية أكثر منها إسلامية . ولكنها لم تتسم كما يصورها بعض المتأخرين من المؤرخين بالعصبية البغيضة وبالتزمت وضيق الأفق . ويبدو أن الدولة الأموية كانت تعمل على نشر اللغة العربية مع نشر الإسلام . وتترك العربية تغزو ألسنة الناس فى الأمصار كما تغزو الإسلامية قلوبهم ونفوسهم .

ونظرنا فإذا الصبغة العربية تسود فى كل أعمال هذه الدولة ونظمها ومظاهرها الاجتماعية . فالخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية ليكونوا بمنجاة من اللحن الذى شاع فى الأمصار . حفاظاً على عروبتهم بالحفاظ على سليقتهم العربية . و يُروى أن الوليد بن عبد الملك كانت ثقافته فى اللغة العربية ضعيفة ، وأنه كان لحاناً ، وأن عبد الملك كان يقول : (أضرّ بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية) . فقد كانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيداً عما انتشر بالأمصار من لحن بسبب اختلاط العرب بغير العرب . ولكن عبد الملك لم يدع الوليد

فى لحنه وخطئه بل قال له فى حزم (إنه لا يلى أمر العرب إلا من يحسن كلامهم). ولهذا دخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء اللغة وأقام مدة يشتغل بها ويحاول السيطرة عليها[1] .

وكان الخلفاء الأمويون يؤثرون مجالس الشعراء على مجالسة الفقهاء ، مما جعل الفقهاء ينفسون على الشعراء حظوتهم ومكانتهم ، ويقفون موقفاً عجيباً من الفن بصفة عامة والشعر بصفة خاصة ، ويرددون فى سبيل الانتقاص من قدر الشعر الآية الكريمة : (والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) .

ولعل من أوضح الأدلة على اتسام الدولة الأموية بالعربية أكثر من اتسامها بالإسلامية ، أن شاعر الدولة الرسمى كان « الأخطل » النصرانى الذى ينتمى إلى قبيلة تغلب العربية ، ويحسن النظم بهذه اللغة ، ولم يؤهله لهذه المنزلة من خلفاء بنى أمية إلا أنه يسيطر على اللغة العربية التى هى قوام القومية العربية ؛ وكان الأخطل أثيراً عند عبد الملك يدخل عليه بغير إذن وفى عنقه سلسلة من ذهب وصليب ولحيته تقطر خمرا ، ويجلس معه مكرماً وهو ثمل . وكان عبد الملك يطلق عليه مرة شاعر أمير المؤمنين ، ومرة شاعر بنى أمية ، ومرة أشعر العرب[2] . وكذلك كان « القطامى » نصرانياً من بنى تغلب وعاصر الأخطل .

ويبدو أن الأخطل نفسه كان يعتز بقوميته العربية أكثر من اعتزازه بمسيحيته . فيروى أن امرأته خرجت مرة إلى السوق فمر بها أسقف على حمار له وأرادت أن تتبارك بلمس رداء الأسقف فلم تستطع أن تلحق به وإنما لحقت بذيل حماره ، وعادت كسيفة البال إلى زوجها الأخطل وشكت إليه فقال لها معزيا : (هو وذيل حماره سواء)[3] .

---

(١) الفخرى ص ١٠٩ .

(٢) الأغانى ٨/٢٨٧ .

(٣) الأغانى ٧/١٧٤ .

لا غرابة إذن أن يكون مما هجا به الأخطل منافسيه وعيّرهم به أن أمهم غير عربية ، فهو الذى يقول :

وما وجدوا أما له عربية   وما أسهرتها من ختان كلومها

ولا غرابة كذلك أن الأخطل لم يجد لدى « الوليد » اللحّانة نفس الحظوة التى كان يجدها عند أبيه عبد الملك . فضعف الوليد فى اللغة أضعف شعوره بالقومية العربية ، ونفّره من الشعراء وأهل البيان .

فالإسلام على عهد الرسول ، وصدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين ، قد اتّسم بالسماحة من حيث اللغة العربية ، وقنع من المسلمين بأدائها على حسب ما تستطيعه ألسنتهم . فالقرآن الكريم وإن نزل يتحدى الخاصة من فصحاء العرب فإن الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم قد دُعوا إلى تلاوة ما قدروا عليه من آياته فى صلاتهم ونسكهم ، وهم قبائل متباينة ، وأصحاب لهجات فى الخطاب مختلفة ، فرقت بينهم بعض الصفات الصوتية التى نشأوا عليها ، وتميزت بها كل قبيلة . فلما تناول بعض العامة تلاوة آيات من القرآن ، ونطقوا بها على غير ما تجرى اللغة النموذجية المشتركة التى نزل بها ، حدثت تلك الحوادث الفردية التى يروى أنها وقعت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . فيروى مثلا أن أبىّ بن كعب دخل المسجد يصلى وسمع رجلا يقرأ آيات من سورة النحل قراءة تخالف قراءته ، وأن عمر بن الخطاب سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما تعلم عمر من الرسول ، وأن عمرو بن العاص سمع رجلا يقرأ آيات من القرآن قراءة أنكرها عمرو ، إلى غير ذلك من حوادث فردية تروى لنا . ويقال إن أصحابها قد احتكموا إلى النبى فأقر كلاً على قراءته ، وقال قوله المشهور : (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) ، فكانت به إحدى رخص الإسلام وسماحته من حيث اللغة . ذلك لأنا حين ننظر إلى هذا الحديث فى ضوء الروح الإسلامى نرى أنه يهدف إلى التيسير على الناس فى قراءة القرآن . فالمسلم أيّاً كانت لهجته ، وأيّاً كانت الصفات الكلامية التى درج عليها يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذى تعودته أعضاء نطقه ، دون أن تُنكر عليه قراءته

أو أن تسخر منها . أو كما عبر ابن قتيبة بقوله : (فكان من تيسير الله أن أمره أن يقرأ كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم . . . فلو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا اشتد ذلك عليه وعظمت المحنة ثم لم يمكنهم إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسآمة وقطع للعادة)[١] .

بل نلحظ تلك السماحة بوضوح فى دفاعه صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، حين قرر أن كل من يتكلم بالعربية فهو عربى . فلم يقل إن من يحسن العربية أو يجيدها هو وحده العربى ، بل كل من يتكلم بالعربية يستحق أن ينتمى إلى العرب ، وأن يصبح واحداً منهم . وبهذا كان يشجع الرسول غير أبناء العرب على تعلم العربية ، ويغض الطرف عن تلك الفروق الصوتية التى بين لهجات العرب ، وعن تلك الانحرافات النطقية التى قد تسمع من الأجنبى عن اللغة العربية ، ويقرر أن مجرد الكلام بالعربية يؤهل صاحبه للانتماء إلى العرب أياً كان أصله وأياً كانت لغة أبويه .

يروى الإمام مالك قال : (جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ «مشيراً إلى سلمان الفارسى» . فقام معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه ، ثم أتى به النبى — عليه السلام — فأخبره بمقالته ، فقام النبى — عليه السلام — قائماً يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودى أن الصلاة جامعة ، وقال : يأيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى اللسان ؛ فمن تكلم بالعربية فهو عربى[٢] .

وهكذا رأى النبى بثاقب بصيرته أن نجاح الدعوة الإسلامية لا يتم إلا بالقضاء على كل مظاهر العصبية الجاهلية ومنها عقدة اللغة . فهو الذى يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول : (كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) ، وغير ذلك من أحاديث تقرر مبدأ من أسمى

---

(١) كتاب القرطين جـ ١ ص ٢٢٢ وكتاب اللهجات العربية ص ٤٦ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ١٩٨ .

مبادئ الإسلام هو الأخوة الإسلامية .

ولا يصح أن تتصور أن ما حدث فى عهد عثمان من جمع المسلمين على مصحف واحد كان انتكاساً لتلك السماحة التى شهدناها على عهد رسول الله ، بل امتداداً لعمل النبى على جمع شمل المسلمين والتهوين ما أمكن من قدر تلك الفروق الصوتية التى منشأها لغات أجدادهم قبل الإسلام ، من فارسية ويونانية وقبطية وغيرها . فهدف عثمان كان أيضاً القضاء على عقدة اللغة بين المسلمين فى الأمصار ، فعمل على جمع المسلمين على مصاحف أمر بكتابتها ووزعها على الأمصار ليحول دون بلبلتهم فى قراءة القرآن ، وليجمع شملهم .

وهكذا نرى أن الإسلام على عهد الرسول والخلفاء الراشدين كان يتربص بأصحاب العصبية اللغوية ، ويدعو إلى السماحة من حيث اللغة ، ويقنع من المسلمين بأداء العربية على حسب ما تستطيع ألسنتهم ، ويرى أن الأولى أن تجمعهم الوحدة الإسلامية ، وأن يكونوا إخواناً فى الدين . ولهذا لا نعرف أن أحداً من الفاتحين فى صدر الإسلام قد دعا الناس فى الأمصار إلى نبذ لغات آبائهم ، بل وُجهت الدعوة كلها إلى الدين والدخول فيه ، ولم يُطلب من المسلم فى الأمصار أن يتعلم من العربية إلا بضع آيات من القرآن تصح بها صلاته ، وتتم بها عبادته .

وإذا كان ماحدث فعلا بعد ذلك من أن كثيراً من الناس فى الأمصار قد هجروا لغات أجدادهم ، فإنما كان ذلك منهم عن طواعية ، وعن رغبة فى تعلم تلك اللغة التى نزل بها القرآن . وهو دستور دينهم الجديد والمعجزة الكبرى له .

أما فى عهد الدولة الأموية فقد تبدلت الحال كما أشرنا آنفاً ، وأصبحت الدولة عربية أكثر منها إسلامية ، وبدأت النظرة للمسلمين من غير العرب على أنهم الموالى . ولم يكن لقب الموالى لدى الأمويين يدل على أنهم أدنى من العرب منزلة . أو أقل شأناً كما يزعم بعض المتأخرين من المؤرخين الذين أخذوا بأقوال من شنعوا على الدولة الأموية بعد زوالها ، من الشيعة

والعباسيين . فلم يكن بدعاً أن يلقب الأمويون غير العرب من المسلمين بالموالى وإنما كان هذا على نهج ما قام به الرسول من تلقيب أهل المدينة بالأنصار بعد الهجرة . وكلمة الموالى ترادف كلمة الأنصار فى دلالتها وأهدافها ، وإن أسيئت النظرة إليها بعد ذلك . فلم يقنع أولئك الذين شنعوا على الدولة الأموية إلا بأن يصموها بمثل ماتنطوى عليه القصة التى يقال فيها إن أحد الموالى خطب فتاة من بنى سليم وتزوجها ، ففزع محمد بن بشير الخارجى إلى والى المدينة وشكا إليه ، ويقال إن الوالى أرسل فى طلب الزوج وفرّق بينه وبين امرأته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . .[1]

والذى لا شك فيه أن الدولة الأموية كانت عربية فى تقاليدها ونظمها ، وأن مقاليد الأمور فيها كانت بيد العرب من خلافة أو ولاية أو قيادة ، وأن الأمويين كانوا يعتزون بقوميتهم العربية ، ولكنهم لم ينظروا إلى الموالى على أنهم دونهم جنساً أو لغة ، بل إخوة فى الدين ، وأنصار فى الإسلام .

لا غرابة إذن أن شهدنا اختلاط العرب بغيرهم فى عهد بنى أمية ، بل امتزاجهم بهم عن طريق المصاهرة فى كثير من الحالات . ولا غرابة أن نشهد فى عهدهم بعض القواد والولاة مثل « عبيد الله بن زياد » الذى لم يكن يحسن النطق بالعربية فيبدل الحاء هاء والقاف كافا . بل شهدنا من أبناء الفارسيات من يتولى الخلافة مثل « يزيد بن الوليد » سنة ١٢٦ هـ . كذلك كان فى العصر الأموى طائفة من أهل العلم الذين ولدوا فى بيئة فارسية ، ومع هذا كانوا محل التجلة والاحترام من جميع الناس ، مثل الحسن البصرى الذى يروى أنه حين توفى خرجت البصرة على بكرة أبيها لتشييع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر فى المسجد الجامع ، هذا برغم أن أباه كان أحد الأسرى من مدينة « ميسان » .

انتشار الإسلام فى فارس :

بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية ، وساد السلام ، أخذ الدين الإسلامى يغزو قلوب الناس فى الأمصار وعقولهم ، وأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير ٥

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٤ .

فقد انتشرت الدعوة الدينية فى ربوع فارس ، واتسم انتشارها هناك بالرغبة لا الرهبة . فقد سارع الناس من أهل فارس إلى هذا الدين الجديد الذى قضى على ما كانوا فيه من بلبلة روحية . ذلك أن بلاد فارس قبل الإسلام كانت تتنازعها ديانات ثلاثة : الدين الرسمى للدولة وهو المسمى بالزرادشتية الذى ظهر هناك خلال القرن السابع قبل الميلاد ، وظل سائداً بين الكثرة الغالبة من الفرس حتى جاء الإسلام . وكان هذا الدين ينادى بأن الإله الحق هو « أهورا مزدا » ، أى أنه فيما يبدو كان يدعو إلى الوحدانية : غير أن أتباعه فيما بعد قد أفسدوا هذه الوحدانية بتفسيرات وتأويلات ترتب عليها أن نشأ بينهم خلاف دينى يشبه إلى حد كبير ما بين المسيحيين من أنصار الطبيعة الواحدة والطبيعة الثنائية . وقد خلف « زرادشت » صاحب هذا الدين أو الداعى إليه كل تعاليمه فى كتاب مقدس يدعى « الأفستا » . وبرغم أن هذه الديانة ظلت خلال قرون ، الديانة الرسمية لبلاد فارس : كان كثير من أهلها لا يطمئنون كل الاطمئنان لمبادئها ، ويتطلعون إلى دين آخر يشبع عاطفتهم ونزعاتهم الروحية . لذلك ظهر بينهم فى العصر المسيحى عقيدتان غير « الزرادشتية » : إحداهما فى القرن الثالث من الميلاد وهى « المانوية » . والمانوية ديانة تأثرت بالفلسفة اليونانية وبالمذاهب المسيحية فى بعض تعاليمها . وكان بين أصحاب « الزرادشتية » و « المانوية » صراع دينى مرير انتهى بقتل « مانى » مؤسس « المانوية » شر قتلة . ولكن « المانوية » مع هذا ظلت شبه سرية فى بلاد فارس ، ووجدت صدراً رحباً فى بعض مناطق بلاد الحيرة . .

وأخيراً كان المذهب « المزدكى » الذى دعا إليه « مزدك » . وقد ادعى « مزدك » أنه يوحى إليه ، ثم جاء الناس بتعاليم جديدة غريبة ، منها أنه أبطل احترام النار ، كما أبطل الملكية الشخصية للمال والعقار ، بل والنساء . . فهو مذهب إباحىّ أقبل عليه كثير من الغوغاء والرعاع ، واعتنقه « قباذ » أحد ملوك الفرس فترة من الزمن . ولكن مصير أصحاب هذا المذهب لم يكن أسعد من مصير أصحاب المانوية فى تلك البلاد .

وهكذا نرى أن العقائد فى بلاد فارس حين جاء الإسلام كانت تسودها بلبلة روحية جعلت الناس يتطلعون إلى ما ينقذهم منها . فلما جاء الإسلام وجدوا فيه طلبتهم المنشودة ، فأقبلوا عليه إقبالا عظيماً . وفى خلال سنوات كان الدين الحنيف يسود فى كل بقاع فارس وأفغانستان . وكان تمسك الفرس بالدين الإسلامى واعتزازهم بتعاليمه أيام الأمويين لا يقل عن العرب الذين جاءوا بهذا الدين الجديد . وظلت بلاد فارس بعد ذلك وفى كل العصور بلاداً إسلامية لا تحيد عن تعاليم الإسلام ، بل ربما أوغلت فيها أحياناً إلى حد التعصب ، مما أدى إلى نشأة عدة فرق إسلامية فيما بعد .

صراع العربية مع الفارسية :

لم يكن هناك صراع دينى بين العرب والفرس فى عهد بنى أمية بل صراع لغوى ، أو صراع بين قوميتين . وظهرت بوادر هذا الصراع حين قام عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين فى الأمصار . فقد قوى الشعور بالقومية العربية فى عهده ، إذ تبين للعرب بعد اتصالهم بالأمصار أن لهم لساناً عربياً مبينا يتميزون به ويحسنون وحدهم أداءه . ونظم الكلام بألفاظه وعباراته . والنطق بأصواته . فاشتد تعلقهم واعتزازهم بهذا اللسان وأصبحوا يرون أنهم لم يسموا عرباً . ولم يكن لهم ذلك الكيان المتميز إلا على أساس لغتهم . ولذلك قرب « عبد الملك » شعراء الدولة وأدباءها من مجلسه . ونصب نفسه حامياً لتلك اللغة الشريفة التى كرمها الله سبحانه بنزول القرآن الكريم بها . واشتهرت فى عهد عبد الملك المجالس الأدبية التى اجتمع فيها الشعراء وأهل الفصاحة والبيان . وأثيرت فيها مسائل من النقد الأدبى ، والغوص عن نواحى الجمال والبلاغة فى النص العربى . وكان عبد الملك يشعر شعوراً قوياً بخصائص لغته ، ويحاول جاهداً الحفاظ عليها ووقايتها من الانحراف والزلل الذى بدأ يجرى على بعض ألسنة الناس فى عهده . ولذلك حين سئل لقد عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين . أجاب : « شيبتنى مواقف الخطابة وتوقع اللحن » .

وأسف عبد الملك أسفاً شديداً لظهور اللحن على لسان ابنه « الوليد » وقال كلمته المشهورة « أضر بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية » . ولكن ابنه الآخر سليمان كان مثل أبيه مشهوراً بالفصاحة وحسن البيان .

ورأى عبد الملك بثاقب رأيه وبالغ حرصه على لغته أن يقوم بعمل خطير فيه قدر كبير من المغامرة ، ولكن فى نجاحه حماية لغة العرب ، ونصراً لسياسته العربية ، فأمر بتعريب الدواوين حتى لا تكون للغة غير العربية منة أو دالة .

أما كيف تم هذا التعريب ، وما هى المشاكل التى يمكن أن تكون قد صادفته فلا تحدثنا كتب التاريخ عن تفاصيل ذلك . بل تكتفى بأن تشير إلى أن الذى عرب ديوان العراق من الفارسية إلى العربية هو صالح بن عبد الرحمن ، وأن الفرس حاولوا عبثاً أن يثنوه عن هذا ؛ فلما أبى قال له رئيس الديوان مروانشاه « قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية » . وكان الحجاج هو الذى أصدر الأمر بتعريب الديوان تحقيقاً لرغبة خليفة عبد الملك وإرادته . وتخير الحجاج لهذه المهمة الخطيرة صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم الذى كان يحسن العربية والفارسية . ولما أراد الفرس أن يتحدوه سألوه : كيف تصنع بدهويه ، وبيستويه ؟ فقال أكتب عشراً ونصف عشر . فقالوا له وماذا تصنع « بويد » ؟ قال أكتب أيضاً . ويروى أن الفرس قد بذلوا مالا كثيراً لصالح بن عبد الرحمن لعله يظهر عجزه عن تعريب الديوان من الفارسية ؛ لكنه أبى وأدى مهمته خير أداء .

ولكن تعريب ديوان خراسان من الفارسية أيضاً لم يتم إلا فى عهد هشام بن عبد الملك أى بعد نحو ربع قرن من تعريب ديوان العراق . فقد ظل هذا الديوان وحده يسجل بالفارسية حتى أمر هذا الخليفة نصر بن سيار والى خراسان من قبل بنى أمية ألا يستعين بأحد من أهل الشرك فى أعماله وكتابته . ورأى نصر بن سيار أن أكثر الكتاب بهذا الديوان من مجوس الفرس فأمر بتعريبه . وقد قصمت هذه الخطوة ظهور أهل فارس وفزعوا منها فزعاً شديداً .

أما تعريب الديوان بمصر والشام فقد تم فى عهد عبد الملك وابنه الوليد ،

ويبدو من كلام المؤرخين العرب أنه لم يصادف فى هذين المصرين متاعب أو مشاكل ، بل تحقق فى هدوء وسلام . ويروى لنا أن رئيس الديوان بالشام « سرجون » كان يدل على الخليفة وأعوانه بمهارته فى تدبير أمر الديوان ويتثاقل كلما طلب منه أمر ، فأشار عبد الملك بتحويل الديوان إلى العربية بدلا من الرومية .

وكذلك كان الشأن فى تعريب ديوان مصر ، فقد أمر بهذا التعريب الوليد بن عبد الملك بناء على مشورة أخيه عبد الله والى مصر ، وأسوة بتعريب ديوان الشام .

ولكى نتبين بجلاء حقيقة الصراع اللغوى بين العربية والفارسية فى المشرق يجدر بنا أن نشير إلى ما تألف منه المجتمع الإسلامى فى أمصار العراق وبلاد فارس بعد أن استقرت الفتوحات . فقد نزح إلى بلاد فارس طبقة من الحكام العرب وكانوا قلة فى عددهم ، كثرة فى نفوذهم وسلطانهم . وكان من الضرورى أن يستعينوا فى قضاء حوائجهم بآلاف من الفرس فى صورة خدم أو عبيد أو طهاة أو تجار . ثم كان مع هؤلاء أولئك الأسرى الذين دخلوا بيوت العرب فى صورة إماء ، ولم يكونوا أقل عدداً ممن سبقوهم . هذا إلى أن الكثيرين من العرب أقبلوا على الزواج بالفارسيات . وولد منهن أبناء وأحفاد . ونتصور لهذا أن المجتمع الإسلامى فى أمصار العراق قد تألف معظمه من الموالى الفرس الذين لا يكادون يحسنون العربية . وكان من الطبيعى أن يتخذ هذا المجتمع الإسلامى وسيلة للتفاهم فيما بينهم . ثم بدا بعد قليل من الزمن أن العرب يعتزون بلغتهم ويستمسكون بها ، وأن الفرس قد عجزوا عن محاكاة هؤلاء العرب أو الوصول إلى مستواهم فى أداء العربية . بل من الفرس من آثروا لغتهم الفارسية واستمسكوا بها أيضاً . وهنا نشأ صراع لغوى بين الجانبين انتظمه روحان متباينان ، فمن جانب العرب سادت فيهم ما يمكن أن يسمى بعقدة التفوق Supeiority Complex ومن جانب الفرس غلب عليهم ما يمكن أن يسمى بعقدة النقص Inferiority Complex . ومع هذا قنع كل من الفريقين فى بادئ

الأمر بأن يصطنعوا فى الأمور العامة لغة عربية فى بعض ظواهرها ، وتعد فى الحقيقة مسخاً للعربية الفصيحة ، وأشبه بما يعرف فى بعض شواطئ الصين بالإنجليزية المهجنة Pidgin English . واتسمت هذه العربية الجديدة بأبسط وسائل التعبير اللغوى ، وتحريف العناصر الصوتية التى اختصت بها لغة العرب ؛ بل شملها أيضاً بعض الانحرافات فى الصيغ وتراكيب الجمل ، والتخلص من ظاهرة الإعراب ، وكثير من الألفاظ والعبارات الفارسية .

ولم تقتصر هذه الحال على الجهات القريبة من بلاد فارس ، بل جاوزتها إلى المدن الإسلامية التى أسسها العرب كالبصرة والكوفة . فيروى أن عبيد الله ابن زياد والى العراق أيام الأمويين كان لا يحسن النطق بالعربية ، وكان يعيره بهذا شاعر يسمى ابن مفرغ ، فلما تمكن عبيد الله من أن يضع يده على هذا الشاعر أمر بجره فى ثياب ممزقة فى طرقات البصرة ، وتجمع عليه الصبيان يسخرون منه ويهزأون ويسألونه بالفارسية : إين چيست ؟ أى ماهذا ؟ فيجيبهم ابن مفرغ بالفارسية أيضاً : آبَ اسْتْ، نبيذَ اسْتْ ، عصارة زبيبَ اسْتْ ، سمية روسپى أسْتْ . . أى هذا ماء ، ونبيذ ، وعصارة زبيب ، وسمية البغى[١] .

وبرغم هذا شهد العهد الأموى بعضاً من الموالى أصحاب الطموح الذين حاولوا جهدهم السيطرة على اللغة العربية الفصيحة ، ولكن بقيت فى ألسنتهم لكنة تنم عن أصلهم ، وتفشى ما استتر من انتمائهم للفرس . ويكفى أن نشير هنا إلى أن الفقيه الكبير « مكحول » المتوفى سنة ١١٧ هـ كانت لهجته العربية تنم عن أصله الفارسى ، إذ كان يبدل الحاء هاء والقاف كافاً ، وكذلك الشأن مع المحدث الثقة الكبير « نافع » أستاذ مالك .

والغريب أن بعض هؤلاء الموالى أيام الأمويين كانوا يحاولون نظم الشعر العربى ، وعُرف منهم شعراء من أمثال زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ وهو مولى المهلب بن أبى صفرة حاكم خراسان . وقد سمى بالأعجم للكنة فى لسانه جعلته ينطق بالعين همزة وبالحاء هاء ، ويرقق حروف الإطباق ، وتلك هى

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٩٢ الأغانى جـ ١٧ ص ٥٦ .

السمات الخاصة باللسان الفارسي . بل يذكر الجاحظ أن زياداً الأعجم كان يجعل السين شينا والطاء تاء فيقول في « السلطان » « الشلتان » .. ولهذا اختار له المهلب بن أبي صفرة غلاماً فصيحاً ينشد له شعره في بعض المحافل والأندية . وتكررت هذه الحال مع شاعر آخر من الموالي هو أبو العطاء السندي الذي اختار له ممدوحه من يلقي له الشعر ، وفي هذا يقول :

أعوزتني الرواة يابن سـليم   وأبى أن يقيم شعري لساني

وغلى بالذي أجمجم صدري   وشكاني لعجمتي شيطاني

فاكفني مايضيق عنه رواتي   بفصيح من صالح الغلمان

يفهم الناس ما أقول من الشعر   فإن البيان قد أعياني

نشأت إذن تلك الروح التي اتسمت بالعصبية القومية بين العرب والفرس على أساس اللغة أو عن طريقها . فالعرب الذين نزحوا إلى الأمصار قد اعتزوا بلغتهم إلى أبعد حدود الاعتزاز ، ورأوا فيها الفصاحة كل الفصاحة . وكان الرجل منهم يقاس مركزه الاجتماعي على قدر إجادته لها وحسن نطقه لأصواتها ، بين شاعر ينشد شعره في الأسواق ، أو خطيب يدعو إلى مذهب اجتماعي أو سياسي . وقد أعادوا في العصر الأموي صورة من أروع ما ألفناه قبل الإسلام في أسواق العرب التي كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية . وأقاموا بالبصرة سوق « المربد » يتنافس فيها الشعراء بإنشاد روائع القصائد ؛ وتدوى في جنباتها أصوات الخطباء المفوهين .

وقد نشأت العربية قبل الإسلام في بيئة أمية فتلقاها أبناؤها عن طريق الآذان وحدها ، وأدى هذا في نهاية الأمر إلى أن أصبحت أسماعهم مرهفة تنفر من الأصوات التي تنبو في السمع ، ومن تنافر الحروف مجتمعة . فتخلصت لغتهم من الكلمات التي لا انسجام في أصواتها . وأصبحت لغة موسيقية الألفاظ والعبارات [١] . ولذلك لم يكن العربي يمل سماع الكلمات من لغته أو ترديدها ؛ وكان يعد كل ما سوى العربية لكنة وعجمة . ومن هنا جاء الاستعمال القرآني في قوله تعالى: « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

---

(١) دلالة الألفاظ ص ١٨٣ .

ويقول القرطبي فى تفسير هذه الآية الكريمة : « أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمى . والعجمة الإخفاء وضد البيان . ورجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح » إلى أن يقول : « والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجمياً »[1] .

فلما اتصلوا بالفرس ، وبدأ الموالى من المسلمين يحاولون تعلم لغة دينهم الجديد أعيتهم أصواتها وتراكيبها ، وأحسوا بعقدة النقص أمام العرب برغم أن الإسلام قد سوّى بينهم ، وجعلهم جميعا إخوة فى الدين . وإزاء عقدة اللغة وبسببها انقسم المجتمع الإسلامى فى حدود فارس إلى فريقين : أولئك الذين يحسنون العربية نطقاً وأداء ، وأولئك الذين يتعثرون فيها ، وسيطر على الفريق الأول عقدة التفوق فى اللغة Superiority Complex ، كما سيطرت على الآخرين عقدة النقص Inferiority Complex . وحينئذ نشأت تلك الحركة الانفصالية التى عرفت بعد ذلك باسم الشعوبية ، فى التاريخ الإسلامى ، والتى ظهرت بوادرها لنصر بن سيار والى خراسان ، وجعلته يكتب للخليفة الأموى مروان الثانى منذراً ومحذراً فى أبيات مشهورة مطلعها :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

وقد بلغت القومية العربية ذروتها ، وامتدت إلى أقصى مناطقها فى عهد عبد الملك، فشملت إسبانيا وشمال أفريقيا ومصر والشام وبلاد العراق مع شبه الجزيرة العربية . وكان انتشار هذه القومية على قدر انتشار اللغة العربية واستقرارها فى تلك المناطق ، وانتشر معها الدين الحنيف يغزو قلوب الناس وعواطفهم ، واللغة تغزو ألسنتهم وحناجرهم . وصادفت العربية فى بلاد الشام عدة لغات قضت عليها جميعاً وحلت محلها . فقد كان معظم العامة يتكلمون « الآرامية » وهى لغة سامية شقيقة للغة العربية ، ويصطنع المثقفون منهم اليونانية والرومانية، فتغلبت العربية على كل ذلك ، وبدأت تستقر فى ربوع الشام ، واستقرت معها القومية العربية . ومما يسّر ذلك على أهل الشام أن ألسنتهم كانت تنطلق

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٧٨ .

فى أغلب الظروف والأحوال بلغة سامية قريبة من العربية هى اللغة الآرامية .

وانتشرت العربية فى مصر أيضاً ، وقضت على القبطية ، بل ربما كان إقبال المصريين على لغة العرب أسرع من إقبالهم على دين العرب . فلا غرابة أن عمت اللغة العربية كل بلاد مصر ، وإن احتفظ بعض أهليها بالمسيحية . ويدهش اللغوى الحديث حين ينقب عن أثر للقبطية فى نطق المصريين فلا يكاد يعثر على أمر ذى بال .

وانتشرت العربية فى بلاد المغرب وفى الأندلس وأصبحت لها السيادة فى كل هذه المناطق ، ولازمها فى انتشارها الشعور بالقومية العربية . ثم توقف اتساع القومية العربية على عهد العباسيين ، ولكن حركة انتشار الإسلام لم تتوقف . فقد واصل الإسلام سيره ، وظل يشق طريقه تحميه تعاليمه وشرائعه حتى وصل فيما بعد إلى الملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا .

وهكذا يمكن أن يقال إن حدود القومية العربية قد حددها انتشار اللغة العربية ، فحيثما استقرت هذه اللغة استقرت معها القومية العربية .

ثم كانت الدولة العباسية ذات الطابع الفارسى فى معظم مظاهرها . وأقل ما توصف به هذه الدولة أنها إسلامية عربية . أو إن شئت قلت : إنها كانت إسلامية أكثر منها عربية . فقد اعتمد العباسيون على الفرس فى تأسيس هذه الدولة . وذكروا لأهل فارس هذه المنة عليهم ، إذ كان لهم الفضل الأكبر فى عودة السلطان لآل العباس ، وانتزاعه من أيدى الأمويين . لذلك مال العباسيون للفرس ، وأخذوا عنهم نظم الحكم وقلدوهم فى الأزياء والطعام ، واحتفلوا بأعيادهم كالنيروز والمهرجان ، فأصبحت بين أعيادهم الرسمية .

أما الشراب فقد أفرط فيه آل العباس أسوة بالفرس ، وبخاصة شراب النبيذ الذى كان من مستلزمات الحياة المرحة اللاهية فى فارس . وربما شجعهم على هذا ما نسب إلى الإمام أبى حنيفة من أنه أفتى بحل النبيذ استناداً إلى أن معنى الخمر التى حرمها الدين مقصور على عصير العنب ، وما يقال من أن

أبا حنيفة كان يقتدى فى هذا بالصحابى ابن مسعود[١] .

ولا يتأتى مثل هذا الانغماس فى الحياة الفارسية دون أن يكون للغة الفرس دور كبير فى حياة الناس أيام العباسيين . لا غرابة إذن أن يحدثنا بعض المؤرخين أن لغة كثير من الناس فى هذه الدولة كانت ثنائية : أى يتكلمون العربية والفارسية ، بل كان الأمراء والوزراء وجلهم من الفرس يؤثرون الكلام بالفارسية حتى فى قصور الخلفاء .ولذلك نشأ جيل من الناس ينطق باللسانين العربى والفارسى ، ويترجم اللغتين إحداهما إلى الأخرى من أمثال « وهب بن منبه » و « طاوس بن كيسان » و « موسى بن سيار الأسوارى » الذى يصفه الجاحظ بقوله : (إنه كان أعجب أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين » .

تلك كانت حال الناس فى بعض مدن العراق على حدود فارس . أما فى المناطق التى نأت من بلاد الفرس كخراسان ونحوها ، فيبدو أن الفارسية قد ظلت اللسان السائد ، واقتصر شأن العربية على المسائل الدينية والعلمية ، وبين الخاصة من المثقفين الذين اشتهر أمرهم فى كتب التاريخ . فى حين أن العامة من الناس فى بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم لم يكونوا يصطنعون إلا الفارسية فى كلامهم ، ولا يكادون يعرفون من العربية إلا بضع آيات من القرآن الكريم يتعبدون بها فى صلاتهم ونسكهم ، ويرددونها فى رطانة أعجمية . وقد بلغ من تأصل الفارسية فى تلك النواحى النائية من فارس أن شق على كثير من المسلمين هناك حتى قراءة فاتحة الكتاب فى ألفاظها وأصواتها العربية ، مما جعل أبا حنيفة فيما يروى لنا يفتى بجواز قراءة الفاتحة فى الصلاة بالفارسية . فيقول السرخسى ما نصه : (ثم عند أبى حنيفة رحمه الله إنما يجوز بالفارسية إذا كان

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٥ .

يتيقن بأنه معنى العربية)(١) .

ووصل الأمر فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث من الهجرة أن بعض وزراء الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون الفارسية فى مجالسهم الخاصة . فالفضل ابن سهل ذو الرياستين ووزير المأمون ، زاره مرة الطبيب ابن « بختيشوع » فى أثناء مرضه بالحمى فوجد فى يده المصحف فسأله بالفارسية (چون بينى نامه إيزد ؟ أى كيف تجد كتاب الله ؟) ، فأجاب الفضل بالفارسية أيضاً (خوش وچون كليلة ودمنة : أى حسن مثل كليلة ودمنة) . .

ولعل أكبر خطوة اتخذها المأمون فى نصرة الفرس أن كافأ قائده طاهر بن الحسين بولاية خراسان ، وجعلها لأولاده من بعده يتوارثونها ، فمكّن بهذا للفرس من هذه المنطقة ، إذ تعد الدولة الطاهرية أولى الدول الفارسية التى قامت فى الإسلام . وقد حل محلهم فى خراسان « الصفاريون » سنة ٢٥٩ هـ وهم فرس دما ولحماً ولغة . ولذلك لاندهش حين يروى لنا أن أحد الشعراء قد نظم قصيدة بالفارسية ليستقبل بها المأمون عند قدومه إلى « مرو » ، وإن كان بعض الدارسين يتشكك فى صحة هذه الرواية(٢) .

الشعوبية صراع لغوى :

الشعوبية مصطلح بغيض يتردد كثيراً فى كتب التاريخ الإسلامى ، ولا يزال يجرى على بعض الألسنة والأقلام كلما أريد وصف حركة انفصالية فى منطقة من المناطق . وما يسمى بالشعوبية أو الانفصالية فى نظر بعض الناس ليس فى الحقيقة إلا القومية فى نظر الفريق الآخر . وهكذا نرى أن الحركة السياسية الواحدة قد يسخط عليها قوم فيطلقون عليها الشعوبية : ويرضى عنها آخرون فيسمونها بالقومية . فالحركة التاريخية التى ظهرت بوادرها فى أواخر عهد

---

(١) المبسوط للسرخسى جـ ١ ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب فى إيران ص ٢٢ تأليف المستشرق « براون » وترجمة الدكتور إبراهيم الشوارى .

بنى أمية كانت من وجهة نظر العرب حركة شعوبية ، ومن وجهة نظر الفرس حركة قومية .

ويحدثنا بعض المؤرخين عن تلك الحركة الشعوبية التى قامت بين العرب والفرس والتى اقتصرت فى الحقيقة على المشرق ، فيزعمون أنها كانت بين العرب وكل الأعاجم . بل يحاول بعض الدارسين أن يلتمسوا جذور هذه الحركة فى تلك الحوادث الفردية التى وقعت فى صدر الإسلام كقتل عمر بن الخطاب على يدى أبى لؤلؤة المجوسى . وربما غالى بعضهم فتلمس تلك الجذور فى الصلة بين العرب والفرس قبل الإسلام .

وفى الحق أن هذه النزعة الشعوبية لم تتخذ طابعاً واضحاً إلا فى أواخر عهد بنى أمية . وإذا كان الأصفهانى[1] يصف « إسماعيل بن يسار » بأنه شعوبى فذلك من عند الأصفهانى حين عرف عنه أنه كان يرفع من شأن الفرس أمام هشام بن عبد الملك فى قصيدة جاء فيها :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرم بتاج الملك معموم

فمصطلح الشعوبية قد ذاع فى العصر العباسى . أو بعبارة أدق فى أوائل القرن الثالث من الهجرة . ولسنا نعرف كتاباً خصص لتاريخ الشعوبية ، أو اقتصر مؤلفه على بحثها وسرد حوادثها وتفسير حوافزها . وكل ما نجده لدى القدماء بصدد هذه الحركة لا يعدو أن يكون إشارات وروايات متناثرة فى كتب الجاحظ ولا سيما البيان والتبيين ، وفى العقد الفريد ، وفى بعض ما نقله ابن قتيبة فى كتابه المسمى بالعرب .

وهذه الحركة الشعوبية التى ظهرت بوادرها فى أواخر عهد بنى أمية ظل صداها حتى بعد أن أسست الدولة الفارسية فى القرن الرابع الهجرى . فيحدثنا رواة الأدب أن شاعراً من أصل فارسى نال من العرب فى حضرة الصاحب

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٤٠٨ .

ابن عباد وزير آل بويه فى قصيدة مطلعها :

غنينا بالطبول عن الطلـــول وعن عنْس عُذافرة ذمول

فقال الصاحب لبديع الزمان الهمذانى وكان بالحضرة « أجب عن ثلاثتك أدبك ونسبك ومذهبك » . فأنشد الهمذانى قصيدة يرد فيها على مزاعم الفارسى ويقول :

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت قولك من فضول

تريد على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار إلى دليل

ومنها يقول :

متى عرفت وأنت بها زعيم أكف الفرس أعراف الخيول

ومعظم ما يروى لنا من مظاهر الشعوبية فى كتب اللغة والأدب لايعدو مجموعة من الأشعار تتضمن ذكر مثالب العرب ، وأخرى يرد بها أصحابها منوهين بمحاسن العرب وطاعنين على الفرس والحياة الفارسية . ولكن من الغريب أن الخلفاء فى أواخر عهد بنى أمية وفى العصر العباسى الأول لم يكونوا يغضبون لمثل هذه الأشعار . بالتنكيل بأصحابها وإيذائهم فى أرواحهم وأموالهم . فيروى لنا مثلا أن إسماعيل بن يسار وهو من أصل فارسى مدح قومه فى أبيات من الشعر بين يدى هشام بن عبد الملك . ومع هذا لم يصبه بأذى بل اكتفى بتأنيبه .

بل حتى الشعراء العباسيون الذين تندروا بحياة العرب وبداوتهم . وأشادوا بحياة الفرس وحضارتهم من أمثال « بشار بن برد » « وأبى نواس » و « دعبل الخزاعى » وغيرهم . لم تكن النظرة إليهم إلا على أنهم قوم من أصحاب المجون الذين أسرفوا فى التشبيب بالنساء ومعاقرة الخمر ، والنيل من أعراض الناس بالهجاء ، بل لم يسلم بعض الخلفاء من ألسنتهم . ومع ذلك لم يُقتل بشار لأنه كان ذا نزعة شعوبية ، ولم يُحبس أبو نواس إلا بسبب مجونه وخلاعته .

وتصف كتب الأدب أمثال هؤلاء الشعراء بأنهم شعوبيون ، وتسوى بينهم

فى هذه النزعة بين شاعر « كالخريمى » الذى كل عيبه لدى بعض دارسى الأدب أنه امتدح أجداده من الفرس فى قصيدة اختتمها بقوله :

فلما أتى الإسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنام تنيب
تبعنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصوب

وكل هذه الأشعار وإن صورت لنا فى صورة نقائض شعوبية ، لا تعدو فى رأيى أن تكون أشبه بالمهاترات الصحفية فى عصرنا الحديث ، أو المنافسة المهنية بين شعراء من أصل عربى ، وآخرين من أصل فارسى . بدليل أنه لا خلفاء بنى أمية ولا خلفاء بنى العباس كانوا يضيقون حقاً بمثل هذه الأشعار أو يفكرون فى إيذاء أصحابها ، بل تركوا لهؤلاء وهؤلاء حرية القول ، فكأنما قد تذكروا الآية الكريمة : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) .

ولا نكاد نرى صدى لتلك النزعة الشعوبية بين الكتاب الناثرين ، أو بين أهل العلم من الموالى على كثرتهم ، أولئك الذين ألفوا فى اللغة والدين وأسهموا فى الحياة الثقافية الإسلامية بنصيب كبير .

وإذا كان هناك أدب شعوبى حقيقى وجب أن يلتمس فى شعر عربى أو فارسى نظم فى المناطق النائية من فارس كخراسان وطبرستان ؛ غير أنا لا نعرف شيئاً عن مثل هذا الأدب ، ولعله اندثر فلم يرو لنا .

فنزعة الشعوبية وإن انتهت بنتائج خطيرة أوضحها إعادة تأسيس الدولة الفارسية فيما وراء النهرين ، والسيطرة على النفوذ والسلطان فى مهد الخلافة ، لم يكن لها من المظاهر العلنية ما يسوغ مثل تلك النتائج ؛ بل كانت أشبه بحركات سياسية سرية اتخذت فيما بعد الطابع العسكرى .

فإذا شئنا البرهنة على أن هذه النزعة لم تكن إلا صراعاً بين العربية والفارسية وجب الاستئناس بكتاب الجاحظ البيان والتبيين ؛ وبالكتب الأخرى التى أشارت إلى الشعوبية ككتاب « العرب » لابن قتيبة ؛ وكتاب العقد الفريد

لابن عبد ربه . ويعدّ كتاب الجاحظ أسبق هذه الكتب وأوفرها ذكراً للشعوبية وسرد حوادثها . ذلك لأن الجاحظ عاش كل حياته يشهد مآسي الشعوبية ، بل لقد شهد مولد الدولة الفارسية ، على يدى الطاهريين فى خراسان ، واستطاع من أجل ذلك أن يتنبأ بالمصير الذى انتهت إليه تلك النزعة الانفصالية بين قوم اتخذوا دينا ، وأصبحوا بعد الإسلام إخواناً فى الدين . ولكن اتصال اللغتين العربية والفارسية قد ولد الاحتكاك بين الفريقين ، فقد وجد الموالى من الفرس ، كما أشرنا آنفاً ، أنفسهم عاجزين عن السيطرة على الأداء العربى والنطق العربى ، فأصابتهم عقدة النقص ، كما تبين للعرب تفوقهم فى هذا فأصابتهم عقدة التفوق . فانعزل هؤلاء عن هؤلاء ولم يشفع لهم إزاء تلك العقدة اللغوية ما كانوا عليه من وحدة دينية إسلامية . واتجه كل فريق إلى الطعن فى لغة الفريق الآخر ورميها بسهام مسمومة ، أو على الأقل النيل من مزاياها وخصائصها .

ويروى لنا الجاحظ وهو من نصب نفسه مدافعاً عن لغة العرب ضد هجمات الشعوبيين طرفاً من تلك المشاحنات التى قامت بين هؤلاء وهؤلاء . ونلحظ مما روى أن الفريقين قد وجهوا كل عنايتهم إلى النواحى الوثيقة الصلة باللغة . فى حديث الجاحظ عن البلاغة والبيان يشيد بفصاحة العرب وينفى العىّ والحصر عنهم ، ويثبت اللكنة والرطانة للأعاجم مستدلاً على ذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين. وكذلك يصف الجاحظ العرب بقوله : (إن العرب أنطق ، ولغتها أوسع ، ولفظها أدل ، وأمثالها أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليهم، والارتجال خاص بهم) . ثم يوازن بين الشعر العربى وما يسميه الفرس شعراً فى لغتهم فيقول : (إن العرب تقطع الألحان الموزونة : على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن موزوناً على غير موزون) .

ومما وصف به الجاحظ كلام العرب قوله : (ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذّ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ،

ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء)[1] .

ألا يصوّر لنا كلام الجاحظ هنا شعور قوم سيطرت عليهم عقدة التفوق اللغوى ؟

وكان لأصحاب النزعة الشعوبية ردود على ما يفخر به العرب ، فإذا فخر العرب بالخطابة وجودة النطق ، أجاب أصحاب الشعوبية (ليست الخطابة ميزة امتزتم بها وحدكم ، فهى شىء فى جميع الأمم ، حتى إن الزنج مع غباوتها وفساد مزاجها لتطيل الخطب ، وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولهم فوق خطبهم التآليف فى صناعة البلاغة ومعرفة الغريب مثل كتاب كازوند). ثم يصفون النطق العربى بقولهم :(وأين كلامكم الجافى ، وأصواتكم الغليظة من طول اعتيادكم مخاطبة الإبل ، مما للفرس من معنى دقيق ولفظ رشيق وصوت رقيق) .

ويؤكد لنا حقيقة أن الشعوبية صراع بين اللغتين العربية والفارسية المرحوم أحمد أمين بقوله فى ضحى الإسلام[2] : (إن من أهم أهداف الشعوبيين النيل من آداب العرب . وذلك بالعمل على إفساد الأدب العربى وإضاعة معالمه بنسبة الشىء إلى غير قائله . كالذى قام به أبوعبيدة الذى كان أوسع علماً وأكثر ثقافة ، فقد عرف تاريخ الفرس لفارسيته ، والثقافة اليهودية ليهودية آبائه . ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعى . فالأصمعى يمثل العربية ويتعصب لها ، وأبوعبيدة يمثل فكرة الشعوبية ، والبحث عن معايب العرب والتشهير بهم) .

ومن أدلة الصراع بين اللغتين ما يقال من أن الشعوبية قد دفعت بحماد الراوية وخلف الأحمر لينتحلا أشعاراً على العرب القدماء رغبة فى إفساد آدابهم والانتقاص من لغتهم .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٦ .
(٢) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٤٩ .

وبلغ الشأن بهؤلاء وهؤلاء فى نهاية الأمر أن تورط كل من الفريقين فى وضع بعض الأحاديث التى اختلقوها ونسبوها إلى النبى . فقد زعم الفرس أن النبى يقول : (إن الله تعالى إذا غضب أنزل الوحى بالعربية . وإذا رضى أنزل الوحى بالفارسية) . . فيرد عليهم العرب قائلين إن النبى صلى الله عليه وسلم يقول (أحبوا العرب لثلاث ، لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى) . .

فنزعة الشعوبية ليست فى حقيقة أمرها سوى صراع بين اللغتين العربية والفارسية . وقد عنى الجاحظ بوصف نطق الأعاجم للأصوات العربية ، وكان مما قرره فى هذا الشأن أن الأعجمى لا يقدر على إتقان النطق بهذه الأصوات العربية (ولو أقام فى عليا تميم ، وفى سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاماً) .

وانتهى أمر تلك النزعة الشعوبية بأن استقلت فارس ، وأسست فيها أولا الدولة الصفوية ، ثم الساسانية على النحو المعروف فى كتب التاريخ .

وحينئذ فقط شاعت تلك التسمية التى خلعها العرب على لغتهم وهى « لغة الضاد » .

فقد تبين لنا فى بحث ألقيته بمؤتمر مجمع اللغة العربية (فبراير سنة ١٩٦٧) أن تسمية العربية بلغة الضاد قد شاعت فى القرن الرابع الهجرى للتمييز بين العرب وغيرهم من الفرس والأتراك . وأن نشأة هذه التسمية قد بدأت فى بغداد ومنها انتقلت إلى بعض البلاد العربية الأخرى، وأصبحت الآن قضية مسلمة دون تفكير فى أصل نشأتها . ودون اهتداء إلى المسئول الأول عنها .

ومما جاء فى هذا البحث لمحاولة الوقوف على أصل هذه التسمية « لغة الضاد » ما نصه : (ولكن سيبويه لم يشر مطلقاً إلى أن الضاد وحدها مما تميزت به اللغة العربية . أو أن هذه اللغة تسمى بلغة الضاد . وقد يدهش بعضنا لصمت سيبويه عن هذه التسمية « لغة الضاد » إذا تذكر ذلك الحديث المروى فى كتب النحاة والأصوليين من المتأخرين ، وهو « أنا أفصح من نطق بالضاد » . ولو قد

صح هذا الحديث لاقتضى ذلك أن نتصور أن النطق بالضاد القديمة صفة تميز بها النطق العربى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، بل وقبل ذلك ، وأن تلك الصفة كانت قد شاعت وذاعت ، وأنه قد أصبح من المألوف المعهود حينئذ تمييز العربى بوساطة النطق بهذا الصوت ، مما يسوغ أن يطلق على اللغة العربية « لغة الضاد » . ولكن هذا الحديث كما يقرر معظم الثقات من القدماء لم يثبت ولم يصح وليس له سند . فيروى القاضى عياض فى كتابه الشفاء هذا الحديث فى صورة « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش . . . . إلخ » ويعلق على هذه الرواية شرّاح الشفاء فيقول شهاب الدين الخفاجى فى كتابه نسيم الرياض : وأما ما اشتهر من « أنا أفصح من نطق بالضاد » فقالوا إنه لم يثبت ، وإن ذكر فى كتب النحو والأصول . ويقول « على القارئ » فى شرح الشفاء أيضاً : « وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد» فنقله الحلبى عن ابن هشام ، لكن لا أصل له كما صرح به جماعة من الحفاظ .

إلى أن قلتُ فى البحث (وهكذا نرى أن علماء اللغة حتى أواخر القرن الثانى من الهجرة لم يشيروا إلى صوت الضاد على أنه مما تميزت به العربية وحدها ، ولم يطلقوا على هذه اللغة ذلك القول المأثور « لغة الضاد » . وكل ما أشاروا إليه فى كتبهم أن كان هناك أنواع من النطق غير مستحسنة وقعت فى بعض الأصوات ومن بينها الضاد . ثم جاء الجاحظ وتوقعنا أن نرى فى كتبه ما يوضح هذا الغموض ، فهو الذى عنى عناية كبيرة بلغة العرب ونطق العرب وموقف الأعاجم من أصوات العرب . فقد تحدث عن كثير من عيوب النطق بين المتكلمين ، كما تحدث عن نطق النبطى والخراسانى والأهوازى والزنجى والسندى والحبشى . وكان مما قرره أن السندى يجعل الجيم العربية زاياً ، ولا يقدر على غير هذا ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً . كذلك تحدث الجاحظ عن أولئك الذين كانوا ينطقون بالحاء هاء ، وبالعين همزة ، وبالقاف كافاً ، وغير ذلك مما جاء فى البيان والتبيين .

ومع هذا أو برغم هذا لا نكاد نعثر فى كلام الجاحظ على إشارة لصوت

الضاد وموقف العرب أو الأعاجم منها إلا قوله : « قال الأصمعي ليس للروم ضاد » . أي أن نطق العرب للضاد في صدر الإسلام والعصر الأموي لم يكن يسترعي انتباه أحد من العلماء ، ولم يشر إليه على أنه مما تميزت به العربية حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة . فلم يقل أحد منهم حتى ذلك الحين إن بعض المتكلمين بالعربية قد تعثر في النطق بهذا الصوت وحده ، وإن العربية سميت لغة الضاد من أجل ذلك .

أما إشارة الجاحظ إلى أن الأصمعي كان يقول « ليس للروم ضاد » ، فهي إشارة مقتضبة وملاحظة لغيره وليس مسئولا عنها ، فليست من ملاحظاته المباشرة التي مارسها بنفسه . وأفاض في شرحها كلما وجد انحرافاً في النطق بالأصوات العربية .

ثم بدأ بعد الجاحظ في سرعة عجيبة اضطراب الألسنة في النطق بالضاد العربية ، وظهر الخلط بينها وبين الظاء في المشرق بصفة خاصة بعد أن تغلغل الفرس والأتراك في البيئة العربية . وكلنا نعرف موقف الفرس والأتراك من الضاد إذ نسمعها منهم ظاء كالتي في نطق العامة لكلمة « مضبوط» فيقولون « مظبوط » وفي « ضابط » يقولون « ظابط » . ويقول الفرس والأتراك في « حضرتنا » « حظرتنا » .

ولما استفحل الأمر في القرن الرابع الهجري شهدنا من علماء العربية من يؤلفون كتيبات ينصون فيها على الكلمات التي تكتب بالضاد والتي تكتب بالظاء ، مثل ذلك الكتيب الذي ألفه الصاحب بن عباد وسماه « الفرق بين الضاد والظاء » .

وهنا أي في المشرق . وحينئذ أي في القرن الرابع الهجري ، بدأنا ولأول مرة نسمع عن اختصاص العربية وحدها بالضاد ، وعن تسميتها بلغة الضاد فيقول المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

كم قتيلٍ كما قُتلتُ شهيدِ   لبياض الطُّلَى وورد الخدودِ

لا بقومى شرفتُ بل شرفوا بى   وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهمُ فخر كلّ من نطق الضا   دَ وعوذُ الجانى وغوث الطريد

* * *

ويقول ابن جنى فى « سر الصناعة » حين يتحدث عن الضاد « واعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا القليل » . ثم استمر علماء اللغة بعد هذا القرن فى جهادهم للتمييز بين الضاد والظاء ، رغبة فى التمييز بين العربى والفارسى أو الأعجمى الذى تمثل لهم فى الفرس والأتراك حينئذ .

وهكذا نلحظ أن التمييز بين القوميتين العربية والفارسية كان أساسه لغويا ، وجاءنا بتلك التسمية المشهورة « لغة الضاد » .

أما فى الشام ومصر وبلاد المغرب فكانت اللغة العربية أوفر حظاً ، وأكثر استقراراً ، واستقرت معها القومية العربية دون منازع ، إذ لم نسمع عن حركة شعوبية هناك كتلك التى كانت بالمشرق .

وأما ما يقال لنا من أن « ابن غرسية » فى الأندلس ألف كتاباً فى شعوبية الأندلس ، وأن بعض العلماء ردوا عليه ، فكل ذلك يحتاج إلى تحقيق . فتشير كتب الأدب والتاريخ إلى رسالة قصيرة كتبها من يدعى « ابن غرسية » الذى عاش فى الأندلس بمدينة « دانية » فى أوائل عهد دولة المرابطين ، وتعدّ هذه الرسالة فى رأى أصحاب هذه الكتب حلقة من حلقات الشعوبية فى تلك البلاد . وقد وجه « ابن غرسية » هذا رسالته إلى صديق له ، وفيها ينتقص من قدر العرب ، ويشيد بفضل الأعاجم . ويروى ابن بسام فى الذخيرة نصاً لهذه الرسالة ، كما عثر على نص آخر لها فى مكتبة « الاسكوريال » وحقق هذا النص أحد الدارسين ونشره المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٣ .

ولما أتيحت لنا فرصة الاطلاع على هذه الرسالة تبين لنا أن أسلوبها مليء بالسجع المتكلف ، والعبارات المشوهة الغامضة ، مما جعل مفسريها من أمثال الناشر المشار إليه آنفاً ، وكذلك المستشرق « جلد تسهر » يضطربون بعض

الاضطراب فى تحديدمدلولاتها. ولا غرابة فى هذا فابن غرسية نفسه كما يُروى لنا ينتمى إلى البوشكنس من الصقالبة الذين كان لهم نفوذ كبير فى أواخر عهد الخلافة بالأندلس .

والذى يسترعى الانتباه فيما جاء بهذه الرسالة أنها لا تكاد تحدد المقصود من الأعاجم الذين فضلهم صاحبها على العرب . فمعانى العبارات فيها عامة ، والإشارات فيها غير محددة ، بل لانكاد نظفر فيها بما يشير إلى أعاجم الأندلس ؛ بل قد نصادف فى هذه الرسالة إشارات تنطبق على الفرس أكثر من انطباقها على أى شعب آخر ، مثل قوله يصف الأعاجم (الأساورة الأكاسرة) ؛ وقوله (الخرصان) التى فسرها لنا محقق الرسالة على أنها « الخرسان » أى أهالى خراسان . . وكذلك قول صاحب الرسالة : (واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان) ؛ وقوله : (أما علمتم أن الدولة النوشروانية . والمملكة الأردشيرية بقروا أجوافكم وخلعوا أكتافكم ثم عطفوا ورأفوا وملكوكم الحيرة) . . وكل هذه إشارات تتجه إلى الفرس أكثر من اتجاهها إلى أى شعب آخر .

هذا إلى أن قوله : (فأصبح بعد جرّ الذيول مدوساً بأخفاف الفيول) يدل دلالة واضحة على أن الأعاجم المشار إليهم ممن كانوا يتخذون الأفيال فى حروبهم . وهؤلاء هم الفرس لا نزاع فى هذا . فلسنا نعرف أن بلاد الأندلس كانت مسرحاً للأفيال .

وأخيراً قول صاحب الرسالة (والعمومة الإسماعيلية) وهؤلاء هم شيعة فارس . فلم يكن بالأندلس فيما أعلم مذهب شيعى . بل كان أهلها حرباً على الشيعة والمتشيعين .

أما قول صاحب الرسالة : (وقد رسخت فى المجد أصولنا وفروعنا) فيوحى بأن المراد هم الفرس الذين كانوا يفخرون دائماً بأحسابهم وحضارتهم .

لم يبق إلا أن نقرر أن قول صاحب الرسالة فى آخرها : (معز الدولة ذى الرياسة الساسانية) يجعلنا نتصور أن الرسالة تشير إلى حكام الدويلات الفارسية فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس من الهجرة . فهم الذين لقبوا أنفسهم بشمس الدولة وعز الدولة ونحو ذلك من الألقاب .

ويخيل إلىّ بعد الذى تقدم أن صاحب هذه الرسالة شخص حانق على

العرب موتور منهم ، فأراد — إن صحت رواية هذه الرسالة — أن ينفس عن حقده الشخصى . وكان فيما يبدو قد سمع بما يقوله أهل الشعوبية فى المشرق فقلدهم فى أقوالهم ، وردد بعض ما شاع بينهم . فلما وصلت إليه أنباء الحركة الشعوبية فى المشرق وصادفت هوى فى نفسه وهو الموتور شخصياً من بعض العرب كتب هذه الرسالة التى لا تمثل فى رأيى حركة شعوبية ، ولا ما يشبه الشعوبية . ولولا أن بعض كتب التاريخ أشارت إلى هذه الرسالة ، ولولا أن بعض أدباء العرب حاولوا الرد عليها ، لما كان للشعوبية أى ذكر فى حياة أهل الأندلس . فالشعوبية بالمعنى الذى عرفت به فى المشرق لم تصل إلى الأندلس [1] ولم يكن هناك مسوغ لوجودها فى تلك المنطقة ، لا سيما وأن كل المؤرخين يؤكدون لنا أن هذه الرسالة هى الأثر الوحيد الذى يشار فيه إلى شعوبية الأندلس. والشأن فى الأندلس أن العداء كان سافراً بين فريقين اختلفا فى كل شىء ديناً ولغة وعادات ، بل وأزياء ، فانتهى أمر العرب فى الأندلس إلى ما نعرف . فى حين أن الشعوبية فى المشرق كانت بين قوم اتحدوا ديناً ، واتفقوا فى كل المظاهر الاجتماعية ، ولكنهم اختلفوا لغة ، ولم تستطع إحدى اللغتين أن تقهر الأخرى أو تقضى عليها . فكان ذلك الصراع اللغوى الذى يلقب بالشعوبية فى التاريخ الإسلامى.

ذلك هو الدور الخطير الذى تقوم به عقدة اللغة فى معظم التيارات الانفصالية . فهى قوة كامنة ولكنها متربصة ومتحفزة تسيطر على قلوب الناس وعواطفهم ، ولها أثرها الفعال فى كل منطقة أشبهت ظروفها تلك الظروف التى شهدها التاريخ الإسلامى فى أوائل عهد العباسيين . فالصراع اللغوى الذى نراه الآن فى بلجيكا يعد من وجهة نظر المتكلمين بالفرنسية حركة شعوبية ولكنه من وجهة نظر المتكلمين باللغة الفلمنكية يعد حركة قومية . والصراع اللغوى الذى تحدثنا عنه الصحف الآن فى جزيرة سيلان يعد حركة شعوبية من جانب المتكلمين باللغة السنهالية ، ولكنه لدى المتكلمين بلغة « التامل » يعد حركة قومية . وكذلك الشأن فى منطقة « مدراس » بالهند شعوبية فى رأى أبناء اللغة الهندستانية ، وقومية فى رأى المتحدثين بلغة « التامل » .

---

(١) راجع الصقالبة فى إسبانيا . بقلم أحمد مختار عبد الفتاح العبادى .

أطوار تاريخية للعروبة :

دعنا من قبيل الإيجاز نخلع على القومية العربية كلمة واحدة هى العروبة ، لا نريد بها جنساً خاصًّا ولا نسباً معينا ، وإنما نقصرها على تلك الروح التى دعت العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام إلى أن ينجذب بعضهم إلى بعض ، ويلتف بعضهم حول بعض ، فى كيان متميز وشعور موحد ، رغبة فى التعاون لتحقيق الاستقرار والأمن والرخاء فيما بينهم ، وتلك هى القومية العربية التى تتمثل فى اللغة العربية وحدها .

وقد أشرنا آنفاً إلى اللغة العربية المشتركة وكيف نشأت ونمت وازدهرت قبل الإسلام ، وانتظمت كل أنحاء شبه الجزيرة ، واصطنعت فى الأشعار والخطب ثم كرمها الله سبحانه وتعالى فأنزل القرآن الكريم بها .

والتف العرب قبل الإسلام حول هذه اللغة يتنافسون فى إجادتها ، ويستمتعون بجرسها وموسيقاها ، مع ما عبرت عنه من روائع الصور والأخيلة ونفائس الحكم والأفكار ، فكان لهم بها وحدها لقب العروبة .

فلما كان العصر الأموى والتقى العرب بأقوام آخرين ، وأحسوا أن هؤلاء لغة تباين لغتهم اشتد اعتزازهم بالعربية واستمساكهم بها ، ووجدوا فى البصرة والكوفة ميداناً جديداً لعقد الندوات الأدبية التى ألفوها فى جزيرتهم . وقد بدأت البصرة والكوفة فى صورة معسكرين لجيوش الفاتحين ، ثم لم يكد يمضى نصف قرن حتى أصبحتا مدينتين عظيمتين يهرع إليهما من كل أنحاء الجزيرة ، ويطلق عليهما وما حولهما اسم العراق . وقد نشأ وتربى فى هاتين المدينتين الإسلاميتين أنبغ شعراء بنى أمية وأفصح خطبائهم . وعاشوا فيهما مع من وفد إليهما من الجزيرة من فصحاء العرب . ثم نظرنا فإذا بسوق « المربد » تؤسس فى البصرة ، وهى التى تشبه سوق عكاظ فى عصر ما قبل الإسلام . كما تأسس بالكوفة سوق أدبية أخرى هى « الكناسة » وإن كانت أصغر من « المربد » شأناً وأقل شهرة . وهكذا انتقل تيار الحركة الأدبية من الحجاز إلى العراق ممثلا فى هاتين المدينتين .

ويدهش دارسو الأدب إذ يرون « دمشق » عاصمة الأمويين لا تقوم فيها تلك الحركة الأدبية ، ولا تؤسس في ربوعها أندية للأدب أو أسواق كالتي عرفوها قبل الإسلام من عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وإنما يقوم مثل هذا فيما سمى حينئذ بالعراق ممثلا في البصرة والكوفة ، ويحاول هؤلاء الدارسون أن يسوّغوا هذه الظاهرة بأن دمشق أيام بني أمية شغلت بالسياسة والملك ، وتخلت عن الأدب للحجاز والعراق . وفي رأيي أن السبب الحقيقي هو أن بيئة الشام لم تكن قد استقرت بها اللغة العربية . بل كانت لا تزال في صراع مع اللغات التي كانت سائدة هناك من يونانية ورومانية وآرامية . ولذلك أسس الفاتحون مدينتي البصرة والكوفة على حدود جزيرتهم لتستقبلا الموجة الأدبية التي نزحت من الجزيرة ، ولتكونا امتداداً لبيئتهم التي ألفوها . فلم يكن حضر الشام مستعداً حتى ذلك الحين لإقامتهم به ، وعيشهم على نحو ما تعودوا في جزيرتهم ، وكذلك الشأن مع أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، فقد كره هؤلاء العرب في أوائل عهد الإسلام أن يحول بينهم وبين جزيرتهم ماء . ولذلك انحصرت الحركة الأدبية أيام بني أمية فيما سمى بالعراق ممثلا في البصرة والكوفة . ولم تكن رحلتهم إلى دمشق حينئذ إلا في صورة زيارات سريعة ينشدون فيها الخلفاء الأشعار والقصائد ويشهدون مجالسهم الأدبية التي تعقد ثم تنفض ، ليعودوا بعدها إلى البيئة التي أنبتت شاعريتهم وأنطقت ألسنتهم ، ونشأتهم على الفصاحة وحسن البيان وذلاقة اللسان ، وتلك هي بيئة البصرة والكوفة .

وحين نطلع على أخبار « المربد » وما كان يدور فيها من مساجلات ومناظرات وتهاج ، وعلى أخبار المجالس والندوات التي كان يعقدها خلفاء بني أمية ، لا نشك لحظة في أن القوم كانوا يعيشون في لغتهم ولغتهم ، فكأنما لم يكن لهم من شاغل إلا أدبها وما تنتجه القرائح وتنطلق به الألسنة من روائع القول .

ففي « المربد » تقوم المنافسة بين الشعراء وتتألف من قصائدهم ما يسمى بالنقائض التي كان أشهرها بين الفحول الثلاثة الأخطل وجرير والفرزدق .

وتعد هذه النقائض هجواً أو تهاجياً في رأى معظم الدارسين ، أريد بها نيل

المهاجين بعضهم من بعض ، والانتقاص من شأن أهليهم وقبائلهم ، والحط من قدرها فى أقذع ألوان الشتائم والسباب . ولكنها فى الحقيقة لم تكن كذلك ، بل هى تمثل فى رأيى نوعاً من أدب الفكاهة والمسامرة ، أو إن شئت قلت كانت كالمسرح الكوميدى فى أيامنا ؛ فلا يهدف الشاعر فيها إلى سباب أو قذف ونحو ذلك مما يدخل فى نطاق المؤاخذة القانونية أو الأخلاقية ، وإلا لعاقبهم الخلفاء عليه وآذوهم عند سماعه . بل كان الخلفاء يستمتعون به كما يستمتع السامعون له حين ينشد فى سوق المربد . كانت تلك المهاجاة منافسة مشروعة فى ذلك الحين ، لايبغى بها الشعراء إلا إظهار الفتوة والمهارة فى نظم الكلام ، والبراعة فى الأخذ بعواطف السامعين والتأثير فيهم . وكان أولئك الذين يشهدون محافل المربد ويستمعون لإنشاد الشعر فيها يطربون غاية الطرب ويهتزون إعجاباً ، ويضحكون ملء أفواههم ، ويهللون لهذا الشاعر ولمنافسه ، ثم يمضى كل ذلك دون أن يخلف حقداً حقيقيا أو ضغينة بين المتنافسين . فجرير والفرزدق كانا ينتميان إلى قبيلة واحدة هى تميم ؛ ومع هذا تعرض كل منهما لأهل الآخر وعشيرته لينال إعجاب السامعين ، وليدخل السرور على قلوبهم ؛ ولتتناقل أقواله فى المجالس كصور من النكتة أو الدعابة . لم يكن الأمر إذن أمر بذاءة أوسباب تقصد لذاتها ، أو يتلفظ بها فى ساعة غضب ، أو تنم عن حقد وضغينة ، وإنما هى صور من الأدب الذى تأدبوا به . واتخذوا منه سلوتهم والترويح عن أنفسهم .

كذلك حين نطلع على ما كان يدور فى مجالس بعض الخلفاء الأمويين ، ولا سيما مجالس عبد الملك بن مروان ، نوقن أن القوم حينئذ لم يروا أحب إلى نفوسهم وقلوبهم من الاستماع إلى لغتهم وما أنتجه الأدباء بهذه اللغة ، ويخيل إلينا أن عبد الملك لم يكن يشغله من مهام الدولة إلا المطارحة بالأشعار ، والاستمتاع بالاستماع إلى إنشاد القصائد فى حضرته ، ونقده لبعض أبياتها ، وإجازة الشعراء على ماينظمون . وقد أحسن استقبال هؤلاء الشعراء وهش لهم ، وتبسط معهم فى الحديث ، فيقول لأحدهم مثلا أنشدنا قصيدتك فى كذا ، أو

التى مطلعها كذا [1] . حتى الشواعر من النساء كان يستقبلهن ويمازحهن ، مثل لقائه لليلى الأخيلية فى رواية لابن قتيبة قال (بلغنى أن ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت وعجزت ، فقال لها : ما رأى « توبة » فيك حتى هويك ؟ قالت ما رآه الناس فيك حتى ولوك . فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها) .

وكان عبد الملك يسائل الشاهدين لمجلسه عن معنى بيت وعن قائله ليختبرهم ويشجعهم على رواية الأشعار ؛ بل حتى وهم على موائده كان يداعبهم ويسائلهم، مثل تلك القصة الطريفة التى يرويها صاحب الأغانى ، والتى نؤثر هنا أن نروى معناها .

فيقال إن رجلا من أهل العراق جاء ليشترك فى موائد عبد الملك ، فلما رآه الخادم لم يعجبه مظهره ، وأخذ يضايقه ويسخر منه ، ثم دخل عبد الملك وسأل الحاضرين عن معنى بيت أنشده أمامهم وعن قائله ، فهمس العراقى فى أذن الخادم مضللا له بأن قائل البيت هو عدىّ بن زيد يصف به البطيخ. فانبرى الخادم فى غباء وأجاب كما علمه العراقى ، فضحك عبد الملك وسأله من لقنك هذا ؟ فأشار إلى العراقى . فالتفت إلى العراقى وقال له أنت لقنته هذا ؟ قال نعم . فقال عبد الملك أخطأ لقنته أم صواباً ؟ قال العراقى خطأ طبعاً . وقد لقنته هذا مضللا له ،لأنه حاول منعى عن موائدك. فأردت أن أجعله أضحوكة . قال عبد الملك فكيف الصوب ؟

فأجاب العراقى فى ثقة أن البيت « للشماخ » يصف به البقر الوحشية . قال عبد الملك صدقت وأجازه . ثم قال له ما حاجتك ؟ قال العراقى : تنحى هذا الخادم عن بابك فإنه يشينه.

بل ربما أقطع عبد الملك أحد شعرائه ضيعة من الضياع مثل صنيعه مع « كثير » عزة وإقطاعه له . وكان عبد الملك مع هذا شجاعاً لا يهاب الوغى فقد حاولت عاتكة منعه عن الخروج لحرب « مصعب » وحذرته وتوسلت إليا

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٣٥٨ ، ج ١١ ص ٢٤٠ ، ٢٦٩ ، ج ٩ ص ١٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ١٧٠ .

باكية فأبى وتمثل بقول الشاعر :

إذا ما أراد الغز ولم تثن همه حصان عليها عقد دُرّ يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

وسواء صحت تلك القصة التى تروى عن بنت عبد الملك وتطلعها إلى غزل «عمر بن أبى ربيعة » أم لم تصح فى كل تفاصيلها ، فروايتها فى كتب الأدب على كل حال ترينا كيف كان العرب حتى النساء منهم يستمتعون بآدابهم ، ويجدون فيها المتعة كل المتعة . فيقال إن بنت عبد الملك خرجت للحج وتوقعت أن يقول فيها ابن أبى ربيعة شعراً ، وغضبت حين ظنت أنه لم يتغزل فيها . ثم ابتهجت حين تبينت أنه نظم فيها قصيدة مطلعها :

راع الفؤاد تفرق الأحباب يوم الرحيل فهاج لى أطرابى

وفيها يقول :

اقتليني قتلا سريعاً مريحاً لا تكونى علىّ سوط عذاب

لا غرابة إذن أن يقال إن أدب الأمويين كان امتداداً لأدب ما قبل الإسلام ، فالمربد فى البصرة حلت محل عكاظ . وليلى الأخيلية أعادت للأمويين عهد الخنساء . واتسم جو الأدب على عهد الأمويين بالسماحة وسعة الصدر من حيث الدين ، فلم تحل نصرانية الأخطل أو القطامى دون شهرتهما ، أو رواية شعرهما ، بل كما رأينا آنفا كان عبد الملك يلقب الأخطل بأمير الشعراء ، وبشاعر الخليفة وغير ذلك من النعوت . أى أن أوضح ما يؤهل الشاعر لدى الأمويين عروبته لا دينه ، وحسن بيانه لا عقيدته .

وهكذا نرى أن زمام الشعر على عهد بنى أمية قد انتقل من الحجاز إلى العراق ممثلا فى البصرة والكوفة ، تاركاً للحجاز شعراء الغزل من أمثال جميل بثينة ، وابن قيس الرقيات ، وعمر بن أبى ربيعة . وكثير عزة ، « والأحوص » وهو أكثرهم إنتاجا ، و « ذو الرمة » وغيرهم .

ولعل أهم ما يتصف به أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام أنه أدب

منطوق، يعتمد على ذلاقة اللسان والآذان المرهفة، ويتمثل فى إنشاد الشعر وفى الخطابة . فلما كان عهد العباسيين ، وأسست بغداد ظهر نوع جديد من الأدب ، وهو الذى نحب أن نطلق عليه اسم الأدب المكتوب الذى عاش مع الأدب المنطوق جنباً إلى جنب فترة من الزمن فى أوائل عهد العباسيين ، غير أن المنطوق كانت له السيادة قرابة نصف قرن ، وأنه ظل على ما يشبه الصورة التى ألفناها فى عهد الأمويين . فشعراء العباسيين فى القرن الثانى من الهجرة حتى الموالى منهم نشأوا جميعاً فى البصرة والكوفة ، وتربوا بهما ، واستقوا من مناهلهما الفصاحة وجودة النظم ، وإن حاولوا الخروج على تقاليد شعرائهما فى بعض الأحيان ، كالذى كان من ثورة أبى نواس على الوقوف بالأطلال والتشبيب بهند أو « دعد » ، وغير ذلك من الأساليب الشعرية التى ألفها القدماء وتنافسوا فيها .

فبشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ هـ نشأ فى البصرة ، وتزوج أعرابية وعاش فى عهد بنى أمية نحو ثلاثين عاماً . أى أن البيئة التى أطلقت لسانه بقول الشعر ، والتى أنبتت شاعريته وصقلتها هى نفس البيئة التى نشأ فيها شعراء بنى أمية . فقد عاش حتى سن السبعين أو الثمانين فى بعض الروايات . وقال الشعر وهو ابن عشر سنين . بل يروى أنه حاول أن يهجو جريراً فاستحقه به جرير . وهو القائل :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

فإذا تذكرنا أنه كان كفيفاً أمكن أن نتصور أنه من أصحاب الأدب المنطوق لا يتقن غيره .

وأبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ نشأ فى البصرة منذ الثانية من عمره ، وعاش بها وتربى فى أحضانها ونمت شاعريته فى ربوعها ، فلم يذهب إلى بغداد قبل سن الثلاثين .

وأبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ هـ نشأ فى الكوفة وتربى ، وكانت بينه وبين حماد عجرد مهاجاة على نحو ما ألفنا من التهاجى بين جرير والفرزدق .

وليس من الإسراف أن نقرر أن كل شعراء القرن الثانى على عهد العباسيين كانوا ممن تأثروا بأدب البصرة والكوفة ، ونهجوا نهجه . ذلك لأن بغداد لم تكن حتى ذلك الحين مهداً ينبت الشاعرية ويشحذ قرائح الشعراء على النحو الذى ألفناه فى بيئة البصرة والكوفة . فالعربية وإن كانت قد استقرت فى ربوعها بعض الاستقرار كانت لا تزال فى صراع مع الفارسية . ولكن بغداد مع ذلك كانت مهد الخلفاء الأوائل الذين كانوا عرباً أو على الأقل يحسنون العربية ويعتزون بأدبها ويشجعون على روايته . ويكفى أن نذكر أن علماءها هم الذين أرسوا قواعد العربية ، وقعدوا أساليبها ، وثبتوا نظامها فيما جاء فى كتبهم من وصف دقيق وتحليل رائع على يدى سيبويه ومعاصريه من اللغويين .

على أن الدارسين للأدب العربى يأبون إلا أن يجعلوا من شعر القرن الثانى على عهد العباسيين صورة مباينة كل التباين لما كان سائداً فى البصرة والكوفة أيام الأمويين ، ويضربون أمثلة بثورة أبى نواس على طريقة من سبقوه حين يقول :

لا تبك هندا ولا تطرب إلى دعد   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول :

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولكنهم ينسون أن الخليفة قد سجنه لاشتهاره بالخمر . ثم عفا عنه وأخذ عليه المواثيق ألا يذكرها . ودعاه إلى النظم على طريقة القدماء فقال :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا   فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا

دعانى إلى نعت الطلول مسلط   تضيق ذراعى أن أرد له أمرا

فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة   وإن كنت قد جشمتنى مركباً وعرا

أى أن من الخلفاء من دعوا إلى الأخذ بتقاليد القدماء من الشعراء وشجعوا عليه .

ولسنا ننكر أن شعر القرن الثانى على عهد العباسيين قد اتسم ببعض الصفات

الجديدة كالمبالغة فى المدح ووصف الخمر والغلمان والشعر المجونى ووصف الرياض والأزهار ، ولكنه مع هذا يعد امتداداً لشعر البصرة والكوفة أيام الأمويين . أى أن شعراء القرن الثانى على عهد العباسيين تعلموا الشعر وأجادوا نظمه فى بيئة البصرة والكوفة ، ثم رحلوا إلى بغداد فتأثر خيالهم وتنوعت فنونهم فى البيئة الجديدة . ولكنهم ظلوا من أصحاب الأدب المنطوق ، وهذا هو ما يعنينا هنا .

أما الأدب المكتوب الذى نشأ ونما فى هذا العصر فيتمثل فى الإنشاء ، أو ما يسمى بالنثر الفنى الذى يقال لنا إنه بدأ بعبد الحميد وانتهى بابن العميد . وخير مثل لهذا الأدب المكتوب فى القرن الثانى كتابات ابن المقفع ، وآثار أئمة المذاهب الإسلامية كأبى حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى ، وابن حنبل ، وما دونه المتقدمون من مؤرخى العرب فى السيرة النبوية وغير ذلك .

وحل الأدب المكتوب محل الخطابة التى اشتهر أمرها فى أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام ، فقد ضعف شأن الخطابة فى عهد العباسيين ، أولم يعد لها من الحوافز ما كان أيام بنى أمية وفى أسواق الجاهلية . إذ اعتمد الأدب المنطوق حينئذ على دعامتين أساسيتين ، أو فنين أساسيين ، هما إنشاد الشعر والخطابة . فلما كان العصر العباسى خمل ذكر الخطابة أو كاد ، وأصبحت تقتصر على خطب الجمعة والعيدين وما أشبه ذلك من مناسبات ، وحلت الكتابة محلها .

ولعل من خير ما وصف به الدارسون للأدب ، عصر العباسيين فى القرن الثانى من الهجرة أنه عصر التدوين ، فقد ظهر فيه ما نسميه بالأدب المكتوب الذى دعت ظروف وحوافز إلى نشأته ، منها أن البيئة الحضارية الجديدة قد ورثت عن حضارات من سبقوا من الأمم الاعتماد على القلم والقرطاس أكثر من الاعتماد على الذاكرة والحافظة ، وأصبحت الأمية التى كانت من قبل أمراً مألوفاً لا يغض من شأن صاحبه ، شيئاً معيباً لا يليق بأصحاب الحضارة . فأقبل الناس على تعلم القراءة والكتابة وشاع أمرها وظهرت الحاجة إليها فى كل الشئون .

ولما تبين للقوم حينئذ أن التراث العربي قد أخذ يتضخم وأصبحت الذاكرة والحافظة تعيان به ، حرصوا على تدوينه وتسجيله خشية من ضياعه كله أو بعضه . وربما كان لهم حافز كبير في كلمة أبي عمرو بن العلاء المشهورة التي يقول فيها : (ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ولو قد جاءكم كله لجاءكم علم وأدب كثير) .

أما أهم ما دعا إلى نشأة الأدب المكتوب في هذا العصر وجعله بمثابة الضرورة الملحة فيتمثل في أمرين : أحدهما حركة الترجمة لعلوم الأمم الأخرى وآدابها تلك الحركة التي شجع عليها المأمون واختار لها خير المترجمين ، والآخر أن بعض الموالي ممن حسن إسلامهم وحاولوا مخلصين السيطرة على اللغة العربية نطقاً وأداء ، قد شق عليهم بعض أصواتها فقنعوا بالكتابة الصامتة وأحسنوا التعبير بالقلم حين أعياهم التعبير باللسان ، وكان هذا من فضل الله على التراث العربي الإسلامي الذي درسوه وألفوا فيه ، فخلفوا لنا جهوداً علمية ممتازة .

انتشار العربية في الأمصار :

تمت الفتوحات الإسلامية خلال فترة تاريخية وجيزة نسبياً لا نعرف لها مثيلا في تاريخ الأمم الأخرى . وانتشر الإسلام في هذه الأمصار ، في العراق وفي الشام وفي مصر وفي المغرب ، ودخلت اللغة العربية هذه المناطق مصاحبة للدين الحنيف ومؤيدة له . ثم كان أن دخل الناس في دين الله أفواجا . ويسر على الناس اعتناق الإسلام أن تعاليمه لا تطالبهم بأكثر من إعلان الشهادتين ليصبح المرء مسلماً ، ولا تكلفه ترك لغته ، بل تقنع منه بحفظ بضع آيات من القرآن الكريم يقيم بها صلاته ويتعبد بها . ولذلك كان انتشار الإسلام في الأمصار أسرع من انتشار لغته في بادئ الأمر . فقد بقي كثير ممن أسلموا في الأمصار على لغة آبائهم في القرن الأول من الهجرة . ثم كان الصراع الحتمي بين العربية واللغات الأخرى في هذه الأمصار . فكان ما كان مما شهدنا أثره في بلاد فارس ، وأشرنا إليه آنفاً من ظهور الشعوبية نتيجة لهذا الصراع بين العربية والفارسية . فلما انحسر تيار اللغة العربية عن بلاد فارس أخذ يتدفق بقوة نحو الشام ومصر وبلاد المغرب حيث كان الصراع أخف وطأة وأقل عنفاً .

وفى خلال ما يقرب من قرنين نظرنا فإذا بالعربية تسود فى كل هذه المناطق ، ولم يبق من آثار اللغات التى كانت بها إلا فلول صغيرة هنا وهناك قضت عليها العربية مع مرور الزمن ، فلم يكد يبدأ القرن الخامس الهجرى حتى كانت هذه اللغات فى خبر كان . فاندثرت اليونانية والرومانية والآرامية من بلاد الشام ، واندثرت القبطية من مصر ، وانحسرت البربرية إلى مناطق منعزلة فى صحراء المغرب .

أما العراق فكان مهد الدولة الإسلامية العربية ، فيه عاصمتها وخلفاؤها ، وهو محط أنظار العرب الفصحاء الذين نزحوا إليه واتخذوه دار إقامة . ولذلك سادت فيه العربية برغم الحركة الشعوبية التى حالت دون تغلغل العربية فى بلاد فارس .

وانتهى الصراع اللغوى بين العربية واللغات الأخرى ، وإن لم تحدثنا كتب التاريخ عن تفاصيله ، إلى أن أصبحت بيئة اللغة العربية تمتد من العراق إلى الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ثم إلى الأندلس . وباستقرار العربية فى كل هذه المناطق استقرت معها العروبة أو القومية العربية ، ونسى الناس ما كان عليه أجدادهم وأصبحوا لا يذكرون إلا أنهم عرب تجمعهم لغة واحدة ، يفكرون بها ويكتبون ما ورثوه من تراثها ، وتوحد شعورهم وتلم شتاتهم . وبذلك أصبحت تلك البيئات مؤهلة لإنتاج الأدب العربى فى كل صوره وفنونه ، تنبت الشعراء ويتخرج فيها الكتاب ، وتحفل بالدارسين لآثار من سبقوهم من العرب . ونظر الناس فى هذه الأمصار فإذا بالسماحة الإسلامية تترك لهم دياناتهم وعقائدهم بعد أن استقرت الفتوحات ، فأبطأ تيار الإسلام قليلا ، فى حين أن تيار اللغة أخذ يسرع الخطا ويزداد انتشاراً . فقد تبين للناس أن الوصول إلى بعض أغراضهم الدنيوية لا يتحقق إلا بتعلم العربية والسيطرة عليها ، كاشتراكهم فى الحكم والوظائف والإدارة . وتُرك الإسلام يشق طريقه فى هدوء وفى سماحة مستمداً قوته من تعاليمه وحدها ، فانتشر فى مناطق أخرى من الأرض فى الهند والملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا ، تاركاً البلاد التى انتشرت فيها اللغة العربية

لتكون منها منطقة الوحدة القومية ، إذ يصطنع الجميع هذه اللغة الشريفة ، وإن بقى بينهم خلق كثير ممن ظلوا على مسيحيتهم ، ولا يزال منهم فى البلاد العربية قدر كبير .

وهكذا يمكن أن يقال إن الطور الأول فى تاريخ القومية العربية إنما كان حين سادت اللغة العربية فى الأمصار أى فى القرن الثالث من الهجرة حين أصبح الناس فيها يتطلعون إلى هذه اللغة ويعتزون بها ، ويرون فيها وحدها ما يجذب بعضهم إلى بعض ، وما يميزهم عن غيرهم من الأمم وما يدعم كيانهم واستقلالهم . وكان من الممكن لهذا أن تنشأ حينئذ حركة أدبية ناهضة فى أى من هذه الأمصار ، غير أن العراق وهو مهد الخلافة كان أسبقها إلى هذا . وبرغم ما كانت عليه بغداد من تدهور سياسى خلال القرن الثالث من الهجرة نتيجة تفوذ الأتراك وسلطانهم قامت بها حركة أدبية علمية جليلة الشأن ، فأنبتت بغداد ولأول مرة شعراء وكتاباً وعلماء نشأوا بها ، أو تربوا فى ربوعها ، بعد أن كان اعتماد الأدب على من نشأوا وتربوا فى بيئة البصرة والكوفة من قبل . فانتقل زمام الأدب إلى بغداد ، وأصبح أربابه ينتمون إلى بغداد وحدها سواء منهم من ولد فيها ونشأ ، أو من نشأ فى مصر آخر قضى فيه طفولته ولكنه لم تنضج ملكته ، ولم تعرف شاعريته إلا فى ربوعها كأبى تمام والبحترى . فهما فى رأيى ممن أنبتتهم بغداد . ومن الغريب أن بعض الدارسين للأدب العربى يعدون أبا تمام والبحترى من شعراء الشام . لا لشىء سوى أنهما ولدا فى قرية بالقرب من دمشق وقضيا بعض طفولتهما فى الشام أو مصر .!

فتجمع الروايات على أن أبا تمام توفى سنة ٢٣٢ هـ . أى مع وفاة الخليفة الواثق ، وتكاد تجمع على أنه ولد سنة ١٨٨ هـ ، وأنه كان وقت وفاته فى حدود الأربعين من عمره ، وتحدثنا كتب التراجم أن أبا تمام ولد فى قرية بالشام قرب دمشق ، ثم رحل منها إلى مصر وهو غلام يافع وظل بها خمس سنين . ويبدو من أرجح الأقوال أن أبا تمام ترك مصر إلى بغداد فى أوائل عهد المأمون أى فى حدود سنة ١٩٨ هـ ، وظل هناك يرتقى فى مدارج الشهرة حتى أواخر عهد

الخليفة الواثق ، وإن كان فى أثناء إقامته بالعراق قد تجول فى أمكنة متعددة معظمها فى المشرق . ولذلك نرى أن الكثرة الغالبة من ممدوحيه شخصيات عراقية .

كذلك يبدو أنه لم يكد يمر بضع سنين على وفوده إلى بغداد حتى لمع نجمه وعظم شأنه شاعراً يمدح الخلفاء والوزراء والكتاب . فيقال إنه مدح المأمون بقصيدتين ، ومدح من وزرائه الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى داود كما مدح قائده عبد الله بن طاهر وعدداً من كتاب هذا القائد .

ولكن تاريخ أبى تمام فى السنين العشرين الأولى من حياته غامض كل الغموض ، وتضطرب فيه الروايات[1] . على أن مايروى من شعره فى هذه الفترة كمدحه أو هجائه «لعياش بن لهيعة » وغيره ، قليل لا يؤلف قدراً ذا قيمة فى ديوانه ، ولا يكشف بشكل واضح عن بيئة مصر أو الشام ، وحياته فيهما أو تأثره بهما .

ولذلك نجد معظم شعره وأروع قصائده قد نظمت فى أواخر عهد المأمون وفى خلافة المعتصم والواثق . فقد مدح المعتصم وبعض وزرائه كمحمد بن عبد الملك الزيات . ومدح الواثق ووزيره الحسن بن وهب .

فى ربوع بغداد وقبل اتصاله بالمعتصم نظم شعراً كثيراً ذاع شأنه بين أهلها مما قربه إلى الخليفة وجعله شاعره المفضل . فبيئة بغداد هى التى أنبتت شاعرية أبى تمام وأنضجتها . ولا أثر فيها لبيئة أخرى . فهو لذلك شاعر بغدادى ، وبيئة بغداد هى وحدها مصدر نبوغه والسر فى قريحته وشاعريته التى فاقت كل معاصريه .

أما البحترى فقد ولد أيضاً فى « منبج » مسقط رأس أبى تمام سنة ٢٠٦ هـ ، ونشأ كما نشأ أبو تمام فى البادية بين قبائل طيء وغيرها فغلبت عليه الفصاحة . وتختلف كتب التراجم فى الحديث عن مكان اتصاله بأبى تمام ، فمنها ما يروى

(١) انظر كتاب الدكتور نجيب البهبيتى (أبو تمام الطائى : حياته وحياة شعره) دار الكتب سنة ١٩٤٥ .

أن البحترى لقى أبا تمام فى « حمص » وعرض عليه شعره فى جملة من كان يأتيه لهذا الغرض[١] ، ومنها ما يؤكد لنا أن البحترى خرج إلى بغداد فلقى أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه[٢] ، ويبدو أن هذا هو الأرجح . والعبرة على كل حال بالمكان الذى أنضج شاعريته ونمى بيانه ، وكان ذلك ولا شك فى ربوع بغداد . فهو لذلك شاعر بغدادى كأبى تمام . فقد عاش معظم حياته فى بغداد ، ونظم أكثر شعره فى مدح المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، فلما قتلا رجع إلى منبج مسقط رأسه ، ولكنه ظل يختلف إلى سراة بغداد ، و « سر من رأى » فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤ هـ .

ولما رجعنا إلى ديوان البحترى تبين لنا أن كل شعره نظم فى مدح المتوكل ووزيره ابن خاقان مع شخصيات أخرى من المشرق أيضاً ، فيما عدا قصيدة واحدة مدح بها أحمد بن طولون وأخرى هجاه بها ، وفيما عدا بضع أبيات يقول لنا شراح الديوان إنه يذكر بها طفولته وقومه فى « منبج » مسقط رأسه .

ليس إذن من المغالاة أن نعدّ البحترى شاعراً بغداديا أيضاً . وقد عاصر البحترى شاعر بغدادى آخر توفى فى نفس السنة التى توفى فيها البحترى ، وهو ابن الرومى الذى تقول عنه كتب التراجم إنه ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ فى نظم الشعر .

وآخر شعراء بغداد المشهورين فى القرن الثالث من الهجرة هو ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .

وهكذا نرى أن هذا القرن قد شهد سيادة العربية من المحيط إلى الخليج ، ومعها أو على أساسها سيادة القومية العربية فى كل هذه المناطق ، غير أن بغداد كانت لها الزعامة الأدبية بوصفها مهد الخلفاء وعاصمة الدولة الإسلامية ، وفيها تركزت مع الحركة الأدبية حركة علمية رائعة تمثلت فى أدب الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما ، وفى آثار علماء اللغة من أمثال المازنى وتلميذه المبرد وأبى العباس

---

(١) جورج زيدان جـ ٢ ص ١٨٥ تاريخ آداب اللغة العربية .

(٢) أحمد حسن الزيات ص ٢٩٥ تاريخ الأدب العربى .

ثعلب ، وفيما دونه المؤرخون من أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى وابن جرير الطبرى ، وفى آثار الأئمة من أصحاب الحديث كالبخارى ومسلم وابن ماجة والترمذى وغيرهم ، وفى تفسير الطبرى ، وفى علوم الفلسفة والرياضيات والطب .

وكل هذا من الأدب المكتوب الذى ربما كانت له السيادة والتفوق على الأدب المنطوق فى هذا العصر ، والذى خلد اللغة العربية ، وأصبح لها بمثابة السجل الذى يضم ألفاظها وتراكيبها ، بل ويصف أصواتها . وكان هذا الأدب المكتوب محل الدراسة والعناية فى كل العصور التى تلت هذا ، يذكّر الخلف بمجد السلف ، ويصون اللغة من الضياع أو الاندثار ، ويصون بصونها القومية العربية ، ويذكر العرب فى عصور الاضمحلال بعظمة أجدادهم ، ويحفزهم إلى النهوض كلما أصابتهم كبوة ، أو عدت عليهم عوادى الزمن .

ثم شاءت أحداث التاريخ أن تقوم دولتان مسلمتان إحداهما فى المشرق والأخرى فى مصر تدعوان إلى مذهب دينى معين هما دولة آل بويه سنة ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ فى بغداد ، والفاطميين فى مصر سنة ٣٦٢ — ٥٦٧ هـ .

وهنا يكاد يختفى الأدب المنطوق ، بل يكاد يختفى أدب العروبة ليصبح أدباً مكتوباً فى أغلب صوره ، وأدبا إسلاميا محضاً ، وتصبح معه القومية العربية فى شبه سبات ، أو تأخذها سنة من النوم . غير أن بيئة الشام لا تكاد تتأثر بهذين التيارين الدينيين ، ولذلك التقط الشام زمام الشعر من بغداد خلال القرنين الرابع والخامس من الهجرة ، ونهض الأدب المنطوق فى ربوع الشام على أيدى أبى فراس والمتنبى وأبى العلاء ، وظل الشعور بالقومية العربية على عنفوانه فى عهد حكام الشام وأمرائه من العرب الخلص الذين يعتزون بعروبتهم وآدابها ولغتها . فكانت تلك النهضة الأدبية التى بدأت بشاعر يسمى « ديك الجن » المتوفى سنة ٣٣٥ هـ الذى لم يبرح الشام ولم يشهد بغداد ، ثم المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ، وأبى فراس المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، وكشاجم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، والسرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ والوأواء الدمشقى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ وأخيراً وليس آخراً أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

فى حين أنا لا نعرف شاعراً يستحق الذكر ظهر فى مصر على عهد الفاطميين سوى « ابن قلاقس » المتوفى سنة ٥٦٧ هـ ولا يصح أن يقارن بمن ذكرناه من شعراء الشام . وكذلك الشأن فى بغداد برغم أن الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ظهر بها خلال هذه الفترة . ولكنا نرجح أن بيئته الخاصة ونسبه وحسبه وما رُبِّىَ عليه بين قومه الأقربين ، كل ذلك أهله لنظم الشعر ورواية نهج البلاغة ؛ فبيئته الخاصة وليست بيئة بغداد . هى السر الحقيقى فى أدبه وشعره . ثم ظهر بعده مهيار الديلمى المتوفى سنة ٤٢٨ هـ الذى أسلم على يدى الشريف الرضى وتتلمذ عليه وتأثر ببيئته . أما الطغرائى المتوفى سنة ٥١٤ هـ فلم يشتهر بين الشعراء إلا بلاميته التى تسمى لامية العجم والتى مطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

هؤلاء هم أشهر الشعراء الذين ظهروا فى بغداد خلال حكم آل بويه وما بعده بقليل . وهم مع كثرة ما نظموا لم يستطيعوا أن ينتزعوا زمام الشعر من الشام ، ولا أن يعيدوه إلى بغداد . فالظروف السياسية التى عاشوا فيها ، والدعوة الدينية التى تركزت فى حكم آل بويه جعلت أدبهم يصطبغ بالصبغة الدينية أكثر من اصطباغه بالعروبة والقومية العربية .

ثم كانت تلك الحروب التى يدعوها مؤرخو العرب وبحق حروب الفرنجة ، ويسميها الأوربيون بالحروب الصليبية ، وتركزت فى الشام من ٤٩٢ — ٥٨٢ هـ فألهبت الشعور بالقومية العربية . فليس هناك ما يقوى الشعور بالقومية ويشعل أجيجها أكثر من شعور أصحابها أنهم يواجهون عدواً مشتركاً يحاول النيل من كرامتهم والاعتداء على وطنهم . وتطلعت البلاد الإسلامية إلى مصر على عهد صلاح الدين الذى برغم أنه كان كردى الأصل آمن بالعروبة والإسلام معاً . فقهر الفرنجة الأوربيين ، وأعاد للعروبة والإسلام المجد والعزة والكرامة .

لا غرابة إذن أن ينتقل زمام الشعر والأدب فى عهده وعهد من جاءوا بعده من المماليك، إلى مصر . وتمثل ذلك فى ظهور عدد من الشعراء أشهرهم : ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ وابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ وابن الفارض المتوفى

سنة ٦٣٢ هـ وابن مطروح سنة ٦٤٩ هـ وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ، والبوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ، بل ربما نعدّ من شعراء مصر فى تلك الحقبة صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ برغم أنه نشأ فى بغداد. ولكنا مع هذا لا ندعى أن هؤلاء الشعراء قد استطاعوا أن يعيدوا عهد شعراء العراق أو الشام، وإنما كانوا مظهراً ليقظة أو انتفاضة دبت فى جسد القومية العربية، وأعادت لها بعض ما كان من شأنها فيما مضى.

ثم كان ذلك السبات العميق الذى أصيبت به القومية العربية ممثلة فى روائع أدبها ومشهورى شعرائها بعد نكبة المغول فى المشرق وخلال حكم العثمانيين فى مصر والشام، حتى ظهرت بوادر النهضة العربية الحديثة فى أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد.

أما الشأن مع الأندلس وبلاد المغرب فيمكن أن يقال إن النهضة الأدبية والشعور بالقومية العربية قد عاصر ذلك كله النهضة الأدبية فى الشام على عهد المتنبى وأبى العلاء، أو ربما عاشت قليلا بعدها ثم أصابها نفس السبات الذى حلّ بكل المناطق العربية. فابن هانئ الأندلسى توفى سنة ٣٦٣ هـ. وابن زيدون توفى سنة ٤٦٢ هـ، وابن خفاجة توفى سنة ٥٣٢ هـ. وابن عبدون توفى سنة ٥٢٠ هـ. وابن حمديس الصقلى توفى سنة ٥٢٧ هـ.

وبينما كانت العربية تثبت أقدامها وتعمق جذورها فى الأمصار فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة اصطدمت بظاهرة خطيرة هى ظاهرة اللحن الذى ظهرت بوادره منذ اتصال العرب بغيرهم من الأمم واختلاطهم بهم، أو إن شئت قلت منذ لقاء العربية باللغات الأخرى. ومصدر هذا اللحن الذى فشا واستشرى فيما بعد، أمران: الأول منهما بعض الصفات الخاصة للهجات القبائل التى نزحت إلى الأمصار، من عنعنة وعجعجة وفحفحة وكشكشة، ونحو ذلك مما ورد ذكره فى الكتب والروايات التى أشارت إلى لهجات العرب القدماء. غير أن الخاصة من العرب فى صدر الإسلام وعهد بنى أمية كانوا ينظرون إلى هذه اللهجات على أنها أدنى منزلة، وأقل فصاحة، فتناهوا عنها وتحاشوها فى آدابهم الجدية قانعين بتلك اللغة المشتركة النموذجية الأدبية التى نظم بها

الشعراء وخطب بها الخطباء قبل الإسلام ، والتى فوق هذا كله نزل بها القرآن الكريم، ويدل على هذه النظرة تلك الروايات التى منها ما يقال فيها (سأل معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم عجعجة قضاعة ولا طمطمانية «حمير» . قال معاوية من هم ؟، قال المتكلم هم قريش) . وقريش هنا فى رأيى رمز للبيئة الحجازية التى نمت فيها اللغة الأدبية المشتركة ، ومنها انتشرت فى جميع أنحاء شبه الجزيرة .

على أنه لم يكد ينقضى القرن الرابع من الهجرة حتى ظهر من علماء اللغة من يشيد بهذه اللهجات ويراها جميعاً حجة ، وإن كان بعضها أشهر وأفصح من البعض الآخر ، مثل ابن جنى فى الخصائص حين عقد فصلا سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، وأشار فيه إلى هذه اللهجات ، واختتم كلامه بقوله : (إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ، فأما إن احتاج إلى ذلك فى شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منعى عليه) .

وهذه اللهجات العربية القديمة هى التى وفدت مع قبائلها إلى الأمصار بعد الفتح الإسلامى ، وشكلت إلى حد ما كلام كل مصر منها بشكل خاص وتركت على ألسنة الناس بعض آثار اللحن والانحراف عن أساليب اللغة الأدبية المشتركة . وربما ساعد على انتشار هذه اللهجات فى الأمصار وعدم تحاشى الناس لها نظرة بعض اللغويين من أمثال ابن جنى فى القرن الرابع من الهجرة .

أما الأمر الثانى فهو أخطر أثراً وأعمق جذراً ، وهو ما تأثرت به اللغة العربية فى الأمصار من اللغات التى كانت سائدة فيها ، فبرغم أن العربية قد خرجت ظافرة منتصرة من صراعها مع هذه اللغات لم تسلم من بعض الجروح والندوب التى تمثلت فى انحرافات أصابت بعض أصوات اللغة وصيغها وتراكيبها ، وجرت على ألسنة الناس ، وعدها اللغويون أمثلة من اللحن .

ويبدو أن العلماء والأدباء لم يقدروا خطورة هذا اللحن فى بادئ الأمر ،

ولم يتصوروا أنه من الممكن أن ينشأ عنه ، كما حدث فعلا بعد ذلك، ما يشبه الثنائية أو الازدواجية فى اللغة ، لغة للخاصة وأخرى للعامة . يدل على هذا بعض كلام الجاحظ حين يشير إلى لغة العامة بقوله : (وإذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسنا أو تخرجها من فيك مخرجاً سويا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها)(١) .

غير أن بعض الغيورين على اللغة والمتحمسين لصحة الكلام قد بدأوا منذ القرن الثالث من الهجرة يحاربون ذلك اللحن ويعملون جاهدين على وقف تياره . ويتمثل ذلك فى مثل كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت : وأدب الكاتب لا بن قتيبة .

ويبدو أن النهضة الأدبية التى سادت فى بغداد خلال القرن الثالث من الهجرة وفى الشام خلال القرن الرابع قد ألهت الأدباء عن ظاهرة اللحن ، فلم يعيروها اهتماماً . واعتقدوا أن أمثلته مهما كثرت ، ومهما جرت على ألسنة العامة ، لن تنال من العربية الفصيحة ، ولن تصبح لها منافساً ، وأن الشعور بالقومية العربية خلال هذين القرنين والاعتزاز بلغتها وآدابها . كل ذلك كفيل بإصلاح الخطأ والقضاء على اللحن مع مرور الزمن . فأهملت الألسنة تجرى كما تشاء وبما تشاء ، وقنع أصحاب الأدب بكلام الخاصة والمثقفين من الناس .

أما اللغويون فقد هالهم الأمر ، فشمروا عن ساعد الجد : وبدأوا تلك الحركة التى يمكن أن تدعى حركة التطهير أو التنقية فى اللغة ، وظهرت ثم مؤلفات بعنوان (إصلاح النطق ، أو تقويم اللسان ، أو تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، أو المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، أو تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، أو الحمانة فى إزالة الرطانة) ، مع تلك الكتب التى عنونت بلحن العامة أو لحن الخاصة .

ونحن مع الذين تشككوا فى الرسالة الصغيرة المنسوبة للكسائى وعنوانها

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٥ .

لحن العوام ، بل نرجح أن حركة التنقية فى اللغة بدأت بدءاً حقيقيا بكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، ثم جاء بعده أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ثم ظل التأليف فى هذا الغرض مستمراً فى كل عصور اللغة .

ومع الجهود المحمودة لهؤلاء اللغويين نظرنا فإذا المقدسى الجغرافى الذى طاف بالبلاد العربية خلال القرن الرابع من الهجرة يحدثنا فى كتابه « أحسن التقاسيم » عن الخصائص اللغوية لكل إقليم من الأقاليم العربية ، ونشعر من حديثه أن ثمة ما يشبه الثنائية أو الازدواجية فى اللغة قد نشأ فعلا فى البلاد العربية[1] .

وقد كان من الممكن أن تتطور هذه اللهجات المحلية فتصبح لغات مستقلة كما حدث للاتينية التى اندثرت أو كادت مخلفة لغات متميزة هى التى تعرف الآن بالإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومينية ، والتى على أساس كل منها نشأت قومية مستقلة فى العصر الحديث . غير أن صلة العربية بالدين الإسلامى قد صانتها ، وحالت دون مثل هذا المصير . فقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين . ووعدنا سبحانه بحفظه وصيانته فى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . ولكن القرآن الكريم لا يتضمن كل ألفاظ اللغة ولا كل أساليبها وتراكيبها . وكان لا بد فى صيانة اللغة أن تكون معه الأحاديث النبوية ، والمؤلفات الضخمة التى وضعت وفى كل العصور ، فى الدراسات الأدبية والإسلامية والتاريخية وغيرها . فهى التى كانت ولا تزال بمثابة سجل يحوى كل ألفاظ اللغة وتعابيرها وأساليبها . ويذكّر بها الدارسين فى كل عصر ، ويصونها من المصير الذى كان للاتينية .

فحتى فى عهد « آل بويه » وبعد أن دالت دولة الأدب فى بغداد كان هناك نوع من الأدب الإسلامى المكتوب ممثلا فى الإنشاء والترسل لا بن العميد وأبى إسحاق الصابى والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى . وفى آداب

---

(١) العربية تأليف يوهان فك ، ترجمة عبد الحليم النجار ص ١٦٧ .

أبي الفرج الأصبهاني وأبي هلال العسكري وأبي علي القالي ، وفي معاجم الجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، والمجمل والمقاييس لابن فارس ، والصحاح للجوهري . وفي تاريخ المسعودي .

وربما كانت أكبر حركة تأليف عرفتها العربية في كل تاريخها تلك التي تمت بعد نكبة المغول . فكأن الدارسين حينئذ أرادوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الفكري الذي خلفه أجدادهم العرب ، بعد أن أحرق منه الكثير ، وغرق منه الكثير في أثناء غارات المغول وتخريبهم لبغداد . وكانت الكثرة الغالبة من هؤلاء الدارسين في ربوع مصر والشام . ففي هذا العصر عُرف ابن مالك النحوي المشهور بمؤلفاته والمتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وفيه وضع أضخم معجم عربي هو لسان العرب لابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ووضع ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ مؤلفاته النحوية التي هي عماد هذه الدراسة حتى الآن . أما المؤرخون فمنهم ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وتقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وأبو المحاسن بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ صاحب النجوم الزاهرة . وغيرهم كثيرون من أهل اللغة والتاريخ والعلوم الإسلامية أولئك الذين خلفوا لنا مئات بل آلافا من المؤلفات الجليلة الشأن .

وتتسم بعض مؤلفات هذا العصر بالجمع الشامل الكامل في استقصاء عجيب ، أدى إلى نشأة ما يعرف بالموسوعات . فالنويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ أخرج لنا موسوعة بعنوان « نهاية الأرب في فنون الأدب » . وابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ألف الموسوعة التاريخية المسماة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » . وجلال الدين السيوطي أخرج للناس أكبر مجموعة من المؤلفات التي يمكن أن تنسب لعالم واحد . والقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ صاحب صبح الأعشى .

وظل العلماء يمارسون الجمع والتأليف حتى في العصر العثماني . وقد كان موقف المتأدبين ودارسي تاريخ الأدب العربي إلى زمن قريب . أن هذا العصر

يعد عصر اضمحلال للأدب العربي ، وأن معظم ما ألف فيه لا يعدو أن يكون جمعاً لتراث السابقين وتفسيراً له أو تعليقاً عليه ، وأن الابتكار فيه قليل أو نادر . فأصحاب هذه المؤلفات الضخمة عالة على من سبقوهم ، وكل مالهم من فضل أنهم جمعوا هذا التراث فصانوه من الضياع . على أن بعض الدارسين الآن يشيدون بإنتاج هذا العصر ، ويحاولون جاهدين أن يردوا له اعتباره . وليس يعنينا هنا ترجيح رأى هؤلاء أو هؤلاء ، ولكنا نقرر فى حيدة واطمئنان أن نتاج هذا العصر قد خلد اللغة ، وجمع كل ألفاظها وتعابيرها وأساليبها ، فجمع بهذا كل أبناء العرب حولها ، وظل يذكرهم بها ، ويشعرهم أنها هى التى تلم شتاتهم وتجذب بعضهم إلى بعض ، وأنها الأساس الحقيق لقوميتهم العربية ، برغم سباتها العميق خلال هذا العصر .

القومية العربية فى العصر الحديث :

كان للتقدم الصناعي والعلمى فى القرن التاسع عشر أثر كبير فى الوعى العالمى ، كما كان لسهولة المواصلات وسرعتها أثر كبير أيضاً فى نشر الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب والدول . فلما بدأت الحركات القومية فى بعض مناطق أوربا سرى إلى المناطق الأخرى أثرها فبهرت ببريقها . ونظرنا فإذا شعوب عدة تطالب باستقلالها . وتحس بكيانها وتميزها . لا على أساس من الجنس أو الدين أو الموطن الجغرافى ، بل على أساس اللغة التى تجرى على ألسنتهم جميعاً ، وتوحد عقولهم ، وتجذب بعضهم إلى بعض ليتكون منهم مجتمع يسعى إلى الأمن والاستقرار والرخاء لكل أفراده . ولم يكد ينتهى هذا القرن حتى تجلى ماسمى بعد ذلك بحق تقرير المصير الذى نودى به فى إثر الحرب العالمية الأولى ، وليس له معنى فى حقيقة أمره سوى حق تقرير المصير بين أصحاب كل لغة . فتأسست بذلك قوميات أوربا فى هذا القرن ، أو بعبارة أخرى انعزلت كل لغة بأبنائها ، وإن كان حكام الدول الكبرى لم يوفقوا التوفيق كله فى تطبيق هذا المبدأ ، مما أدى إلى تلك المشاكل التى أشرنا إليها آنفاً .

ولم تكن القومية العربية الحديثة بدعاً فى يقظتها وانتفاضتها فى أواخر هذا هذا القرن ، كأثر من آثار الحركات القومية فى أوروبا ، أو اقتداء بها . فالقومية العربية الحديثة امتداد للحركات القومية فى أوروبا، تأسست على ما تأسست عليه تلك القوميات ونهجت نهجها ، وإن تأخرت عنها قليلا .

بدأت إذن الانتفاضة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولا أسميها بعثاً أو إحياء كما يعبر بعض الدارسين . ذلك لأن البعث أو الإحياء إنما يكون بعد موت ، والقومية العربية لم تمت أبداً ، بل كانت قد أصابتها سنة من النوم خلال حكم العثمانيين ، إذ تفرقت مناطقها إلى وحدات شبه مستقلة ، يحكم كلا منها حاكم له طموح شخصى ، وكل ما يفكر فيه هو أن ينفرد بالحكم فى نطاق معين ، يسوسه كيف يشاء ، وعلى ما يهوى . وربما ساعد على هذه العزلة بين البلاد العربية خلال حكم العثمانيين بطء المواصلات وصعوبتها ، مع ما لكل إقليم من لهجة خاصة فى الخطاب ، تكونت خلال عدة قرون من إهمالها وتركها تجرى على ألسنة العامة ، وتتطور إلى خصائص متميزة فى كل إقليم .

فلما كانت الصحوة العربية نظر أبناء هذه الأقاليم إلى ما يمكن أن يجمع بينهم فلم يجدوا سوى تلك اللغة المكتوبة ذات التراث الفكرى الضخم . فقد تلقاها أبناء العرب مكتوبة لا منطوقة ، إلا فى نطاق ضيق بين القارئين للقرآن الكريم والمرتلين لآياته عن ظهر قلب ، وكانوا قلة فى كل إقليم ، وربما معهم عدد قليل من الناس أتيحت لهم دراسة شفوية لبعض نصوص اللغة وآدابها فى المدارس الإسلامية التى ألحقت بالجوامع والمساجد المشهورة فى البلاد العربية . ومع حرص قراء القرآن الكريم على حسن ترتيله ، وحرصهم على تلقيه مشافهة وتجويد أصواته ، وإجازة الشيوخ منهم لتلاميذهم من الحفاظ ودارسى القراءات ، مع كل هذا حدث تطور لبعض أصوات اللغة على الألسنة، وتميز كل إقليم بصفات صوتية معينة . وأصبحنا فإذا لأبناء العراق حتى فى

قراءتهم للقرآن الكريم بعض السمات الصوتية فى نطق الحروف وفى نبر الكلام تختلف عما لأهل الشام ، ولهؤلاء سمات أخرى قد تختلف عما لأهل مصر ، كما للمصريين ما يميز نطقهم عن نطق أهل المغرب وهكذا . على أن هذه الفروق الصوتية كانت من الضآلة وعدم الأهمية فى نظر معلمى القرآن وشيوخه . فلم يعيروها اهتماماً . أو إن شئت قلت أعياهم أمرها بين التلاميذ بعد أن لمسوا تأصل جذورها فى ألسنتهم ، فقنعوا منهم فى بعض الحالات بما قدروا عليه ، وأجازوهم على مضض ، أو رغبة فى التيسير على طلاب القراءة لتكثير عددهم ، ونشر الثقافة العربية الإسلامية بين أكبر قدر منهم .

وتطلع أبناء العرب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى ذلك التراث الفكرى الضخم الذى خلفه لهم أسلافهم مكتوباً باللغة العربية وبخطها العربى المتميز : فتشبثوا به ، والتفوا حوله . ينهلون من حياضه ما استطاعوا ، فكانت النهضة القومية العربية فى صورة نهضة للغة ، وإيقاظ لها من سباتها . وقد يخيل لبعض الدارسين أن الحركة القومية العربية فى أواخر القرن التاسع عشر كانت حركة إسلامية . وإنما كان ذلك لصعوبة الفصل بين الإسلام واللغة العربية . فهى لغة الوحى . وهى التى نزل بها القرآن الكريم ؛ وربما كان ذلك أيضاً لأن هؤلاء الدارسين قد اختلط الأمر عليهم بين الإسلامية التى هى دعوة عالمية وللناس كافة ، وبين العروبة التى هى دعوة للمتكلمين بالعربية وحدهم . وبدا الفصل بين الدعوتين واضحاً جليا لكثير من المسيحيين العرب فى الشام وغيرها ، وعملوا جاهدين على التمييز بين الدعوتين ، وأسهموا بجهود كبيرة فى الحركة العربية ، ودعم القومية العروبية ، عن إيمان بها وثقة فى نجاحها . كان المستنيرون من أبناء العرب يدركون تمام الإدراك أن الإسلام قد شق طريقه إلى مناطق متباعدة لها لغاتها وقومياتها ، فى الهند والملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا ، وليس من المعقول أن تتضمن القومية العربية مثل هذه المناطق ، لا لشىء سوى أن الناس بها لهم ألسنتهم الخاصة ، وربما خطهم الخاص . وإن كانوا إخواناً لنا فى الدين والعقيدة .

لا غرابة إذن فى أن تطلعت القومية العربية أولا وبالذات إلى اللغة التى تجمع أبناءها وتوحد تفكيرهم ، وإلى ما ورثه هؤلاء الأبناء من آثارها وآدابها ودراساتها فكانت النهضة فى صورة ما يسمى من قبيل التجوز ببعث التراث أو إحيائه وإنما هو إيقاظه من سباته ، بتحقيقه وإعادة نشره وتيسير تداوله بين الراغبين فى دراسته . فأنشئت المطابع العربية ، وحفل الأزهر الشريف وأمثاله فى بلاد العرب بالدارسين لعلوم اللغة وآدابها ، وبكل ما يمت إليها ، واحتفوا بها قبل احتفائهم بالعلوم الدنيوية الأخرى التى لا تميز قومية من أخرى ، والتى لا تعد طابعاً لقومية معينة ، بل هى تراث إنسانى تشترك فيه كل القوميات وتسهم فيه بنصيبها . ثم حاول بعض أبناء العرب ترجمة هذا التراث الإنسانى إلى لغتهم القومية وكتابته بخطها ، فساعد ذلك على أمرين : أحدهما تقوية الوعى بين الدارسين وتوسيع أفقهم وترقية الحياة العامة ، والآخر تعميق الشعور بالقومية العربية بعد أن صورت العلوم الدنيوية بلغتها وبخطها ، وبعد أن عبرت عنها الألفاظ العربية والأساليب العربية ، وأصبح ميسراً على كل أبناء العرب دراستها وفهمها فى صورة موحدة لفظاً وخطاً .

وما أظن أن تلك الانتكاسة التى أصابت القومية العربية فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى حين جعلت لغة العلم والتعليم فى المدارس اللغة الأجنبية قد أدت إلى إضعاف القومية العربية ، أو حالت دون تدفق تيارها . فقد مكثت تلك الحال عدداً قليلا من السنين ، فلم يكن لها أثر يذكر ، إلا أن تكون قد ألهبت الشعور بالقومية العربية ، وحثت المصلحين المخلصين على سرعة العودة إلى التدريس فى المدارس باللغة القومية .

فإذا اتسمت النهضة العربية بترجمة العلوم الحديثة ، فإنما كان ذلك ، أو من أهم أهدافه ، إثراء لغتنا العربية وتوسيع آفاقها . وإذا أنشئت المطابع العربية وأسست دور الصحف والنشر ، فإنما كان ذلك للنهوض بأساليب اللغة ، وتطويعها لمسايرة ركب الحضارة . وإذا أنشئت المدارس والمكتبات فى البلاد العربية ، فإن ذلك قد خدم اللغة قبل خدمة أى شىء آخر .

ونحن نؤثر فى التأريخ لبوادر القومية العربية أن نبدأ بعهد « إسماعيل » الذى كان مفتونًا بالحضارة الأوربية ويسعى إلى جعل مصر قطعة من أوربا ، وإن أراد بهذا أن يهيىء لنفسه جوًّا من الرفاهية الأوربية. وأن يوهم الناس بأنه حاكم متحضر . ومع هذا فرب ضارة نافعة ؛ فقد ترتب على سياسة إسماعيل أن تيار القوميات الأوربية وصل مصر متدفقاً ؛ وأن فكرة القومية التى سادت فى أوربا حينئذ وجدت طريقها فى البلاد العربية ممثلة فى مصر التى كانت محط أنظار العرب فى ذلك الحين . فأخذ الوعى العربى يقوى ؛ وساعد على هذه اليقظة مظاهر أبرزها : الثقافة الدنيوية الحديثة والتطلع لها ، فأرسلت البعثات التعليمية لأوربا ، وفتحت المدارس . واستغل رفاعة الطهطاوى وتلميذه على مبارك تلك الفرصة فعملا على إعادة مدرسة الألسن وتأسيس مدرسة الإدارة التى صارت بعد ذلك مدرسة الحقوق ،وعلى كثرة المدارس الابتدائية والثانوية؛ وافتتاح أول مدرسة للبنات ، ودعم الدراسة اللغوية العربية بإنشاء دار العلوم ، فكان لكل ذلك أثر واضح فى النهوض باللغة مع إنماء الوعى بين المثقفين .

أما المظهر الثانى لليقظة العربية وبوادرها فى أواخر القرن التاسع عشر فهو ما يسمى بإحياء التراث العربى الذى عبر عنه أحد الدارسين المحدثين بقوله[1] : (أحس كثير من المثقفين بوجوب إبراز عظمة بلادهم وإشراق تاريخهم . . . فأرادوا أن يواجهوا الثقافة الأوربية الوافدة بثقافة عربية أصيلة . . . ومن هنا اتجهوا إلى التراث العربى القديم وإلى انتقاء جمهرة من روائعه لإحيائها ونشرها للاتكاء عليها فى إرضاء الوعى النامى المتلهف إلى ثقافة عربية جيدة تقف أمام الثقافة الأوربية الوافدة . وكانت نواة هذه الحركة « جمعية المعارف » التى ألفت سنة ١٨٦٨ ، وما لبثت أن نمت سريعاً ، وعُنيت بإحياء عدد كبير من الكتب التاريخية والأدبية العربية ، كما عنيت بنشر طائفة من الدواوين الشعرية التى أنتجتها العصور العربية الزاهرة فى المشرق والأندلس) .

وأما المظهر الثالث فيتمثل فى الصحافة ودور النشر والمكتبات وكان لها

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل ص ٢٧ .

ولا شك أثر كبير فى ترقية اللغة ، وتنمية ألفاظها، وتجويد أساليبها ، فوق ما كان لها من أثر عظيم فى الوعى الثقافى العام .

ولكن القومية العربية والحق يقال ، لم تأخذ طابعاً سياسيًّا إلا فى أوائل القرن العشرين ، وإن عبّر عنها « الكواكبى » فى بعض كتاباته فى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان الطابع السياسى للقومية العربية فى إثر ما أصاب الدولة العثمانية من الهزائم ، وما لحق بها من الاضمحلال بعد سلسلة مؤسفة من تآمر الدول الأوربية الكبرى عليها ، حتى أصبحت ألعوبة فى أيدى الساسة الأوربيين وأضحوكة بين الدول ، وهى الدولة الإسلامية التى كانت البلاد العربية تتطلع إليها ، وتقنع بحكمها . فلما فشلت تركيا فى حماية البلاد العربية الإسلامية ظهرت بين أبناء العرب فكرة اللامركزية التى هى دعوة إلى انفصال البلاد العربية لتكون منها دولة مستقلة ذات كيان عربى متميز تقف فى وجه المستعمرين المعتدين الذين تمثلوا لأبناء العرب حينئذ فى بريطانيا وفرنسا . ونظر أبناء العرب فرأوا أن هناك ما يجمع بينهم ويلم شتاتهم ويوحد من شعورهم وفكرهم ، وذلك هو اللغة العربية التى ورثوها عن أجدادهم مع مالها من آداب سامية . وتراث فكرى رائع كانوا يتدارسونه فى دور العلم ويتشبثون بأهدابه . فدعوة اللامركزية هى فى الحقيقة دعوة إلى القومية العربية التى بدأت تستيقظ من سباتها . ووجد أبناء العرب كذلك أن تيار القوميات الأوربية التى أساسها وحدة اللغة قد جاوز حدوده إلى تركيا نفسها ، فنشأت بها تلك الحركة التى تدعو إلى « التتريك » ، وصبغ كل البلاد التابعة لتركيا بالصبغة التركية من حيث اللغة والثقافة ، إيماناً من أصحابها بأن وحدة الدولة وتماسكها وقوتها لا يتم كل هذا إلا على أساس الوحدة اللغوية والثقافية كما هو الشأن فى دول أوربا . لذلك شن أصحاب فكرة « التتريك » حرباً شعواء على اللغة العربية والثقافة العربية ، وبلغت ذروة هذه الحركة فيما قام به بعد ذلك كمال أتاتورك الزعيم التركى المشهور . وكان من الطبيعى أن يكون لحركة التتريك صداها بين أبناء العرب ، ورد فعل عنيف فى داخل

العالم العربي [١] . فنشط المصلحون والمفكرون فى العمل على إحياء التراث العربى ونشره ، لأنه السجل الخالد الذى حفظ لهم لغتهم ، فصان لهم عروبتهم . فكانت النهضة الفكرية العربية التى تمثلت فى نشر أمهات الكتب فى اللغة وآدابها ، ذلك لأن مطاردة اللغة العربية والثقافية العربية على إثر حركة التتريك فى المدارس والمحاكم وكافة المحافل والأوساط الرسمية ، كانت بمثابة كارثة لدى أبناء العربية الذين زاد استمساكهم بلغتهم ، واشتد تعصبهم لها واعتزازهم بها .

وبدا هذا واضحاً جلياً فى البحوث التى ألقيت فى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ ، وهى البحوث التى اتسمت بالفهم المتكامل للقومية العربية والتى اختفت منها النزعة الدينية ، فأصبح لدى المثقفين من العرب وعى كامل وإحساس بالكيان العربى .

ويبدو أن بعض المفكرين فى أوائل عهد الانتفاضة العربية قد فهموها أو فسروها بحسن نية طبعاً على أنها حركة إسلامية ، واختلط الأمر عليهم بسبب تلك الرابطة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية . ولكن الأمر تكشف واتضح قبيل الحرب العالمية الأولى . فلما نشبت الحرب وقامت ثورة الشريف « حسين » على الأتراك . نظر إليها على أنها تهدف إلى تحرير البلاد العربية من الحكم العثمانى وتكوين دولة عربية مستقلة تضم كل المناطق التى تسود فيها اللغة العربية. ثم كانت النكسة للقومية العربية بعد هذه الحرب ، وظهرت بين البلاد العربية حركة التفتيت أو التشتيت التى عمل لها الاستعمار جاهداً ، وجنى ثمارها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية . وأصبحنا فإذا بالبلاد العربية مناطق يستقل بعضها عن بعض ، وقد قسمت إلى وحدات سياسية صغيرة لا مسوغ لها سوى أطماع الاستعمار ودسائسه ومؤامراته . وأصبح العربى الذى كان يتنقل بين هذه المناطق فى حرية تامة ، ويجد فى أى منها مستقراً وموطناً . يعد أجنبياً إذا انتقل من بلد عربى إلى آخر . فأقيمت الحواجز الجمركية بين هذه الوحدات السياسية ،

---

(١) دراسات فى المجتمع العربى . القسم الخاص بالدكتور محمد أنيس ص ١٩٢ — ١٩٦ .

وخضعت لنظم مالية واقتصادية متباينة . فظهرت لذلك خلال الثلاثينيات نزعات إقليمية كالنزعة الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان، والقومية فى سوريا ، ونحو ذلك .

ويعنينا هنا اختلاف اللهجات بين المناطق العربية ، فقد استغله الاستعمار أسوأ استغلال فى حركة التفتيت التى قام بها .

ذلك لأن لهجات الكلام قد تطور أمرها منذ قرون ، وأهمل شأنها فى المناطق العربية ، وتركت تجرى على الألسنة فى الأسواق وفى تعامل العامة بعضهم مع بعض ، وأدّى هذا إلى انحراف فى نطق بعض الأصوات العربية ، وإلى تغيير فى بعض صيغها وتراكيبها ، واصطبغ هذا بصبغة محلية لاتزال تلمس أثرها حتى الآن . وكأن المثقفين والخاصة من أبناء العرب قد قنعوا فيما مضى بما ورثوه عن أجدادهم من تراث فكرى مكتوب ، ورأوا أن العمل على سعة انتشاره بين أبناء العرب وحسن مدارستهم له ، كفيل بتقويم الألسنة والقضاء على تلك الفروق النطقية التى عزلت المناطق العربية بعضها عن بعض .

ونحن إذ ندعو الآن إلى دراسة هذه اللهجات المحلية فإنما ندعو إلى علاجها وننظر إليها على أنها أمراض ابتليت بها الألسنة العربية ، ولاسبيل لعلاجها إلا بتشخيصها التشخيص العلمى الصحيح . ولايتحقق ذلك إلا بدراستها من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب وما قد تتضمن من ألفاظ أجنبية .

فالقومية العربية الآن قد أصبحت حقيقة ثابتة بما حققته من إنشاء جامعة عربية ، وتأسيس للمجامع اللغوية فى مصر وبغداد ودمشق ، وبما نشر من مئات الكتب العربية التى ألفها السلف ، وبالتبادل الثقافى بين البلاد العربية على نطاق واسع ، وأخيراً وليس آخراً بما تواجهه من تحديات الاستعمار وعمله على وأدها . ولكنها مع هذا لا تزال بحاجة إلى دعم ، وإلى جهود متضافرة لصيانتها والحفاظ عليها . وقد يكون من وسائل هذا الدعم القضاء على كل المتناقضات التى نشهدها الآن بين البلاد العربية من أنظمة مختلفة فى الحكم وفى النواحى الاقتصادية ، ومن تخلف فى المستوى الثقافى فى بعض مناطقها .

ولكن الدعم الحقيقى فى رأيى إنما يكون عن طريق اللغة ووحدتها نطقاً وأداء بين البلاد العربية . ولعلّى لا أكون مسرفاً حين أقرر أنه إذا تحققت لنا وحدة لغوية حقيقية كتلك التى ألّفت بين الألمان وبعثت فيهم القومية الألمانية ، أو كالتى وحدت إيطاليا وخلقت فيها القومية الإيطالية ، إذا تحقق لنا هذا فقد تحقق كل شىء .

ذلك لأن اللغة العربية المشتركة التى يلتف حولها العرب الآن لا تزال فى أغلب صورها لغة مكتوبة لا منطوقة ، بل لا تزال تفتقد فى هذه اللغة المكتوبة وحدة كاملة شاملة . فلا تزال مصطلحات الحكم والإدارة تختلف بعض الاختلاف فى البلاد العربية ، ولا تزال بعض الاستعمالات العامة التى نقرؤها فى الصحف والكتب والمجلات تتسم بالصبغة المحلية ، بله المصطلحات العلمية فى القانون والطب والهندسة والزراعة وسائر العلوم الحديثة . وتعمل المجامع اللغوية فى البلاد العربية جاهدة على علاج هذه الظاهرة المؤسفة ، غير أن جهودها لم تكلل بكل النجاح ، لا لتقصير فيما تبذل من جهد ، بل لضعف التشجيع ، وافتقاد النظرة الجدية المخلصة إلى عملها بين بعض من بيدهم مقاليد الأمور فى البلاد العربية . فليس لها من النفوذ والسلطان ما تفرض به جهودها أو ما يساعدها على نشرها وشيوعها بين الناس . ولكن الخطر هنا هيّن على كل حال ، فجهود المجامع اللغوية على بطئها ، والصلات الثقافية التى تتوطد يوماً بعد يوم بين البلاد العربية ، كل ذلك كفيل بوحدة شاملة فى المصطلحات والأساليب وطرق التعبير ، ونحن ولا شك واصلون إليها فى المستقبل القريب . أما الخطر الأكبر فينحصر فى الأدب المنطوق وفى لهجات الكلام والتخاطب[1] . ولسنا نتطلع إلى المستحيل أو ما يشبه المستحيل بأن نتصور أنه من الممكن أن يتوحد النطق فى كل البلاد العربية ، أو أن يتماثل تماثلا تامًّا ، بحيث إذا سمعنا العراقى مثلا يقرأ نصًّا أدبيًّا وسمعنا المغربى يقرأ نفس النص لا نلحظ أى فارق

---

(١) انظر للمؤلف مستقبل اللغة العربية المشتركة — نشر معهد الدراسات التابع لجامعة الدول العربية .

صرفى ، حتى ولو كانت آذاننا مدربة على التقاط الأصوات والتمييز بينها ، مرهفة لا تغفل عن نبرة أو جرس . فمثل هذه الدرجة من المماثلة لا يتصور وجوده حتى فى الأسرة الواحدة . كذلك لا نتطلع إلى أن تصبح لهجات الكلام فى البلاد العربية موحدة أو متماثلة فى كل شىء ، فهذه أيضاً حال لم تصل إليها أرقى اللغات فى العالم ، وليس من الضرورى أن تبلغ هذا المدى لتحقيق القومية المتماسكة التى فيها تكتمل جاذبية الأفراد بعضهم إلى بعض ، وشعورهم جميعاً بتميزهم وكيانهم ، وتعاونهم على ما فيه الاستقرار والأمن والرخاء .

فى إنجلترا مثلاً لا نزال نلحظ دون عناء أو خبرة خاصة ، بعض تلك الفروق النطقية التى تميز سكان لندن من سكان إسكتلندا ومن سكان « ويلز » حين يقوم أحدهم خطيباً فى حفل أو ندوة ، ويحاول جاهداً أن يتحدث بتلك الإنجليزية النموذجية المشتركة التى استقر شأنها منذ سنين ، والتى حُددت مستواها ومعالمها وسماتها فى الدراسات الصوتية الحديثة على أيدى أشهر الدارسين من اللغويين . وقنعت القومية الإنجليزية بهذا القدر من الوحدة اللغوية ، وتركت تلك الفروق النطقية الطفيفة للزمن ، وأصبح المصلحون والقادة يرون ويحق أن الإمكانيات الإذاعية الحديثة كفيلة بتقريب هذه الفروق من حدود اللغة المشتركة ، وأنه ليس من البعيد فى المستقبل أن تلتقى معها أو تتطابق ، فلا تكون هناك أى شبهة أو مسحة للهجات محلية .

فإذا نظرنا إلى الوضع اللغوى فى معظم البلاد العربية الآن وجدنا نهضة كبيرة فى دراسة اللغة العربية وآدابها ، فى الشعر و المقال وفى القصة والمسرحيات ، غير أن معظم هذه الآثار الأدبية لايزال فى صورة الأدب المكتوب تقرؤه الأعين قراءة واحدة ، ولكن لاتكاد تنطلق به الألسنة فى شكل موحد أو شبه موحد : فالعراقى ينشد الشعر العربى فى نبر وإيقاع متميز عن إنشاد المصرى له ، والشامى تتميز بعض أصواته حتى فى قراءة القرآن الكريم عن أصوات المغربى . فبرغم أن لنا لغة أدبية نموذجية مشتركة انحدرت إلينا عن أجدادنا العرب ، وسُجلت لنا فى تراث فكرى ضخم نعمل الآن على نشره وتحقيقه ، لكنا ورثناها مكتوبة لا منطوقة ، ونحن

بحاجة الآن إلى أن نُنطقها ، وأن نخرجها من صمتها الذى طال أمده ، وأن نجعلها ككل اللغات المشتركة الحديثة لغة كتابة ولغة أداء ونطق ، بحيث إذا تحدث بها العربى مع أخيه العربى فى مجلس أو ندوة لا يشعر بعد قليل بالملل والسأم ، ولا يحس بالإرهاق الذهنى ، ولا يوصف بالتكلف أو التفيهق كما هو الشأن الآن . ذلك لأن سيطرتنا على هذه اللغة قد كادت تبلغ الذروة حين نكتب بها ونسجل أفكارنا بتعابيرها وأساليبها ونتبادل كل هذا فى سهولة ويسر ، غير أنا حين نعمد إلى النطق تتعثر الألسنة لدى معظم الناس حتى المثقفين منهم ، ويظهر اللحن فى أشنع صوره . فدرجة سيطرتنا على النطق بهذه اللغة وأدائها لا تقارن بمستوانا العظيم فى الكتابة بها ، فنطقنا بها أدنى كثيراً جداً من كتابتنا بها . ولا غرو لذلك أن تعد لغتنا المشتركة التى نعتمد عليها فى وحدتنا نحن أبناء العرب ، لغة مكتوبة لم تصل فى النطق بها إلى مستوى اللغات المشتركة الأخرى .

أما من حيث لهجات الخطاب فالموقف أشنع وأبعث على المرارة والحسرة . فقد يذهب المصرى إلى أسواق العراق أو المغرب فيجد التفاهم مستحيلا ، أو شبه مستحيل . ولا يكاد يقضى حاجته فى بيع وشراء إلا بشق الأنفس . فالألفاظ مختلفة والتراكيب مختلفة والأصوات مختلفة . فإذا لجأ إلى اللغة المشتركة الفصيحة أصاب المتكلم والسامع دوار ، أو إرهاق بعد فترة وجيزة ، ثم قد ينتهى الأمر مع الأسف أن يتخاطبا بلغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية التى يتصادف أن كلا منهما يحسن الخطاب بها . فالكمثرى فى مصر هى العرموط فى بغداد . والبرقوق فى مصر هو الخوخ فى الأردن ، والخوخ فى مصر هو الإجاص فى الشام . وكلمة « البرطة » التى لها دلالة رديئة فى مصر ، لها دلالة طيبة فى لبنان والأردن ، فهى هناك نوع من المثلجات التى تشتهيها النفس فى الجو الحار . ولا يتسع المجال هنا لسرد أمثلة من تلك المفارقات المضحكة أحياناً ، والمؤسفة فى أحيان أخرى . ويدرك كل من طاف بالبلاد العربية عمق الدرك الذى هوت إليه لهجات الخطاب فى البلاد العربية ، وبين أبناء العرب الذين يتطلعون إلى وحدة قومية متماسكة .

ويبدو أن قوميتنا العربية التى تقوم أساساً على وحدة اللغة تتطلب دعماً أقوى يحقق الارتباط الوثيق والتماسك الوطيد بين أبنائها .

ولست أزعم أن تحقيق هذا المستوى أمر هين يسير ، بل هو فى رأيى يتطلب زمناً طويلا وجهوداً متضافرة بين القادة والزعماء فى البلاد العربية ، ويتطلب دراسة تخطيطية دقيقة ، وفوق ذلك كله إخلاصاً حقيقياً لقضية القومية العربية .

وفى رأيى أنه لو وجهت كل جهود البلاد العربية إلى هذا الغرض وحده وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات لجنينا ثماراً له لا تقدر بمال ، ولشهدنا قومية عربية حقيقية متماسكة لا تنفك عراها ، منيعة عزيزة لا تنال منها أحداث الزمن ، وذلك خير لنا من أن نؤسس قوميتنا على شعارات أقرب إلى الخيال والوهم ، كتوحيد النظم الاقتصادية ، أو المذهب السياسى ، ونحو ذلك مما لا يلبث أن يصطدم بالآمال الشخصية ، ويكتنف بالشكوك والريب فى العلاقات بين البلاد العربية .

ولدينا فى العصر الحديث من الإمكانيات الإذاعية ، ووسائل النشر والإعلام ما إذا أحسن استخدامه ، وخلصت النية فى توجيهه ، حقق لنا لغة عربية مشتركة ، تسود كل البلاد العربية ويحسنها قومها كتابة ونطقاً وأداء ، وتشد أبناءها بعضهم إلى بعض ، فتؤلف منهم مجتمعاً عربياً حريصاً على عزته وكرامته ، يشعر فى شعور واحد ، ويفكر فى عقل واحد ، فلا منازعات ولا خصومات ، بل سلام وحسن تفاهم ، وتعاون على الاستقرار والأمن فى أرضهم ، وتآزر فى التصدى لأعدائهم الطامعين فى خيراتهم ، وعمل على الرخاء الذى يكفل لهم حياة كريمة ذات مستوى من العيش رفيع ، وحينئذ نفخر بقوميتنا العربية ، ونزداد بها اعتزازاً واستمساكاً .

فالقومية العربية فيما مضى أيام ازدهارها فى عهود الأمويين والعباسيين وأمراء الشام وخلفاء الأندلس والأيوبيين فى مصر لم تعتمد أساساً إلا على اللغة وآدابها وهى فى العصر الحديث كذلك لا تستلهم وجودها إلا عن طريق هذه اللغة

ولا يتحقق دعمها إلا على أساس ذلك اللسان العربى المبين .

وأود أن أختتم هذا الفصل بما كتبته أديبة عربية كبيرة فى الصحف [1] بعد أن زارت الجزائر عدة مرات أولاها سنة ١٩٦٣ وآخرها سنة ١٩٦٨ ، تحت عنوان « معركة التعريب على أرض البطولات » وكان مما جاء فى مقالها قولها :

(يسمونها فى أرض البطولات معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة ، وبمنطق بسيط يقولون إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائرى ، وبقى أن تخوض الجزائر معركتها لتحرير لسانها ، وتحرير اللسان يعنى تحرير الفكر والوجدان والضمير ، وبغير هذه الحرية يكون الاستقلال وهماً والنصر عقيماً).

ثم تقول : (وحين كان التعريب قضية مطروحة علينا فى مؤتمر المعلمين العرب بالجزائر بدت لنا نحن الأعضاء الوافدين من أقطار الوطن العربى هينة يسيرة سهلة ، يكفى لها أن تجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت . ومثل الشعب الجزائرى لا يشق عليه أن يفرض إرادته الحرة على أبنائه ، وقد فرضها على المستعمر فى عنفوان جبروته . ولكنها أعمق غوراً وأعقد مسلكاً فى حساب من يواجهونها فى دوامة الصراع . فالخصوم فيها ضحايا فى الوقت نفسه . ضحايا عهد طويل من الاستعمار امتد قرناً وبعض قرن . فرض فيه لسانه وثقافته وسيطر على التعليم المدرسى نظاماً وخطة ومنهجاً ولغة ومادة ومناخاً) . ثم تقول : (ولدى أجيال تخرجت أفواج من هذه المدارس لا يملكون التعامل أو التفاهم بغير لغة المستعمر ، ولا يجدون سبيلا إلى زاد فكرى أو وجدانى إلا فى مكتبته ! ! واستطاع الضمير الشعبي مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية وطنهم فشاركوا فى النضال قدر ما استطاعوا . وجلا المستعمر فإذا بهم يسمعون فجأة دعوة إلى التعريب تتجاوب بها آفاق الجزائر . وكان من الطبيعى أن يتصدوا لمقاومتها لا عن خيانة للوطن فى تقديرهم ، ولا عن جهل منهم بشرعية حق الأمة فى تحرير لسانها ، ولكن دفاعاً عن كيانهم ووجودهم . وقد رأوا أن دعوة التعريب تحرير لن يطول بها الزمن ، ثم تذهب مع الريح . وفاتهم حس الوعى الثورى لأمة تريد

---

(١) بنت الشاطئ ملحق الأهرام فى ١٩٦٨/٨/٢٣ .

تحرير لسانها واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية بكل ملامح عراقتها. وفاتهم كذلك أن فداحة التضحيات التي اقتضاها الكفاح المسلح لم تستنفد طاقة الشعب ، وإنما أعطته رصيداً ثورياً يخوض به معركة الأصالة في إصرار ، كيلا يتحول النصر إلى هزيمة . وكان أن صارت دعوة التعريب إعلان ثورة وشعار مرحلة ونداء معركة . وتحدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة منها بمقتضى قرار جمهوري صدر في شهر أبريل من عامنا هذا معلناً إصرار الأمة على استكمال تعريب لسانها في موعد أقصاه أول عام ١٩٧٠ . . معطياً مهلة عامين اثنين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لمحو الأمية ، أو استكبروا أن يدخلوها ، ومحققاً إرادة الأمة في أن تخرج حركة التعريب من مجال الجدل الخطابي والحوار الكلامي إلى مجال التنفيذ .

(وأتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ إيذان باقتراب الأزمة من ذروتها العنيفة . وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى النفاذ :

فالدواوين توشك أن تستكمل تعريبها ، والأسماء الفرنسية للشوارع والطرقات والأزقة قد رفعت واستبدل بها أسماء جزائرية وعربية صميمة . ولافتات المتاجر ترجم أكثرها إلى العربية ، واكتفى في بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية . ومدارس العربية لمحو الأمية تنتشر على امتداد الأرض الجزائرية ، وتكاد تضيق على سعتها بمن يحرصون على محو أميتهم العربية قبل عام ١٩٧٠ والصحف اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية . ومعاهد المعلمين تضع في حسابها تخريج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء المرحلة) ، ثم تنهي كلامها قائلة : (إلى ذلك المدى تتعقد معركة التعريب وتمتد أبعادها في العمق الغائر من الكيان الجزائري ، وتأخذ وضعها الصعب في دوامة الصراع بين متناقض التيارات . وهكذا تحتدم معركة تحرير اللسان القومي امتداداً لحرب التحرير . . وما كنت أدري أنها بلغت ذاك المدى من التعقد والعنف حتى كانت رحلتي إلى الجزائر هذا الصيف) .

* * *

الفصل السابع

العالمية واللغة

يتمثل تاريخ الإنسانية فوق سطح البسيطة فى سلسلة من المآسى الدامية ولا فرق فى هذا بين عهود الهمجية وعصور المدنية والحضارة . ويبدو أن الإنسان لم يوفق حتى الآن فى الاهتداء إلى نظام اجتماعى يكفل لبنى جنسه حياة يسودها السلام والاستقرار والأمن والرخاء . ولم يُجد معه شرائع سماوية أو وضعية ، فكلما تخيلنا أنه قد آن الأوان لمثل هذه الحياة ، وتصورنا أن روح الخير فى طريقها إلى السيادة ، نظرنا فإذا بالشرور تتغلب ، والحروب تنتظم الأرض ومن عليها . وقد تبدو هذه النظرة متشائمة إلى أبعد حدود التشاؤم ، ولكنها مع الأسف الشديد ، واقعية تؤيدها أحداث التاريخ قديمه وحديثه .

بدأ الإنسان نظامه الاجتماعى فى صورة قبلية اتسمت بشن الغارات ، وبالاعتداءات على الأرواح والأعراض والممتلكات ، وانتهى هذا النظام إلى ما نشهده الآن من صور مروعة لقسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

وانتقل الإنسان من الحياة القبلية إلى تأسيس المدن والقرى ، فبدأ بهذا مرحلة جديدة فى نظامه الاجتماعى ، وبدأ معها ما عرف بعد ذلك بالقومية التى هى فى أوضح تعريفاتها لا تعنى أكثر من أن جماعة من الناس يحسون فى قرارة نفوسهم بقوة قاهرة تجذب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين شعورهم وعواطفهم وآمالهم ، فيتعاونون معاً على تحقيق أكبر قدر من السلام والاستقرار والرخاء فيما بينهم .

وقد تبين لنا فيما عرضناه آنفاً أن السر الحقيقى فى مثل هذا الشعور الموحد هو الاشتراك فى لغة واحدة ولا شىء غير هذا ، وأنه إذا كان للقومية مفهوم محدد ، يجب أن نلتمسه فى الاشتراك اللغوى بين أفراد بيئة من البيئات .

فإذا سلمنا بهذا المنطق أمكن أن نتصور أن للقومية على هذا مستويات :
أصغرها الأسرة التي ندرك جميعاً أن اشتراك أفرادها في اللغة يأخذ عادة أتم صورة من صور التماثل في الأصوات والتعابير وفي ألفاظ كثيرة تختص بها الأسرة وحدها . ولا تكاد تُعرف في أسرة أخرى . وإذا تجاوزنا عن الغرائز الفطرية التي تربط بين الأب وأبنائه والأم وما تلد ، والتي تصل بين الإخوة والأقارب من أعمام وأخوال وعمات وخالات ؛ وجدنا أن هناك رابطة أخرى خلقها الإنسان أو اصطنعها وقوّى بها تلك الرابطة الطبيعية الغرزية ، وهذه هي اللغة التي يتكلم بها أفراد الأسرة ويتفاهم بها بعضهم مع بعض في صورة هي غاية في المماثلة والوحدة .

وإذا تصورنا لمجرد الفرض أن أسرة قضت تقاليدها أن الوليد فيها يُربى منذ طفولته بعيداً عن أبويه وأهله وأقاربه في بيئة أجنبية لها لغة أخرى غير لغة أبويه ، وتصورنا مع هذا أن أبناء هذه الأسرة قد شاءت ظروف خاصة أن تجمع شملهم بعد حين في صعيد واحد ، وهم كبار راشدون ، فوجدوا أنفسهم ينطقون بألسنة متباينة . فهل يمكن مع هذا أن ندّعي أن الصلة بينهم تكون كالتي بين أسرة أخرى يتكلم أفرادها لغة واحدة ؟ هل يشعرون بذلك الشعور الموحد الذي يحفزهم إلى التعاون والتآزر ويجعل منهم أسرة متماسكة ؟ هل يمكن أن يتحقق هذا حتى مع معرفة الابن أن أباه فلان ، وأن أمه فلانة ، ومع تعرّفه على إخوته وأعمامه وأقاربه ، وإحساسه بالصلة الطبيعية الغرزية التي تربطه بهم ؟

من هنا ندرك قدر الاشتراك في اللغة بين أفراد الأسرة ، وأنه دعامة كبرى في تقوية الصلة بينهم ، بل ربما يكون أقوى وأمتن في الربط بينهم من تلك الصلة التي أساسها الفطرة والغريزة . وهكذا نجد أن القومية في أصغر صورها ، ولكن في أحكمها وأوثقها من ناحية أخرى ، تتمثل في نظام الأسرة .

فإذا صرنا إلى نظام القبيلة تبين لنا أيضاً أن المماثلة في اللهجة وأداء الكلام أقوى رباط بين أفرادها ، إذ يجعل لهم كياناً متميزاً ، و يحفزهم إلى نصرة بعضهم بعضاً ؛ ويذكرهم دائماً بأنهم يختلفون عن غيرهم من القبائل ،

وإن اشتركوا معهم فى بعض الصفات والعادات . فالشعور الموحد بين أفراد القبيلة صورة أخرى من صور القومية فى تاريخ الإنسانية ، تشبه ما بين أفراد الأسرة الواحدة شبهاً كبيراً ، وإن كانت أوسع دائرة أو نطاقاً .

ثم اتسعت دائرة القومية حين أسس الإنسان المدن والقرى ، وتكونت الدول التى يضم كل منها عدداً من تلك المدن والقرى . وأصبحنا فإذا بذلك الشعور الموحد الذى ندعوه بالقومية يتحقق فى القرية كما يتحقق فى المدينة ، ولكنه فى الأولى أقوى وأوثق : غير أن مبعثه فى الحالين الاشتراك فى اللغة ، والتشابه الذى يوشك أن يكون تماثلا فى لهجة الكلام ووسائل التعبير .

فالقومية بمعناها الحديث قد عرفت طريقها إلى النظام الاجتماعى للإنسانية فى عصور التاريخ .وكان هذا منذ تأسيس المدن والقرى أو الدول . ولكنها لم تتخذ الطابع السياسى الذى نألفه الآن إلا فيما بعد ، بل ظلت كامنة متربصة فى حالات ، ثائرة ملتهبة فى حالات أخرى . ولكن الناس فى العصور التاريخية وتحت ظروف القهر والإذعان لم يعنوا بالربط بين قومية الحاكم وقومية المحكومين ، ولم يجدوا فى أحيان كثيرة غضاضة فى أن تحكمهم قوة أجنبية عنهم : لا تشركهم فى قوميتهم أو فى شعورهم الموحد : طالما حققت لهم النظام والاستقرار والرخاء . ومن هنا كانت الدول الكبرى والإمبراطوريات العظيمة التى حدثنا عنها التاريخ ، ثم التى أصبحت فى خبر كان .

وهكذا نتصور أن الإنسانية قد شهدت فى تاريخها أعداداً من القوميات بقدر ما كان لها فى كل عصر من لغات مختلفة متباينة ..

ثم كان بعض الديانات السماوية التى دعت إلى العالمية ، وربطت بين الإنسان وأخيه الإنسان برباط روحى : كالمسيحية والإسلامية . إذ يدعو الإسلام إلى العالمية ،ولا يكاد يحفل بالقومية بمعناها السياسى الذى يتطلع إليه كل شعب من الشعوب ، بل ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم أبناء أب واحد هو آدم ، وأم واحدة هى حواء ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بمقدار جنوحه إلى الخير ، وتقواه وروحانيته ، وتمسكه بما جاءت به الكتب السماوية

وشعوره العميق بربوبية خالقه فاطر السماوات والأرض . وأخذت العالمية على يدى الإسلام والمسيحية صورة روحية لم يقنع بها الإنسان فى توجيه حياته فى الدنيا ، وتدخلت تلك القوى الكامنة التى تفصل بين الجماعات . وتقيم بينهم حصوناً وقلاعاً ، والتى كانت على الوحدة الإنسانية مصدر بلاء وشر فى كل العصور ، وتلك هى اللغات المتباينة التى ميزت شعباً من شعب أو قوماً من قوم ، وأصبحت أكبر حافز على ما نسميه بالقومية . فاختلاف اللغات أو بلبلة الألسنة ، كما تصورها الديانات السماوية مظهر نقمة من الرب على عبده ، أريد به ابتلاء الناس فى دنياهم .

ولست ممن يدعون إلى الاستشهاد بالنصوص المقدسة فى مجال العلم ، فللبحث العلمى تطوراته أو زلاته ، ولا يصحّ لهذا أن ترتبط به العقيدة . فليس يتسم البحث العلمى بالصحة المطلقة ، بل إن نظرياته ونتائجه قد تتعرض للتغير والتبدل عصراً بعد عصر أو جيلا بعد جيل . فبعض ماعدّه « نيوتن » صحيحاً فى وقت ما ، برهن « أينشتين » وأمثاله على خطئه . وبعض ماعالج به ابن سينا مرضاه يسخر منه أطباؤنا فى العصر الحديث . وذلك لأن النظريات العلمية مهما سما قدرها لا تعدو أن تكون جهوداً إنسانية اهتدى إليها الباحثون على قدر ما سمحت به عقولهم وتجاربهم . فليس لها سمة الدوام والخلود . فى حين أن العقيدة عند المؤمنين بها عاطفة روحية سماوية ينزهها أصحابها عن تلك الهزات التى قد تعرض لمسائل العلم الدنيوى ، وليس دوام صحتها محل خلاف أولئك عند المؤمنين ، بل توصف دائماً بأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وربطها من أجل هذا بجهود الإنسان ، وشطحاته فى كثير من الأحيان ، يهبط بها من عليائها ، وقد يجعل تعاليمها عرضة للتغير والبطلان على توالى العصور .

ومع هذا فلست أدرى كيف وجدتنى أنساق إلى الحديث عن موقف الديانات من اختلاف اللغات البشرية ، وأنا بصدد البحث فى دور هذه اللغات فى الحياة الاجتماعية للإنسان ؟ ربما لأنى وقد قرأت الكثير عن دور اللغة فى تاريخ

البشرية ، أحسست أن انطباعاتى من تلك القراءة تتسق إلى حد كبير مع فهمى للنصوص المقدسة ، أو ما أستوحيه منها حين عرضت تلك النصوص لاختلاف اللغات وتباينها بعد أن كانت لغة واحدة .

فتحدثنا التوراة فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين أن الأرض كانت كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . ثم إن الناس قال بعضهم لبعض هلمّوا نبن لأنفسنا مدينة فيها برج يطاول السماء ، وهلموا نخلع على أنفسنا شعاراً يوحد بيننا ، ويحول دون تبددنا وتشتتنا فوق ظهر البسيطة . فلما رأى الرب ما هموا به ، وتبين لحكمته سبحانه أن وحدة اللغة ستدفعهم إلى الطغيان والجبروت فلا يمتنع عليهم أن يعملوا ما ينوون عمله ، بلبل ألسنتهم فلم يعُدْ يفهم بعضهم بعضاً ، وبدّد وحدتهم على وجه الأرض ، فكانت لغات مختلفة لبنى الإنسان، برغم أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، وتلك هى لعنة بابل التى كثيراً ما يشار إليها فى كلام المفكرين من علماء أوربا .

فنصوص التوراة ولا ريب تجعل اختلاف اللغات بين البشر مظهراً من مظاهر ابتلاء الرب لعباده فى الحياة الدنيا : حين بدا لحكمته أن توحدهم فى لغة واحدة قد استُغِلّ فى تحدى ربوبيته .

فوحدة اللغة كانت فى بدء الخليقة خيراً ، أو أريد بها أن تكون خيراً للإنسان ولكنه أساء استغلالها ، وتحدى عن طريقها خالقه . فلولا لعنة بابل لكان الناس أمة واحدة أصحاب لسان واحد ، وقومية واحدة : يتفاهمون بعضهم مع بعض فى سهولة ويسر ، ويقضون مصالحهم فى الدنيا دون نزاع أو شقاق .

هذا هو مبلغ فهمى لموقف التوراة من اختلاف اللغات ؛ فما موقف القرآن الكريم ؟ جاء النص على اختلاف الألسنة مرة واحدة فى القرآن الكريم وبين آيات من سورة الروم ، تلك السورة التى تتضمن آياتها صورة رائعة لقصة الحياة البشرية فوق الأرض . ففيها ست آيات متواليات تبدأ بالآية التاسعة عشرة وتحكى فى إيجاز قصة البشرية منذ الخليقة إلى البعث وهى :

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته

أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذ دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الستة تلخص لنا فى إيجاز رائع قصة الحياة البشرية فوق الأرض ، وتبدأ كل هذه الآيات بعبارة «ومن آياته» ، أى من علاماته ومن دلائل قدرته وربوبيته وحكمته ، لعل الإنسان يتفكر ، لعله يسمع ويفهم ، لعله يعقل . فكلمة الآية فى الأسلوب القرآنى تعنى العلامة ، وهو المعنى الأساسى فى أكثر ما استعملت فيه ، وعنه يتفرع معنى المعجزة أو الحكمة أو المشيئة ونحوها .

ثم إن كلمة الآية بمعنى العلامة قد توحى بنفع مباشر للإنسان ، مثل «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا» ، وقد تدل فى بعض النصوص القرآنية على الضر المباشر ، وذلك حين يشاء سبحانه أن يبتلى الإنسان فى دنياه ليطهره من شروره وطغيانه . وأوضح مثل لهذا قوله تعالى فى آل فرعون : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) ، فكل هذه المحن أصابتهم وكانت بمثابة آيات بينات من عند الله .

ولكن كلمة الآية فى الأسلوب القرآنى ، وفى معظم حالاتها ، لا توحى بأكثر من أنها علامة على قدرة الخالق .

ونتساءل بعد هذا هل كان اختلاف الألسنة والألوان من مظاهر نفع الإنسان فوق الأرض كما يُفهم من كلام بعض المفسرين ، أو هو ابتلاء من الله لخلقه فى الحياة الدنيا ؟

أما من حيث اختلاف الألوان فما نراه الآن فى بعض الشعوب من تعصب

الإنسان وكراهيته لأخيه الإنسان بسبب اللون ، وما نسمع عنه من مآسى التفرقة العنصرية ، لأكبر دليل على أن اختلاف الألوان مظهر ابتلاء للإنسان فى الحياة الدنيا .

وكذلك الشأن فى اختلاف الألسنة ، حين نتذكر المآسى التى كانت فى كل عصور التاريخ بسبب اختلاف اللغات ، من حروب وثورات ليس لها من سبب حقيقى سوى أن المجتمعات البشرية قد عجزت عن فهم بعضها البعض حين افتقدت وسيلة موحدة للتفاهم تنتظمهم جميعاً .

اختلاف الألسنة إذن ككل المصائب التى يبتلى بها الإنسان ، شاءت حكمته تعالى أن تكون فكانت ، ولكن الذى صنعها بعقله ولسانه هو الإنسان ، فهو المسئول عنها ، وعليه تحمل شرورها وويلاتها ، وإن اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون. ومن هنا نرجح القول الذى ينادى به معظم اللغويين من أن اللغة اصطلاحية أى من صنع الإنسان ، بدأها ونماها وطورها ، ثم أصبحت على الإنسانية مصدر شر كبير .

فالعالمية التى دعت إليها الديانات السماوية قد حال دون تحققها ما صنعه الإنسان لنفسه ، وما جلبه على نفسه من تباين فى اللغات فوق الأرض .

فلما كانت العصور الحديثة تمخض التباين فى اللغة عن تباين فيما يسمى بالقومية ، واتخذ أصحاب كل لغة ، قومية خاصة لأنفسهم تميزهم عن غيرهم ، وتفصل بينهم وبين الشعوب الأخرى . وقد تحفزهم إلى الكراهية والاعتداء على الآخرين من إخوانهم فى الإنسانية . من أجل ذلك ظهر بعض المفكرين المصلحين الذين سموا بعقولهم على المحلية ، وطهروا نفوسهم من تعصب القومية ، وبدأوا يدعون إلى العالمية ، ويذكرون بنفعها للإنسانية .

واتجه بعض المنادين بالعالمية فى العصر الحديث : لا إلى تلك العالمية الروحية التى دعت إليها الديانات ، بل إلى نوع من العالمية المادية الواقعية .

فعالم الاقتصاد « تنيسون » دعا إلى نوع من العالمية فى صورة مبدأ التجارة

الحرة ، ومن قبله دعت الثورة الفرنسية إلى مبادئها الإنسانية السامية من حرية وإخاء ومساواة ، ثم أخيراً جاءت الماركسية تنشد نوعاً جديداً من العالمية على أساس مادى واقتصادى .

وقد شارك معظم الإنجليز فى الإيمان بذلك الحلم الذى نادى به عالمهم الاقتصادى « تنيسون » فى القرن التاسع عشر من إنشاء اتحاد للتجارة بين الشعوب يضمن مصالحها جميعاً ، ويقود إلى ما يشبه « برلمان » للبشرية أو إلى اتحاد عالمى . وتحقق حرية التجارة فى رأى « تنيسون » هذا الأمل ، إذ معها تستطيع كل منطقة أن تنتج خير ما تصلح له ، وأن تكرس جهودها لذلك ، ثم يكون التبادل الحرّ بين هذه المناطق فى السلع ومختلف الإنتاج .

ولم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبخر حلم « تنيسون » ، وأصبح نوعاً من الوهم والخيال . فقد ظهرت القومية الألمانية ، وبدأت حياتها بتأسيس نظام للجمارك والتعريفة الجمركية التى قصد بها منافسة البضائع البريطانية والحيلولة دون تسربها إلى نطاق القومية الألمانية [١] .

أما الدعوة العالمية التى نادى بها « ماركس » فقد ظهرت فى روسيا فى صورة ما يسمى بالكمنفورم الذى لم يلبث أن حُلّ . ولما يمض على تأسيسه نصف قرن . فقد بدأت الثورة الروسية على أساس فكرة الوحدة بين العمال فى العالم ، واعتقد زعماء هذه الثورة فى بادئ الأمر أن الوحدة العالمية لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس هذه العقيدة . ولكنا بدأنا الآن نشمّ فى الاشتراكية السوفيتية رائحة القومية الروسية القديمة . ولما ينقض على ثورة روسيا أكثر من خمسين عاما . وقد تبدت الروح القومية الروسية فى أجلى مظاهرها وعنفوانها فى دفاعهم المجيد عن أرضهم فى الحرب العالمية الثانية . وأصبحت شيوعية روسيا الآن صورة من صور القومية ، تشبه إلى حد ما ما كانت عليه النزعة السلافية أيام القياصرة .

وحتى فى أمريكا التى تمت الهجرة إليها من جميع أنحاء العالم على أنها مهد لحرية الإنسان أيًّا كانت قوميته ، والتى كرست حكومتها فى بادئ الأمر كل

(١) Five Ideas that change the World. by Barbara Ward. P. 17.

جهودها لقضية إنسانية نبيلة هى أن الناس جميعاً متساوون ، وأن المهاجرين إليها إنما هاجروا لا ليصبحوا أمريكيين ، بل لينشدوا الحرية والأمن والرخاء ، أصبحت أمريكا الآن وبعد قرن ونصف قرن من تاريخها ، وقد اصطبغت بالصبغة القومية ، وأصبحنا نسمع عن القومية الأمريكية كما نسمع عن القومية الألمانية أو الفرنسية ، وأصبح أولئك المهاجرون الذين وفدوا إليها من بقاع مختلفة وقوميات متباينة وقد صهروا فى المجتمع الجديد ، واتخذوا لأنفسهم شعار القومية الأمريكية .

وهكذا نرى انتصار القومية فى العصر الحديث حتى فى أمريكا وروسيا ، مما يؤكد لنا أن الغلبة لا تزال للنزعة القومية بين الشعوب . ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن القومية قد بدأت فى جهات أخرى تفقد قوتها ، وتتخذ اتجاها آخر نحو التجمع والتكتل ، ونلحظ هذا بوضوح فى غرب أوربا مهد القومية الصناعية . فالحروب الأوربية القطيعة التى قامت فى أوربا ، والتى هى أشبه فى روحها بحروب الهمجية القبلية ، قد أثارت النقمة على تلك القومية التى عرفت فى غرب أوربا ، وقد انقشع الوهم الذى كان يسود قلوب بعض السياسيين وعقولهم بعد ما لمسوه من رد فعل شنيع لتلك القومية المحمومة ومن نتائجها المؤسفة : فبدأوا الآن يحاولون تأسيس مجتمع أكبر . فيه يتم التنازل عن الشعور بمجتمع فرنسى ومجتمع إيطالى ومجتمع ألمانى ومجتمع هولندى ومجتمع بلجيكى ، إلى مجتمع أكبر يضمهم جميعاً ويكفل لهم البقاء جميعاً . ولكن مثل هذا المجتمع الأوربى الحديث الذى يراد تأسيسه على مظاهر اقتصادية وسياسية ، لا يزال مجرد احتمال ، ومن العسير التنبؤ بمصيره . ولا تزال للفكرة القومية السيادة والغلبة فى العالم .

والقومية سلاح ذو حدين ، ساعدت الشعوب على النهوض من ناحية ، ولكنها أثارت الشحناء والبغضاء بينها من ناحية أخرى . فللقومية صفات نبيلة لا شك فى هذا ، إذ تعلم أصحابها الإيثار والشجاعة والتضحية فى سبيل صلاح المجتمع وأمنه ورخائه . ومعها يحس جميع الأفراد بشعور واحد ، ويفكرون

بعقلية واحدة فيسود بينهم الوئام ، ويتعاونون معاً على مافيه خيرهم جميعاً .

وقد تغنى الشعراء ، وأشاد الخطباء ، وأفاض الكتاب فى الحديث عن القومية والوطنية جيلا بعد جيل، حتى أوشك أن يكون حب الوطن من الإيمان . فالقومية كما تصورها وسائل الدعاية والإعلام مبعث الكرامة والعزة بشعبها ، وهى مصدر الخير والرخاء لأبنائها ، تكفل لهم السعادة والسلام ، وتذود عنهم ، وتدفع كيد الكائدين وشر المعتدين . فى كنفها يسعد الناس بإنتاج وفير ، ويسر ورخاء ، وبأضخم المشروعات وأعظمها شأناً ، وبكل ما تتطلع إليه الشعوب من أسباب الحضارة والمدنية وارتفاع مستوى المعيشة .

وقد يكون من تحصيل الحاصل أن نحاول هنا تعداد مآثر القومية ، فلم تدع وسائل الإعلام والنشر مجالا لمزيد من القول فى هذا الصدد . فهذه المآثر تتردد على الآذان فى كل يوم وفى كل ساعة ، وتلقن للأبناء فى المدارس ، ويدوى بها فى المحافل والأندية . وقد استغلها القادة والزعماء لجمع الناس حولهم ، وضمان تأييدهم ، وصوروها فى شعارات براقة جذابة تأسر القلوب والأفئدة ، وإن كانت فى بعض الأحيان تتسم بالغلو والإسراف ، وفى أحيان أخرى بالاعتدال والأمانة والشرف .

فإذا تجاوزنا فى حديثنا عن القومية وفضلها على الشعوب ذلك الأدب الإنشائى الرائع الذى قيل فيها وصُورت به ، وشئنا أن نلتمس مثلا محدداً نتبين منه مآثر القومية فى نهضة الشعوب ، وجدنا فى تاريخ الصين واليابان خير مثل يوضح لنا قيمة إيجابية للقومية ، وتتمثل هذه القيمة فى تعبئة الجهود وحشدها لتحقيق أهداف اجتماعية جليلة الشأن . وإذا قارنا بين تاريخ الصين وتاريخ اليابان وجدنا أن كلا منهما فى وقت ما قد خضع لضغط التجار الأجانب الذين كانوا يحاولون فتح أسواق جديدة لبضائع أوربا . فبينما أغلقت اليابان أبوابها أمام العالم الخارجى ، وظلت قرنين منذ القرن السادس عشر تحافظ على قوميتها ، وتنتهج سياسة العزلة عن كل تأثير أجنبى ، كانت الصين مرتعاً خصباً للاستغلال الأجنبى . وذلك لضعفها السياسى وتحكم الأسر الحاكمة وسوء

سياستها ، مما قتل فيها إلى حين ، الشعور بالقومية وكل أسباب العزة والكرامة ، ولذلك استغل التجار الأجانب بلاد الصين وخيراتها أسوأ استغلال فى القرن التاسع عشر .

وكان لهذا الوضع المختلف فى الصين واليابان أثره وصداه فى النهضة الأخيرة لكل منهما . فحين أحست اليابان فى منتصف القرن التاسع عشر أن الانعزال عن العالم الخارجى غير مجد بدأت تأخذ بكل الوسائل الحديثة ؛ ورأت فى هذه السياسة الجديدة الطريق الوحيد لمنع تغلغل الأجانب فى نظامها الاقتصادى والاجتماعى . وشرع المصلحون من قادة اليابان وساستها منذ سنة ١٨٧٠ يعملون جاهدين على إصلاح النظام الاقتصادى والسياسى ، ويعيدون تشكيل اليابان على أساس صناعى حديث كالذى شهدوه فى أوربا . ونجح اليابانيون فى نهضتهم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لأن فترة الانعزال الطويلة التى مروا بها قبل ذلك جعلتهم يحسون بخصائصهم وبكيانهم وبقوميتهم ، وجعلت منهم شعباً متماسكاً ذا قومية متميزة يسوده السلام . فى حين أن الصين كانت حينئذ تشبه مركباً تدفعه العاصفة يميناً مرة ويساراً أخرى . ودون أن يكون له شراع يوجهه . أو دفة تهديه . إذ كانت تعانى فرقة داخلية وانقساماً على نفسها ، وكانت تجارتها واقتصادياتها فى أيدى الأجانب يعبثون بها ويسيطرون عليها . ولم تكن بها جهود قومية يمكن أن تعبأ ، بل لم يكن هناك شعور بوحدة أو قيادة حكيمة ؛ وظلت هكذا قرناً من الزمان إلى أن كانت ثورتها الشيوعية .

ومع كل ما تقدم يشعر كثير من المفكرين فى العصر الحديث أن الوجه الآخر للقومية وجه قبيح شنيع يحمل على اليأس من مستقبلها . مع مالها من مظاهر النهضة بين الشعوب . فقد تصرف القومية كل الجهود وألوان النشاط فى طلب الحرية ، فلا يلتفت إلى صوت مصلح ولا فيلسوف ولا واعظ قبل نيل هذه الحرية كما يعبر برنارد شو [١] فى بعض أقواله . وقد تؤدى القومية والتعصب لها إلى نوع من العدوان الأنانى الغشوم على شعوب أخرى ؛ وإلى

The making of the Modern World, by La Zarus and Coppel. P. 201. (١)

الشعور بالتفوق والغطرسة ، والانتقاص من حقوق الآخرين أو هضمها ، لا سيما حين يبالغ فيها ، وتسرف في الدعوة لها وسائل الدعاية والإعلام في الصحف والكتب والإذاعات والمدارس والمحافل والأندية وفي الأغانى والأناشيد . فلم تخلف القومية الهتلرية لأهلها إلا الخراب والدمار ، وكذلك الشأن فى قومية موسولينى . وكان هذا برغم ما بهر العالم من مشروعات قام بها هتلر وموسولينى ، وبرغم الأنظمة الاقتصادية والعمرانية التى أذهلت العالم فى أثناء حكمهما . فالمغالاة فى الدعوة أو الدعاية للقومية الألمانية جعلتها بمثابة البالون الذى يظل المرء ينفخ فيه ويسرف فى تعبئته حتى ينفجر بين أصابعه . ولاشك أن القومية الألمانية قد وصمت أبناءها بالغطرسة والكبرياء ، وبالشعور بالتفوق والسمو على كل الشعوب ، وحفزتهم إلى العدوان البغيض ، ثم قذفت بالعالم كله فى أتون الحرب العالمية الثانية التى لم يسلم من ويلاتها ومآسيها شعب من الشعوب .

ولقد تبين لنا آنفاً أن القوميات فى غرب أوربا قد نشأت على أساس اللغة المشتركة التى وحدت الشعور فى مجتمع بعينه . وجعلت أبناءها يشعرون بشعور واحد ، ويفكرون بعقلية واحدة ، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً . بل لقد ظهر لنا مما سبق أن أس الأساس فى تشكيل أى قومية إنما هو اللغة الموحدة المشتركة . وقد ترتب على هذه الحقيقة صعوبات عملية بعد الحرب العالمية الأولى . ففى شرق أوربا ترتب على الأخذ بمبدأ حق تقرير المصير أن انفصلت أجزاء إمبراطورية النمسا والمجر إلى قوميات مختلفة . وصعب على الحلفاء وضع حدود جغرافية متميزة بين هذه القوميات ذات اللغات المتباينة . فرومانيا لم يمكن تكوينها دون أن تضم أقلية من المجر ، وكذلك دخلت أجزاء من ألمانيا فى حدود قوميات أخرى . أى أن القوميات الحديثة فى بعض مناطق أوربا كما قررتها معاهدة فرساى قد خلقت مشكلة الأقليات وحقوقهم ، وعدم إخلاصهم للدولة ، أو الشك فى ولائهم ، وسوء المعاملة التى يلقونها من الأغلبية ، وغير ذلك من مشاكل تحدثنا عنها آنفاً بالتفصيل فى فصل « فتش عن اللغة » . ولعل أخطر ما ترتب على شيوع فكرة القومية فى العالم الحديث ذلك العدد

الكثير من الدول الصغيرة التي تكونت خلال السنين الأخيرة في جنوب شرق آسيا، والتي تأسست على التقسيمات الإدارية التي قام بها الاستعمار ، ودون أن يكون لها حدود متميزة أو لغة مشتركة ، مما أشعل المنازعات والاضطرابات بين البيئات المتجاورة . ففي « سيلان » مثلا تلك الجزيرة التي عاشت زمناً طويلا في سلام وهدوء برغم الاستعمار ، نرى أنها لم تكد تستقل حتى بدأ المتكلمون فيها بلغة « التامل » وهم الأقلية يخافون على أنفسهم ويثيرون النزاع والشقاق مع الأغلبية من سكانها الذين يتكلمون اللغة السنهالية . ذلك لأن سكان الجزيرة في عهد الاستعمار قد اتجهوا جميعاً بكل قواهم وجهودهم نحو هدف واحد هو طرد المستعمر ، فلما تحقق لهم ذلك بدأت القومية اللغوية تلعب دوراً خطيراً في حياة السكان بهذه الجزيرة الوادعة .

وكذلك الشأن في غرب أفريقيا إذ قسمت إنجلترا وفرنسا تلك المنطقة إلى دول مصنوعة ، لا تقوم على أساس حقيقي من القومية الموحدة المنسجمة ، وترتب على هذا أن أبناء اللغة الواحدة وجدوا بعضاً منهم ينتمون إلى دولة معينة والبعض الآخر ينتمي إلى دولة أخرى . ولم يوحد بين هذه الدول الأفريقية إلا الرغبة في التخلص من المستعمر . فليس بينها مشترك في اللغة أو التراث الفكري . ويعلم الله وحده مصير هذه الدول بعد أن يتقلص تماماً ظل الاستعمار .

أي أن أسوأ ما في القومية الحديثة أنها عملية تفتيت وتشتيت للبشرية ، وأنها في أغلب حالاتها تتسم بضيق الأفق والتعصب . وأن المرء في كنفها لا يحس بواجبات عليه إلا في حدود دولته . فأصبحت الحقوق والواجبات لا تكاد تجاوز نطاق الدولة .

ولكنا نعيش الآن في عالم قهر الفضاء وتحرك بأسرع من الصوت ، ولا يصح لهذا أن نقصر رغباتنا ومسئولياتنا في حدودنا الضيقة ، فإن ذلك يؤدي حتما إلى الانتحار لكل الدول صغيرها وكبيرها ، ولا سبيل إلى النجاة من مثل هذا المصير إلا بالأخذ بمبدأ العالمية والإيمان به إيماناً قوياً . وقد يكون هذا مدعاً ،

بل هو فى الحقيقة امتداد طبيعى لمبدأ القومية . فقد تبين لنا آنفاً أن القومية فى أصغر صورها تمثلت أولا فى الأسرة التى يتكلم أفرادها لساناً واحداً ، ويؤدونه أداء متماثلا تمام المماثلة ، ثم تمثلت فى القبيلة ذات اللهجة الموحدة ، ثم كانت القومية بمفهومها الحديث فى المدن والقرى وهى امتداد طبيعى للنظام القبلى .

فإذا سلمنا أن المسئولية فى نشأة القوميات الحديثة تقع أولا وبالذات على ظاهرة الاشتراك فى اللغة ، تصورنا كيف أن مجال اللغة يمتد ، ونطاقها يتسع ، من الأسرة إلى القبيلة ، إلى القرية والمدينة ، ثم إلى عدة مدن يطلق عليها اسم الدولة . فإذا امتد نطاق اللغة إلى عدة دول بدأ بهذا ما تتطلع إليه الإنسانية من سيادة العالمية ، ونشأت القومية الإنسانية . أى أن مايسمى بالعالمية ليس فى حقيقة أمره إلا نوعاً من القومية قد اتسع نطاقها اتساعاً كبيراً فشمل مناطق متباعدة من العالم . ومن هنا بدأ تفكير بعض المصلحين فى اللغة العالمية والدعوة لها . وهذه الدعوة الحديثة نسبياً أخذ بعض رواد الفكر ينادون بها منذ القرن السابع عشر . ولكن الحماس الكبير لفكرة القومية فى حدودها الضيقة قد طغى على فكرة العالمية وأخفت الأصوات التى تدعو إليها . وظل معظم الناس يرونها حتى الآن نوعاً من الوهم والخيال .

وتحدثنا حقائق التاريخ أن لغات أشبه بالعالمية قد نشأت فى بعض العصور وانتظمت معظم مناطق العالم القديم . ولو قُدِّر لإحداها أن تبقى حتى الآن وأن يمتد نفوذها إلى سائر المناطق ، لكان لنا بها تلك اللغة العالمية التى تطلع إليها هؤلاء المفكرون المصلحون . ويجدر بنا هنا أن نشير بشىء من التفصيل إلى أشهر تلك اللغات العالمية التى عرفها التاريخ .

وقبل أن أعرض لتلك اللغات العالمية فى التاريخ وهى التى مهدت السبيل للفكرة العالمية فى العصر الحديث ، أود أن أشير إلى بعض ما جاء فى المحاضرة الرائعة التى ألقاها باللغة الإنجليزية الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين فى الأمم المتحدة بنيويورك سنة ١٩٦٥ وجعل عنوانها (التعاون العالمى والسلام) .

ذلك لأن الدكتور محمد كامل حسين من أبرز رواد الفكر في العصر الحديث الذين سموا بتفكيرهم على المحلية ، وآمنوا إيماناً عميقاً بالفطرة الإنسانية وبالسلام العالمي ، ورأوا أن العصر الحديث لما توفر له من إمكانيات مادية وعلمية قادر على تحقيق هذا السلام عن طريق التعاون بين الشعوب . فيبدأ محاضرته قائلا : (يعد التعاون العالمي أعظم ما اهتدى إليه العصر الحديث ، لم يكن من الممكن أن تتهيأ هذه الدعوة لعصر آخر من عصور التاريخ ، فلم يكن لدى العالم في أي عصر مضى من المصادر المادية والعلمية ما يكفل تحقيق تلك الفكرة الرائعة ، ولم تكن الشعوب في أي وقت مضى أكثر استعداداً من الناحية الخلقية والنفسية لمد المعونة بعضها إلى بعض وبمثل هذه الضخامة : بعد أن قضت تلك الشعوب فيما مضى قروناً لا يسيطر عليها إلا الصراع فيما بينها ، ناظراً أحدها إلى الآخر على أنه المنافس البغيض أو العدو المنتظر) .

ثم يحدثنا في أسباب بعض مظاهر التعاون العالمي في العصر الحديث قاصراً حديثه على ثلاثة منها هي : أولها بناء المحطات العظيمة للقوى . وثانيها العون التكنولوجي لمن هم بحاجة إليه . وثالثها الغوث الذي تمد به المناطق ذات الإنتاج الضعيف .

ويشير في منتصف محاضرته إلى نقطة ذات أهمية خاصة في النهوض باللغة لدى بعض الشعوب النامية فيقول إن بعض هذه الشعوب لم تبلغ في تطوير الدراسات الإنسانية بها الحد الذي تتميز به ويكون طابعاً لها ، في الوقت الذي يرى فيه بعض الموهوبين من أبناء هذه الشعوب بريق هذه الثقافة في أوربا فيؤخذون به ، وينهلون من تلك الثقافة المستوردة ، بل منهم من استطاع أن يكتب باللغات الأوربية إنتاجاً أدبياً مرموقاً . ثم يتساءل ولكن هل مثل تلك الآداب الأجنبية يمكن أن تساعد على تكوين أدب قومي ؟ وهل الترجمة تحقق هذا ؟ أو هل الأنفع والأصلح أن نترك الشعب وشأنه ليعمل على النهوض بلغته حتى تصبح أداة صالحة للتعبير عن الجديد من المعلومات ونواحي المعرفة ؟

وهنا يعرض لجهود تلك المنظمة الثقافية العالمية «يونسكو» نحو تنمية القيم الجمالية والروحية ، والحد من الطابع المادى الذى يتميز به العصر الحديث . ويرى أن فى التقدم العلمى الضمان الكفيل بأمن الإنسانية ورخائها واستقرارها . ويعارض فى قوة وإيمان رأى بعض السياسيين المتشائمين الذين يرون أن التقدم العلمى قد يؤدى إلى القضاء على الإنسانية جمعاء . وذلك حين نتصور أن السلاح النووى الرهيب يقع فى أيدى شعب أحمق فيستخدمه فى دمار العالم. ويعزو هؤلاء السياسيون شرور العالم إلى الغريزة الحيوانية التى فى الإنسان . غير أن الدكتور كامل حسين لما اتسم به من التفاؤل يرى أن الفطرة الإنسانية بخير ، وأن السر الحقيقى فى شرور العالم هو الانفصام الذى نشهده الآن بين خلق الفرد وخلق الجماعة . فالناس يحكمهم فى تصرفاتهم وسلوكهم مجاميع من الالتزامات ، بعضها مستمد من العقائد والديانات أو أقوال الحكماء المصلحين الذين عاشوا عبر التاريخ ، والبعض الآخر فرضته المجتمعات لحماية نفسها . أما الأولى فتدعونا إلى السمو بأنفسنا فوق مستوى الغرائز الحيوانية ، وأما الأخرى فلا تكاد تعنى بالمستوى الأخلاقى أو نداء الضمير . ونلحظ أنه حين تتعارض المجموعة الأولى مع المجموعة الأخرى يؤثر الناس عادة الميل نحو التزامات المجتمع . ومن هنا يجىء سلوك الجماعات التى لا تهتم إلا بمصالحها . ويؤدى ذلك مع الأسف إلى حدوث تلك الجرائم الجماعية التى قد لا يفكر الفرد فى ارتكابها لو ترك وشأنه غير مقيد بالتزامات المجتمع . ليست المشكلة إذن كيف نسمو بالفطرة الإنسانية أو نتحكم فى غرائزنا ، ولكنها تنحصر فى كيف نظفر بنظام سياسى اجتماعى يحول دون اندفاع المجتمعات نحو الثوران أو الغضب .

ثم يحدثنا الدكتور كامل حسين عن تلك الحلول السياسية التى نودى بها فى القرون الحديثة أملا فى القضاء على الحروب ، مثل توازن القوى ، والأمن الجماعى ، ونزع السلاح ، ثم التعايش السلمى . ويرى أنها فشلت جميعاً ، وأن الصراع بين الشعوب لا يزال على حدته . فنزع السلاح مثلا يؤدى إلى

معادلة يعسر حلها هى : إذا كان هناك ثقة بين الشعوب فلا حاجة للتفكير فى نزع السلاح ، أما إذا لم تكن هناك ثقة فمن الغباوة التفكير فى نزع السلاح .

ليس يجدى إذن العمل على منع الحروب بوسائل سياسية . وخير للإنسانية البحث عن خطة جديدة تهدف إلى تنمية السلام ، لا منع الحروب . فهناك فرق كبير بين أن نقنع بمنع الحروب وبين أن ننمى السلام . ولا سبيل إلى تنمية السلام إلا عن طريق التعاون العالمى بين الشعوب .

ولكن الدكتور كامل حسين قد تجاهل فى الدعوة إلى التعاون العالمى ، الوسيلة أو الأداة التى تصطنع فى كل تعاون فردى أو جماعى وهى اللغة . فكيف يكمل التعاون بين قوم يختلفون لغة ، بعد أن تغلغلت اللغة فى كل أنشطة المجتمع ، وبعد أن أصبح لها ذلك الدور الهام فى الصناعة والمعاملات والسياسة ، بل وفى الحروب أيضاً . فإذا كانت هذه هى الحال على المستوى الشعبى فكيف بها على المستوى العالمى ؟ ومن هناك تبرز أهمية اللغة العالمية وضرورتها الملحة فى أمن العالم ورخائه واستقراره .

الفصل الثامن

لغات عالمية فى التاريخ

١

اللغة الأكادية

يحدثنا المؤرخون أن شعباً من الجنس الآرى عاش فى وادى دجلة والفرات فى القرن الأربعين قبل الميلاد ، ويدعى أبناء هذا الشعب بالسومريين . ووفد عليه فى حدود القرن الثلاثين قبل الميلاد شعب آخر من الجنس السامى ، فكان صراع بينهما انتهى من الناحية اللغوية على الأقل ، بانتصار الشعب السامى الذى عرف فى التاريخ بالأكاديين . وسادت اللغة الأكادية السامية فى تلك الأحقاب التاريخية ، ولكنها خرجت من ذلك الصراع اللغوى مثخنة بالجراح ؛ فقد تغيرت بعض ملامحها السامية . كأصوات الحلق ، وبعض الصيغ والتراكيب التى تتميز بها اللغات السامية بوجه عام . ومع هذا فقد احتفظت ببعض الصفات السامية الأصيلة التى نفتقدها فى كثير من الساميات الأخرى ، كظاهرة الإعراب مثلا .

وقامت لهذا الشعب فيما بعد حضارة تعد من أقدم الحضارات الإنسانية . ثم نمت تلك الحضارة وازدهرت حتى كان القرن العشرون قبل الميلاد حين تأسست دولة بابل القديمة ، واشتهر أمرها فى عهد « حمورابى » الذى خلف لنا آثاراً ونقوشاً تدل على رقى عقلى واجتماعى غير مألوف فى تلك العهود السحيقة . ولعل أهم ما ينسب إلى حمورابى تلك المجموعة من القوانين والنظم التى أدهشت الباحثين فى العصر الحديث ؛ فقد تضمنت مسائل الزواج والطلاق والميراث ، كما تضمنت نظام القصاص فى الجرائم ، فى صورة تشبه إلى حد كبير ما جاء بعد ذلك فى بعض أسفار التوراة .

وتعرف اللغة الأكادية باسم « البابلية الأشورية » أيضاً ؛ ذلك لأنها سادت خلال حضارة بابل وأشور ، فقد كانت لغة حورابى فى الدولة البابلية القديمة التى ظل أثرها قروناً عدة حتى كانت الإمبراطورية الأشورية فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وهى التى أسسها « سرجون» وظلت قائمة قرناً من الزمان ، أخضعت خلاله شعوباً متعددة فى آسيا الصغرى ، بل وصل الأمر بهؤلاء الأشوريين أن قاموا بغزو مصر ، ولكنهم لم يعمروا فيها طويلا . ثم عاد السلطان إلى « بابل» وأسست الدولة البابلية الحديثة ٦٢٥ ق.م ، واستمر سلطانها نحو قرن من الزمان ، أخضعت خلاله كل شعوب آسيا الصغرى ، وقامت بعملية الأسر البابلى المشهور فى التاريخ ، حين هاجمت العبرانيين وساقت آلافاً من اليهود أسرى إلى بابل ، فأقاموا هناك ردحاً من الدهر ، وخربت فلسطين وهدم المعبد الكبير فى ٥٨٧ ق . م .

أى أن كلا من بابل وأشور قد تناوب السلطان فترة من الزمن ، خلالها لم يتغير غير الحكام وأصحاب السلطة ، أما من حيث الثقافة والدين واللغة ، فلم يطرأ عليها أى تغيير ، فكانت الإمبراطورية الأشورية بمثابة امتداد طبيعى لدولة بابل الحمورابية ، كما كانت الدولة البابلية الحديثة امتداداً وتطوراً لإمبراطورية أشور . لا غرابة إذن أن تدعى اللغة الأكادية باللغة البابلية الأشورية أيضاً . وقد عمرت هذه اللغة نحو ألفين من السنين ، واصطنعها خلال هذه الحقبة الطويلة شعوب عدة ؛ فكانت بين الحيثيين والأشوريين والمصريين بمثابة اللغة الدبلوماسية ، فالرسائل المتبادلة بين هذه الشعوب كانت تكتب بهذه اللغة العريقة ، وكان الخطاب فى المجالات الرسمية بهذه اللغة أيضاً . بل إن نفوذ بابل وأشور قد امتد إلى كل شعوب آسيا الصغرى ، حين عمل حمورابى على توحيد كل شعوب تلك المنطقة فى دين واحد ولغة واحدة . فوحدت الآلهة ، وانتشرت الأكادية انتشاراً كبيراً ، وخضع لنفوذها الحيثيون والليديون والميديون والفينقيون والعبرانيون ، وغيرهم من شعوب آسيا الصغرى . فكانت اللغة الأكادية معروفة مدروسة بين كل هذه الشعوب

يصطنعونها مع لغاتهم المحلية . أى أن اللغة الأكادية لم يقتصر شأنها على بيئة الدولتين بابل وأشور ، بل امتد نفوذها فى مناطق شاسعة خارج حدود هاتين الدولتين ، وتلك من أهم ما تتسم به اللغة العالمية .

وقد ساعد على انتشار هذه اللغة أن البابليين قد أسسوا قوافل للتجارة فى الأنهار وفى الصحراء ، تنقلت فى مدن الشعوب الأخرى ، واتصلت بأهلها اتصالا وثيقاً ، وكان من الطبيعى من أجل هذا أن تنشأ بين هؤلاء وهؤلاء أداة للتفاهم مشتركة ، حتى يتيسر تبادل المنافع الدنيوية ، واتخذت اللغة الأكادية أداة لهذا التفاهم .

أما حضارة هذا الشعب العريق فلم نكن نعرف عنها شيئاً قبل أوائل هذا القرن . ولما عثر على تلك النقوش المسمارية التى خلدت جزءاً من تاريخهم وثقافتهم ، تبينت للدارسين عظمتهم . وقد استطاع طائفة من المستشرقين حل رموز هذه النقوش الكثيرة فى صبر وأناة ، وحدثونا بما يثير الإعجاب والدهشة من شأن هؤلاء القوم . فقد نظموا مياه دجلة والفرات ، وبنوا القناطر عليهما ، وعملوا على ترقية الزراعة فى ذلك الوادى الخصيب . وأسسوا النظم الاجتماعية التى تكفل صلاح الأسرة ، ووضعوا القوانين التى تنظم المجتمع والعلاقات بين الناس ، بل وبين الشعوب بعضها ببعض . فكان المثقفون من أهل هذه اللغة ورجال الدين بصفة خاصة ، يعدون أساتذة العالم القديم فى القانون الدولى . وبنى هؤلاء البابليون المبانى العظيمة والأبراج العالية ليراقبوا منها أعداءهم ، وليرصدوا من فوقها النجوم والكواكب ، فهم المشهورون فى التاريخ القديم بعلم الفلك . وقد قسموا الشهر القمرى إلى أربعة أسابيع ، كل أسبوع جعلوه سبعة أيام . وقسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وجعلوا كل ساعة تتكون من ستين دقيقة ، وكل دقيقة من ستين ثانية . ذلك لأن البابليين كانوا يعدون إلى الرقم ستين فقط ، كما نعد نحن الآن إلى المائة . فهم أول الشعوب فى اختراع التقاويم ، وتحديد الفصول السنوية . ورصد حركات الكواكب والنجوم .

ولما لم تتيسر لهم الأحجار التى كانت فى مصر اعتمدوا فى مبانيهم وآثارهم على الطين المجفف فى الشمس ، فاستخدموه فى مبانيهم وأبراجهم ، بل اتخذوا منه أيضاً ألواحاً لتسجيل تاريخهم ، وتخليد أعمالهم المجيدة ، فكان خيراً من البردى والرّق والورق وغيرها مما عرفته الأمم الأخرى . لأن تلك الألواح الطينية المجففة لم يصبها البلى ، ولم يعُد عليها الزمن ، بل ظلت حتى الآن فى حالة جيدة ، وظلت نقوشها واضحة ، لم تتآكل و لم تطمس معالمها . فكانوا ينقشون على الطين قبل جفافه بقطعة من البوص تشبه الوتد أو الإسفين رموزاً تعبر عن كل ما أرادوا تخليده ، وتلك هى الكتابة التى عرفت بين الدارسين بالكتابة المسمارية .

هم إذن ، مما عُرِف عنهم حتى الآن ، أهل حضارة راقية فى الفلك والهندسة والفن ، بل والفلسفة والآداب أيضاً . ويتميز أدبهم بأنه دينى تضمن تاريخ الإنسان فوق الأرض ، وما أصابه فى مختلف الأزمان . فقد وصفوا قصة الخلق أو الكون ، وكيف بدأ الإنسان حياته فوق ظهر البسيطة ، كما وصفوا لنا قصة الطوفان وصفاً يشبه ما جاء بعد ذلك فى نصوص التوراة إلى حد كبير .

وكان لهؤلاء البابليين مكتبات ومتاحف ضمت سجلاتهم وآثارهم . وقد جمع فى إحداها أحد ملوك أشور مجموعة كبيرة من الألواح الطينية مسجلا عليها تاريخ قومه وثقافتهم وآدابهم فى عاصمته « نينوى » .

ثم لحقت لغة بابل التى ورد ذكرها فى التوراة لغة هؤلاء القوم بعد أن اضمحل ملكهم ، وبعد أن كانت هزيمتهم على يد الفرس الذين أسسوا دولتهم فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وكان الفرس أكثر تسامحاً وأميل إلى حرية الناس فى لغاتهم ودياناتهم ، فلم يتعصبوا للغة معينة ، ولا لدين معين بل تركوا الناس أحراراً حين امتد نفوذهم فى جميع أنحاء آسيا الصغرى ، ولم يعمل الفرس عن عمد على تغيير ديانة البابليين أو لغتهم ، بل لقد اصطنعوا اللغة البابلية فى بعض الأحيان جنباً إلى جنب مع لغتهم الفارسية القديمة ، ومع لغة أخرى ذاع أمرها وانتشر نفوذها فى أواخر الحكم البابلى ، وزاد نفوذها وسلطانها خلال الحكم الفارسى ، وهى اللغة الآرامية التى سنتحدث

عنها فيما بعد . أى أن الفرس لتسامحهم كانوا يصطنعون لغات ثلاثاً ، البابلية والفارسية القديمة والآرامية . والآرامية هى اللغة العالمية التى كانت تنافس البابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد آثرها الفرس على البابلية لسهولة هجائها ، ولأن أهلها لم تكن لهم أطماع سياسية فى تلك المنطقة . فقد احترم الفرس الدين البابلى واللغة البابلية لقدمها وعراقتها ، ولكنهم آثروا الآرامية عليها . ذلك لأن الفرس قد رأوا أن لغتهم الفارسية القديمة لغة محلية لم تتح لها فرص الذيوع والانتشار كاللغتين البابلية والآرامية ، ووجدوا أن فتوحاتهم وانتصاراتهم تتطلب اصطناع لغة عالمية بجانب لغتهم الفارسية ، فآثروا الآرامية ، وساعدوا على استقرارها ، وتمكنها فى ألسنة كثير من شعوب هذه المنطقة الشاسعة ؛ ونجح الفرس فيما لم ينجح فيه أهل بابل من قبل ، إذ استولوا على مصر فى عهد « قمبيز » ، وغزا ملوكهم بعد ذلك مقدونيا فى بلاد اليونان ، وتم لهم بذلك تأسيس إمبراطورية عظيمة ظلت قائمة حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر بفتوحاته ٣٣٣ ق.م . وهكذا انتهى أمر اللغة الأكادية العالمية دون أن تخلف لنا أبناء أو أحفاداً .

٢

اللغة الآرامية

هذه لغة قوم من الساميين وردت إشارات عنهم فى العهد القديم وكتب التاريخ . وقد شغل البابليون عنهم فانتشروا فى بقاع كثيرة من آسيا الصغرى ، وأسسوا لهم مدناً مستقلة اشتهر أمر بعضها فى سوريا ، مثل مملكة آرام دمشق ، وآرام صوبا ، وآرام بيت رحوب . وقد استطاع هؤلاء الآراميون أن يؤسسوا لأنفسهم دولة فى شمال سوريا ، كما كانت لهم دولة أخرى فى العراق احتفظوا بها زمناً أطول ، مما ساعدهم على التدخل فى شئون بابل وأشور ثم الفرس بعدهم ، بل ظل لهم نفوذ كبير حتى فى عهود اليونان والرومان ، برغم أن دولتهم فى سوريا

سقطت على أيدى الأشوريين ٧٣٨ ق . م . وتحدثنا كتب التاريخ أنه كان للآراميين حروب أو مناوشات مع الحيثيين ، وأنه فى عهد الملك داود كانت هناك دويلات آرامية فى سوريا وحدود العبرانيين.

ولسنا نعرف الموطن الأصلى للآراميين ، بل لا ندرى كيف تيسر لهذا الشعب العجيب أن يتغلغل فى كل مدن آسيا الصغرى ، وأن يكون للغتهم كل هذا النفوذ الذى يحدثنا عنه التاريخ ، فلم يكن شعباً محارباً عُرف بالغزو والفتوحات ، ولم يؤسس لنفسه دولة موحدة كتلك التى كانت لبابل وأشور أو للفرس ، بل كان أهله قوماً عمليين ، لم يتطلعوا إلى تأسيس إمبراطورية ، ولم يشغلوا أنفسهم بحروب ، بل قنعوا بالتسلل إلى معظم المدن ، وأسسوا لأنفسهم بمهارتهم العملية نفوذاً كبيراً فى كل الأنحاء ، وهكذا تمت لهم السيطرة أو النفوذ دون أن يريقوا دماء ، فكان غزوهم للمدن غزواً سلمياً .

كان هؤلاء الآراميون أهل تجارة ، وكان مظهرهم البرىء وعزوفهم عن الغزو المسلح وعدم تطلعهم إلى تأسيس دولة كبيرة أو إمبراطورية ، من أكبر العوامل التى جعلت شعوب آسيا الصغرى تطمئن إليهم ، وتتيح لهم فرص التغلغل فى مدنهم . وساعد على هذا ما اتسمت به لغتهم الآرامية من البساطة فى أصواتها وصيغها وتراكيبها ، فقد تطور فيها كل هذا . ولم تحتفظ من السمات السامية القديمة إلا بالقليل . كما كانت كتابتهم هجائية ، اصطنعوا فيها رمزاً لكل صوت لغوى ، ولم تكن مقطعية كالتى كانت لدى الفينيقيين واقتبسها منهم اليونان فيما بعد ، أو كالتى كانت لدى المصريين فى عهودهم المتأخرة ، ولم تكن معقدة كالتى كانت فى الكتابة المسمارية كتابة بابل وأشور . هذا إلى مساعدة الفرس لهذه اللغة وإيثارهم لها ، مما زادها انتشاراً فى العهد الفارسى .

لم يكن الآراميون أهل أدب خالد ، ولذلك اندثرت كل آدابهم ولم يبق منها ما يتردد على الألسنة إلا كلمات المسيح فى الإنجيل ؛ وهى التى ترجمت بعد ذلك إلى الإغريقية ثم إلى اللغات الحديثة .

وعن طريق النقوش الآرامية والكتابات الآرامية التى عثر عليها فى العصور

الحديثة ، ومعها تلك النصوص الدينية التي نقرؤها في الترجوم[1]، استطاع الدارسون من المستشرقين أن يؤلفوا صورة غير متكاملة المعالم للشعب الآرامي واللغة الآرامية . وقد امتدت النقوش الآرامية إلى أبعد من حدود الآراميين برغم ذهاب استقلالهم السياسي ، وذلك بفضل بساطة كتابتها . فشملت جميع أنحاء «ميزوبوتاميا» . وأصبحت اللغة الآرامية لغة السياسة والتجارة في كل أنحاء غرب آسيا الصغرى بل وفي مصر ، واستحقت بهذا أن تدعى لغة عالمية .

فيحدثنا العهد القديم أن مندوبي الملك «حزقيا» ملك العبرانيين حين كانوا يتحدثون مع البعثة الأشورية في أثناء حصار أورشليم ، طلبوا من الأشوريين أن يتكلموا باللغة الآرامية حتى لا يفهم الناس[2] . أي أن أشراف اليهود قد تعلموا الآرامية ليستطيعوا التعامل مع الأشوريين .

وقد عثر في سنة ١٩٤٨ على أوراق من البردي تتضمن رسالة من أمير فينيقي إلى فرعون مصر ترجع إلى ٦٠٥ ق . م . وتوضح هذه الرسالة مقدار شيوع اللغة الآرامية في المكاتبات الدبلوماسية .

ومنذ القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد بلغت اللغة الآرامية ذروة مجدها كلغة عالمية . وذلك بسبب تسامح الفرس وإيثارهم هذه اللغة على غيرها . فأصبحت الآرامية خلال هذين القرنين اللغة الرسمية للعالم السامي الخاضع لنفوذ الفرس فيما بين مصر والفرات ، وحلت الآرامية في تلك المناطق محل العبرية والفينيقية والساميات الأخرى .

وليس صحيحاً أن اليهود قد جلبوا هذه اللغة الآرامية معهم بعد عودتهم من الأسر البابلي ، بل الصحيح أن اليهود حين عادوا من المنفى كان معظم الناس قد نسوا العبرية لغتهم الأصلية . ولم يكد يبدأ القرن الرابع قبل الميلاد ،

---

(١) الترجوم : كتاب يحوي ترجمة أو تفسيراً لبعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية ، قام بوضعه أحبار من اليهود قبل ظهور المسيحية ، وبعد أن أصبح جمهور الناس لا يفهمون النصوص العبرية الأصلية .

(٢) سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ الآية ٢٦ ، وكذلك سفر « أشعيا » الإصحاح ٣٦ الآية ١١ .

حتى كانت العبرية قد اختفت كلغة كلام ، وحلت الآرامية محلها ، واقتصر أمر العبرية على الأحبار ورجال الدين بوصفها لغة كتابة فقط .

وفى العصر الفارسى كانت اللغة الآرامية اللغة الرسمية للمقاطعات التى فى غرب الفرات ، إذ نجد أن عملة الحكام وأمراء العشائر فى آسيا الصغرى تلك التى صنعها مهرة الإغريق ، كانت تحمل نقوشاً آرامية بجانب اللغة الإغريقية ، وكذلك كان الشأن فى أختام هؤلاء الأمراء والحكام . وقد وصلتنا نقوش وكتابات آرامية عثر عليها فى جزيرة الفيلة بأسوان وترجع إلى العصر الفارسى ، أى فيما بين القرنين السادس والرابع ق . م . وقد كتبت على أوراق البردى ، وتتضمن عقود زواج ومعاملات مالية ، مما يؤكد لنا أنه كان فى « آسوان » جالية سامية كبيرة من الآراميين والفينيقيين والعبرانيين الذين اصطنعوا اللغة الآرامية فى تعاملهم ، وأنهم كانوا يؤثرون استعمال تلك اللغة الآرامية السهلة ، خشية أن يقعوا فى صعوبات الخط الهيروغليفى .

وقد تأثرت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية ، مثل بعض أجزاء فى سفر « دانيال » و « عزرا » كُتبت بلغة آرامية تشبه شبها قوياً لغة تلك النصوص التى عثر عليها فى أسوان .

وهكذا نرى أن اللغة الآرامية بفضل التسامح الفارسى قد انتشرت انتشاراً كبيراً فى كل أنحاء آسيا الصغرى وفى مصر .

ولما كان الغزو اليونانى على يد الإسكندر الأكبر ضعف شأن الآرامية قليلا ، ولكنها ظلت لغة الخطاب لعامة الناس فى كل البقاع ، فى حين أن الإغريقية اصطنعت فى مجالات الثقافة والعلم . ويدل على هذا تلك النقوش التدمرية والنبطية التى عثر عليها فى شمال شبه الجزيرة العربية ، وأن الآرامية كانت لغة المسيح نفسه فقد أملى بها على حوارييه تعاليمه ، وكتبت بها بعض أسفار الإنجيل فى أول الأمر ، ثم ترجمت إلى اليونانية بعد ذلك .

ولما كان العهد الرومانى وانتشرت المسيحية فى بلاد الرومان ، ساعد ذلك على إنهاض الآرامية من كبوتها فى عهد اليونان ، لأنها لغة المسيح ، ولأنها كانت

منتشرة فى نواح متعددة . ولذا ظلت الآرامية اللغة الرسمية للكنيسة السوريانية وكتبت بها مؤلفات دينية كثيرة ، بل لقد انتشرت الآرامية عن طريق التجار والعبيد فى بعض نواحى الدولة الرومانية .

ورأى أحبار اليهود قبيل ظهور المسيحية أن الناس لم يعودوا يفهمون النصوص العبرية للتوراة فاضطروا إلى ترجمتها إلى اللغة الآرامية تلك اللغة التى سادت فى كل البقاع ، وعلى ألسنة كل الناس . ومن ترجمة النصوص العبرية وتفسيراتها تكون ما يسمى فى الأدب الدينى للعبرانيين « بالترجوم » و« التلمود» .

ولما ظهرت المسيحية كانت اللغة الآرامية قد انشطرت إلى شطرين متميزين إلى حد كبير : أحدهما ما يعرف بين الدارسين بالآرامية الغربية وتمثله النصوص الآرامية فى العهد القديم ، ونصوص أوراق البردى التى عثر عليها فى أسوان ، كما تمثله أيضاً اللغة التدمرية واللغة النبطية ، وكثير من الكتب الدينية التى كتبها أحبار اليهود فى العصور المسيحية ، ومنها ما يسمى بتلمود فلسطين . أما الشطر الآخر فهو ما يعرف بالآرامية الشرقية وهى التى سادت فى بلاد العراق ، وسماها أهلها فى العصر المسيحى باللغة السوريانية ، واتخذت لغة كنيسة « أودسا » وبها كتبت آداب دينية كثيرة فيما بين القرنين الثانى والرابع الميلاديين . ومن بين نصوصها ما يعرف بالتلمود البابلى .

وظلت اللغة الآرامية سائدة فى كل تلك البقاع حتى جاء الإسلام وحلت العربية محلها . ولا نكاد نجد لها الآن أثراً إلا ما يقال لنا من أن بعض القرى النائية فى سوريا لايزال أهلها يتكلمون باللغة الآرامية . أى أن نهاية اللغة الآرامية السامية كانت على يد لغة سامية أخرى هى العربية . فلحقتها لغة بابل أيضاً بعد أن ظلت قروناً كثيرة محبوبة مأنوسة بين شعوب العالم القديم ، يصطنعونها فى خطابهم ، وفى معاملاتهم ومكاتباتهم الرسمية الدبلوماسية ، فكانت بحق لغة الشعوب ، لغة الناس بكل طبقاتهم ، فلم يقتصر أمرها على طبقة خاصة أو بيئة محددة . واستحقت من أجل هذا أن تعد لغة عالمية ديمقراطية ؛ فمن أهم سمات اللغة العالمية أن تكون لغة الناس بكافة طبقاتهم .

ومع أن اللغة الآرامية قد اندثرت وأحلت العربية مكانها لا أشك لحظة فى أن هذه اللغة قد خلفت فى لهجات كثير من البلاد العربية آثاراً ، بعضها صوتى وبعضها يرجع إلى صيغ الكلمات وتركيب الجمل ، ولعل بحوث المستقبل تكفل للباحثين والدارسين الكشف عن تلك الآثار وتوضيح معالمها .

٣

اللغة الإغريقية

فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت الثقافة الإغريقية قد بلغت الذروة على يد طائفة من العلماء والفنانين والفلاسفة الذين عاشوا فى أثينا ، وجعلوا لها المركز المرموق فى تاريخ الحضارة الإنسانية . بينهم شعراء عظماء من أصحاب الدرامات الخالدة مثل « أشيلوس » و« سقوكليس » و« يوريفديس» و« أرستوفانيس» ، وبينهم أساتذة العالم فى الفسلفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعهم ، وبينهم نوابغ فى فن البناء والنحت مثل « اكتيفوس » و« فيدياس » وغيرهما . وهكذا تحقق لهذه المدينة العظيمة أن تورث الإنسانية خير ما أنتجته العقول فى كل عصور التاريخ . وكانت لغة أثينا فى ذلك العهد هى اللغة الإغريقية القديمة التى سميت « الأتيكية» ، والتى تميزت بجمال أصواتها وانسجام صيغها ودقة تراكيبها وتحديد دلالاتها .

ثم كان الغزو التاريخى المشهور على يد الإسكندر الأكبر ، الذى برغم أن حكمه لم يدم أكثر من ثلاثة عشر عاما ، استطاع أن يقهر كل دول شرق البحر الأبيض ، وأن يؤسس إمبراطورية عظيمة شملت مصر وسوريا وبلاد العراق وبلغت حدود الهند ، أى أنه استولى على العالم المتمدين القديم فى تلك الفترة الوجيزة . وكانت سياسة الإسكندر على قصر حكمه تعمد إلى تأسيس المدن العظيمة فى آسيا الصغرى . فكون فى أنحاء تلك المنطقة مدائن مزدهرة عامرة بالسكان ، وسط شعوب عريقة فى حضارتها وثقافتها ، غنية بخيراتها

وآدابها وعلومها ؛ وكان لهذه الشعوب من المبانى العظيمة والأبراج الشامخة ما ربما تمناه الإغريق فى بلادهم . ومن الإنصاف أن تعد هذه الشعوب أساتذة للإغريق فى الفلك والهندسة والفن ، بل وفى الفلسفة أيضاً ، ولكن الإغريق امتازوا عنهم بلغة لم يكن لها نظير فى تلك الأيام . وبفضل هذه اللغة نشر الإسكندر ثقافة اليونان ، ونظمهم الاجتماعية بين هذه الشعوب العريقة .

غزا الإسكندر آسيا الصغرى فوجد الأشوريين والبابليين فى حالة من الضعف العسكرى والفساد الاجتماعى ، ما مكّنه من قهرهم ؛ ووجد الفرس يؤسسون دولة قامت على التسامح الدينى واللغوى ، لا يدعون إلى دين معين ، ولا إلى لغة واحدة ، يتكون جيشهم من أجناس متعددة ولغات متباينة ، وعقائد متنافرة ، فيسر كل هذا على الإسكندر قهرهم والانتصار عليهم ، وتشتيت جيشهم فى أول معركة ، إذ لم يكن بينهم رابطة وثيقة من دين أو لغة أو جنس تلم شتاتهم أو توحد بينهم . على حين أن جيش الإسكندر كان يتكون من جنس واحد ، وثقافة موحدة ، وعقيدة واحدة ، وأخيراً وليس آخراً من لغة واحدة . ولذلك دام أثر هذا الغزو الإسكندرى حتى بعد الإسكندر وظل سائداً إلى عصر الرومان . ونشأ بسبب هذا الغزو الإغريقى فيما بعد ما يمكن أن يسمى بالروح الإغريقية ، أو بالطابع الإغريقى فى كل مظاهر الحياة . ساد هذا الطابع الإغريقى كل أنحاء المنطقة المغزوة ، وأصبح أهلها إغريقاً من حيث اللغة والثقافة ، وإن لم يكونوا من حيث الجنس أو النسب .

وحكم الذين ورثوا الإسكندر ، كل هذه البلاد فى شكل دول صغيرة بدأت كأنها مستقلة بعضها عن بعض ، ولكنها اجتمعت فى الروح الإغريقى واللغة الإغريقية ، وتعاونت على استقرار سلطانها . ويكفى أن نذكر منها دولة البطالمة التى حكمت مصر زمنا طويلا أسست خلاله مدرسة الإسكندرية المشهورة فى العلم والفن والفلسفة ، ومكتبتها التى عمّت شهرتها الآفاق .

فساد الطابع الإغريقى مصر وكل مدن آسيا الصغرى ، وقلد الناس الإغريق فى ألعابهم وأعيادهم وعاداتهم وملابسهم ونظمهم الديمقراطية فى الحكم وساعد على ذلك طائفة من تجار الإغريق ، جابوا كل هذه البلاد ، واستقروا فيها ، ونشروا لغتهم بين الناس ، وعملوا على تغيير كثير من مظاهر الحياة

الاجتماعية . فأسست الحمامات الإغريقية ، وشيدت المبانى العظيمة ، وأقيمت المسارح ، بل أخذ حتى بنظام المجارى الذى عرفه الإغريق فى بلادهم .

وبرغم أن لغة أثينا « الأتيكية » قد خلدت لنا قدراً كبيراً من علم الإغريق وثقافتهم قبل غزو الإسكندر ، فإنها بعد اتساع الإمبراطورية الإغريقية كانت أرقى وأسمى من أن تصلح لغة مشتركة لكل هذه الشعوب . فهى حتى فى مهدها الأصلى، كانت لغة الحكماء والعلماء والفلاسفة ، يصطنعونها فى أرقى الآثار الأدبية والفنية ، ويتخذها الفلاسفة والخطباء أداة لمناقشة المسائل الجدية فى أرقى الأوساط العلمية . ثم طرأ على هذه اللغة ، وفى ألسنة العامة من الناس بعض الصفات الصوتية الجديدة، والانحرافات فى الصيغ والتراكيب: تلك التى نفر منها حكماء أثينا وتحاشوها ، ولكنها برغم هذا تبلورت فيما بعد واقتحمت حصون لغة الإغريق ، وساعدت على نشأة تلك اللغة الإغريقية المشتركة التى عرفت فى التاريخ باسم « الكُوِينِيَّة » .

فاللغة « الكوينية » تتصف بكل صفات اللغة العالمية ، ذلك لأنها انتظمت شعوبا كثيرة ، ووحدت بينها مع اختلاف هذه الشعوب فى الجنس والعقيدة . وكانت كذلك لغة ديمقراطية . أى للناس بكافة طبقاتهم ، لا يقتصر شأنها على طبقة خاصة أو بيئة محدودة ، كما هُذبت أو بسطت أصواتها وصيغها وتراكيبها فأصبحت فى متناول الناس جميعا .

وهكذا تمت للغة الأغريق المشتركة المسماة بالكوينية السيادة فى كل أنحاء العالم القديم ، يصطنعها الناس فى خطابهم ومعاملاتهم وتبادل المصالح فيما بينهم . واتسع صدر الإغريق فى بيئاتهم الجديدة لذلك الحشد الوافد من الكلمات الأجنبية ، فرحبوا بها وصبغوها بصبغتهم الإغريقية ، وأصبحت تكون عنصراً أساسياً من لغتهم المشتركة « الكوينية »، وهذا أيضاً من صفات اللغة العالمية . فاللغة التى تكتفى بعناصرها ، وتنعزل عن اللغات الأخرى ، أو تنطوى على نفسها ، لا يتاح لها أبداً أن تصبح من اللغات العالمية .

أصبحت « الكوينية » إذن لغة شعوب متعددة . وصارت ملكا للإغريق

وغير الإغريق ، تجرى على ألسنة الكثيرين ممن لا ينتمون إلى الجنس الإغريقى . وكان من الطبيعى لذلك أن يصيبها انحرافات أو تغيرات لم تكن فى « الأتيكية » ، فاتسمت أصواتها وصيغها وتراكيبها بالبساطة والمرونة ، وإن فقدت شيئاً من خصائصها الأصلية . فتغيرت بعض أصوات الإغريق القدماء ولا سيما أصوات اللين أو الـ Vowels أما الأصوات الساكنة أو الـ Consonants فالتغير فيها كان فى نطاق محدود جداً ، مثل تعطيش الجيم الذى طرأ أخيراً على نطق الإغريق ، ولم يكونوا يعرفونه فى الأتيكية . كما طرأ على كلام الإغريق انحرافات فى صيغ الأسماء واشتقاقاتها ، انتهت بفقدان المثنى ، والصيغة الخاصة بزمن المستقبل ، وغير ذلك من ظواهر ساعدت على تبسيط قواعد اللغة ، وجعلها فى متناول الناس جميعا .

وإذا ذكرت اللغة الإغريقية فى عصور التاريخ لا ينصرف هذا إلا إلى « الكوينية » اللغة المشتركة ، فهى التى ترجم إليها العهد القديم أيام البطالمة ، تلك الترجمة التى عرفت بالترجمة السبعينية ، وهى التى ترجم إليها الإنجيل فى أوائل العصر المسيحى عن الأصل الآرامى ، ولا سيما إنجيل لوقا وإنجيل بطرس فكلاهما يعد خير نموذج للغة « الكوينية » .

فإذا ذكرت اللغة الإغريقية فى التاريخ لا يكاد ينصرف هذا إلى لغة المشهورين من حكماء الإغريق وفلاسفتهم وفنانيهم من أمثال أفلاطون أو أرسطو وغيرهما ممن كتبوا « بالأتيكية » وخلدوا آثارهم بها ، بل إن اللغة الإغريقية فى التاريخ هى « الكوينية » اللغة المشتركة العالمية الديمقراطية ، لغة الخطاب والمعاملات والتجارة كما هى لغة العلم أيضا .

وحملت « الكوينية » ثقافة الإغريق وعلومهم ونشرتها فى جميع أنحاء الإمبراطورية الإغريقية ، فنظم بها الشعراء ، وتأمل بها الفلاسفة ، وكتب بها العلماء والفنانون فى مدرسة الإسكندرية وسوريا ، وغيرهما من مناطق هذه الإمبراطورية . وكانت الإسكندرية أول مدينة تستلم قيادة النهضة الإغريقية أيام البطالمة . فحافظت على النطق الصحيح للغة « الكوينية » وكان أهلها

الذين هم من أجناس مختلفة ، بين مصريين وسوريان ويهود وأحباش ، يعتزون بهذه اللغة ، فاحتفظوا بها كلغة مشتركة جمعت بينهم عدة قرون . ذلك لأن التعليم في مدارس الإسكندرية كان أساسه لغوياً ، يبدأ الطفل بتعلم القراءة والكتابة ، ثم يمرن على حفظ كثير من النصوص الأدبية وإنشادها بصوت عال ، رغبة في ذلاقة اللسان وحسن البيان ، فكان الطفل يحاول أداء هذا أداء جيداً مع عناية بحسن النطق وجودته .

بل إن التاريخ ليحدثنا عن كثير من القادة والحكام الذين نشأوا بعيداً عن أثينا ، حين وفدوا عليها في شبابهم راغبين في إتقان هذه اللغة « الكوينية » والسيطرة عليها نطقاً وإنشاداً وأداء . ذلك لأن المركز الاجتماعي للمرء في تلك الأيام كان يقاس بحسن نطقه ، وقدرته على الخطابة ، والنقاش في أسلوب أخاذ جذاب . بل حتى حين تعلم هؤلاء الوافدون على أثينا الفلسفة والجغرافيا والفلك وغيرها ، لم يتم لهم ذلك إلا بعد السيطرة على اللغة الإغريقية ، كما يحدثنا التاريخ أن بعضاً من قادة الرومان وعظمائهم قد نشأوا من الناحية التعليمية في أحضان الثقافة الإغريقية .

تطورت إذن لغة الإغريق إلى تلك اللغة المشتركة « الكوينية » التي بسطت أصواتها وصيغها وتراكيبها . ونميت كلماتها بفيض من الألفاظ الأجنبية ، اقترضها الإغريق من اللغات الأخرى ، ولم يجدوا في هذا غضاضة ، فقد أصبحت لهم بمثابة ثروة لغوية . كما نميت لغتهم عن طريق الاشتقاق باستحداث ألفاظ كثيرة أحسوا بحاجتهم إليها خلال أطوارهم التاريخية ، ويمكن التماس كثير من هذه الكلمات المستحدثة في نصوص الإنجيل باللغة الإغريقية .

وقد قضت اللغة الإغريقية المشتركة على معظم اللغات في مناطق الإمبراطورية الإغريقية ، وحلت محلها ، فيما عدا اللغة الآرامية التي تقهقرت إلى مملكة « تدمر » والأنباط في شمال شبه الجزيرة . ولكنها ظلت مع هذا على ألسنة الناس في معظم مناطق الإمبراطورية ، لأنها كانت لغة مسالمة . لم يطمح أهلها إلى سلطان

دنيوى ، ولم يعتبرها الإغريق منافسة للغتهم ، فتركوها وشأنها كلغة ثانية لكثير من عامة الناس ، وقنعوا بأن تكون لغتهم الإغريقية لغة العلم والحضارة والثقافة ، واللغة الرسمية لإمبراطوريتهم الإغريقية .

وقبيل ظهور المسيحية كانت فلسطين من حيث الثقافة إغريقية اللغة ؛ فنصوص الإنجيل التى كتبت أولا بالآرامية ، لم تلبث أن ترجمت إلى الإغريقية . وليس من الإسراف أن نقرر أن المسيحية نمت وانتشرت تعاليمها فى أحضان العقلية الإغريقية . فمن الصعب أن نتصور انتشار المسيحية ما لم تكن تعاليمها قد تأثرت بالثقافة الإغريقية والعقلية الإغريقية. ولم يكن من السهل على الرومان قبول المسيحية ، إلا لأنها جاءتهم متأثرة بثقافة أساتذتهم الإغريق ، والفضل فى هذا للقديس بطرس ، ومدرسة الإسكندرية ، واللغة « الكوينية » العالمية المشتركة . أى أن الرومان قبلوا المسيحية لأنها جاءتهم عن طريق العقل الإغريقى. ثم لحقت لعنة بابل اللغة الإغريقية أيضاً فتقلص نفوذها منذ القرن السابع الميلادى ، ولم تخلف لنا سوى الإغريقية الحديثة التى يقتصر أمرها الآن على بلاد اليونان.

٤

اللغة اللاتينية

لم تكد تظهر المسيحية فى الشرق حتى كان قد تأسست دولة عظيمة ذات تقاليد حربية مشهورة فى التاريخ القديم ، تلك هى الدولة الرومانية التى اتسعت رقعتها من حول روما شرقاً ، وضمت إلى سلطانها معظم ممتلكات الإمبراطورية الإغريقية فى مصر والشام وبعض مدن آسيا الصغرى . وامتد نفوذها غربا فشمل ما يعرف الآن بفرنسا وإسبانيا ، بل وإنجلترا . أى أن الدولة الرومانية فى العصور المسيحية كانت تسيطر على وسط وجنوب أوربا كما تسيطر على إنجلترا .

ولغة هذه الدولة العظيمة هى التى تعرف بين الدارسين باللغة اللاتينية . ولم تكن اللاتينية فى بدء نشأتها سوى إحدى لهجات إيطاليا ، وقد كتبت لها السيادة على اللهجات الأخرى ، وأصبحت وحدها فى العصر المسيحى تسود كل مناطق هذه الدولة الرومانية .

ولما اتسعت رقعة الدولة الرومانية شرقاً وجدت لغتها اللاتينية هناك منافساً قوياً هو اللغة الإغريقية وتلك هى لغة أساتذة الرومان فى العلم والفن . فهادنت اللاتينية الإغريقية فى الشرق ، لأن حضارة الرومان وثقافتهم قد أسست على حضارة الإغريق وثقافتهم . فقد قلد علماء الرومان وأدباؤهم وفنانوهم وفلاسفتهم الآثار الخالدة التى خلفها الإغريق ، وحذوا حذوهم وسلكوا مسلكهم . ولذا يقال دائما لئن غزا الرومان الإغريق بالسيف ، لقد غزا الإغريق الرومان فى نفس الوقت بالعلم والثقافة والأدب والفن .

ولم يكن للاتينية فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ولا فى مصر الأثر الكبير الذى كان للإغريقية ، ولذا لم تكد تخلف هناك أثراً لغوياً ملحوظاً ، على حين أنها فى الغرب كان لها آثار خالدة ، فقد خلفت هناك أحفاداً هى التى تعرف الآن بالإيطالية والفرنسية والإسبانية وغيرها .

وترتب على اتساع رقعة الدولة الرومانية شرقاً وغرباً أن انتشرت اللاتينية فى الشرق إلى حد ما ، وفى الغرب إلى حد كبير ، وأصبحت لغة دولة عظيمة تضم شعوباً متباينة . فكان من الطبيعى أن تتطور اللاتينية على ألسنة هذه الشعوب ، وفى بيئاتها الجديدة ، فمالت إلى التيسير فى أصواتها وصيغها وبعض تراكيبها ، كما اقترضت من تلك اللغات المغزوة ألفاظاً كثيرة أحست بالحاجة إليها ، وأخيراً وليس آخراً تمت دلالات ألفاظها عن طريق المجاز . فاللاتينية التى كانت لغة قوم من الفلاحين المحاربين قد عبّرت بعض ألفاظ الفلاحة فيها عن كثير من مظاهر الحضارة للدولة الرومانية فى أوج عظمتها .

لم تأنف اللاتينية إذن من أن تقترض من الإغريق أحرف الهجاء ، وألفاظهم الخاصة بالصناعات والمهن والفنون والشعر ، بل إن كثيراً من كتاب الرومان

وعلماؤهم قد رُبّوا فى أحضان أثينا، وليس من المغالاة أن يعدوا إغريقاً أكثر منهم رومانيين .

وقد اعتمدت اللاتينية على الإغريقية فى نماذج الفن والأدب والفلسفة ؛ وترتب على هذا أن الآثار التى خلفها كتاب الرومان قد جاءت بلغة لاتينية أرستقراطية غير مألوفة إلا فى الأوساط الثقافية الراقية ؛ وتلك هى اللاتينية الأدبية التى اصطنعها خطباء « السناتو » من أمثال « شيشرون » ، ورجال السياسة والقانون . وكُتب بها آثار أدبية فى أوائل عهد الدولة الرومانية ، وظلت هذه الآثار نماذج تحتذى بعد ذلك . ولم تلبث هذه اللغة النموذجية أن انعزلت عن مستوى العامة من الناس ، ولا سيما بين الشعوب التى سيطر عليها الرومان . فاعتزاز المفكرين والمثقفين من الرومان بهذا المستوى السامى للغة الرومانية أو كما سماها الدارسون اللاتينية الكلاسيكية ، قد أدى فى نهاية الأمر إلى تحجرها ؛ فأصبحت شبه لغة مصنوعة ، لا تصطنع فى الخطاب أو التعامل ، بل يحتفظ بها لمجالات جدية راقية من التفكير ، فاقتصرت على الفلسفة والقانون والآداب التى فوق مستوى جمهور الناس . أما اللغة التى اتخذت للتفاهم فى المعاملات والتجارة وبين الجنود الغازين الفاتحين . فكانت نوعاً من اللاتينية المبسطة فى أصواتها وصيغها وتراكيبها ، وهى التى يمكن أن تسمى باللاتينية العامية . وهكذا قدر للغة اللاتينية فى عهد الدولة الرومانية أن يكون لها مستويان : أحدهما هو المستوى الأصيل الذى يحتفظ بكل أصوات اللاتينية وصيغها الكثيرة المعقدة وتراكيبها الموروثة ، والآخر هو المستوى العامى المبسط الذى جرى على كل الألسنة ، وفى كل أنحاء الإمبراطورية العظيمة ، ومن هذا المستوى العامى انحدرت بعض اللغات الأوربية الحديثة كالفرنسية والإسبانية ، بل والإيطالية .

وقد تميز هذا المستوى العامى باشتماله على كلمات كثيرة اقترضت من الشعوب الأخرى ، وباتجاهه نحو النظام التحليلى ، واستعمال الأدوات والأفعال المساعدة ، بدلا من النظام التركيبى للصيغ ، والتعقيد فى اشتقاقاتها . فصادف

ذلك هوى فى نفوس جمهور الناس الذين نظروا إلى المستوى الآخر على أنه نوع من التقعر والتفاصح .

وقد ساعد على نمو اللاتينية العامية ميل الرومان إلى الامتزاج والاختلاط بالشعوب الأخرى التى كانت تحت سيطرتهم ، وهى الشعوب التى آثرت اللغة السهلة المرنة المبسطة ، وبلغ هذا الامتزاج فى أواخر عهد الدولة الرومانية أن يصبح الإمبراطور الرومانى من أصل إسبانى ، وأن يصبح بعض القواد وأعضاء السناتو من غير الرومانيين .

لذلك لم تكن اللاتينية الكلاسيكية بين الشعوب التى سيطر عليها الرومان مثل « الكوينية » أيام الإغريق أو فى مستواها . فلم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق درامات خالدة تمثل فى المدن العظيمة أمام حشود حافلة كما كان الشأن أيام الإغريق ، بل حل محل هذه الدرامات استعراضات صامتة لألعاب القوى والرياضة البدنية . ولم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق محاضرات ومناقشات فلسفية كتلك التى كانت فى عهد الإغريق . فاقتصر الأدب اللاتينى الكلاسيكى على الأغنياء الأرستقراطيين .

وزادت الفجوة بين اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامية منذ القرن الثانى الميلادى ، فأدى هذا فيما بعد إلى فقدان الوحدة اللغوية التى تربط بين شعوب هذه الإمبراطورية العظيمة ، مما كان من أقوى الأسباب لاضمحلالها تدريجياً .

ثم كانت القرون الوسطى التى شهدت الفرقة السياسية بين شعوب أوربا ، ولكنها شهدت أيضاً ما يشبه الوحدة الدينية حين انتظمت المسيحية معظم أنحائها . وهنا أخذت القيادة الدينية فى روما الزمام ، وحاولت جمع شتات هذه الشعوب الأوربية تحت رايتها . ولم تكن تفتقد سوى قيادة دنيوية تتمثل فى قائد عظيم يؤسس دولة أوربية عظيمة تضم هذه الشعوب المتفرقة ، وتسترشد بهدى التعاليم المسيحية ، فكانت دولة « شارلمان » فى القرن الثامن الميلادى .

وقد رأى « شارلمان » أن خير رباط يمكن أن يوحد بين الشعوب التى خضعت

له هو اللغة ، فعمل جاهداً على نشر اللغة اللاتينية وجعلها لغة الكنيسة ، برغم أنه هو نفسه لم يكن يحسن الكلام بها . فسادت الروح الرومانية والطابع الرومانى القديم بين شعوب أوربا مرة ثانية . ولكن السلطان الإقطاعى كان أقوى من سلطان روما الدينى ، فلم يكد ينقضى عدد من السنين بعد « شارلمان » حتى عادت شعوب أوربا إلى الفرقة . وكان من أقوى العوامل التى ساعدت على هذا فقدان الوحدة اللغوية بينها ، إذ عجزت اللاتينية الكلاسيكية عن توحيد هذه الشعوب لجهل معظم الناس بها ، ونظرهم إليها على أنها فوق مستواهم ، وغريبة عنهم . ذلك لأن اللاتينية العامية كانت قد تملكت من ألسنتهم ، وأخذت صوراً محلية فى بيئات أوربا المختلفة . فقد بدأت تنشأ فى إيطاليا لغة محلية متطورة عن تلك اللاتينية العامية ، كما نشأت فى فرنسا لغة أخرى محلية متطورة أيضاً عن تلك اللاتينية ، وكذلك كان الشأن فى إسبانيا . أى أن اللغات المحلية فى أوربا كانت قد بدأت فى الظهور ، وبدا الخلاف بينها واضحاً قوياً ، مما كان له الأثر الكبير فيما بعد حين شعرت هذه الشعوب بكيانها وذاتيتها ، وبدأت تستقل بعضها عن بعض .

ومع هذا ظلت لاتينية الكنيسة يصطنعها طائفة من المفكرين فى كتاباتهم الأدبية والفلسفية والدينية حتى القرن السادس عشر الميلادى . يتضح هذا من المكاتبات الدينية والدبلوماسية والقانونية ، بل والتجارية التى رويت لنا عن ذلك العهد . ومنذ ذلك القرن أصبح للمفكرين والكتاب لغتان إحداهما محلية والأخرى هى لاتينية الكنيسة . وقد اصطنع كثير من هؤلاء كلتا اللغتين فى كتاباتهم . غير أنهم فى القرن السابع عشر وما بعده قد انصرفوا عن الكتابة باللاتينية . وتعد معاهدة « راستات »[1] ١٧١٤ م أولى المعاهدات الأوربية التى لم تكتب باللاتينية .

---

(١) معاهدة راستات Rastatt هى التى انتهت بها حروب الوراثة الإسبانية ، بين فرنسا وإسبانيا من جهة والنمسا وإنجلترا وهولندا من جهة أخرى . وتعد هذه المعاهدة تكملة لمعاهدة أترخت Utrecht المشهورة سنة ١٧١٣ م .

وهكذا كانت نهاية اللغة اللاتينية التى خلفت أحفاداً تعرف بيننا الآن بالفرنسية والإسبانية والإيطالية، غير أن هذه الأحفاد من اللغات لم تأخذ صورتها المحلية المستقلة إلا بعد أن أصاب أوربا من جرائها ويلات ومآس ، فى شكل حروب دينية ، هى فى الحقيقة حروب لغوية ، أشعلتها النعرة اللغوية بين أصحاب هذه اللغات ، أو كما يعبر أحد المعاصرين من الكتاب بقوله: (ولما بزغت اللغات الجديدة من بعض المدن الرئيسية اتخذها الناس فى كل بيئة محلية أداة التعبير عن آدابهم ، فتكونت القوميات المحلية التى تباينت فى تفكيرها ووجهة نظرها . وهكذا كانت الحروب الدينية فى حقيقة أمرها حروباً لغوية ؛ لأنها أثيرت لتحقيق ما لكل بيئة من حق فى التعبير عن أفكار أهلها ومطامحهم بين تلك الطبقات المفكرة التى وُلدت حديثا . فقد عبرت تلك اللغات المحلية عن الفروق التى كانت بين هذه الشعوب . وإنه لمن أقسى مآسى التاريخ أن تلك الفروق اللغوية قد أيقظت العصبيات الجنسية ، واتخذت من التباين الفكرى فى نفسية أبناء هذه الشعوب أسباباً للمعارك الدامية التى انتهت بالقضاء على الوحدة الروحية فى أوربا)[١].

ولاتينية الكنيسة هى اللغة العالمية التى عاصرت لغة عالمية أخرى نهضت وازدهرت شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا، وتلك هى لغتنا العربية. ومع أن عهد اللاتينية قد انقضى ، لايزال بعض رجال الدين فى الفاتيكان يحاولون بعثها من جديد ولكن هيهات . ومن أطرف ما نشر فى الصحف منذ سنتين ذلك القرار الذى اتخذه المجلس البابوى بجعل اللغة اللاتينية لغة التخاطب الرسمية خلال اجتماعاته . وقد علقت الصحيفة على هذا القرار بأن قالت إن الصعوبة الحقيقية التى ستواجه الاجتماع هو إيجاد مضبطة لتسجيل كل كلمة من كلمات المتحدثين الذين ينتمون إلى بلاد مختلفة ، ومن ثم تتفاوت طريقة نطقهم للغة اللاتينية تفاوتاً كبيراً . فالألمانى سينطق الكلمات اللاتينية بلكنة ألمانية ، وكذلك الإسبانى والفرنسى والإنجليزى ، وغيرهم من أعضاء

---

(١) Language in History, by Harold Goad. p. 89.

المجلس . وسيتعذر على كاتب الاختزال مهما كانت إجادته للغة اللاتينية فهم كلام كل متحدث ما لم يكن على دراية تامة بلغته الأصلية .

يضاف إلى ذلك أن هناك كلمات لاتينية كثيرة إذا حرفت أقل تحريف أصبحت كلمات أخرى تعنى أشياء مختلفة تماما . فمثلا الكلمة اللاتينية التى تعنى « صادق » أو « أمين » إذا نطقت بلكنة ألمانية تحولت إلى كلمة أخرى معناها « مفترس » أو « متوحش » ، وكذلك فإن الإسبان ينطقون الكلمة اللاتينية التى تعنى « يعيش » نطقاً يحرفها إلى كلمة أخرى معناها « يسكر » أو « يشرب الخمر » . ويقول الأب « ليون ديهون » وهو فرنسى : إن الإنجليز ينطقون اللغة اللاتينية بطريقة غير معقولة ، وإن الألمان ينطقونها بعنف غريب ويفشلون فى نطق الجيم المعطشة ، ومن ثم يحار الإنسان عند سماع كل كلمة منهم فى الاستدلال إلى الكلمة الحقيقية التى يعنونها . أما أهالى « المجر » فإن الواحد منهم يبدو حين يتكلم اللاتينية وكأنه « يتغرغر » [1] .

٥

اللغة العربية

لما جاء الإسلام كانت اللغة العربية مزدهرة مكتملة النمو تنتظم كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وتصطنع فى آداب يعتز بها أهلها ، ويتنافسون فى إتقانها وإجادتها . وكان المركز الاجتماعى فى هذه البيئة العربية يقاس بقدرة المرء على حسن البيان ، سواء كان شاعراً أو خطيباً أو كاتباً . وكان للعرب قبل الإسلام أسواق مشهورة تقام فى أشهر مختلفة من العام ، لا للبيع والشراء فحسب ، بل أيضاً لعقد المساجلات والمناظرات بين كبار الشعراء ، وفصحاء الخطباء ؛ أولئك الذين كرسوا حياتهم للنهوض بهذه اللغة والسمو بآدابها . وهؤلاء هم الذين تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بسورة من مثله . أى أن تلك الأسواق

---

(١) صحيفة الأهرام فى خريف سنة ١٩٦٣ .

كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية ، فيها ينشد الشعراء ما تجود به قرائحهم ، وفيها يبرز الخطباء داعين إلى مذهب سياسى أو دينى بين القبائل المختلفة .

وكانت هذه اللغة الأدبية بمثابة لغة مشتركة بين العرب جميعاً ، يتخذونها أداة التعبير عن آدابهم، ويعتزون بها كل الاعتزاز . ولهذا نزل القرآن الكريم بها ؛ فلم تكن لغة قريش وحدها أو لغة مكة وحدها ، بل كانت اللغة المشتركة للعرب جميعاً . غير أن نزول القرآن بها قد زادها ازدهاراً فوق ازدهار ، وثبت أركانها ودعائمها .

ثم كانت الفتوح الإسلامية فى الأمصار وما وراء الأمصار ، فلم يكد ينقضى على ظهور الإسلام قرن ونصف من الزمان ، حتى كانت الدولة الإسلامية تضم العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا ، أو كما يعبر أحيانا ، شملت مناطق شاسعة من المحيط إلى خليج العرب . وأقبل الناس فى كل هذه المناطق على الدين الحنيف ودخلوا فيه أفواجاً، عن طواعية لا عن كره . ونظروا فإذا اللغة العربية ترتبط بهذا الدين الحنيف ارتباطاً وثيقاً ، فقد جاءت بها المعجزة الكبرى للإسلام وهو القرآن الكريم . فأقبل الناس فى الأمصار على اللغة العربية أيضاً . بل لانغالى حين نقرر أن إقبالهم على اللغة فى بعض هذه المناطق كان أسرع من إقبالهم على الدين . وهكذا أصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية ، تنتظم جهات من بلاد فارس ، وكل العراق ، ومعظم مدن آسيا الصغرى ، كما تنتظم مصر وشمال أفريقيا ، كما سادت فى بلاد الأندلس عدة قرون . وحرص العلماء والدارسون منذ القرن الثانى الهجرى على تقعيد قواعدها وتثبيت دعائمها فى الأمصار ، فلم يكد ينتهى هذا القرن حتى كان لها آثار جليلة فى شتى الدراسات الدينية واللغوية .

واصطدمت اللغة العربية بعد الفتح باللغات التى كانت سائدة فى البلاد المفتوحة ، فقضت بعد صراع طويل على الإغريقية العالمية فى كل بلاد الشام والعراق ، وخرجت من هذا الصراع سالمة لم تكد تتأثر بشىء من خصائص هذه اللغة الإغريقية : اللهم إلا عدداً محدوداً من الكلمات الإغريقية التى

اقترضتها لغتنا للتعبير عما لم يكن فى بيئتهم العربية ، ولا سيا حين زاد الاهتمام بالترجمة عن الإغريقية فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة ، فاستمدت العربية بعض المصطلحات العلمية فى الفلسفة والطب ، وغيرهما من مجالات العلم الإغريقى .

تقهقرت إذن الإغريقية أمام العربية دون أن تخلف أثراً صوتياً فى نطق الناس ، ودون أن تترك شوائب فى صيغ العربية أو تراكيبها على ألسنة المتكلمين . ولا غرو فالإغريقية تنتمى إلى فصيلة أخرى ، ولا تكاد تشترك مع العربية فى ظواهر لغوية واضحة .

اصطدمت العربية أيضاً بلغة عالمية أخرى كانت على ألسنة الناس فى العراق والشام ، بل وفى بعض جهات مصر أيضاً ، وهى اللغة الآرامية ، تلك اللغة التى تمكنت من ألسنة الكثيرين فى هذه المناطق ، وعاشت مع الإغريقية قروناً فى تعايش سلمى . غير أن الآرامية كانت من اللغات السامية شقيقات اللغة العربية ، وكانت من أجل هذا تشترك مع العربية فى ظواهر لغوية كثيرة . ولا نشك لحظة فى أن الآرامية حين خلت مكانها للعربية قد تركت فى لهجات الخطاب وعلى ألسنة الناس فى هذه المناطق آثاراً بعضها يتصل بالنطق وأصوات اللغة ، وبعضها يتصل بالصيغ والتراكيب ، وواجب الباحثين والدارسين توضيح هذه الآثار ، وتفصيل معالمها فى بحوث المستقبل .

ذلك لأن الصراع اللغوى حين ينتهى بتغلب لغة على أخرى تختلف نتائجه حين تكون اللغتان من فصيلة واحدة عن نتائجه حين تكونان من فصيلتين مختلفتين .

أما اللغة الرومانية أو اللاتينية فلم يكن لها وقت اتساع الفتوح الإسلامية قدم ثابتة فى الشام أو مصر ، بل كانت لغة الحاكم الرومانى ومن حوله ، وسرعان ما تقهقرت أمام العربية دون صراع لغوى أو شبه صراع .

ولما دخلت العربية مصر وبدأت تنتشر فى ربوعها كان معظم المصريين

يتكلمون القبطية التى هى من فصيلة أخرى غير فصيلة العربية . ولذلك يفتقد الدارسون تلك الآثار اللغوية التى يمكن أن تكون قد خلفتها القبطية فى ألسنة المصريين . ويبدو أن انتشار العربية بين المصريين كان أسرع من انتشار الإسلام بينهم : فلم يكد ينقضى عدة قرون على حكم العرب لمصر حتى اندثرت القبطية أو انعزلت فى الأديرة والكنائس وبين رجال الدين كلغة ثانية لهم مع العربية ، على حين أن كثيرين من المصريين قد ظلوا يدينون بالمسيحية حتى الآن .

وكذلك الشأن حين اصطدمت العربية بالبربرية فى شمال أفريقيا ، تقهقرت البربرية أمام العربية ، وانعزلت فى بعض مناطق الصحراء ، ولم تكد تترك البربرية فى ألسنة المتكلمين بالعربية فى هـذه المنـاطق إلا آثاراً ضئيلة يدركها الدارسون للغتين . أما موقف الفارسية من العربية فى بلاد فارس فكان عكس ذلك ، إذ أقبل الفرس على الإسلام أكثر وأسرع مما أقبلوا على العربية ، ولذلك ظلت الفارسية سائدة فى الجهات النائية من بلاد الفرس ، بل كانت سائدة أيضاً فى بعض مناطق الدولة العربية كلغة ثانية للعلم والحضارة ، مما ساعد على نشأة الشعوبية فيما بعد[1] .

وبرغم أن اللغة الأدبية المشتركة فى شبه الجزيرة قبل الإسلام قد عاش معها جنباً إلى جنب بعض اللهجات المحلية للقبائل المختلفة ، فإن اتساع رقعة الدولة العربية فى الأمصار وحرص العلماء فى العصر الإسلامى على تنقية ظواهر اللغة قد حمل رواة اللغة فى أول الأمر على تحاشى ما يتصل بلهجات القبائل والاقتصار فى تقعيدهم للقواعد على الصحيح المروى من نصوص اللغة الأدبية . ولكنهم فيما بعد ولسوء الحظ قد خلطوا ظواهر اللهجات بظواهر اللغة الأدبية ، مما أدى إلى بلبلة بعض القواعد واضطرابها فى آثار المتأخرين من العلماء .

ولما استقر أمر الدولة العربية فى عهد بنى أمية ، وفى قرن ونصف من حكم الدولة العباسية ، شهدنا للغة العربية آداباً راقية سامية تمثلت فيما يروى عن

---

(١) انظر صفحة ١٨٤ .

فحول الشعراء والخطباء والكتاب ، وكان بجانب هذه الآداب آثار علمية جليلة فى التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ وغيرها ..

ثم بدأت الدولة العربية تتشعب إلى دويلات استقل بعضها عن بعض : منها ما كان فى فارس . ومنها ما كان بالشام ، ومنها ما كان بمصر ، ولكنها جميعاً كانت تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، أى أن الصلة الروحية ظلت تربط بين هذه الدويلات الإسلامية .

وهنا نتساءل هل كان الإسلام وحده سبباً فى الربط بين هذه الدويلات ؟ يبدو لى أن ارتباط الإسلام باللغة العربية ذلك الارتباط الوثيق الذى يتمثل فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية قد جعل للغة العربية مكانة تسمو على غيرها من اللغات التى عرفها التاريخ . ذلك لأن من تمسك بالدين الحنيف تمسك أيضاً بلغته . يصطنعها فى العبادة كما يصطنعها فى المعاملات ، فأبقت هذه الدويلات على اللغة العربية واعتزت بها ، بل وتنافس ولاتها فى العمل على ترقية آدابها والنهوض بها . فوحدة اللغة بين هذه الدويلات تعد عاملاً قوياً فى الربط بينها لا يقل أثراً عن الوحدة الدينية . فقد حدثنا التاريخ القديم والحديث عن دول اتحدت ديناً واختلفت لغة . وعما كان بينها من نزاع وتنافر وانعزال بسبب الاختلاف فى اللغة .

ظلت إذن اللغة العربية فى نهضتها الأدبية حتى بعد استقلال تلك الدويلات الإسلامية . فلما كان القرن الرابع الهجرى شهدنا شعراء وكتاباً للآداب العربية لا يقلون قدراً عمن كانوا فى القرن الأول أو الثانى من الهجرة ، إن لم يتفوقوا عليهم .

واتسمت العربية منذ تلك النهضة الأدبية بسمات اللغة العالمية ، فهى لغة ديمقراطية لا تخاطب الكبير بخطاب والصغير بخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع . فيقول سبحانه وتعالى : « أنا ربكم الأعلى » ويقول الرسول : « إنما أنا بشر مثلكم » ويقول له الناس « ما أنت إلا بشر مثلنا » ،

إلى غير ذلك من أساليب أصيلة فى العربية سوّت بين الناس فى الخطاب والغيبة والتكلم .

ومن سمات العالمية فيها كذلك سعة انتشارها واصطناع شعوب متعددة لها ، منذ أن استقرت الدولة العربية فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من الهجرة . فقد مر حينئذ على انتشار العربية فى أقطار عدة وشعوب مختلفة زمن كاف لصبغ تلك الشعوب بالصبغة العربية ، فأخذت بالطابع العربى ديناً ولغة وثقافة وحضارة . وقد صهرت كل تلك الشعوب التى كانت فى آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا فى البوتقة العربية ، وتألف منها فى نهاية الأمر شعب عربى واحد ، يدين بدين واحد ، ويصطنع لغة واحدة . هذا إلى أن العربية دخلت أيضاً مناطق نائية مع الدين الإسلامى ، وأصبحت هناك لغة الثقافة الدينية ، كما هو الشأن فى بعض جهات الهند ، وفى باكستان وأفغانستان والملايو وأندونيسيا ، وغيرها من دول الشرق التى انتشر فيها الإسلام وانتشرت بانتشاره اللغة العربية . ودخلت العربية كذلك جهات من أفريقيا اعتنقت الإسلام وأصبحت الآن تعرف بالدول الإسلامية فى وسط أفريقيا وشرقيها وغربيها . وقد اتجهت هذه الدول الإسلامية صوب العربية تستمد منها الثقافة الدينية والحضارة العربية ، مثل موريتانيا ونيجيريا والصومال . وهكذا نرى أن العربية قد ذاعت فى مناطق متباعدة الأطراف ، وأصبحت بين أوسع اللغات انتشاراً فى العالم . ويعدّها المحدثون من اللغويين ثالثة لغات العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها .

أما السمة الثالثة لعالمية العربية فهى أنها وهى فى أوج نهضتها قد رحبت بكثير من الألفاظ التى اقترضتها من اللغات الأخرى ، واستغلتها فى المصطلحات العلمية ولغة الكلام ، ولكنها لم تسمح لها إلا فى النادر باقتحام حصون الأدب العربى .

وصمدت العربية فى كل تاريخها فلم يصبها ما أصاب اللاتينية من تفتت إلى لغات مستقلة ، غير أن بعض المتشائمين من الدارسين يحاولون عقد المقارنة

بين ما أصاب اللاتينية على مر الأجيال من تشتتها إلى عدة لغات استقل بعضها عن بعض ، وبين ما يمكن أن يصيب العربية من استقلال لهجات الكلام فى البيئات العربية واحتمال تطورها إلى لغات مستقلة أيضاً . وقد فزع كثير منهم لمثل هذا الخاطر فزعاً شديداً ، وحق لهم أن يفزعوا ، ولكنهم نسوا أن ظروف اللاتينية تختلف عن ظروف العربية ، فليست اللاتينية باللغة الأصيلة للمسيحية ، ولا ترتبط بها ذلك الرباط المقدس الذى نلحظه بين الإسلام والعربية . فلن تتطور لهجات الكلام فى البلاد العربية إلى أسوأ مما وصلت إليه فى القرن التاسع عشر وما قبله . فقد كانت لهجات الكلام خلال عدة قرون فى شبه عزلة بعضها عن بعض ، تتباين فى نطق عدد من أصوات اللغة ، وتتباين فى بعض صيغ اللغة وأبنيتها ، كما تتباين فى مجموعة كبيرة من الألفاظ والأساليب ، مما جعل التفاهم بين أهل هذه اللهجات عسيراً ، إلا حين يلجأون إلى العربية الكلاسيكية التى أحسن تعلمها طوائف من المثقفين فى كل العصور . ويعزى الفضل فى هذا إلى ارتباط هذه اللغة الكلاسيكية بالدين الإسلامى ذلك الارتباط الوثيق .

فالمقارنة المنصفة بين تاريخ اللغة العربية واللغة اللاتينية تربنا بوضوح أن القرن الثامن الميلادي قد شهد لغتين عالميتين متعاصرتين هما : العربية فى الشرق أيام الرشيد والمأمون ، ولاتينية الكنيسة فى الغرب أيام شارلمان . وتربنا كذلك أن العربية كانت حينئذ فى ذروة مجدها تصطنع فى إنتاج الآداب الخالدة وتتخذ أداة التعبير فى المجالات الدينية والعلمية ، ويقبل على تعلمها وإتقانها أبناء الدولة العربية العظيمة فى جميع مناطقها . وكذلك كان الشأن فى الغرب بالنسبة للاتينية الكنيسة التى حاول شارلمان أن يجعل منها رباطاً وثيقاً لكل شعوب أوربا التى خضعت لسلطانه فى الوسط والجنوب والغرب ، بل وفى بريطانيا . وساعده على هذا البابا فى روما وقساوسته الذين كان يعينهم فى مثل هذه المناطق المترامية الأطراف .

وبرغم هذا لم يكد ينقضى عدة قرون ، أو لم يكد يجيء القرن السادس عشر

الميلادى حتى شهدنا فى أوربا لغات محلية مستقلة منها الإيطالية والفرنسية والإسبانية وغيرها . وظهر لهذه اللغات روّاد من الأدباء الكبار الذين عملوا جاهدين على تثبيت دعائم هذه اللغات المحلية ، ولم يشفع سلطان الكنيسة المسيحية فى الحدّ من تلك الفرقة اللغوية .

أما فى الشرق فمع ما أصاب الدولة العربية من مآس واضمحلال سياسى خلال هذه القرون ظلت اللغة العربية صامدة تقويها الروح الإسلامية وتشد أزرها . غير أن لهجات الكلام فى المناطق العربية قد أخذت أشكالا محلية ، واختلفت فى نطق بعض أصوات اللغة وتشكيل صيغها وأساليبها ودلالات كثير من الألفاظ ، ولكنها لم تصل أبداً إلى ما يشبه اللغات المستقلة ، وإن كان البون بين لغة الكتابة ولغة الخطاب فى هذه المناطق المحلية قد زاد واتسع بسبب الجهل الذى خيم على الناس فى معظم الأنحاء .

وظلت الحال هكذا حتى كان القرن العشرون ، وقوى الشعور بالقومية العربية ، وكانت اليقظة العربية التى اتجهت نحو تدعيم القومية العربية ، ووجدت أن أقوى رباط يوثق بين العرب ويجمع شتاتهم هو اللغة أو الوحدة اللغوية .

الفصل التاسع

لغات عالمية فى العصر الحديث

١

اللغة الفرنسية

جاءت النهضة الأوربية فنبهت الأذهان وأيقظت العقول من سباتها الطويل خلال القرون الوسطى . وقُيِّض للعالم الأوربى طائفة من المفكرين والمصلحين الذين حملوا لواء هذه النهضة ، منهم الفلاسفة أصحاب النظريات الفلسفية الحديثة التى لم تكن تخطر للعقل الإنسانى من قبل ، ومنهم الأدباء الذين أنتجوا آداباً سامية خالدة فى صورة مقطوعات شعرية ، وقصص ومسرحيات ، ومنهم الفنانون الذين أبدعوا فى تصوير الطبيعة ، وخلّفوا للناس رسومات وتماثيل تعدّ من أروع ما فى التراث الإنسانى . ومنهم العلماء فى الفلك والطبيعة والجغرافيا ، ومنهم المستكشفون الذين جابوا البحار والمحيطات وفتحوا عيون الناس على عوالم جديدة كانت مجهولة .

وبدأت آثار هؤلاء المفكرين والمصلحين تلتمس طريقها وئيداً بين جمهور الناس ، منهم من ينكرها أشد الإنكار ، ومنهم من يأنس لها ويطمئن إليها . ولم يكد ينقضى قرن أو قرنان من الزمان على مولد تلك النهضة الأوربية حتى شهدنا نتائجها فى كل أنحاء أوربا : نور بعد ظلام . ويقظة بعد سبات ، وعقول تتفتق ، وتقبل على تلك الحياة الجديدة فى نهم .

ونظر الناس فى كل بيئة من بيئات أوربا فإذا لكل بيئة كيان مستقل ، وإذا الوحدة الأوربية التى سعى لها « شارلمان » من قبل قد تبددت ، وتكوّن على أنقاضها دويلات بعضها فى نطاق كبير ، وأخرى فى نطاق صغير . وأقبل أهل كل دويلة بعضهم على بعض عاملين معاً على تأمين حدود هذه الدويلة ،

وعلى استقرار الحياة فيها وازدهارها ورواج أسواقها .

ثم كل هذا في القرن السادس عشر الميلادي برغم ما كان بين أهل أوربا من وحدة في الدين المسيحي ؛ وبرغم ما كان بينهم من تشابه في ألوان الوجوه والعيون والشعر والملامح . لم يشفع كل هذا في الإبقاء على تلك الوحدة الأوربية ، لأن عاملا جديداً ذا سلطان قوى قد ولد مع مولد النهضة ؛ هو اللغات المحلية .

أحس جمهور الناس خلال القرن السادس عشر الميلادي وفي كل بيئة من بيئات أوربا أن لهم لسانا متميزاً ، وأنهم يتفاهمون فيما بينهم بأصوات تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي في البيئات الأخرى ، وأن المرء في بيئة من تلك البيئات حين يصادف آخر من بيئة أخرى لا يستطيع التفاهم معه ؛ ولا يرى في أصوات أخيه الإنسان إلا نوعاً من الرطانة والعجمة التي تأباها أذنه وينفر منها ذوقه ، فكان التباعد والفرقة بين أهل هذه الدويلات الناشئة .

وهنا ولدت القومية في أوربا ، حين أحس أهل كل بيئة بكيان مستقل متميز ، وكان مولد القومية مرهوناً بمولد اللغات المحلية . فالسر الحقيقي في نشأة القوميات في أوربا هو نشأة تلك اللغات الأوربية الحديثة في مناطقها المختلفة .

وإذا قصرنا النظر على اللغات الحديثة في جنوب أوربا رأينا أن أشهرها هي الإيطالية والفرنسية والإسبانية ؛ وكلها مما انحدر عن لاتينية الكنيسة التي سادت في القرون الوسطى . أي أن هذه اللاتينية قد تطورت على ألسنة الناس خلال عدة قرون . ودون شعور منهم بهذا التطور حتى انتهت في آخر الأمر إلى تلك الصور المتباينة التي نألفها الآن وندعوها باللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية .

وتطور اللغة في بيئتها الأصلية ، حتى وإن لم تتدخل عوامل خارجية ، أمر مسلم به بين علماء اللغات . ذلك لأن عملية الكلام ككل عملية عضوية لا يمكن أن تؤدى في كل مرة بصورة واحدة ، فلا ينطق المرء بكلامه في الظروف المختلفة بنفس الصورة ، ولا ينطق الناس بكلامهم في التخاطب والتفاهم بعضهم

مع بعض بنفس الصورة ، بل تلحظ الأذن المدربة ، وتسجل آلات التسجيل فروقاً صوتية لا يكاد يدركها إلا الخبير المتخصص ؛ ويتجاهل الناس فى خطابهم العام مثل هذه الفروق لضآلتها أو تفاهتها . فإذا انتقلت اللغة إلى الجيل الناشئ وقلدها أبناؤه زادت تلك الفروق ، حتى إذا مرت عدة أجيال تبلورت وأخذت تتميز بصفات لم تكن فى لغة الأجداد . وتبدأ تلك الانحرافات فى أصوات اللغة ، ثم فى دلالات ألفاظها وبنية كلماتها ، وأخيراً قد تطرأ على تراكيب جملها ونظام أساليبها .

ويبطئ من مثل هذا التطور التدريجى أو يحول دونه ، أن يسود أهل اللغة نوع من التعصب للغتهم أو التطلع لتراث قديم لهم يعتزون به كل الاعتزاز ويجدون فيه المثل الأعلى والقدوة الحسنة . كذلك مما يبطئ من هذا التطور أو يحول دونه ، أن ترتبط اللغة بدين أو عقيدة ارتباطاً وثيقاً يشعر المرء معه أن أى تغيير فى اللغة سيؤدى حتما إلى تغيير وانحراف فى تلك العقيدة .

وأخيراً وليس آخراً مما يبطئ من هذا التطور أو يحول دونه، أن تسود الكتابة بين أهل هذه اللغة ، وأن يصبح للكلمة صورتان إحداهما منطوقة والأخرى مكتوبة . فتحد الصورة المكتوبة من تطور الكلمة أو تغيرها على مر الأجيال . لأن الكتابة بمثابة سلاسل تقيد ظواهر اللغة وتعمل على استقرارها . فالكتابة عملية بطيئة التطور أو التغير ، وقد تمر قرون وقرون وهى على حالها كما سجلها أسلافنا القدماء .

ولم يتوفر للاتينية الكنيسة التى سادت فى القرون الوسطى إلا قدر ضئيل من تلك العوامل التى تبطئ من التطور اللغوى أو تحول دونه . فبرغم الوحدة الدينية لم ترتبط المسيحية باللاتينية ارتباطاً وثيقاً ، لأن اللغة الأصلية للمسيحية هى الآرامية أو الإغريقية . أما التراث القديم الذى تطلع إليه أهل أوربا ووجدوا فيه مثلهم العليا فلم يكن باللاتينية ، وإنما كان بالإغريقية . ثم بعد هذا وفوق هذا ، لم تكن الكتابة من الشيوع بين الناس بحيث تحد من التطور اللغوى أو تحول دونه .

لهذا كله تطورت اللاتينية فى بيئتها الأصلية «روما» وما حولها ، ونشأ عن هذا التطور ما يسمى الآن باللغة الإيطالية الحديثة التى تعد الوريث الشرعى للغة اللاتينية القديمة .

وحين نتساءل لماذا اتخذ تطور اللاتينية صوراً مختلفة فى المناطق الأخرى ، لا نكاد نجد تفسيراً لهذا إلا حين نأخذ فى الاعتبار الصراع اللغوى الذى كان بين اللاتينية واللغات التى سادت فى تلك المناطق قبل دخول اللاتينية .

دخلت اللاتينية بلاد «الغال» أو ما يسمى بفرنسا الحديثة فوجدت أهلها يتكلمون باللغة «الكلتية» ودخلت فى إسبانيا فوجدت أهلها يتكلمون «بالقوطية» و«الكلتية» أيضاً مع لغات أخرى . فكان الصراع اللغوى الذى انتهى بتغلب اللاتينية ، وحلولها محل هذه اللغات فى البيئات الجديدة . غير أن اللاتينية قد خرجت من هذا الصراع مثخنة بالجراح ، أى متأثرة ببعض خصائص هذه اللغات المهزومة من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب ودلالات الألفاظ .
ويقول المؤرخون من اللغويين إن اللاتينية قد دخلت إسبانيا بعد هزيمة قرطاجنة ، وقبل أن يصيب هذه اللاتينية أى تطور فى بيئتها الأصلية . ويعللون بهذا قرب الكثير من صيغ الإسبانية إلى اللاتينية الكلاسيكية . الأمر الذى نفتقده فى الفرنسية الحديثة . وسواء كان هذا هو السر الحقيقى ، أم أن الصراع اللغوى بين اللاتينية واللغات التى كانت سائدة فى إسبانيا لم يكن من القوة بحيث يترك آثاراً كثيرة فى اللغة الغازية ، سواء كان هذا أو ذاك فالذى يجمع عليه علماء المقارنات اللغوية أن لغة إسبانيا الحديثة أقرب إلى اللاتينية من اللغة الفرنسية .

لهذا لا يدهش اللغويون حين يرون الآن صوراً مختلفة للاتينية القديمة فى البلاد المعروفة ببلاد إيطاليا وفرنسا وإسبانيا .

اجتمعت إذن عوامل التطور والتغير على لغات جنوب أوربا فى القرون التى سبقت عصر النهضة الأوربية ، وعملت على تغييرها تغييراً بطيئاً تدريجياً . فلما كان القرن السادس عشر الميلادى ، كان قد اكتمل الكيان الخاص

لكل لغة من هذه اللغات الجديدة ، وشعر الناس باستقلال لغاتهم دون أن يفطنوا إلى الصلة التي كانت بين هذه اللغات ، وإلى أنها تنحدر من أصل واحد، بل لم يكد يفطن اللغويون إلى مثل هذه الصلة إلا فيما بعد .

فلما كان القرن السابع عشر الميلادى بلغت اللغة الفرنسية الحديثة ذروة مجدها . وتعد الفترة التي بدأت بحكم لويس الرابع عشر وخلفائه الفترة الرئيسية لسلطان فرنسا فى أوربا . فقد فشلت إيطاليا حينئذ فى تأسيس وحدة إيطالية ، بل فشلت حتى فى الاحتفاظ باستقلالها السياسى ، واضمحلت إسبانيا بسبب الفساد فى نظام الحكم ، وهزمت ألمانيا فى حرب الثلاثين عاماً ، وانصرفت إنجلترا إلى الخلافات الاجتماعية والمدنية أيام حكم أسرة استيورت . ترك كل هذا ميدان الحياة ممهداً معبّداً لسيادة فرنسا ، لا فى النواحى السياسية فحسب بل فى النواحى الاجتماعية واللغوية أيضاً . وهكذا قُدر للغة الفرنسية أن تصبح اللغة العالمية الأولى فى ذلك الحين . وقد أعدت اللغة الفرنسية حينئذ لتكون أداة التعبير إعداداً يتسم بحسن التدبير والتفكير ، فساعد هذا على قبولها فى أنحاء متفرقة من العالم الأوربى . وكان لجهود عظماء المثقفين والكتاب من الفرنسيين أثر كبير فى هذا الشيوع . بل ومعهم جمهور كبير من مجتمع مثقف تحمّس للغته وتعاون على النهوض بها .

ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر الميلادى حتى شهدنا طائفة من عباقرة الأدباء أمثال « كورنى » ، « وراسين » ، « وموليير » « ولافونتين » « وبسكال » وغيرهم وغيرهم .

وقد سيطرت لغة الفكر أيام لويس العظيم ، على مجالات الفكر والمثقفين فى كل أوربا . وصارت اللغة الفرنسية بين أهل الفكر والعلم فى أوربا أداة للتعبير الواضح المنطقى ، فقد سعى هؤلاء الكتاب الفرنسيون جاهدين لجعل اللغة الفرنسية نقية مبسطة منطقية كى تصبح بين اللغات ، اللغة النموذجية التى تصلح وسيلة لنقل الفكر الحديث .

ولقد أظلت الثقافة الفرنسية خلال القرن الثامن عشر كله بلاط الحكام وصالونات الأمراء فى العالم المتمدين ، ونُظر إلى اللغة الفرنسية على أنها اللغة

الأولى للثقافة والفكر ، فى روسيا ، وبولاندا ، وبروسيا ، كانت هذه اللغة بمثابة نور بدد الظلمة والجهل والطغيان الذى كان سائداً هناك . كانت هذه اللغة تسمع فى مسارح أوربا أكثر مما كانت تسمع اللغات المحلية ، وكانت الأرستقراطية الروسية تصطنعها لغة للحديث والخطاب بين أبنائهم .

ولما كان القرن التاسع عشر كانت معظم دول أوربا تدين للغة الفرنسية والفكر الفرنسى بالولاء ، وتعدّ الفرنسيين أساتذتهم فى كل المجالات الثقافية . فاتخذت اللغة الفرنسية أداة التعبير فى المكاتبات الدبلوماسية ، وسجلت بها المعاهدات الدولية ، وتعدّ معاهدة « راستات » ١٧١٤ م أول معاهدة أوربية تكتب باللغة الفرنسية بدلا من اللاتينية التى كانت تصطنع فى كل المعاهدات الدولية قبل ذلك .

ومنذ ذلك الحين حتى أيامنا الحاضرة ظلت اللغة الفرنسية اللغة العالمية الأولى فى المسائل الدبلوماسية ، بل وفى القصص والمسرحيات والفلسفة فى معظم أنحاء العالم المتمدين . فأقبل عليها الناس فى كل البيئات ، وألف بها كثير من علماء تلك الدول الأوربية ، نذكر منهم الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » والرياضى الفلكى الهولندى « هيجنز » .

وساعدت غزوات نابليون وفتوحاته على نشر الفرنسية واستقرارها فى بقاع كثيرة من أوربا ، ولا سيما عن طريق تلك القوانين والدساتير الجديدة التى أخذت بها هذه البقاع ، والتى تصطبغ بالصبغة الفرنسية ، وتتسم بالطابع الفرنسى .

ولما استيقظت بلاد البلقان وأخذت دوله تطالب بحريتها ، ونشر مظاهر الحضارة والمدنية فيها ، كانت اللغة الفرنسية والعقل الفرنسى الوسط الذى عن طريقه انتقلت إلى هذه الدول روح الحرية وطابع الحضارة الحديثة . فالأوربى الحق هو الذى كان يستطيع الكلام بالفرنسية ويستطيع الكتابة والقراءة بها . وأصبحت السيطرة على هذه اللغة أكبر دليل على الانتماء إلى العالم المتحضر ،

فقد ترتب عليها أسلوب جديد في الحياة يتسم بالتهذيب والرقة والكمال .

غير أن الثورة الفرنسية قد أدت إلى أن يسيطر على المجتمع الفرنسي طائفة كبيرة ممن كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا من الناس ، أولئك الذين لم تتح لهم فرص الثقافة اللغوية فتكونت لهم عادات لغوية دون المستوى المألوف بين المثقفين والمفكرين . فقضت الثورة على جماعة المحافظين الذين تعلموا وأتقنوا اللغة نطقاً وكتابة وقراءة ، وكان كلامهم يماثل تمام المماثلة لغة الكتابة في الصحف والكتب والأدب ، برغم ما بذلته الأكاديمية الفرنسية التي أسست في منتصف القرن السابع عشر من جهود في المحافظة على الأساليب الكلاسيكية .

وترتب على ظهور هذه الطبقات الجديدة أن أصبحت لغة التخاطب الفرنسية عرضة لانحرافات وتغيرات على ألسنة المتكلمين . وأوضح مظاهر هذه الانحرافات ما أصاب الكلمات من اختزال أو سقوط بعض أصواتها في أثناء النطق ، ولا سيما في المقاطع غير المنبورة من هذه الكلمات

وزادت تلك الانحرافات مع الأيام ، فرأينا اللغة الفرنسية في القرن العشرين تتخذ صورتين : صورة للغة التخاطب وأخرى للغة الكتابة ، مما جعل عالماً كبيراً مثل فندريس يقول[1] : (إن البون بين لغة الكتابة ولغة الخطاب لدى الفرنسيين يتسع مع توالي الأيام ، فأصبحتا تختلفان في تركيب الجمل ونظامها كما تختلفان في المفردات وبنيتها ، غير أن الخلاف في المفردات أوضح وأظهر . ويكتب الفرنسيون الآن لغة شبه ميتة ترجع إلى زمن الأدباء والكتاب في القرن السابع عشر ، ويتخاطبون بعضهم مع بعض في لغة مختلفة عن تلك التي يكتبون بها . وإن المرء العادي ليتردد كثيراً في أن يستعمل معظم ألفاظ الكتابة في أثناء حديثه فإذا خاطب الناس بمثل ما يكتب في الصحف والأدب وصفوه بالتكلف والتقعر . ويقل هذا الصنف من المتكلمين في البيئة الفرنسية كل يوم . وقد ظلت الطبقات العليا من المجتمع تحافظ على تقاليد اللغة الكلاسيكية مستعينة في هذا باللغة المكتوبة ، على حين أن الطبقات الدنيا وحدها هي التي عملت

---

(١) Language in History, by Harold Goad, P.163

على بعث الحياة فى العناصر التعبيرية للغة . وقد انزوت الآن لغة هذه الطبقة المحافظة وتركت الميدان للغة جمهور الناس من الطبقة الأخرى . ويأسف المتزمتون لمثل هذه الحال ويدعون لغة الخطاب باللهجة العامية ، ولكن دون جدوى ، فقد أصبحت الصحف اليومية تلك التى تحرر على عجل وبوساطة جماعة من أنصاف المثقفين تصطنع هذه العامية فى تحريرها يوما بعد يوم ، وتتخذ من الأساليب والتعابير العامية معظم مادة التحرير . فلم تعد لغة الكتابة لغة سليقة للناس ، بل أصبحت تكتسب بالقراءة والاطلاع ، واتسع البون بينها بين لهجات الخطاب والحديث العام ، وأصبحت السيطرة على تلك اللغة الكلاسيكية تتطلب جهوداً شاقة ومراناً طويلا للوصول إليها .

ومن اليسير على الدارسين الآن أن يتنبأوا بأن مصير اللغة الفرنسية الأدبية سيكون فى المستقبل كمصير اللاتينية فى الماضى ، أى أنها ستصبح لغة خالية من الحياة قد تحجرت أساليبها وكلماتها ولم تعد صالحة لأى تطور) .

هذا هو الوصف الرائع الذى نقرؤه لأحد اللغويين المحدثين من الفرنسيين ، ونضيف إليه أن كل الدلائل فى الوقت الحالى تدل على أن المستقبل للغة المنطوقة بعد انتشار الإذاعة فى كل أنحاء العالم والاعتماد عليها فى معظم نواحى الثقافة والإعلام . وإذا كان المحافظون المتمسكون بأهداف اللغة الأدبية قد خيل إليهم خلال القرن التاسع عشر أن نشر الكتابة ومحو الأمية بين الناس سيعيدهم إلى تلك اللغة الأدبية ، فلا محل الآن لمثل هذا الخيال بعد شيوع الإذاعة ومنافسة الكلمة المنطوقة للكلمة المكتوبة . هذا إلى أن الكثرة الغالبة ممن اقتصر تعلمهم للقراءة والكتابة على سن الإلزام قد نسوا أو كادوا ينسون ما تعلموا ، أو على الأقل لم ينتفعوا بهذه الوسيلة فى مستقبل حياتهم الانتفاع الكافى حتى يمكن أن نتصور أن الكتابة والقراءة ستحافظ على الأساليب اللغوية الكلاسيكية .

فالعصر الحالى عصر الديمقراطيات ، عصر الشعوب والجماهير ، يتجه نحو لغة الكلام التى يفهمها الجميع ويتذوقها الجميع ، ولا يكاد المرء العادى مع ظروف الحياة الحديثة ، يجد من الوقت ما يسمح بإتقان تلك اللغة

المنمقة ، أو التريث فى اختيار الأساليب . فالتعليم آلىّ ، وكل مظاهر الحياة الآن تتسم بالسرعة ، ولا غرابة أن تصبح الفرنسية فى المستقبل أقرب إلى لهجة الخطاب الحالية ، وأبعد عن لغة «كرنيي» و«راسين» و«فولتير» وغيرهم ممن وضعوا أسس اللغة الفرنسية الكلاسيكية .

فاللغة الفرنسية التى سادت فى كل الأوساط الثقافية بأوربا فى أواخر القرن التاسع عشر والتى يتكلم بها ما يقرب من ثلث سكان «كندا» وكل سكان الهند الصينية ، وبلاد متعددة فى أفريقيا ، والتى اصطنعت فى كل المعاهدات الدولية والمراسلات الدبلوماسية قد استحقت عن جدارة أن تعدّ حينئذ اللغة العالمية الأولى ، وأهّلها لهذا اللقب اتجاهها نحو لهجة الخطاب التى يألفها جمهور الناس ، ويقبلون عليها كل الإقبال ، لأنها تعبّر بصدق عن أحاسيسهم وعواطفهم وآمالهم ، ولأنها أقرب إلى نفوسهم وقلوبهم .

غير أن هذه الفرنسية العالمية قد وجدت منذ أوائل القرن العشرين منافساً قويًّا لها فى الميدان العالمى وهو اللغة الإنجليزية التى اشتركت مع الفرنسية لأول مرة فى معاهدة فرساى بعد الحرب العالمية الأولى .

٢

اللغة الإنجليزية

لا يتردد أحد الآن فى أن يعد اللغة الإنجليزية اللغة العالمية الأولى . فهى اللغة الأم لعشرات من ملايين البشر ، وهى اللغة الثانية لملايين آخرين فى العالم ، وليس من المغالاة أن نقرر أن عدد المتكلمين بهذه اللغة فى العالم الآن يجاوز مجموع المتكلمين بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية ، هذا برغم أن انتشارها خارج حدود الجزر البريطانية لم يبدأ إلا سنة ١٦٢٠ حين هاجر جماعة من الإنجليز المغامرين إلى أمريكا الجديدة واستقروا فى «فرجينيا» .

وحين نحاول تلخيص التاريخ اللغوى فى الجزر البريطانية نجد أنه فى

القرون المسيحية الأولى كان ينتظم هذه الجزر اللغة « الكلتية » ، وكان لها ثلاثة فروع متميزة : أحدها فى إسكتلندا والثانى فى ويلز والثالث فى أيرلندا ، ولا تزال بقايا هذه الفروع سائدة حتى الآن فى هذه المناطق بوصفها لغة ثانية لكل منها .

ثم غزا الرومان هذه الجزر البريطانية ، واستقرت حامياتهم هناك عدة قرون ، ثم تركوها فى أوائل القرن الخامس الميلادى دون أن يخلفوا فى لغاتها أثراً يذكر ، واقتصرت آثارهم هناك على طرق رومانية وجسور وحصون وبعض القوانين التى نشروها فى تلك البلاد .

وفى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الميلاد غزا هذه الجزر جماعات من الجنس الجرمانى يسمون بالإنجليز السكسون ، وفدوا من غرب أوربا وأسسوا دولتهم شرقى الجزر البريطانية وفى الشمال منها . فشهدت هذه الجزر للمرة الأولى صراعا لغويًّا بين لغة الغزاة الجرمانية وبين اللغة الكلتية التى كانت سائدة هناك . وانتصرت اللغة الغازية أو بعبارة أدق تقهقرت اللغة الكلتية أمامها ، واتخذت لها ملجأ فى شمال إسكتلندا وفى ويلز من أقصى الغرب ، وفى أيرلندا كذلك . ولا تزال بقاياها هناك حتى الآن .

هذا هو البدء الحقيقى لتاريخ اللغة الإنجليزية التى تطورت ثم تطورت ومرت بها مراحل متعددة حتى صارت على الصورة المألوفة لنا الآن .

ومنذ القرن الثامن الميلادى شهدت الجزر البريطانية غزوات سريعة قام بها قوم من المحاربين الهمج الذين وفدوا من شمال الدنيمرك ومن بلاد السويد والنرويج وعرفوا فى التاريخ باسم « ڤيكنج » . ولم يكن لهم هدف من تلك الغزوات سوى السلب والنهب والعودة إلى بلادهم فى أغلب الأحوال . ولما كانت لغتهم تنتمى إلى المجموعة الجرمانية ، أى مثل لغة الإنجليز السكسون ، لم يحدث خلال تلك الغزوات ما يشبه الصراع اللغوى ، وإنما كان بمثابة تبادل فى العناصر اللغوية ، فأخذ هؤلاء من هؤلاء ، ومنح هؤلاء لهؤلاء كلمات وعناصر لغوية أخرى يشير إليها الدارسون المتخصصون بالتفصيل .

ثم كان العام ١٠٦٦ م حين غزا جماعة من هؤلاء « الڤيكنج » عرفوا فى

التاريخ بالنورمنديين ، لأنهم جاءوا من مقاطعة « نورمانديا » فى أقصى الغرب من فرنسا ، وبعد أن أقاموا هناك قرناً من الزمان وأصبحت لغتهم اللغة الفرنسية .

وهنا شهدنا صراعاً حقيقيا بين لغة الإنجليز السكسون وبين اللغة الفرنسية التى جاء بها هؤلاء النورمانديون ، واستمر هذا الصراع زهاء قرنين انتصرت بعدهما الإنجليزية . وكانت غزوات النورمانديين آخر الغزوات التى وفدت على الجزر البريطانية . فلما تخلصت الإنجليزية من سلطان الفرنسية عليها ، بدأت نموها المستقل وقد تأثرت بكل ما وفد عليها من غزاة قبل ذلك .

ويحدثنا مؤرخو اللغات عن أثر الغزو النورماندي فيقولون إن الإنجليزية قد فقدت بسبب هذا الغزو وما نشأ عنه من صراع لغوى ، نحو ثلثى الكلمات التى كانت تجرى على ألسنة الإنجليز السكسونيين ، بل لم تعد الإنجليزية خلال هذا الصراع لغة الأدب والثقافة ، وإن ظلت لغة الكتابة فى مدارس بعض المناطق . وقد أصبحت الفرنسية لغة الطبقة العليا والحكام فى الجزر البريطانية ، غير أن بعضاً منهم أخذوا يصطنعون الإنجليزية أيضاً ، بوصفها لغة ثانية كلما اضطروا إلى التعامل مع الطبقات الأخرى .

وهكذا لم يمض غير زمن قليل على الغزو النورماندى حتى أصبحت معظم كلمات المهن والحرف فرنسية . وأصبحت الكلمات الخاصة بمواعيد الطعام وأصنافه فرنسية ، وأصبحت معظم المدارس فى أيدى من يعلّمون بالفرنسية . بل لقد ترتب على الغزو النورماندى تغييرات فى بنية اللغة وتراكيبها .

ومع كل هذا لم يكد يبدأ العام ١٣٦٢ م حتى كانت اللغة الإنجليزية قد خرجت من هذه المحنة ، وأصبح لها كيان جديد مستقل ، فاعترف بها أولا فى المحاكم ، ثم بعد قليل أصبحت اللغة الرسمية فى البرلمان . وأخذت الإنجليزية منذ ذلك الحين تعتمد فى آدابها على ترجمة الآثار الأدبية من اللغات الأخرى ، ولا سيا الفرنسية . وترتب على هذا أن دخلت مئات من الكلمات الفرنسية اللغة الإنجليزية ، وأن صُبغت بالصبغة الإنجليزية . وهنا نتصور أن الإنجليزية قد أصبحت كلماتها مزيجاً من كلمات بعضها من الأصل الجرمانى والبعض

الآخر من الأصل اللاتيني ، وتلك هي اللغة التي وجدها الشاعر الإنجليزي المشهور « تشوسر » والتي كتب بها آثاره ، والتي كتب بها بعد ذلك بقليل « وكليف » آثاره الدينية الروحية التي مهدت للنهضة الدينية في عهد الإصلاح بإنجلترا . ولم يكد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت الإنجليزية قد أصبحت مرة أخرى لغة الثقافة والأدب .

مهد « وكليف » لحركة الإصلاح الديني التي سادت إنجلترا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . ولم تكن حركة الإصلاح في حقيقة أمرها إلا حركة لغوية تدعو إلى أن يتعبد الناس بلغتهم المحلية أي الإنجليزية ، وأن يعظهم القسس والرهبان في الكنائس والمعابد بهذه اللغة التي يفهمها الجميع ويعتز بها الجميع . لم تكن حركة الإصلاح إلا صراعاً بين لغة الكنيسة أي اللاتينية ، وبين لغة الشعب أي الإنجليزية . فكلما حاول بعض المصلحين ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية صودرت الترجمة ، فزاد الناس تعلقاً بها وإقبالا عليها . فقد أحست الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا بكيانهم اللغوي واستمسكوا بلغتهم الإنجليزية التي عبرت في صدق وأمانة عن أحاسيسهم وعواطفهم وآمالهم ، والتي اصطنعوها في الآداب والتعامل ، فأصبحت الصورة الحقيقية لعقولهم وتفكيرهم .

وقد تُرجم العهد القديم عدة ترجمات في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ثم كان ذلك المؤتمر الذي عقد في « هامتون كورت » وانتهى بوضع تلك النسخة المحققة المعتمدة من الكتاب المقدس سنة ١٦١١ م ، التي لاتزال تقرأ ويتعبد بألفاظها حتى الآن . وضعت هذه النسخة المعتمدة في وقت كانت الإنجليزية فيه قد بلغت ذروة مجدها البياني ، فقد ألف فيه شكسبير آثاره الخالدة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الكتاب المقدس في لغته الجديدة محل الإجلال والتقديس من الناس جميعاً ، يقرأه الغني والفقير صباحا ومساء ، في القصور والمنازل والأكواخ ، في السهول وفي الجبال ، في السفن وفوق متن البحار .

وفى أمكنة العبادة على اختلاف أنواعها . وشرع الدارسون فى تفهم كل سطر من سطوره ، وكل كلمة من كلماته ، يتناولونها بالتفسير والشرح ، ويجدون فيها المنهل العذب والاطمئنان الروحى على اختلاف مذاهبهم . كان الكتاب المقدس بالنسبة للناس بمثابة مدرسة يستمدون منها معرفتهم ، ويشع نوره على عقولهم . فلم ينل منه مر الأيام والعصور ، ولم يتطرق إلى أساليبه إهمال أو نسيان ، بل ظلت كلماته على كل لسان ، وقد نقشت فى الصدور والأذهان . هو الكتاب الذى صان الإنجليزية على مر الأجيال ، ليس فيه كلمة لا يعرف معناها الإنجليزى المثقف سوى بضع كلمات من أصل عبرى . وكل أساليبه تعد فى الذروة من البيان الإنجليزى . هو النموذج الأدبى الذى يتطلع إليه المتكلمون باللغة الإنجليزية ، وسيظل الناس فى إنجلترا وأمريكا واستراليا وكندا يصطنعون لغة واحدة ، طالما ثابروا على قراءته والاستماع لنصوصه . وفى مثل هذا ضمان لاستمرار الوحدة اللغوية بين هذه الشعوب .

وهكذا نرى أن نصوص النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الإنجليز ، فأصبحوا ينظرون إليها كأنما هى من الوحى الإلهى .

ومع استقرار اللغة الإنجليزية وازدهارها خلال القرن السابع عشر ، حال الصراع الداخلى فى الجزر البريطانية دون انتشارها خارج حدود هذه الجزر . فلم يكن يشعر بنتاجها الأدبى أو الثقافى من أهل أوربا إلا القليلون ممن أتيحت لهم الرحلة إلى هذه البلاد . فقد ظل الإنجليز يجاهدون خلال هذا القرن لتحقيق سلطان الشعب ضد الملكية التى آمنت حينئذ بمبدأ التفويض الإلهى . وتحدى ممثلو الشعب سلطة الملك ، فكان صراع وقتال بين أنصار الملك وأعضاء البرلمان الذين عملوا جاهدين على الحد من طغيان الملكية . وانتهى القرن السابع عشر بانتصار الشعب ، وبدأت الطبقة الوسطى والدنيا تشعر بكيانها ، وتساهم فى الحياة الثقافية والأدبية بجهود موفقة .

فلما كان القرن الثامن عشر بدأت أوربا تحس بالأدب الإنجليزى .

فترجمت بعض آثاره إلى لغات أوربا ، وبدأت الإنجليزية تتطلع إلى أن تتبوأ مقعداً عالميا بين اللغات .

شهد القرن الثامن عشر نهضة كبرى بين الطبقة الوسطى من الإنجليز فنشأ بينهم أدباء من الشعراء والكتاب والفلاسفة ، وأصبح أبناؤها يرون أن السيطرة على اللغة حق لهم جميعا . وكان أول من عرفتهم أوربا من كتاب الإنجليز « بوب »، « أديسون » ، « استيل » ، « دفو » ، « سويفت » وغيرهم ممن ترجمت آثارهم إلى اللغة الفرنسية. وتلا هذه الحركة الأدبية ظهور قصة « روبنسن كروزو » التي ترجمت سنة ١٧١٩ إلى الفرنسية والهولندية والألمانية وغيرها . ثم استمر الإنتاج الأدبي للغة الإنجليزية يتدفق على ربوع أوربا ، ويقبل عليه الدارسون هناك في شغف ، ولكن العجيب أن آثار « شكسبير » لم تسترع انتباه الأدباء في أوربا إلا في أواخر ذلك القرن، فقد بدأت حينئذ ترجمة آثاره إلى لغات أوربا ، لغة بعد أخرى . ومن العسير أن ندرك السر في أن أدباء أوربا قد أحسوا بالآثار الأدبية لأدباء من أمثال « تومسن » ، « ينج » ، قبل أن يحسوا بآثار « شكسبير » بنحو نصف قرن من الزمان . ولعل من أنجح أدباء الإنجليز لدى القارىء الأوربي « سكوت » ، « بيرون » .

فلما كان القرن التاسع عشر كانت اللغة الإنجليزية قد أصبحت من أعظم اللغات الأدبية . وقد استطاع كتاب القصة في هذا القرن أن ينقلوا إلى الميدان الأوربي صورة مشرقة عن الحياة الإنجليزية ، وأن يجتذبوا القارئ الأوربي الذي أقبل على آثارهم في شغف وشوق ، ولا سيما آثار « ديكنز » .

وساعدت النهضة السياسية الاجتماعية في الجزر البريطانية بعد ذلك على أن تتجه كل أوربا نحوها ، تستمد منها نموذج الحياة الحرة النبيلة ، وتتطلع إلى نظام من الحكم كالذي ساد إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فقد كان القرن التاسع عشر عهد ثورات واضطرابات في معظم أنحاء أوربا وعهد استقرار واطمئنان في إنجلترا . فأقبلت شعوب أوربا على آداب الإنجليز وثقافتهم واقترضت مئات من كلماتهم ، ولا سيما في المجال

السياسى والاقتصادى والاجتماعى والرياضى . فلما كانت الحرب العالمية الأولى نظر جنود الحلفاء إلى جنود الإنجليز فرأوهم مثلا أعلى فى الأناقة ورغد العيش ؛ فلم تكد تنقضى الحرب بالهدنة حتى أخذ بعض قادة هذه الشعوب الأوربية يمنون قومهم بمثل الرخاء الذى شهدوه لدى الإنجليز . فكانت تلك الحركات الفاشستية التى بليت بها أوربا بعد الحرب ، والتى دفعت بالإنسانية إلى الحرب العالمية الثانية .

ولا تزال اللغة الإنجليزية فى الوقت الحاضر اللغة العالمية الأولى . فقد انتشرت فى بقاع متباعدة من الكرة الأرضية ، وبين شعوب متعددة من شعوب العالم ، طوراً تصطنع كلغة الأم ، وأخرى كلغة ثانية بين هذه الشعوب ؛ بل لا تكاد تخلو مدينة فى العالم من قوم يحسنون الكلام بالإنجليزية . هذا إلى أنها تتسم بالمرونة والسماحة فلا تأبى الاقتراض من كلمات اللغات الأخرى كلما أعوزها هذا ، وقد أصبح الآن نصف كلماتها من أصول أجنبية ، وكثير من أساليبها ترجع إلى مصادر غير إنجليزية . وقد أقبلت على كل هذه العناصر دون أن يشعر أهلها بغضاضة ، أو مركب نقص ، فهضمتها وصبغتها بصبغتها . وأصبحت تكون جزءاً أساسيًّا فيها .

وهى فوق هذا لغة ديمقراطية لا تميز بين طبقة وأخرى من الناس ؛ تكتب بأساليب قريبة الشبه جدًّا من لهجات الخطاب والحديث . فهى للناس كافة يصطنعونها فى الكتابة والخطاب ، ويتأدبون بآدابها ، ويجدون المتعة والثقافة فى كل آثارها . من أجل هذا كله استحقت عن جدارة أن تعد لغة عالمية ، وأن تصطنع فى المعاهدات الدولية ، فشاركت الفرنسية فى معاهدة فرساى سنة ١٩١٨ ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى اتخذت فيها الإنجليزية لغة المعاهدات الدولية . ولما أحس أهلها خلال الحرب العالمية الثانية بهذه المكانة للغتهم عملوا جاهدين على الاستمساك بها ؛ ووضع بعض علمائهم من اللغويين مشروعاً مبسطاً لنوع من اللغة الإنجليزية سموه الإنجليزية الأساسية Basic English رغبة فى تيسير تعلمها ، وزيادة نشرها فى العالم .

الفصل العاشر

لغة واحدة للعالم

هل كُتب على الإنسان أن يظل فوق سطح البسيطة أسير تلك اللغات التى تنوعت وتباينت حتى أصبح عددها فى حدود ثلاثة آلاف من الألسنة ، تفرق بين الجنس البشرى ، وتقيم بين الإنسان وأخيه الإنسان حصوناً لم تستطع حتى المدنية الحديثة، مع ما لها من إمكانيات ضخمة ، اقتحامها أو التغلب على مناعتها ؟ !

دعنا نبدأ بالتساؤل : هل يرغب الناس الآن فى لغة عالمية واحدة أو موحدة؟ لقد برهن الاستفتاء الذى قامت به مؤسسة « جالوب » [1] على أن ٨٠ ٪ ممن أدلوا بآرائهم قد تحمسوا لفكرة اللغة العالمية . ولم يقتصر هذا على أمريكا ، بل بدت هذه الرغبة واضحة جلية فى مناطق أخرى من العالم . وظفر الاستفتاء بهذه النسبة الكبيرة برغم انشغال الناس بمطالب الحياة الملحة ، وانغماسهم فى شئونهم الخاصة . ذلك لأنهم رأوا أن الفكرة تكفل لأبنائهم وأحفادهم مستقبلا سعيدا ، وهو ما يتطلع إليه كل منا . وأحسوا أن اللغات فى تشتتها الحالى تقيم حواجز وحوائل بين الناس ، وتحول دون تعارفهم وهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، ودون تعاونهم فى صورة أكمل على حل مشاكل الحياة الدنيا فوق الأرض التى ورثها سبحانه لبنى الإنسان ، وجعلها لهم مستقراً وموطنا . إذ يتنازع العالم فى الوقت الحالى نحو ٢٧٩٦ لغة ، أضخمها من حيث عدد المتكلمين بها اللغة الصينية ، إذ بها وحدها يتكلم ما يجاوز ٦٠٠ مليون نسمة ، ولكن العبرة بسعة انتشار اللغة فى مناطق متباعدة ، لا بكثرة المتكلمين بها . فالإنجليزية الآن تعد أوسع اللغات انتشاراً فى العالم ، برغم أن المتكلمين بها

One Language for the World, and how to achieve it, by Mario Pei. P. 196. (١)

لا يكادون يجاوزون ٢٨٠ مليوناً . وتعد اللغة العربية من حيث سعة انتشارها اللغة الثالثة ، فلا تسبقها فى هذا سوى الإنجليزية والفرنسية ، إذ تسود العربية فى شمال أفريقيا وفى السعودية واليمن وسوريا والأردن ولبنان والعراق ، فوق مالها من نفوذ فى العالم الإسلامى ، أى أنها تؤثر فى ثقافة ما يقرب من ٣٠٠ مليون من سكان العالم .

فإذا اقتصرنا على عدد المتكلمين بكل لغة أصبح ترتيب أشهر اللغات فى العالم على النحو التالى : الصينية ثم الإنجليزية ثم الهندستانية (بقسميها الهندية والأردية) ثم الروسية ثم الإسبانية ثم الألمانية ثم اليابانية ثم لغة الملايو ، ثم الفرنسية ثم البرتغالية ثم الإيطالية ثم العربية[1] .

والمسافر فى أوربا وحدها قد لا تسعفه إحدى هذه اللغات المشهورة ويجد أنه من الضرورى لتحقيق أهدافه من السفر ، أو حتى لمجرد الاستمتاع برحلة سياحية أن يكون على معرفة بلغات أخرى متعددة . وقد تصادفه متاعب وصعوبات وظروف من سوء التفاهم تسبب له الحرج أو العنت والمشقة ، كالذى حدث لى فى أثناء سفرى إلى ألمانيا أيام هتلر . فقد كنت أطلب العلم فى إنجلترا وخطر لى أن أقوم برحلة سياحية فى ألمانيا ، وكان على أن أعلن فى حدود ألمانيا عما معى من نقود أجنبية ، إذا أردت السماح لى بالخروج بها ثانية . وفى القطار وبعد منتصف الليل وأنا فى شبه غفوة من النوم ، صعد إلى القطار الحرس الهتلرى على حدود ألمانيا ، وسألنى بالألمانية التى لم يكن لى علم بها عدة أسئلة حرت معها الجواب ، ولم تسعفنى معرفتى بالإنجليزية ولا الفرنسية ، وترتب على هذا أن شاك الحرس فى أمرى ، ولم ينقذنى حينئذ إلا صديق مصرى كان ينتظرنى فى محطة برلين .

فإذا كان السفر إلى مناطق أخرى من العالم كان الحرج أشد ، والمضايقات لا حصر لها . بل قد يؤدى الجهل باللغة إلى مصير أشنع ، كتلك الحادثة

---

(١) وضع ترتيب اللغة العربية هنا على أساس إحصاءات السكان فى حدود عام ١٩٥٠ ، ومن المؤكد أنها الآن تسبق هذا الترتيب .

التى عُرفت بعد الحرب العالمية الأولى عن جماعة من الجنود الأمريكان رفعوا أيديهم مسلمين للألمان ، ولما صاح فيهم الألمان بالألمانية يأمرونهم بشىء معين لم يفهم الجنود الأمريكان ، وتساءلوا فيما بينهم عما يريده الألمان ، ثم كانت الكارثة حين قال أحد الأمريكان لعلهم يريدون منا أن نلقى بمسدساتنا . ولم تكد أيديهم تتحرك صوب مسدساتهم حتى أرداهم الألمان صرعى سوء التفاهم والجهل باللغة . وقد تكرر أمثال هذه المأساة فى أثناء الحرب ، بل فى السلم أيضاً .

وليست تقتصر أمثال هذه الحوادث على الجهل باللغة ، بل مجرد الضعف فيها ، وسوء فهم أساليبها قد يؤدى إلى ما هو أشنع ، كتلك الكارثة التى وقعت لإحدى الطائرات منذ شهور وحدثتنا عنها الصحف فيما يلى :

كارثة الطائرة الأفغانية (يناير ١٩٦٩) سببها سوء فهم الطيار :

لندن فى ٦ — وكالات الأنباء — قال المحققون فى كارثة طائرة « البوينج » الأفغانية التى تحطمت أمس جنوبى لندن ، وقتل فى الحادث ٥٠ راكباً، إنه يبدو أن قائد الطائرة ، وهو أفغانى، أساء فهم التعليمات التى صدرت إليه بشأن الرؤية .

وقال المحققون إنه قرر الهبوط فى مطار جاتويك، على الرغم من أن البرج أبلغه أن مدى الرؤية لا يزيد على مائة متر .

وأدرك السياسيون والمؤتمرون فى المناسبات الدولية ضرورة اصطناع لغة واحدة تكتب بها نصوص المعاهدات بعد الحروب ، ويتم عن طريقها التفاوض فى الشئون الدولية . فاصطنعت اللاتينية أولا حتى القرن الثامن عشر، ثم الفرنسية التى عرفت خلال القرن التاسع عشر بأنها وحدها لغة السياسة والمعاهدات ، ثم اشتركت معها الإنجليزية ولأول مرة فى معاهدة فرساى .

وقد أدت اللغات العالمية فى التاريخ دورها الهام كما أشرنا آنفا . وكانت بمثابة وسائل تجميع للناس ، ينتظم كل منها مناطق متعددة فترة من الزمن ، ثم

كان من شأنها ماقد عرفنا . ولم تقتصر المحاولات على تلك اللغات التى أشرنا إليها ، بل تمت أيضاً نشأة تلك اللغة التى عرفت خلال القرون الوسطى باسم Lingua-Franca . وأصبح هذا الاسم مصطلحاً لكل لغة تسود فى مناطق كثيرة ، ويتكلم بها عدة شعوب متجاورة . وقد نشأ هذا المصطلح بعد أن جاء العرب إلى حوض البحر الأبيض ووجدوا هناك لغات مختلفة منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية واليونانية . فتطلبت الحال حينئذ لغة عامة تشمل كل هذه المناطق ؛ وهى التى سماها العرب بلغة الفرنجة . وقد استعملت هذه اللغة فى التجارة ، والتفاهم فى المسائل العامة . وأسست قواعدها وأصولها على اللغة الإيطالية السليل المباشر للاتينية ؛ واتخذ أغلب كلماتها من العربية . وقد ظلت هذه اللغة تستعمل حتى القرن السابع عشر ، بل كان لها بعض الآداب الجيدة . وأشار إليها موليير فى رواياته ؛ ولا تزال بقايا وآثار هذه اللغة فى « مالطا » حتى الآن [1] .

وهكذا نرى أن الشعور بالحاجة إلى لغة عالمية له جذوره التاريخية ، وأن الحاجة إلى هذه اللغة قد بدت للناس فيما مضى شبه ضرورة ملحة ، ولكنها الآن وفى العصر الحديث أصبحت أشد إلحاحاً . بل هى فى نظر بعض المفكرين واجب إنسانى ، هى الملاذ الوحيد لإنقاذ الإنسانية من كثير من المآسى والويلات . فهى فى رأيهم تمنع الحروب العالمية ، أو على الأقل تحد من نطاقها وتقصرها على تلك الحروب التى تشبه ما كان بين القبائل فى قديم الزمان . فتلك القوميات المختلفة التى نشأت فى العصر الحديث ولم يكن هناك سبب حقيقى لنشأتها سوى اختلاف اللغة ، لا تلبث فى كثير من الحالات أن تثير النعرة بين أبنائها ، وأن تحفزهم إلى الاعتداء الأنانى على جيرانها ؛ وتصور لأبنائها أنهم أرقى من غيرهم ، وأحق بخيرات الدنيا وأوفى من سواهم ، ومن هنا قد تبدأ المنافسة البعيدة عن كل أمانة وشرف وتتحكم فى القوميات أصناف من الأطماع وأبعاد من الطموح ، ثم تكون المآسى والكوارث .

ويقرر أصحاب هذا الرأى أنه لو لم يكن للغة العالمية من نفع سوى منع

---

(١) One Language for the World, by Mario Pei. P. 77.

الحروب أو الحد منها لكفى بهذا غرضاً نبيلا ، وهدفاً سامياً لحياة الناس فى العالم .

أما فى أوقات السلم فللغة العالمية أفضال أخرى على المجتمع الإنسانى ، إذ يصبح السفر معها إلى البلدان الأخرى عملية ممتعة حقاً ، حتى مع بقاء نظام الدول واختصاص كل منها بمنطقة محددة . فستتلاشى فيها ظاهرة الأقليات أو تنمحي نهائياً بمشاكلها ومآسيها التى أشرنا إلى طرف منها من قبل .

أما من حيث التجارة الدولية فسيصبح أمرها أيسر وأسرع ، وتقل فيها المنازعات وأسباب الخلاف التى تثير كثيراً من القضايا القانونية حول مدلول كلمة فى لغة ، ومدلول ما يناظرها فى لغة أخرى [1] ، كتلك القضية التى أقامها أحد المصريين فى لندن ضد أعضاء اللجنة التنفيذية للنادى المصرى ، لأنهم قرروا إحالته إلى مجلس تأديب ، لتطاوله على نظم النادى وأعضائه ، وعلى حسب ما تنص لائحته . وقد فسر هذا العضو كلمة « تأديبى » على أنها تناظر الكلمة الإنجليزية Punitive ، وأنها تتضمن قذفاً وتشهيراً أضر بمركزه الاجتماعى ، وبعمله كتاجر اشتهر بالأمانة وحسن السمعة . وفسرها من ناحية أخرى الذين تولوا الدفاع عن النادى ، بأن الكلمة « تأديبى » لا تعدو أن تكون مرادفة للكلمة الإنجليزية Disciplinary ، وأنها لا تتضمن تشهيرا ولا قذفاً . وحار القضاء الإنجليزى فى هذا الخلاف فترة من الزمن ، ثم انتهت القضية بالمصالحة ، دون أن يهتدى المتخاصمون إلى التفسير الصحيح الأمين لتلك الكلمة .

ومع اللغة العالمية سنتخلص من مشاكل الترجمة ، وما تثيره فى كثير من الأحوال من سوء التفاهم والشقاق ، ولا سيما فى المجالات الدولية ، ونتخلص كذلك من تلك الجهود التى تبذل فى الترجمة ، والنفقات الباهظة التى تنفق عليها . ففى منظمة الأمم المتحدة جهاز ضخم للترجمة يتكون من مئات المترجمين ، وأدوات واتصالات كهربائية معقدة للإرسال والاستقبال ، يقوم على صيانتها عدد من المهندسين المهرة الذين يمكن الانتفاع بهم فى وجوه أخرى . ومع

---

(١) انظر دلالة الألفاظ ص ١١٤ .

مهارة المترجمين فى هذه المنظمة ودقتهم لم يخل الأمر من أخطاء أو انحرافات فى التعابير لا يمكن معها أن يتم التفاهم بين المؤتمرين. وقد عرضنا لمشاكل الترجمة بالتفصيل فى مكان آخر ، وكان مما قلناه فى هذا الصدد أن بعض الباحثين قد عرضوا للترجمة وقصورها فى تصوير كل ما يتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وجمال فى اللفظ . وقد حس القائمون بعملية الترجمة فى كل العصور بتلك الصعوبات التى كانت تصادفهم ، ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة بل ظلوا يتابعون جهودهم جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، فيوفقون حيناً ، ويخفقون أحياناً . ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة فى اتصال بعضهم ببعض ، وفى تبادل الثقافة كما تتبادل السلع . وقد تبين للمفكرين فى تلك الأمم أن تبادل الثقافة يحول دونه حصون منيعة فصلت بين بنى الإنسان ، وتلك هى التى نسميها باللغات . فأداة التفكير تختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تتسع مسافة الخلف حتى ليخيل إلينا أن الاتصال عسير أو مستحيل ، وقد تقترب فيراها الباحث هينة يسيرة .

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون نفر قليل من الناس فى كل أمة وفى كل عصر . وهم الذين قربوا بين الشعوب . ووصلوا الإنسان بأخيه الإنسان ، رغبة فى تبادل المنافع والمعرفة ، عسى أن يتكون من الناس جميعا مجتمع إنسانى يسوده التعاون والتفاهم .

ولسنا فى الحديث عن مشاكل الترجمة نفترض ضعف المترجم فى أى من اللغتين ، إذ لا يستحق المترجم هذا اللقب إلا حين يسيطر عليهما كتابة وقراءة . وبرغم هذا فللترجمة مشاكل وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه فى عمله . ومن تلك الصعوبات ما يسمى بهندسة الجملة والنظام الذى تجرى عليه الجمل فى ترتيب كلماتها . وقد يضطر المترجم إلى التقديم أو التأخير ، وإلى عملية تنظيمية خاصة ، حتى تبدو ترجمته على النهج المألوف فى اللغة المترجم إليها .

ومن صعوبات الترجمة ومشاكلها تلك الصفة التى تتصل بجمال الألفاظ

وموسيقاها . ولكن لعل أعضل المشكلات فى الترجمة تلك التى تتصل بدلالة الكلمات وظلال المعانى فيها . ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها فى كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التى يمر بها الناس ، وترتبط فى أذهانهم بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً ، فتظلل الدلالة بالتجارب الخاصة فى كل بيئة . فإذا تغربت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئة أخرى أى إلى لغة أخرى ، تطلبت جهداً كبيراً للظفر بما يناظرها أو يرادفها ، لتؤدى فى ذهن السامع الجديد فى البيئة الجديدة ما تؤديه من دلالة فى بيئتها الأصلية .

ولذلك يرى جمهور كبير من المفكرين أن ترجمة النصوص أو نقلها من بيئتها أشبه بنقل الزهرة من منبتها ، قد يعرضها للجفاف ونضب العبير [١] .

ويكفى أن نتصور هنا ما عليه الحال فى منظمة الأمم المتحدة ، فبرغم الإمكانيات الضخمة والجهود الفنية التى تبذل ، ومهارة القائمين بترجمة المناقشات ودقتهم ، نلحظ أن المستمع حين يجهل لغة الخطيب يصيبه نوع من الفتور ، ولا يتابع الكلام بنفس الحماس الذى يشعر به العارف بهذه اللغة ، فكأن المستمع حينئذ يتلقى معلومات احترقت وفقدت جدتها كما يعبر الصحفيون ، فليس يتلقفها من فم المتكلم مباشرة ، وليس يشركه فى عاطفته وحماسه . وهنا لا تكون الاستجابة تامة بين المتكلم والسامع ، ولا تكون بينهما مشاركة وجدانية مباشرة . بل من أعضاء المنظمة من قد ينصرف عن شهود الجلسة قانعاً بقراءة النص فيما بعد ، ومنهم من قد تأخذه سنة من النوم . ولا يتصور مثل هذا الفتور وقلة الاهتمام فيما لو كانت لغة الكلام موحدة ، يسمعها الجميع فيفهمون معانيها فهماً دقيقاً دون واسطة من سماعات ترهق الآذان ، وتصيب الرءوس بالصداع . فمع اللغة الموحدة يقدر المؤتمرون الدعابة فى لحظتها وليس بعد فوات أوانها ، ويحسون بشعور المتكلم وأحاسيسه ، وهنا فقط يمكن أن يحقق الاجتماع أهدافه فى سرعة ومشاركة وجدانية كاملة .

أما متاعب الاختلاف فى اللغة فى حالة الهجرة فحدث عنها ولا حرج .

---

(١) دلالة الألفاظ ص ١٦٨ – ١٨٦ .

فكثير من الأسر التي هاجرت من أوربا إلى أمريكا قد صادفت عنتاً كبيراً، ومشقة ظلت تلازمها خلال جيل أو جيلين، قبل أن يسيطر الأبناء أو الأحفاد على لغة البيئة الجديدة. فهم في بادئ الأمر في شبه عزلة عن الناس، لا تقضى حوائجهم في سهولة، ولا يتيسر لهم الاندماج في المجتمع في يسر، ويلازمهم الشعور بأنهم أغراب أو أجانب زمنا طويلا. فلا يكادون يستمتعون بوسائل الترفيه في البيئة الجديدة من سينمات ومسارح وإذاعات وبرامج تليفزيونية، وقد يتعرضون لأحداث من الغش والنصب والخداع في تعاملهم مع بعض الناس، كما قد تصادفهم أمثلة من السخرية والهزء بهم كلما حاولوا النطق فتعثرت ألسنتهم بلغة البيئة الجديدة.

وفي حالات كثيرة قنع الكبار من أفراد هذه الأسر المهاجرة بحياة العزلة لأنفسهم، ووجهوا كل جهودهم لتربية أبنائهم أو أحفادهم تربية تساعدهم على الاندماج والاختلاط لينشأوا كالأطفال الآخرين، ولا تصيبهم عقدة اللغة.

على أن بعض هؤلاء الأبناء حين أرسلوا إلى المدارس الأمريكية، وبدت بعض مظاهر اللكنة الأجنبية في نطقهم وعلى ألسنتهم انطووا على أنفسهم، وأحسوا بالمرارة والحسرة، وكان لهذا أثر سيئ في كل حياتهم. لذلك كانت السياسة التي التزمها معظم الأسر المهاجرة هي تضحية الكبار بأنفسهم، وعزل أبنائهم عنهم كلما أمكن ذلك، وتشجيعهم وحثهم على الاندماج مع أطفال البيئة الجديدة، حتى يمكن التغلب على تلك العقبة الكئود، عقبة اختلاف اللغة، وحتى يكفلوا لهم مستقبلا سعيداً، وحياة رغدة في هذه البيئة.

أما ما يصادفه السائح بسبب اختلاف اللغة فربما يكون أمره هيناً، ولكنه على كل حال من الأمور التي تصرف الكثيرين عن السفر، وتحرم من يقدم عليه من الاستمتاع الكامل برحلته، بل قد تنفره من تكرار التجربة مرة ثانية.

فأي متعة يصادفها العالم حين يستمع إلى إذاعة واحدة ذات لغة موحدة!؟ وأي وحدة في الفكر والشعور تسود العالم حين يجد الناس أنفسهم في كل بقاع الأرض ينطقون بكلام موحد، ويتفاهمون بلغة واحدة؟

فى الحق أن حاجة العالم إلى لغة واحدة قد أصبحت فى العصر الحديث ضرورة ملحة ، بل واجباً تفرضه الطبيعة الإنسانية ، ولا يكاد يختلف فى نفع هذا وجدواه أحد ، سواء من أولئك الذين يرون إمكان الوصول إلى هذه اللغة ، أو أولئك الذين يتشككون فى إمكان وجودها .

فليس من الإسراف أو المغالاة أن تقرر أنه لو اهتدى العالم إلى تلك اللغة التى تنتظم الناس جميعاً فوق سطح الأرض فقد اهتدى إلى السلام والأمن والرخاء فى كل مكان . ولا يكاد يشك فى هذا أحد ، وإنما الذى ينصبّ عليه شك بعض المفكرين وريبهم هو ، هل يمكن هذا ؟

لكل ما تقدم أخذت الدعوة إلى اللغة العالمية أولى خطواتها الجدية منذ القرن السابع عشر ، وبدأ حينئذ النقاش والجدل بين المقتنعين بالفكرة وإمكان تحقيقها ، والمتشككين فى إمكانها الساخرين بالدعوة لها . وحجة أولئك الذين رأوا استحالة الوصول إلى لغة عالمية تكاد تنحصر فى أساسها على التجارب التاريخية مع تلك اللغات التى كانت فى يوم من الأيام أشبه باللغة العالمية ، يُتكلم بها فى مناطق متباعدة كثيرة ، ثم كان أن أصابها الانحلال إلى لهجات ، ثم تطورت اللهجات إلى لغات مستقلة ، كاللاتينية التى كانت فى عهد الرومان تسود معظم مناطق العالم ، ثم انحلت وتشعبت إلى لهجات أصبحت الآن ما يعرف باللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومينية . ومن هذه اللغات ما اندثر ولم يعد له وجود إلا فى نقوش فوق أحجار ، أو كتابات فوق الصحائف كالأكدية والآرامية ، ومنها ما انكمش نطاقها ، وتطورت أصواتها وصيغها ، وأصبحت تقتصر على دولة صغيرة فى العصر الحديث كالإغريقية .

فلعنة بابل فى رأيهم تلازم اللغات فى تاريخها ، فلا تكاد اللغة تتوحد ويتسع نطاقها ، حتى تتفتت وتتشعب إلى لهجات ، منها ما يندثر فلا يترك أثراً ، ومنها ما يتطور إلى لغة مستقلة جديدة لا يكاد يعرف أبناؤها أصل لغتهم ولا ما تنتمى إليه ، أو تنحدر عنه ، من لغات العالم القديم .

ولكن المؤيدين المتحمسين للفكرة لا يتصورون أن ما حدث فى العصور

السابقة يتحتم أن يحدث مثله فى العصر الحديث الذى يتسم بسهولة الاتصال وسرعته بين الدول . فلدينا الآن من وسائل الاتصال السلكى واللاسلكى ما لو قد سمع بمثله أجدادنا القدماء لعدوه نوعاً من الهذيان والوهم ، ولآمنوا بأن القائل به قد أصابه مس من الجن أو خبل عقلى . إذ تسمع الآن الإذاعات من جميع أنحاء العالم واضحة جلية مدوية ، وتتنقل بين الدول المتباعدة أفواج من الطائرات فى سرعة الصوت أو أسرع . فلم يعد مكان فى العالم بمعزل عن سائر العالم ، ولم تعد الجبال ولا الأنهار ، بل ولا الصحراوات والبحار بعازل منيع يحمى قوما من قوم ، أو شعباً من شعب . ولم يعد فى الإمكان أن تنعزل أمة عن أمة تجاورها ، أو تبتعد عنها ، فهناك شبكة معقدة محكمة تصل بين الشعوب فى التبادل التجارى والثقافى ، ولا يستطيع شعب أن يعيش على ما كان يسمى بالاكتفاء الذاتى فى كل شئونه . ويكفى أن نتذكر ما يسود العالم الآن من اتفاقيات دولية تنظم البريد ووسائل المواصلات الأخرى بين الدول ، وتنظم التعامل التجارى والتبادل الثقافى وحقوق الشعوب وواجباتها بعضها نحو بعض وغير ذلك من مسائل القانون الدولى الذى التزمت بنصوصه الشعوب والأمم ، أو على الأقل أخذت على نفسها هذا العهد .

وإذا كانت عصبة الأمم قد فشلت فى تحقيق معظم أهدافها من قبل ، وإذا كانت منظمة الأمم المتحدة تتعثر الآن فى بعض الحالات ، ولا تقدر على حل كل المشاكل ، فليس يستلزم ذلك أن نيأس من مستقبل الإنسانية ، بل يجدر بنا أن نتفاءل وأن نعد أمثال هذه المنظمات بمثابة علامات على الطريق للوحدة الإنسانية فى المستقبل . فهى ومعها منظمة اليونسكو ومحكمة العدل الدولية معقد آمال الإنسانية ، وآيات لبزوغ فجر السلام فى العالم ، ولتوحد الناس جميعا وتعاونهم على ما فيه الاستقرار والأمن والرخاء لكل البشرية .

فلنستمع إلى أحد المتفائلين من اللغويين المحدثين يناقش فكرة اللغة العالمية ويقرر أننا الآن فى بداية تحقيق ذلك الحلم القديم ، حلم لغة واحدة

يستطيع كل النـــاس أن يتخاطبوا بهـــا[1]، وهو « لويس » فى كتابه « اللغة فى المجتمع » . فيرى « لويس » [أنه برغم الفشل الذى منيت به المحاولات التى تمت فى القرون الثلاثة الماضية لإنشاء لغة عالمية ونشرها بين الناس ، وبرغم ما نلحظه الآن من خفوت الأمل فى مستقبل هذه اللغة ، يجب ألا ننسى أن لدينا الآن من الوسائل المادية وآلات الاتصال ما يمكن معها أن تنشأ لغة عالمية وأن تبقى ، وأننا الآن نحس أكثر من ذى قبل بحاجة ملحة إلى إيجاد تلك اللغة] . ومع أن « لويس » يشير إلى أنه من المحتمل أن تصبح الإنجليزية هى اللغة العالمية التى نتطلع إليها ، يختم كلامه بقوله : (وفى هذه اللحظة قد يكون من الغباوة أن نحاول التنبؤ بأن لغة ما ستكون هى اللغة العالمية فى المستقبل ... ولكن لا شك فى أن اللغة العالمية فى طريقها إلى الوجود) .

ومن أحدث الكتب التى عالجت فكرة اللغة العالمية ما ألفه « ماريو پاى » تحت عنوان « لغة واحدة للعالم ، وكيف تتحقق » . وفيه يحدثنا المؤلف فى إسهاب وتفصيل عن تاريخ نشأة هذه الفكرة ومراحل تطورها ، والمحاولات التى تمت بهذا الصدد خلال القرون الثلاثة الماضية ، وما يرجى لها فى المستقبل .

ويرى « ماريو پاى » أن الدعوة إلى لغة عالمية بدأت فى القرن السابع عشر على أيدى جماعة من المفكرين الفلاسفة الذين لمسوا القصور فى اللغات القومية المحلية . ومن أسبقهم فى الدعوة إلى خلق لغة منطقية لا شواذ فيها « دسكارتس » الذى قنع بشرح فكرته وتحبيذها تاركاً التنفيذ لبعض معاصريه . وكان أسرعهم إلى العمل على تحقيقها « أوركهارت » العالم الإسكتلندى فى مقال عنوانه « مقدمة للغة العالمية » ، وصف فيه ظواهر هذه اللغة التى تطلع إليها المفكرون فى عصره ، وحدد معالمها وسماتها . ثم زاد « دجلارنو » فى تنمية الفكرة وتجليتها سنة ١٦٦١ م .

وفى الحق أن معظم مفكرى القرن السابع عشر لم يكونوا يطمعون فى أكثر من الاهتداء إلى لغة نموذجية سموها باللغة الفلسفية أو المنطقية ، ولم يوجهوا

---

(١) Language in Society, by M, M. Lewis
ترجمة الدكتور تمام حسان ص ٨٨ — ٩٤ .

عنايتهم إلى اللغة العالمية بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل كل الذى عنُوا به هو خلق لغة للفكر تساير حدود المنطق العقلى ، وتعين الفلاسفة فى تفكيرهم وتأملاتهم ، ولم يتطلعوا إلى أبعد من هذا . فلم يدر بخلدهم السعى إلى إنشاء لغة عالمية تستخدم فى الكلام ، وتصبح وسيلة للتفاهم بين عامة الناس ، فيما عدا « كومنيوس » الذى ربما يعدّ أول من فكر فى تلك اللغة الكلامية التخاطبية التى تيسر الاتصال بين الناس فى شئونهم العامة .

ويبدو أن مفكرى القرن السابع عشر قد ضاقوا باللغات التى سادت على الألسنة فى عهدهم ، وتبين لهم بعدُ كثير من ظواهرها عن المنطق العقلى ، فليس بين الألفاظ ودلالاتها صلة طبيعية أو ذاتية ، وإنما هى صلة تحكمية أو عرفية . وكذلك الشأن فى الظواهر النحوية التى تختلف باختلاف اللغات ولا تكاد تمت إلى المنطق العقلى بصلة وثيقة . ففكرة « الكم » أو ما يسمى فى اللغات بالإفراد والتثنية والجمع ، تبدو لنا فى معظم اللغات ذات اتجاهات مختلفة ، وتتخذ طرائق شتى فى تصوير « الكم » أو التعبير عنه . فبعض اللغات تعبر عن فكرة الكم بصيغ ثلاث : إحداها للمفرد وأخرى للتثنية وثالثة للجمع ، ومن اللغات ما يجعل صيغة للمفرد . وأخرى للمثنى وثالثة للمثلث الذى يعبر عن ثلاثة أفراد ، وأخيراً صيغة رابعة للجمع الذى هو فى هذه اللغات ما زاد على ثلاثة ، بل إن بعض الألفاظ التى تعامل معاملة المفرد فى لغة ما قد تعامل نظائرها فى لغة أخرى معاملة الجمع . وكلنا نذكر أمثال الكلمات الإنجليزية الآتية : Scissors, Moustaches, Trousers, Shoes مما يعامل فى الإنجليزية معاملة الجمع فى حين أن نظائرها العربية تعامل معاملة المفرد .

أما من حيث « الجنس » أو ما يسمى بالتذكير والتأنيث . فحين نستعرض اللغات لنتبين مسلكها فى هذا ، نرى أنها طرائق شتى ، وأنها فى هذه الظاهرة لا تكاد تسير وفق منهج عقلى أو منطقى . فمنها ما لا ينظر إلى تأنيث حقيقى ، ومنها ما يؤثر النظر إلى الجماد والحى دون اعتبار لمؤنث أو مذكر . ومنها ما يتخذ للأسماء أنواعا ثلاثة : إحداها للمذكر وأخرى للمؤنث وثالثة لما يسمى

بالحايد . أما اللغات السامية ومنها العربية فقد قنعت فى تصنيف الأسماء بما هو مذكر وما هو مؤنث ، وإن كان التذكير أو التأنيث فى كثير من الأحوال أمراً مجازياً .

كذلك تتباين اللغات فى أساليب التعبير عن النفى ، وفى الفكرة الزمنية ومدى صلتها بالصيغ ، إلى غير ذلك من ظواهر يعيا بحفظها أو تذكرها الدارسون فى العصر الحديث[1] .

بل إن اللغة الواحدة لا تخلو من الشذوذ فى بعض صيغها وتعابيرها ، ففى الإنجليزية مثلا كلمات لا تجمع ، وأخرى لها جمع خاص يخالف المألوف المعهود فى الكثرة الغالبة من الأسماء . وفى العربية صيغ وتعابير لا تجرى على القاعدة العامة ، ويعدها اللغويون من الشواذ ، وإن جرت على ألسنة العرب القدماء .

وأما من حيث دلالة الألفاظ فقد تبين للمفكرين والفلاسفة منذ عهد طويل أنها فى أحيان كثيرة قاصرة فى التعبير عن كل ما يدور بخلدهم فى دقة وإحكام وتمنوا لو اتخذوا رموزاً أخرى أدق تعبيراً وأحكم تصويراً[2] .

تلك هى بعض الصعوبات أو المتناقضات التى نلاحظها فى كل اللغات ، والتى حملت مفكرى القرن السابع عشر على السعى فى إنشاء لغة منطقية نموذجية .

ثم استمرت الدعوة إلى خلق لغة عالمية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكثرت المحاولات وتعددت حتى أصبحت فى حدود ٣٢١ لغة اقترحها أصحابها أو مبتدعوها لتكون تلك اللغة العالمية التى تتطلع إليها الإنسانية . غير أن معظم هذه المحاولات قد وئدت فى مهدها : فلم يكد يتجاوز عدد الذى تعلموها أصابع اليدين عداً ، واندثرت بذهاب الداعين لها ؛ ولم تخلف لنا إلا سلسلة من الفشل الذريع بعثت اليأس إلى قلوب كثير من المستنيرين فى هذين القرنين .

ولعل شيوع القوميات الحديثة وتكونها على أساس اللغة كان من العوامل

---

(١) انظر للمؤلف كتاب من أسرار اللغة ص ١١٦ — ١٨١ .

(٢) انظر للمؤلف كتاب دلالة الألفاظ .

التي صرفت الناس عن فكرة اللغة العالمية أو زهدتهم فيها .

وحين نتتبع المحاولات التي تمت لخلق اللغة العالمية نرى أنها نوعان :

(١) أولهما البحث عن لغة مصنوعة منطقية خالية من الشواذ وتلك هي التي تطلع إليها معظم مفكري القرن السابع عشر ، وظلت بعد ذلك حتى القرن العشرين تجد من يدعو إليها وتشق طريقها على استحياء ، ودون أن تصادف قبولا أو اقتناعاً في وسط من الأوساط . ومعظم أصحاب هذا الرأي من الفلاسفة الذين كثر عددهم في القرن السابع عشر . ولعل أقدم محاولة لهذه اللغة المنطقية المصنوعة تلك التي قام بها « جان فرنسوا سودر » سنة ١٨١٧ وسماها باللغة الموسيقية العالمية وأسسها على النوتة الموسيقية ، وأحدث محاولة من هذا النوع تلك التي حاولها اللغوي الأمريكي « راسل سوما » سنة ١٩٥٧ إذ اخترع لغة سماها بالعالمية تتألف من ألف كلمة ، ولا تمت هذه اللغة في جذورها وأصولها لأي من اللغات المعروفة في العالم . فهي محايدة إلى أبعد حدود المحايدة ، وتتكون الكلمة فيها من مقطعين اثنين ، وتخلو من أداة للتعريف ، ومن صيغ للجموع بل تخلو من كل طرق الاشتقاق والتصريف ، مما تبدو معه في صورة هي غاية في التبسيط والسهولة .

(ب) وثانيهما اصطناع لغة فيها بعض عناصر من اللغات الحية مثل « الفولابيك » التي معناها « كلام العالم » والتي اخترعها أحد رجال الدين في « بارفاريا » وهو « مارتن شلير » سنة ١٨٧٩ ؛ وقد تحمس لها بعض الدارسين حينئذ ، ولكن لم يكد يمضي على إنشائها ثماني سنوات حتى هجرها أنصارها ، والتفوا حول لغة أخرى هي « الاسبرانتو » التي اتسمت ولا شك بأنها أكثر اطراداً ومرونة من « الفولابيك » . وقد استمد مخترع « الفولابيك » جذور الكلمات من الإنجليزية واللاتينية في معظم الحالات ، وتأثرت قواعدها وتراكيبها بلغة المخترع نفسه ، أي الألمانية .

ومن أشهر المحاولات التي من هذا النوع « الاسبرانتو » التي اعتمدت في تشكيلها على لغات أربع هي اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد وضعها

لغوى بولندى سنة ١٨٨٧ . وفى دعوته لها أخذ يتلمس طريقه على حذر ، فتنكر تحت اسم « الدكتور اسبرانتو » أى الدكتور المتفائل ، حتى أقبل الكثيرون عليها ، وتكون لها أنصار ، وحينئذ كشف عن اسمه الحقيقى وهو « لازاروس زمنهوف » . وتعد الاسبرانتو أشهر اللغات العالمية المصنوعة ، فقد اتخذت أداة التفاهم فى عدة مؤتمرات ، وشجعت عصبة الأمم على دراستها فى المدارس والمعاهد فى توصية لها سنة ١٩٢١ ؛ ولكنها لم تقف موقفاً حاسماً فى هذا الشأن ، بل كانت توصيتها مع شىء من التردد . أما اليونسكو تلك المنظمة الثقافية العالمية ، فقد دعت إلى دراسة الاسبرانتو وشجعت عليهما فى قوة وإعان منذ سنة ١٩٥٥ .

وأهم صفات هذه اللغة الاطراد ، فلكل وحدة نطقية « فونيم » رمز كتابى متميز ، أى أنها تكتب كما تنطق ، وليست كبعض اللغات الحية التى بعدت فيها الرابطة بين المنطوق والمكتوب ، وأعيا إملاؤها كثيراً من الدارسين ، إذ تكتب الكلمة برموز لا تكاد تنطبق على النطق بها ، مما جعل المحدثين من اللغويين يقررون أن الكتابة بوجه عام تصوير قاصر للغات ، ويدعون إلى العمل على إصلاحها . والتزمت هذه اللغة « الاسبرانتو » موضعاً محدداً للنبر فهو يقع دائماً على المقطع الذى قبل الأخير من كل كلمة . وأداة التعريف فى هذه اللغة هى دائماً La أى الأداة الفرنسية للمؤنثة ، فنطقها واضح ، واستعملت فى كل حالات الأسماء ، أى مع المذكر والمؤنث ومع المفرد والجمع . وخصصت هذه اللغة علامات تنتهى بها الكلمات وتدل كل علامة منها على الوظيفة النحوية للكلمة : فعلامة الاسمية هى O وكل اسم مفرد يجب أن ينتهى بها ، أما فى حالة الجمع فالاسم ينتهى بالعلامة J التى ينطق بها ياء أى مثل Y . وتنتهى الصفة بالعلامة A وينتهى الظرف adverb بالعلامة E ، وينتهى المصدر بالعلامة I ، وعلامة المفعولية هى N فى آخر الكلمة . أما الأفعال فينتهى المعبر منها عن الزمن الحاضر بالعلامة as ، وينتهى الفعل الماضى بالعلامة is ، والمستقبل بالعلامة os ، وفعل الأمر ينتهى بالعلامة u .. إلخ . ويقال إن

عدد المتكلمين بهذه اللغة فى العالم يبلغ الآن بضعة ملايين . ويؤكد لنا المتحمسون لهذه اللغة أنها تصلح لترجمة الآداب سواء منها الأدب الكلاسيكى أو الأدب الشعبي ، وأن التخاطب بها ميسّر حتى على متوسطى الذكاء والفهم . فهى إذن تحقق الوظيفتين الأساسيتين لكل لغة ناجحة : الوظيفة التعاملية أى استخدام اللغة أداة للتفاهم ، والتعامل بين أفراد المجتمع ، والوظيفة التنفيسية وهى استخدام اللغة لمجرد التنفيس عما تجيش به الصدور وما يدور فى خلد كل منا من أفكار وتأملات لا يُهدف بها إلى إرسال أو استقبال . وهذا هو ما اشترطه « لويس » لنجاح اللغة العالمية إذ يعبّر عن ذلك بقوله : (وقد تعلمنا من اهتمام اللغويين الدائم بمشكلة اللغة العالمية ، ومن دراستنا فى عمومها دراسة أدق أن اللغة العالمية حتى فى بدايتها لا يتوقع لها النجاح إلا إذا كانت لها طاقة تنفيسية بالنسبة لمتكلمها . ويجب فى اللغة العالمية إذا أريد أن تكون لغة كاملة — أن تؤدى الوظائف التى تؤديها أية لغة للمجتمع الذى يستعملها ، أى أن اللغة العالمية يجب أن تستطيع تحقيق الحاجات التعاملية والتنفيسية للإنسانية ، باعتبارها مجتمعاً عالمياً . فليس ثمة أمل فى نجاح أى مشروع للغة العالمية إلا إذا كان يُعنى بالإحساس والإرادة كما يعنى بالفكر والعمل عند هؤلاء الذين يصطنعونها) [1] .

ويبرهن أنصار الاسبرانتو على سهولة تفهم ودقة نظامها ويسر النطق بأصواتها وتطابق الكتابة مع النطق فيها ، بوضع نماذج من هذه اللغة يمكن للأوربى أن يقرأها دون جهد أو مشقة ، وأن يفهمها فور قراءتها . فمثلا :

Homo رجل ، Bona = جيد ، Bone = بجودة ، Esti = وجود ، Estu = كن ، Bonaj homoj = رجال طيبون .

ولا بأس من أن نقتبس هنا تلك القطعة التى أوردها « ماريوباى » فى كتابه [2] للاستدلال بها على صحة ما ينسبه أنصار هذه اللغة للتفهم من

---

(١) اللغة فى المجتمع تأليف م. لويس وترجمة الدكتور تمام حسان ص ٨٩ .

(٢) The story of language, by Mario Pei. p. 442.

سهولة فى قراءتها وفهمها على الأوربيين :

La inteligenta Persono lernas la interlingvon Esperanto rapide kaj facile. Esperanto estas la moderna, kultura lingvo Por la internacia mondo. simpla, fleksebla, praktika solvo de la problemo de universala interkompreno, Esperanto meritas vian seriozan konsideron. Lernu la interlingvon Esperanto.

ويمكن أن تترجم هذه القطعة إلى العربية على النحو الآتى :

الشخص الذكى يتعلم اللغة العالمية اسبرانتو بسرعة وسهولة . اسبرانتو هى اللغة الثقافية الحديثة لجميع العالم . فيها الحل البسيط المرن والعملى لمشكلة الاختلاط العالمى ، والاسبرانتو تستحق كثيراً من التقدير الجدىّ . تعلّمْ الاسبرانتو اللغة العالمية .

• • •

وقد اعتُرف بالاسبرانتو فى المجالات الدولية ، فهى مع اللاتينية اللغة الوحيدة التى بمقتضى اتفاقيات عالمية يجب قبولها فى الرسائل التلغرافية فى كل العالم ، وهى أيضاً تستخدم لدى الجمعيات الدولية للأطباء والمدرسين والمحامين والعلماء والموسيقيين وجامعى الطوابع والنقود . وقد أصدرت بعض الشركات الكبيرة ، كتالوجات بالاسبرانتو للإعلان عن سلعها فى التجارة الأجنبية ، بل إن بعض المحطات الإذاعية فى العالم تخصص برامج يُتحدث فيها بهذه اللغة . هذا إلى أن بعض الجمعيات السياحية تصدر نشرات إعلانية بالاسبرانتو ، وفى العالم الآن نحو مائة صحيفة ومجلة تنشر بهذه اللغة . وقد أعلنت الجمعية البريطانية للتقدم العلمى سنة ١٩٢١م أن الاسبرانتو خير لغة للأغراض العالمية ، فهى فى هذا المجال خير من كل اللغات ، ما اندثر منها ؛ وما لا يزال حيًّا .

ومع كل ما تقدم لم تستطع الاسبرانتو منافسة أقل اللغات الطبيعية انتشاراً ، وتبين حتى لأنصارها أنه قد يكون من اليسير أن يتحدث بها الروسى مع الأمريكى فى أمور السياحة والطعام والشراب والملابس ، فإذا تطرقا إلى الحديث

فى مسائل الدين أو العلم أو الفلسفة لم تكد تلك اللغة تحقق الهدف من الحديث .

والغريب أنه فى حياة واضع لغة الاسبرانتو قام جماعة من أنصارها بإدخال عدة تحسينات عليها جعلتها فى رأيهم أكثر دقة وإحكاماً ، وكانت بهذا ، المحاولة الثالثة للغات المصنوعة ، وتلك هى التى سميت « إيدو » Ido ، وتم ذلك سنة ١٩٠٧ . ويرمز الحرفان الأولان من الاسم Ido إلى كلمتين إنجليزيتين هما International delegation أى البعثة العالمية (١) . أما الحرف الأخير من Ido فهو علامة الاسمية على حسب النظام الموضوع فى الاسبرانتو كما أشرنا آنفاً .

غير أن هذه التعديلات التى أدخلها هؤلاء العلماء على الاسبرانتو ، والتى على أساسها أنشأوا ما سموه Ido ، لم يقتنع بها معظم أنصار الاسبرانتو ، ولم يرحبوا بها ، وعز عليهم أن ينظر إلى كل تلك النصوص التى طبعت ونشرت بالاسبرانتو على أنها أصبحت متخلفة أو غير صالحة للدراسة . وهكذا ظلت الشهرة للاسبرانتو فى صورتها الأولى وليست للغة ال Ido التى يفترض أنها تتضمن تحسينات كثيرة . وأصبحت الاسبرانتو الآن اللغة الأولى بين اللغات المصنوعة فى العالم ، فقد أثبتت صلاحيتها فى عدة اجتماعات دولية .

وقد كثرت المحاولات وتعددت لخلق تلك اللغة العالمية المصنوعة فى القرن العشرين ، ومن أشهرها ما ابتدعه « جيسب بيانو » Guiseppe Peano اللغوى الإيطالى ، وسماه Latino sine flexione سنة ١٩٠٣ ، وما قام به « أوتو جسبرسن » وسماه Novial سنة ١٩٢٨ ، وما تم على يدى Hogben وسماه Interglossa سنة ١٩٤٣ .

وأهم ما يوجه من نقد لمثل هذه اللغات المصنوعة حجج ثلاث هى :

١ — أنها مصنوعة وليست طبيعية .

٢ — أنها غير محايدة إذ تعتمد على القليل من لغات العالم وتهمل سائر اللغات الأخرى .

---

(١) Language in the modern world, by Simeon Potter. p.18.

٣ – أنها حتى مع اصطناع الشعوب لها ستؤدى على ألسنة كل شعب فى صورة خاصة ، وسينطق بها كل شعب على حسب ما تعود فى نطق لغته المحلية من حيث طبيعة الأصوات ومواضع النبر ونغمة الكلام ، فلا تلبث بعد زمن قليل أن تتشعب إلى لغات جديدة مختلفة .

ويجدر بنا أن نناقش هذه النقاط الثلاث فى هدوء وفى حيدة واعتدال :

فأما النقد الأول فلا يعدّ فى الحقيقة وصمة ، وإلاّ كان من الواجب علينا أن نهمل كل الوسائل الحديثة بحجة أنها غير طبيعية أو ليست مما وهبته الطبيعة لنا . فالسيارة مثلا وهى ولا شك شىء مصنوع يجب أن نتركها كوسيلة للركوب من أجل الحصان بوصفه الوسيلة الطبيعية لذلك . فليست المستحدثات فى الدنيا إلا تعبيراً عن ذكاء الإنسان وثقافته ، وانتصاراً على الطبيعة ذاتها . لا عيب إذن فى أن تكون اللغة مصنوعة .

وأما مسألة الحياد فمع أنها قد تولد الحساسية بين الشعوب ، هى فى الحقيقة حجة أسرف فى تصويرها أولئك المعارضون للغة المصنوعة . فماذا يجدى أن تتخير من لغة « البانتو » مثلا عدة كلمات تقحمها فى تلك اللغة المصنوعة ، وما أهمية هذا فى الحفاظ على شعور شعب من الشعوب . بل إن الأخذ من كل لغات العالم بنسب معينة سينتج لنا فى نهاية الأمر مزيجاً عجيباً لا انسجام فى عناصره ، ولذلك اقتصر أصحاب اللغات المصنوعة على الأخذ من أشهر اللغات الحية وأكثرها تحضراً . وقد أدت العناية بمبدأ الحياد وشدة الحرص عليه إلى ذلك الاقتراح المضحك الذى نادى به دكتور « ليون فرست » بأن نستمد أجرومية اللغة العالمية من عشر لغات هى : الإنجليزية . الصينية . العربية . الروسية . الهندوستانية . الهنغارية . الأندونيسية . الإسبانية . السواحيلى . الهوسة .

وأما النقد الثالث وهو احتمال تشعب هذه اللغة المصنوعة إلى لهجات ثم إلى لغات مستقلة ، فقد بناه أصحابه على الأمثلة التاريخية التى منها تشعب اللاتينية إلى عدة لغات مستقلة فى العصر الحديث . وقد أشرنا آنفاً إلى وهن هذه الحجة وضعفها إزاء ما نراه الآن من سهولة الاتصال بين الشعوب . بل

وضرورته الملحة ، وما نتوقعه فى المستقبل من زيادة مطردة فى هذا الاتصال ، بحيث لا نتصور فى مستقبل الإنسانية انعزال شعب عن المحيط الدولى ، ولا حتى ما يشبه الانعزال . فالعالم فى كل شئونه صائر إلى نوع من الوحدة فى كل مظاهر الحياة ، ومن بينها فى أغلب الظن اللغة ، وستصبح لعنة بابل حينئذ مجرد أسطورة .

وقد اشتد الجدل والنقاش حول الصورة التى يمكن أن تكون عليها اللغة العالمية ، وليس حول الضرورة الملحة فى وجودها . فالكثرة الغالبة من المفكرين والمصلحين مقتنعون كل الاقتناع بضرورة هذه اللغة ونفعها للإنسانية ، ولكنهم يختلفون فى كيفية تكوينها وفى معالمها وسماتها . ومن هنا بدت فى هذا الصدد عدة اقتراحات أشهرها :

١ — اقتراح ينادى بأن اللغة العالمية يجدر بنا أن نستمد عناصرها من أشهر اللغات الحية ، وأن نصنعها من تلك العناصر فى حيدة ، ودون ميل خاص إلى أى منها . وبحيث تتسم بالسهولة فى نطق أصواتها والاطراد فى قواعدها وتراكيبها . وليس من الضرورة أن تطابق المنطق العقلى العام بقدر ما هو من الضرورة الملحة أن تكون ميسرة نطقاً وأداء وتعبيراً ، على جمهور الناس ، وتلك هى اللغات المصنوعة التى أشرنا إلى أمثلة منها .

٢ — اختيار إحدى لغات العالم وفرضها على المتكلمين بوصفها لغة عالمية ، ودون تغيير فى صفاتها أو خصائصها . غير أن أصحاب هذا الاقتراح قد اختلفوا فيما بينهم حول أى اللغات تختار ، وهل تختار من اللغات القديمة أو الحديثة ؟ وظهر بينهم من يريدون اختيار اللغة الإغريقية ، ومن يؤثرون اللاتينية ، ومن يفضلون الفرنسية ، وأخيراً وليس آخراً من يميلون إلى اختيار الإنجليزية . ويبدو أن الإنجليزية هنا تظفر بأغلبية كبيرة دليلها ما حدث فى مؤتمر « بندونج » ، حين أرغمت الصين الشعبية على اصطناع الإنجليزية فى النقاش بين المؤتمرين وفى صوغ قرارات المؤتمر .

٣ — اختيار إحدى اللغات الحية المشهورة بعد إجراء تغييرات فيها لتصبح

ملائمة بقدر الإمكان للناس جميعاً . غير أن هذا الاقتراح لم يظفر بمحاولة في تنفيذه إلا على يدى العالمين اللغويين المشهورين « رتشارد » و « أوجدن » سنة ١٩٣٠ في مشروع سمياه بالإنجليزية الأساسية Basic English . فقد اختصرت الكلمات الإنجليزية إلى نحو ٨٥٠ كلمة جعلت أساس كل تعبير بهذه اللغة ، واعتمد في اختيار هذه الكلمات على كثرة شيوعها . وقد كان هدف « رتشارد » و « أوجدن » من مشروعهما أن ييسرا تعلّم الإنجليزية على الأجانب ، وأن يكون هذا المشروع بمثابة نواة اللغة العالمية . وقد اهتم « تشرشل » بهذا المشروع في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وشجع عليه . غير أن الشك في نجاح هذه الفكرة أخذ يخامر الأذهان بعد أن حاول بعض الدارسين صياغة إحدى خطب « تشرشل » في صورة تلك اللغة التي تسمى بالإنجليزية الأساسية ، وفشلت التجربة فشلا ذريعاً [١] .

ولشهرة هذا المشروع وطرافته يجدر بنا أن نشير إلى بعض معالمه ومميزاته ، ثم إلى ما وجه إليه من نقد في المجال العالمي .

فاختصار كلمات اللغة الإنجليزية إلى ٨٥٠ كلمة يجعل من اليسير على المرء أن يسيطر عليها خلال ثلاثة أشهر ، هذا إذا قنع بتعلم اثنتى عشرة كلمة في اليوم . ويؤكد لنا المؤلفان أن أهم ما يساعد على نجاح هذا المشروع كلغة عالمية ، على الأقل في التخاطب والتعبيرات العامة ، ما تتسم به الإنجليزية نفسها من صفات أوضحها : بساطة قواعدها أو أجروميتها ، وخلوها من اللواحق التي تعبّر عن الحالات الإعرابية ، وأنها أوسع اللغات انتشاراً في العالم .

وعدد الأفعال التي وقع عليها الاختيار لا يجاوز ثمانية عشر فعلا هي :

Come, get, give, go, keep, let, make, put, seem, take, be, do, have, say, see, send, may, will.

ومن هذه الأفعال مع بعض الأدوات أو الأسماء يمكن تكوين مئات من

---

(١) One Language for the world, and how to achieve it, by Mario Pei. p. 129.

التعابير التى تغنى عن مئات من الكلمات الإنجليزية . فمثلا : keep up قد تغنى عن sustain ، go through تغنى عن penetrate .

واختار المؤلفان مع هذه الأفعال ٤٠٠ اسم من الأسماء العامة مثل Government Machine كما اختارا ٢٠٠ من الأسماء ذات الدلالة المحسوسة مثل : Apple, Horse ، و ١٥٠ وصفاً مثل : full, important

وحين نتساءل عن رأى الإنجليز أنفسهم فى هذه اللغة نجد أن معظمهم لا يتحمسون لها ، لأنها تتطلب منهم أن ينسوا ما تعلموه منذ الطفولة من مئات الكلمات التى بذلوا فى تحصيلها جهوداً كبيرة ، وأن يهملوا ذلك التراث الضخم من الألفاظ التى جرت على الألسنة عبر القرون .

وفى الحق أن النفع الذى يرجى من وراء هذا المشروع لا يساوى ما سيصيب اللغة الإنجليزية الأصلية من تشويه ، ومن اضطراب فى التفكير ، وفى الكلام ، بين أبنائها . بل سيصبح من المحتم على الإنجليزى نفسه أن يتعلم هذه اللغة كما يتعلم لغة أجنبية ، وأن يصادف فى هذا من العنت والمشقة ما لا مسوغ له .

أما من حيث ما يدعيه أنصار هذا المشروع من أنه أمكن فى سهولة ويسر ترجمة كثير من أجزاء العهد القديم إلى هذه اللغة ، فيجب أن نذكر أن اللغة الإنجليزية قد نمت نمواً كبيراً فى أساليبها وتعابيرها منذ عهد الملك جيمس ، بدليل تلك المحاولة الفاشلة حين حاول بعض الدارسين أن يترجموا إلى هذه اللغة خطبة « تشرشل » التى طنطن فيها بأهمية هذا المشروع .

وأما موقف الأجانب من هذا المشروع فيكفى أن نذكر هنا أن معظم ممثلى الحكومات فى الأمم المتحدة قد أعلنوا رفضهم له حين اقترح عليهم ليكون بمثابة لغة عالمية . وعارضه أيضاً الكتاب الأجانب فى الأمم الأخرى ، وأخذت معارضتهم له إحدى صورتين : صورة جدية حين وصفه بعض منهم بأنه دعوة إلى التمييز العنصرى وإلى الإمبريالية ، وصورة أخرى ساخرة حين وصفه البعض الآخر بأنه لا يعدو أن يكون حركة أريد بها إفساد لغة من أهم لغات

العالم ، وخلق سوق سوداء فى « الأفعال » و « الصفات » ! !

ومع هذا فقد حاول بعض اللغويين فى البيئات الأخرى تقليد هذا المشروع فى لغاتها . ولم نلبث أن سمعنا عن « الإسبانية الأساسية » ، « الروسية الأساسية » بل والصينية الأساسية . . فإذا كانت اللغة الإنجليزية قد فشلت فى مثل هذا المشروع ، فأولى بفشل أكبر تلك اللغات ذات القواعد المعقدة والأصوات الصعبة والتى ألفاظها ليست كمعظم الألفاظ الإنجليزية ذات طابع عالمى فى أصولها ومجالات استعمالها .

٤ — اختيار لغتين أو أكثر ، وتقسم الدنيا إلى مناطق ، فى كل منطقة تستعمل اللغة المختارة لها بوصفها لغة مشتركة تنتظم كل أنحائها ، ويتكلم بها جميع الناس فيها . وقد دعا « ستالين » لذلك غير أن هذا الاقتراح لا يكاد يحقق وحدة الإنسانية ، ولا يعدو أن يكون الوضع القائم الآن فى العالم . هذا إلى أنه يفرض على غير أصحاب هذه اللغات المختارة عبئاً ثقيلا ، ويجعلهم فى وضع أدنى . وقد تصيبهم من أجل ذلك عقدة النقص اللغوى التى أشرنا آنفاً إلى أنها كثيراً ما تثير الشعوبية والانفصالية .

ومع كل ما تقدم من أمثلة الفشل فى تحقيق اللغة العالمية التى تتطلع إليها الإنسانية نجد أن هناك عاملين هامين تزداد مع الزمن أهميتهما وأثرهما فى تطوير المجتمع الإنسانى وهما :

١ — اطراد السهولة فى اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وحتمية الزيادة المستمرة فى هذا الاتصال على مرور الأيام .

٢ — شعور الناس فى جميع بقاع الأرض بحاجتهم الملحة إلى وسيلة موحدة للتفاهم . وسواء تم هذا عن طريق لغة مصنوعة أو لغة طبيعية ، قديمة أو حديثة لا يهم ، وإنما المهم وجود هذه اللغة والاتفاق عليها بين الناس جميعاً ، كلاماً ونطقاً ، بل كتابة وخطاً أيضاً .

العالم إذن فى مستقبله فى أشد الحاجة إلى لغة عالمية موحدة الأصوات موحدة الألفاظ موحدة التراكيب والأساليب ، وأخيراً موحدة الرموز الخطية .

على أننا لا نحفل كثيراً بوحدة الخط أو الرموز الكتابية فى العالم ، ونتنبأ دائما فيما نعالجه من بحوث باندثار هذه الكتابة الهجائية فى مستقبل الأيام ليحل محلها التسجيل الصوتى ، أو الكتابة التى تقرأ بالأذن لا بالعين .. فمنذ ما يقرب من ثلاثين قرناً استقرت الكتابة الهجائية على الوضع المألوف لنا الآن وهو تخصيص رمز كتابى لكل صوت من أصوات اللغة . ولم يكد يصيبها خلال كل هذا الزمن الطويل تطور يذكر ، فى حين أن نطق الألفاظ قد ناله تغير بعيد المدى ، مما أدى إلى تلك الحال التى نشهدها الآن فى كثير من اللغات الحديثة حين نجد رموزاً تكتب ولا تنطق ، وأصواتاً تنطق ولا تكتب .

وفى العالم الآن أنواع خمسة أساسية للرموز الكتابية : لا تزال تصطنع فى بعض اللغات فتزيد الفرقة بين الشعوب :

١ — الرموز اللاتينية وهى التى تكتب بها معظم لغات أوربا مع لغات أخرى فى العالم ، وأمرها معروف لنا .

٢ — الرموز « السيريلية » وهى التى وضعها اثنان من كبار رجال الدين فى القرن التاسع الميلادى بالقسطنطينية وهما : « سيريل » و « ميثودياس » ونسبت بعد ذلك إلى الأول منهما وحده . وقد استمدا هذه الرموز من الكتابة الإغريقية القديمة مع بعض التعديل والتحوير لتناسب أصوات اللغات السلافية . وتشيع الآن هذه الكتابة بين معظم الشعوب السلافية التى تعتنق المسيحية الشرقية مثل روسيا ، أوكرانيا ، الصرب ، بلغاريا . فى حين أن بولندا وتشيكوسلوفاكيا وكرواتيا تستخدم الرموز اللاتينية برغم أن سكانها من « السلافيين » .

وترتب على هذا أن اللغة السائدة فى يوغوسلافيا وهى « الصربية — الكرواتية » التى تعد فى الحقيقة لغة واحدة ، تكتب فى هذه الدولة بطريقتين : اللاتينية والسيريلية . وتذكرنا بهذه الحال فى « بلجراد » أسماء الشوارع التى تكتب بهاتين الطريقتين ، وكذلك الإعلانات العامة ، بل حتى بعض الصحف القومية .

٣ — الرموز العربية التى تستخدم الآن فى كل البلاد العربية وجهات

أخرى من العالم مثل لغة « الهوسة » فى غرب أفريقيا ، والسواحيلى فى شرقها ، كما تستخدم فى جاوة والملايو وإيران وباكستان وبعض جهات الفيليبين .. إلخ .

٤ ــ الرموز الصينية التى تستخدم فى جمهورية الصين وفى اليابان وكوريا وجهات أخرى من آسيا .

٥ ــ الرموز الديڤانا جاريّة Devanagari وهى الرموز التى كانت اللغة السنسكريتية تكتب بها ، وظلت تستخدم حتى الآن فى اللغة الهندستانية الحديثة . ومعنى الاسم « ديڤاناجاريّة » : المنسوب إلى مدينة الآلهة[١] .

ويصف اللغويون المحدثون هذه الكتابة الهجائية بأنها صورة قاصرة فى تصوير اللغات كما ينطق بها أبناؤها . وقد دعت هذه الحال بعض المصلحين فى كثير من الأمم إلى التفكير فى إصلاح الهجاء أو الإملاء . غير أن كل تلك الحركات الإصلاحية لم تؤت ثمارها وباءت بالفشل . فقد أشفق حتى هؤلاء المصلحون من إعادة طبــع تلك الآلاف من المجلدات التى هى تراث كل لغة بالإملاء الجديد . كذلك خشى أصحاب الدعوة إلى إصلاح الهجاء فى اللغات الأوربية ، بصفة خاصة ، من ابتعاد الألفاظ التى تنتمى إلى أصل واحد بعضها عن بعض ، فيُنسى ذلك الأصل ، ويضل الدارسون فى التعرف عليه .

ويبدو أن من الأسباب التى باعدت بين كتابة الألفاظ ونطقها فى معظم اللغات الأوربية الحديثة أن هذه اللغات قد اتخذت الرموز اللاتينية ، وطبقتها على كلماتها ، فلم تصلح لها صلاحيتها للغة اللاتينية .

وهكذا نرى أن الكتابة الهجائية فى العالم كانت ومازالت وسيلة ناقصة للرمز إلى الألفاظ كما تنطق ، وأنها جمدت فلم تتطور منذ قرون كثيرة ، ولم تعد صالحة لحل كل المشاكل اللغوية بعد أن قطعت الإنسانية ذلك الشوط البعيد من الحضارة ؛ فهى وإن خدمت الفكر الإنسانى فى العصور الماضية ، وهى وإن كانت فى بدء نشأتها قد نُسبت إلى الآلهة ونُظر إليها نظرة تقديس ، قد أصبحت الآن لا تلائم عصر الذرة والمذياع .

(١) The story of language, by Mario Pei. p. 87.

لذلك نتنبأ بمستقبل فيه تُسجل اللغات تسجيلا صوتياً يقرأ بالأذن لا بالعين. وإذا كان المثل الصينى القديم يقول : « إن الحبر مهما كان شاحباً فهو خير من أقوى ذاكرة » . فذلك لأنه لم تكن هناك وسيلة أخرى لحفظ التراث الفكرى زمناً طويلا ، ولأن الاعتماد على العين فى القراءة قد أضعف الذاكرة السمعية ، فلم تعد لها تلك القوة التى رويت لنا عن العرب القدماء أيام الأمية فى شبه الجزيرة .

وليست الكتابة الهجائية فى حقيقة أمرها سوى رمز لما هو نفسه رمز .. فنحن نكتب رموزاً لتوضيح رموز أخرى هى الأصوات التى نسمعها فى أثناء النطق. وأصوات اللغة ليست إلا رموزاً لما يدور فى الأذهان من الدلالات والمعانى التى هى الهدف الحقيقى من كل كلام . فلماذا نتخذ وسيلة إلى وسيلة أخرى إذا كان من الممكن تسجيل تلك الأصوات كما تنطق فوق الأشرطة والأسطوانات ؟

فالكتابة الهجائية بعد اختراع « الراديو » وانتشار الإذاعة والفيلم الناطق بدأت تفقد كثيراً من أهميتها . وأصبحنا الآن نتنبأ بمستقبل للغة فيه يعود للسمع سلطانه . وفيه تمرن الآذن حتى تكون أكثر حساسية وإرهافاً . فتميز بين الفروق الصوتية مهما لطفت . وتنفى من الكلام ما تأباه الأذن ، وما ينبو فى السمع ، وتصير اللغة إلى الموسيقية أو ما يشبه الغناء . وحينئذ يسود أدب الأذن . تلك الأداة الطبيعية التى نشأت اللغات معها . ونمت وازدهرت فى ظلالها آلافاً من السنين فى قديم الزمان . فمصير الثقافة اللغوية العالمية مرهون كله بالإذاعة وانتشارها . والتسجيل الصوتى وشيوعه .

وفى الحديث عن اللغة العالمية تعترض الباحثين مشكلة الكبار من أبناء الشعوب أولئك الذين استقروا على لغة معينة لا يتقنون غيرها ، ولا يقوون على تعلم لغة أخرى .

غير أنا ونحن بصدد مشروع عالمى يهدف إلى سعادة الإنسانية كلها فى المستقبل ، ويكفل لكل الأجيال القادمة وئاماً وسلاماً وأمناً ورخاء ، يجب ألا

نشغل أنفسنا بجيل واحد من الناس . فليكن هذا الجيل هو الضحية أو القربان الذى تقدمه الإنسانية لسعادة الأحفاد ، وسيادة السلام والاطمئنان بينهم .

وهكذا نرى أن الدعوة إلى لغة عالمية قد مرت فى مراحل متعددة ، وقدمت بصددها مقترحات متنوعة ؛ لعل أكثرها قبولا لدى الدارسين ما ينادى به معظم الباحثين من اختيار لغة عالمية يتعلمها الناس جميعاً منذ طفولتهم مع لغاتهم المحلية . أى أن يصبح المرء ثنائى اللغة له لغته التى لقنها منذ ولادته وبين أهله وذويه . ومعها جنباً إلى جنب لغة أخرى عامة يبدأ تعلمها فى دور رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، ويسيطر عليها مع الزمن ، حتى إذا شب وأصبح بحاجة إلى التفاهم مع أبناء بيئة أخرى وجد السبيل ممهداً والاتصال يسيراً .

وتجمع تجارب المربين من المحدثين على أن تدرب الطفل على لغتين أمر ممكن ، بل هين يسير حتى مع متوسطى الذكاء من الأطفال . وكل الذى تحتاج إليه الشعوب لتحقيق هذا صدق العزيمة من جانب الهيئات الحاكمة ومن بيدهم مقاليد الأمور فى الدول المختلفة[1] .

ويجب لضمان نجاح الفكرة العالمية فى اللغة أن تبدأ الدعوة لها بين الشعوب لا على أساس لغة معينة . بل على أساس الاقتناع بالفكرة والتحمس لها . فإذا تم الاقتناع بها وتحمست كل الشعوب لها ، أمكن بعد ذلك التفكير فى اللغة التى يقع عليها الاختيار .

فالاقتراحات مع تعددها مدروسة دراسة وافية ، ولا تتطلب مزيداً من البحث ، وليس على الشعوب إلا اجتماع كلمتهم على تلك اللغة التى يختارونها ؛ ثم تفرض الحكومات تعليمها على الجيل الناشئ من رعاياها على النحو الذى نشهده الآن فى محو الأمية أو قل : مع عزيمة أمضى وجهد أكبر وثقة بالمستقبل .

فإذا تم الاتفاق بين الدول بصرف النظر عن نظمها السياسية والاقتصادية

(١) One language for the world and how to achieve it, by Mario Pei. p. 190.

أمكن أن تؤلف اللجان ذات الصبغة العالمية ، وأن يوكل إليها اختيار تلك اللغة المنشودة ، وتنظيم الخطة التي تكفل تحقيق ذلك الهدف الإنساني النبيل .

ويشهد العالم الحديث وسائل للاتصال بين الشعوب لم يكن يحلم بها من قبل حتى أكثر الناس تفاؤلا في مستقبل الإنسانية . فلم تعد البحار أو الجبال أو الصحارى تحول بين الشعوب ، ولم يعد من الممكن لأحد هذه الشعوب أن ينعزل عن العالم ، أو أن يعيش على الاكتفاء الذاتي . فحتمية الاتصال من أوضح مظاهر العصر الحديث . ولدينا الآن من الطائرات ما يفوق سرعة الصوت ، بل لدينا الإذاعة والتليفزيون وسفن الفضاء وغيرها من وسائل جعلت قول : « الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » أمراً قريب الاحتمال غير بعيد المنال .

وتحاول الشعوب الآن جاهدة زيادة الصلة بينها ، ونجحت حتى الآن في لغة الموسيقى ورموزها العالمية ، فأصبح الموسيقيون في العالم الآن يفهم بعضهم بعضاً في سهولة ويسر . كما نجحت في كثير من مصطلحات العلوم ورموزها ولا سيما في الكيمياء والرياضة . ثم أخيراً تلك المنظمات العالمية كاليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة .

ومع كل هذا لايزال الاتصال مقصوراً ، والتفاهم غير تام ، بسبب ما يعوز الإنسان فوق الأرض من وسيلة يتخاطب بها الناس ، ويعبرون بها لا عن أفكارهم وآرائهم فحسب ، بل عن أحاسيسهم وعواطفهم أيضاً . وتلك هي اللغة العالمية التي تتطلع إليها الإنسانية .

ولا يصح أن ننساق مع بعض المتشائمين من المفكرين الذين يؤكدون لنا استحالة وجود هذه اللغة ، ويرون في أمثلة التاريخ ما يؤيد رأيهم ، وأن لعنة بابل ستظل تلاحق الإنسان في حياته الدنيا إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات . ففي رأيهم أن للغة دورة حتمية تتلخص في أن لهجات اللغة ينشأ بينها صراع ، ثم لا تلبث أن تتغلب إحداها وأن تتكون على أساسها لغة مشتركة تضم شعوباً متعددة] . ثم يصيب الهرم أو الشيخوخة هذه اللغة المشتركة

بعد حين ، فتندثر أو تنحل إلى لهجات متباينة وتعود سيرتها الأولى .

اللغات إذن فى رأيهم تتنازعها الوحدة ثم الفرقة أو الاندثار ، ولن يكتب لإحداها الخلود ، ولن تنتظم إحداها كل مناطق الأرض ، وكل شعوب الأرض ، سواء منها اللغة الطبيعية أو اللغة المصنوعة .

ونحن مع هذا نشعر بميل إلى رأى المتفائلين من المفكرين ، وهم كثيرون منهم اللغوى ومنهم الفيلسوف ومنهم المصلح الاجتماعى . ويؤمن هؤلاء المتفائلون إيماناً عميقاً بأن مصير العالم إلى الوحدة اللغوية ، وأن كل الدلائل فى العصر الحديث تشير إلى هذا . أما ما يتحدث عنه المتشائمون من انحلال اللغة إلى لهجات فيما مضى من عصور التاريخ ، فإنما كان ذلك بسبب انعزال البيئات بعضها عن بعض ، وتلك حال لا يتصور تكرارها فى العصر الحديث . فشبكة الاتصال بين شعوب العالم الآن محكمة الحلقات وثيقة العرى ، ولن يشهد عالم المستقبل ما كان يسمى فى الماضى بالبيئة المنعزلة . إذ تلح الحاجة إلى مزيد من توثيق الصلات بين بنى الإنسان يوماً بعد يوم . وكل الذى يتطلبه تحقيق ذلك الحلم السعيد المتمثل فى لغة عالمية . هو صدق العزيمة من جانب الحاكمين فى كل شعب .

فإذا اتفقت كلمتهم فى منظمة الأمم المتحدة مثلا ، وخلصت نواياهم ، وآمنوا أن كثيراً من شرور الدنيا ومآسيها مبعثه الحقيقى فقدان الوسيلة المشتركة للتفاهم بين الناس جميعاً ؛ أمكن تحقيق ما تصبو إليه الإنسانية .

وأيًّا كانت تلك اللغة العالمية التى ستستقر عليها إرادة الشعوب ، صعبة أو سهلة ، طبيعية أو مصنوعة ، واسعة الانتشا الآن أو ضيقة ، فكل هذه تفاصيل يمكن أن تدرس وأن تكون محل البحث بين مندوبى الشعوب فى هذه المنظمة . والأمر الحاسم فى هذا هو أن يحس حكام الشعوب إحساساً صادقاً أن فى اللغة العالمية خير البشرية وسعادتها ورخاءها .

ومع هذا فليس الأمل فى تحقيق ذلك الحلم السعيد مقضيًّا عليه إذا لم تتفق

الشعوب على أمر معين ، أو لم يهتدوا بإرادتهم إلى تلك اللغة المنشودة، فسيكفل التاريخ تحقيق ذلك ، وإن كان فى شكل أبطأ ، وفى زمن أطول .

ويتنبأ بعض المحدثين من اللغويين بأن الصراع القائم الآن بين الكتلتين الشرقية والغربية سينتهى حتماً إلى انتصار إحداهما : وستفرض الكتلة المنتصرة لغتها على العالم لتصبح اللغة العالمية للناس جميعاً [١] .

ولكنا فى تفاؤلنا لا نذهب الى مثل هذا الرأى ، ولا نقتنع به ، بل نتخذ من التطور التاريخى للإنسانية ، نبراساً يهدينا إلى مستقبلها أو نستشف منه مصيرها .

ومتى سلمنا بأن النظام القبلى فى تاريخ البشرية لم يكن إلا امتداداً لنظام الأسرة ، وأن نشأة الدول لم تقم إلا على أساس ذلك النظام القبلى ، فليس من الشطط فى التفكير أو الإسراف فى التفاؤل أن نتصور أن الدائرة تتسع مع الزمن ، وأن نظاما عالمياً يقوم على أساس المدن والقرى ، ويكون امتداداً للدول ونظمها الحاضرة .

فإذا تحقق هذا وأصبح للعالم نظام سياسى واجتماعى موحد ، نشأت تلك اللغة العالمية من حيث ندرى ولا ندرى ، وبلغت الإنسانية أقصى ما تصبو إليه .

* * *

One language for the world and how to achieve it, by Mario Pei. p. 210. (١)

الفهرس

صفحة

صفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠